

سوانح

هانيء الرهيب

عن الله وكتابه



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

هاينك الزاقي

ألف ليلة وليلة

رواية

جميع حقوق الطبع محفوظة

ان اختلاط الأزمنة في الرواية مقصود به الإشارة الى استمرار
عالم ألف ليلة وليلة العربي خلال ألف سنة وسنة، وان هذا الاستمرار
بلغ ذروته عام ١٩٦٧ عبر هزيمة حضارية أزاحت العرب عن طرف
الزمن ووضعتهم في الليلة الثانية بعد الألف : وهذا الزمن الجديد
الذي تنتهي الرواية ببدايته سيكون سداة رواية قادمة •

في زمن ما يفيقون • كل بحسب أجله •

يقول عباس : « يا الهي ! رصاصة طائشة رأيت فيها وجه الموت » • يقول
نواف : « رؤية فقط ؟ أنا صارع الموت طيلة ثلاثة أشهر • خمسة عشر ألف
ليرة • أخوات الداشرة • لو أنهم يصرفون المال لقهر السرطان بدلا من تبذيرها
على النابالم والقمر » •

كانوا قد تجمعوا بين جدران ضيقة فتحت نوافذها الى الحد الاقصى •
غاصوا في كنبات وثيرة والعرق ينز من جلودهم •

يتحسس عباس جرحا ملتئما شق فيما مضى نصف الدائرة من بطنه •
يجثم علي فوق كرسي الخيزران متكورا متقوسا • تتجلد أمية مضمومة الساقين
والركبتين طلبا للحشمة • يغير نواف من جلسته •

في بيروت بكت الممرضة وقد أيقنت أن الطب عاجز • صاحت صيحة مفجوعة :
أما من أحد يرد عنها الموت ؟ اخترقتها عينا نواف الجامدتان دون أن تريها :
لقد انتهى كل شيء • في الليل أفاقت العليلة لتستبدل ملابسها ، فأصابها البرد
والردى •

تدخل عائدة رزينة باسمه • تمسح بالمنديل عرق جيدها • يهب نسيم
مفاجيء ، يهبث بشعرات النحاس على ظهر أمية ويحملها الى الصدر الصغير •
لذلك تضطرب هي • يتحرك بؤبؤا عينيها • ينفك التفاف الساعدين حول

الوسط • يستقر الساعدان على ذراع الكنية • ينظر عباس الى مكان جرحه •
يتحسسه من فوق الثياب •

منذ تسعة أشهر أسرع رصاصة المسدس الى اختراق الحيز الضيق بين
ضلعي عباس وعبرت خطأ دمويا فوق المعدة وتحت الكلية لتخرج من المعز •
قال الطبيب لكأن شرطيا كان يوجهها لثلا تمزق الاحشاء • عندما أوصل الى
المشفى تجمعت في جوفه ثلاثة لترات من الدم وأسلمته لغيوبة الموت • بالمصادفة
حدث كل شيء • مات وعاد الى الزمن • في الليل أفاق ، وعلم أنه استبدل
حياة بحياة •

يقول نواف : « أنت تعيش حياة ما بعد الموت • ماذا تظن ؟ أليست
الصدفة مربعة ؟ » يقول عباس : « لو أن كل انسان ينتبه • » « الآن سوف
سوف تترك الاشياء الكبيرة هذه • ستون جهنما على كل شيء • » « ولمن تترك
البلد ؟ للاوغاد والجواسيس والرجعيين ؟ » « الرجعية ما تزال أقوى من
الجميع • » « الرجعية ؟ نشفت عروقها • أنت تتكلم عن طبقة تبدل في عروقها
الدم فصار قيحا • » « أنا شخصا لم تعد تقنعني دعاوى البشر كلهم • الافكار
والفلسفات •• كلها للهرب من الزمن والموت • لا شيء يستحق الاسف وضياع
الوقت • تمتع بحياتك قبل أن تموت • »

تقول عائدة : « لماذا لا تقصين شعرك ؟ دارج قص الشعر • ومريح من
مئة باب • » تقول أمية : « لا يسمح لي • يقول أحلى هكذا • أنا لا أحبه •
نواف لا يقبل • » « الرجال كلهم يحبون الشعر الطويل ولا يقبلون اذا قصته
نساؤهم • سبحان الله متكم أنتم الرجال • تفرضون مزاجكم علينا كأنه لا يحق
لنا أن نرى أنفسنا مثلما نريد • » « لا أعرف • أنت تحبينه قصيرا ؟ » « طبعا !
تصوري كم أروح ، وأسهل في الحمام والتمشيظ وشغل البيت ومئة وجه • »

وكانوا قد أكلوا الفواكه من صحن بلور مستفيض • تبادلوا التعليقات
المازحة اللازمة اذ رفض نواف استعمال السكين : قضية أولى وثانية ، هوت
بعدهما التفاحة الى جوفه ، ومسح السائل عن شفثيه بمتديل ورقي • أقسمت
عائدة فتناولت أمية خصلة عنب • انتقى عباس أضخم دراقة : « كرمى لي • »
وتناولت أمية الدراقة •

تعبر نظرة من عباس بوجه أمية السادر المنصت • تتجول عيناها بين
جدران الغرفة • يعود وجهها الى صمته • يعتم نقاؤه في الظل • تسكن القامة
الناحلة • تتدلى الاصابع على منحدر الكنبه • وتتدلى نحو الافق شمس العصر
الساطعة • مستترا ، يرسل عباس ابتسامة الى الوجه الطفل • مستترا ، يستقبل
ردا عليها •

يقول نواف : « أمية طفلة • سحبتها من المدرسة • • من الكفاءة • الآن
عمرها اثنان وعشرون • • /وقف على الرصيف الآخر طويلا فسيح الصدر
ضخم العظام / عندما رآته تراخت مفاصلها / تأبطت ذراعي ليلى ولمياء / استدرن
الى جهة أخرى ومشين / غدا سوف ينزع عنها سربال المدرسة ويحملها بذراعيه
الى رياض العالم / قالت أمها جاء نواف ليراك فاخترت في المطبخ ونحبت نحيبا
شديدا ارتجفت من قمة رأسها الى أخمص قدميها وأمسكت بالصنبور لئلا تقع /
فجأة سمعت أزيز طائرة في الجو وراته يحوم فوق البيت وكيف سيعرف هذا
البيت الطيني الحقير لكنه كان يعرفه /

تدخل عائدة وهي تسحب كتلة جسمها كأوزة داجنة • يشفط نواف رشفة
من فنجان قهوته • يطلق آهة قصيرة • يشعل سيجارة ويطلق دخانها نحو
السقف • يقول عباس : « أنت غلطان • الحكم بيدنا الآن ، فما الذي يمنعنا
من صنع الثورة ؟ أي قوة تستطيع أن ترفع رأسها بوجهنا ؟ عليك أن تحمل

سلاحك وتقاتل • نحن لا نعرف متى يخطفنا الموت • بعد اصابتني صرت أكره
الاسئلة • ولكن عليّ أن أقاتل • « تقول عائدة : « ألن تبصّري لي بالفنجان ؟
هيا ، خذي فنجانني • « تفمغم أمية : « أنا لا أعرف • أنت تعرفين ؟ » « نتعلم ،
طالما نحن جيران • أنت تبصّرين لي وأنا أبصّر لك ، ونرى ما الذي خبّاه
لنا الله • « « تؤمنين بحسابات القهوة ؟ كلها زعبرة • « « يا الله ! نتسلى •
ألا تسمعين حديثهم عن الموت ؟ أفزعونا • « « أي والله • لكن فنجان القهوة
لا يرد الموت • « »

يقول علي بقحة : « ما دمت حزينا لفقدان المرحومة الى هذا الحد ، لماذا
تزوجت ؟ » يقول نواف رابط الجاش : « لأجل هؤلاء الاطفال ، تيتموا
ويحتاجون لمن تعتنى بهم • « ويتخيل رصاصة تخرج من مسدسه الى رأس علي
ثقيل الدم •

ثم يسترخون بانتظار جفاف البن في الفناجين الضيقة الجدران : داخل
هذه الاشياء الخزفية يكمن المصير • وكيف لا تكون حياتهم رائعة ، وقد عبروا
بحر ظلمات الغيب على ظهر خطوط وبقع يرسمها البن ؟

وراء بحر الظلمات يجلس الرئيس جونسون ماذا ساقيه الكاوبويتين على
الطاولة • منذ ساعات طويلة استيقظ • وها هو الآن يتشاءب • يقول لجلسائه
اللطيفين وسبابته تبرم خارطة مجسمة مثبتة على حامل : « يمكننا الآن أن
نخرج انقلابا عسكريا مسلحيا ببضع رصاصات وحفنة من الدولارات •

يصيح شيش بيش بدون تشاؤب : « أنت جاسوس • عميل مباشر للمخابرات
الاميركية • أنت مثل من يعطي للصوص سرق قميصه ايصالا بشرعية امتلاكه
للقميص • « يقول سليمان ، نصف مخدول ولكن مصمما : « اللصوص سرق
القميص يا ابن القحبة ، وأنت لا تستطيع استرداده • نحن ننفق سبعين بالمئة

لأجل حرب لا تقوم • « يقول علي دون أن ينظر اليهم : « اسمعوا يا أفندية •
رجاء ، لا تحولوا نقاشكم الى داحس وغبراء • »

عند حلول الظلام جاؤوا وتمددوا على الكراسي الجلدية • الطاولة أمامهم
مستطيل مجلل بكؤوس الخمر • المساء النافر بوجه المصابيح المنيرة يتدفق في
الفضاء الأغبر ، يلمس أبصارهم كمارد اعتمر طاقيه الاخفاء : عبر ثناياه
تمضي عيونهم نائمة ومفتوحة ، تمضي وتعود • في الصمت الغفل تولد كلماتهم
وتموت ، تحضر اليهم الاشياء محمولة على رمل الخاطر • وبين اللحظات
يبدلون نوع جلوسهم واتكائهم • يحتسون مزيج العرق الابيض ، وبعضهم
يوحون مستطيبا مذاق المزيج البرود •

يقبل شيش بيش عائدا من دورة المياه وهو يمسح أنفه • ينبر كرسيها
ويسقط عليه • يشتم جلوس رفاقه الكليل ويطلب اليهم أن يكفوا عن كونهم
جيفا وينطلقوا لتحرير فلسطين • يلوي رأسه الى الخلف ويصيح : « أين كأسى
يا أبو نادر ؟ » ويلتفت : « لو توجد كتلة عربية واحدة تريد أن تحرر سيحارب
معها الشعب جائعا عاريا • » يقول سليمان : « أنت تحلم بطريقة ديماغوجية •
أنت تنسى أن أمريكا لا تبتهج كثيرا بحروب التحرير • » يصيح شيش بيش :
« أميركا ؟ ومن قال لك أنني سألان عن أميركا ؟ » يصرخ الملك : « أنتم نسيتم
شيئا يا أولاد الزانية • نسيتم أنكم قمل • أنتم لا تملكون الحرب ولا الثورة •
الابراج هي التي تملكها • »

يتابعون تقدم امرأة أطلت من يمين الرصيف وألقت عليهم عناء جديدا •
كل شيء فيها جميل ومستطاب • ينقر بعضهم على الطاولة • بعضهم يرفع
الكؤوس ويشرب بلا تعابير • يقول علي : « هذه لشيش بيش • » يعترض
شيش بيش : « مؤخرتها أضخم قليلا مما أريد • » يؤكد علي : « هذه تماما

ذوقك الجمالي ، أو الجنسي بالاحرى • « أنا لست ضدها • اعترضت فقط
لأسجل موقفا • أنتم تسيئون الى سمعتي » •

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف المعمد
/لو تتقدم من الشباك وتفتحه ليتدفق النور محمولا على نسيم قوي يجعل
الستارة تخفق والاندساس تحت اللحاف أمتع وأكثر دعوة/ورمت ثيابها قطعة
قطعة وأقبلت اليه وكان جسده منشدا فأخذت يده ووجهه تجتاح كثرانها
ووديانها وأجواءها وتفرك جلدتها وتطويه/وامتد عليها فشهقت وجدا وشهق
على اثرها •

يقول سليمان : « أنرت انفعالي وحياتك كلها قائمة على وهم • وهم أنك
مناضل أو فهمان ، أو ابن آدم • وأنت فقاعة صابون • » يهمهم شيش بيش :
« يوم كانت شرطة أديب الشيشكلي تطاردنا أين كنت أنت ، سيد سليمان
الفار ؟ » يقول علي دون أن ينظر اليهما : « من فضلكم اخرجوا ، أنتم الاثنين • »
يقول سليمان : « كنت أفكر في المعتوهين أمثالك الذين يرفضون الاعتراف
بتخلفهم عن مسيرة التاريخ • » « أرى الغبار غطى على قفاك لكثرة ما ركضت
وراء التاريخ • » ينبر الملك : « دقيقة صمت واحدة يا أولاد الزانية ، حدادا
على روح الزمن التي تقتلونها • » يقول شيش بيش : « أنت غارق في مستنقع
الخلاص الفردي ، هذا هو كل شيء • » يصرخ الملك : « يلعنك ويلعن
خلاصك • » يزيح كرسيه • يدفع بالطاولة فتميل نحو علي • تترنح الكؤوس
والزجاجات ويندلق الخمر • تنزلق الصحون وتهوي • يقفتر علي بعيدا
وينادهم • يمضي بارد العينين ، مضاء الخاطر بنور أسود •

قيس بن زهير صاحب داحس تراهن هو وحذيفة بن بدر على عشرين بعيرا
وجملا إغاية مئة غلوة • فوضعت بنو فزارة رهط حذيفة كميناً في الطريق

فردوا داحسا ولطموه في الطريق ، وكان سابقا ، فهاجت الحرب بين عبس
وذبيان أربعين سنة .

يسقط في الليل ووحشة العالم المحايد . يشعل سيجارة ويمضي بحذاء
الاشجار الصامتة والبشر الصامتين . يشاهد أقدام الرجل الابيض تنخب على
تراب بلاده المديد محتمية بأيام العرب ومسررات الخليفة . يتحسس وقعا مكنونا
لانهيار لا يراه أحد . وراءه يهمهم شيش بيش : « أما كان أحسن يا صاحب
الجلالة لو أنك قلبت وجهك بدلا من الطاولة ووفرت علينا خمسين ليرة ؟/ قال
مؤخرتها ضخمة قال/ فليحفر قبره في كثبان عالج/ ليس غير الملك من يعرف
قيمة اللحم المكنون الصلب/ يقترح سليمان : « مقروض أن نختار بسرعة ،
السينما أو أم تحسين . » يقول الملك : « سينما ؟ الساعة الآن الحادية عشرة .
أم تحسين . سيأتي الاشخاص أنفسهم الذين قشطونا أموالنا الاسبوع
الماضي » .

عائدة : ساعدان معقودان تحت الصدر ، جذع منتصب ، رأس مستدير
الى اليمين ، نظرة جامدة على البلاط . يسألها عباس ماذا حدث فلا تجيب .
يعيد السؤال ، ثم يعيده . « لا شيء » . « ولماذا يبدو وجه حضرتك على هذه
الصورة ؟ » « وجهي بشع ومقرف . شيء غير وجوه العاهرات الواقفات على
الشرفة . » « ماذا تقصدين ، سيادتك ؟ » « لا شيء » . « أفهم أنك تقصدين
جيراننا في البناية تلك ؟ » « لا تفهم شيئا . حسرتي فقط على أب لأربعة
أطفال لا يستحي من تدبيل عينيه لعاهرة . . أنا لست أجيرة في البيت . لم
أعد أحتمل . تهدمت صحتي في المسح والفسل والجلي والطبخ وووو . » « سوف
تمزق هذا العمر الشقي ضربات سكين التفاهة وصغر النفس . الرجال الذين
أرادوا منذ الطفولة أن يضمنوا شيئا عظيما تقولوا أخيرا كالأحذية وامتصتهم

الالتزامات • ان تاريخا جديدا يقد الى البشرية ، ونحن هنا مطروحون على أرض الحياة اليومية كخيوط العنكبوت • يجب أن نبتز هذا السرطان بالطلاق • ويسقط رأس عائدة على نحرها بعويل طويل •

تقرير صحيفة أسبوعية :

— « التبعية والبؤس هما الكلمتان اللتان يسهما وصف البيرو • الشركات الاجنبية تسيطر على مجمل القطاع المنجمي تقريبا • وعلى معظم انتاج السكر والصيد البحري ، وعلى تسويق القطن والبن وعلى ٩٠ بالمائة من وسائل النقل وعلى أكثر من ٩٥ بالمائة من انتاج النفط وتكريره وتسويقه • وعلى أربعة من المصارف الستة الكبرى وعلى شركات التأمين المرتبطة بها • وعلى ٧٠ بالمائة من رأسمال ١٧٠ مجموعة صناعية لها بعض الاهمية • • • وربما استطاع رقم واحد أن يدل على حجم هذا النهب : بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ وظفت الاحتكارات الاميركية ٥٨ مليونا من الدولارات وحصلت منها ١٤٧ مليونا •

« أما البؤس ، فإن تحقيقا أجري عام ١٩٦٣ يقدم عناصر لتقييمه : في ذلك العام الذي لم يكن أسوأ من سواه ، على الصعيد الاقتصادي ، كان يموت طفل عمره أقل من سنة كل عشر دقائق ، بسبب مرض قابل للشفاء في الغالب • وفي ليما ، وهي مدينة ذات امتياز بالقياس الى الداخل ، كان اثنان بالمائة فقط من الاطفال يتناولون الحليب • وقد أظهر تحقيق حديث هذا العام وجود أكثر من أربعمئة ألف طفل متخلف عقليا و ٢٥٠ ألف من مدمني الكحول ومليون من مدمني الكوكا • • »

« تضاف الى ذلك نسبة رهيبة من الامية ومن البطالة وشبه البطالة وثقافة سبقت بعد أن عمّرت آلاف السنين • »

« أما قاعدة هذا النظام فتتشكل من ملاكي الارض والشركات الاجنبية وضباط الجيش • وكانت تحرسها بركة « التحالف من أجل السلام » وهي الصيغة التي أرساها جون كينيدي للسيطرة على أميركا اللاتينية • »

تتحول الحياة الى-أرقام : خمس ، عشر ، ثلاث عشرة ، عشرون بعد المئة • تأتي الكلمة الحاسمة : صولد • ويعقبها الصمت العصبي ، حسوات المرق واقتسام النقود • يستأنفون التوزيع • تصمت سرائرهم ، يتغلغل الليل في أجسادهم ، والخمر والدخان • تتسع أمام أعينهم طاولات اللعب كمجرة طرزتها الارقام والصور • فوق رؤوسهم يتدلى مصباح الكهرباء ، وينعقد الدخان والجأ بعضه في بعض متكاثفا حتى ليفدو قواما صلبا • تحت مظلته تشحب ملامحهم وتتقلص ، تنحل الاصوات والكلمات • وبين جدران أربعة ، حيث يسقط الفضاء ويمحي المدى ، يلتصقون بكراسيهم الخشبية ، كل على النحو الذي يهيئ مسامه وخلاياه لدورة الورق الأصم • شيئا فشيئا تختفي دعابات شيش بيش وزمجرات الملك ، تختفي تحت طمي من الصمت الهزيل • يتكور الملك على كرسيه مطرقا عاقد الجبين • ينكمش علي وقد أخرجته الليرات القليلة التي ربحها • يتحرك بؤبؤا سليمان الكسولان المتخفزان : من معجريهما تمتلكان الطاولة والورق والغيب المصنوع بأنامل عمياء • يتكئ شيش بيش على مسند الكرسي المخلع ، ينقر بأصابعه على اللوحة الجلدية وبقدمه على الارض • يصفر • يمد رقبتة نحو أوراق الآخرين • ينقر ويصفر ويمد ويحسو ويتفحص • والى يمين الزمن الهارب بالمال والعافية يسددون سهم أمل مجنح بلعظة كسب قادمة ، أن تندرج الارقام والصور تحت الاسماء الراحبة • يراوغون قلقهم الأبتى بالاهتمامات العابرة وبالرجاء ، يفرغونه في شحنة صمت • يتوهمون ويخيل اليهم • تربض في أعينهم الخمرة والأرق • يتوجسون

من الغد المقبل حاملا معه عطية الامل ، ويتمنون لو يصير الزمن الى ليل
لا صباح بعده .

ومع التراتيل الاولى لصلاة الفجر يتقطع حيل الكلمات وتنفذ أحاسيسهم
الآدمية . يستلقون على كراسيهم كحبات رمل محكومة بالعزلة في مدينة الرمل .
والمساحة ضيقة وشاسعة ، تلتطم فيها المناكب وتتلاقى العيون وتتصافح الايدي ،
وكل عالق بين الخيطين الابيض والاسود في رحلة غربة مختومة بنخاتم سليمان .

يسير علي مرتكسا معتكر الفؤاد . يتوغل في الليل والشوارع . تتسلل اليه
سكينة الرmq الاخير من الليل وتسربله . الضوء المنبثق من واجهة فرن عريضة
تنير أمام عينيه أرغفة الخبز المولودة من صلب النار : من بين جميع الافلاك
والمجرات تدور هذه الكرة الصغيرة كل يوم وكل عام حاملة معها الحياة والثمار
الى ما لا نهاية . ولماذا لا يكون الانسان سعيدا وبين يديه هذا الخير والجمال ؟
يخلف وراءه الضوء فتعود اليه الاشجار وروائح الياسمين . تصافحه البيوت
الجميلة وطعم دمشق ، الهواء وتراتيل المآذن وأبراج السماء القصية . على
غير توقع يرى أمامه الحي الذي يسكن فيه : شارع ضيق يفصل السوق وبيوت
الطين والأزقة الفبراء عن العمارات والجنائن المنزلية وموجهات التلفزيون .
يسمع أصوات تسبّح وتتلاشى في رحاب الكون .

في بهمة الليل شاهد الخليفة امرأة تحرك محتويات قدر يتصاعد منها
البخار ، وأطفالها الثلاثة يبكون حولها . « لماذا يبكي أطفالك يا امرأة ؟ »
سألها . « جوعا ، » قالت ولم تلتفت . « وما الذي في قدرك هذا ؟ » « حجارة
وماء . » وصرخ الخليفة بصوت عظيم : « ويل لعمر من امرأة كهذه يوم
القيامة . »

في المدخل يلوح جسدا ممتددا • ينتبه بسرعة الى حمار ابيض مربوط
الى دولابين توازيا حول برميل قمامة • يستدير نحو الشاب الغافي : جسم
تمدد على قطعتي كرتون كبيرتين ، ورأس أشعث الشعر التصق خده ببلاط
العتبة • ليس تحته فراش ولا فوقه لحاف : قميص وبنطال مرقع وقدمان اختفتا
تحت مكنسة • يدخل علي محاذرا • يجلس على الدرجة الثانية وراء قدمي
الشاب • يتكئ على ركبتيه ، وبينهما تتهدل يداه •

يقترّب الفجر من المدينة ويهبط الى أعالي الدور • تتوقف الترتيلات تاركة
صمتا موحشا • يرى علي الى أزهار الياسمين في حديقة جيرانه والحمار الابيض
الجاثم في منتصف الشارع • آنئذ تشق السكون زقزقة حادة غزيرة تفيض من
عصافير الدوري الهاجعة في الشجر • يتذكر علي اللغو الحاد الفزير في المطعم
والشارع والمقبرة • أخيرا ينهق الحمار الابيض ثابتا في وقفته الشجية •
ينتفض الكناس من مرقد • يتحسس شعره بيده ، واذا يرى عليا يبتسم :
« مساء • • صباح الخير ، أستاذ • » يحييه بمودة هادئة • يراقبه وهو ينهض
ويجمع قطعتي فراشه الكرتوني • يسأله : « ألم تبرد ؟ » يقول : « الدنيا
صيف • » يتكئ بيديه على المكنسة • يسترخي جسداهما المتعبان وتلتقي
أعينهما الساهرة • يبتسمان ، يتشاءبان ، يفكران ، يبدوان حريصين على
استمرار اللقاء الودود ، لكنهما لا يجدان حاجة الى نسج الكلمات المسموعة •
ستحيل العبارة هذا الوداد الى حزن مبغمي ، صور محترقة • هؤلاء سكان
السوق ، يصحون عندما ينام الناس ، وينامون عندما نور الله يضيء على عباده •
وهؤلاء أبناء الزمن المنسي • بهارات وتوابل على طبخة فسدت • يضعون
ربطات العنق كما توضع الأرسان حول رؤوس الحمير ، لكنهم ليسوا من كناسة
الشوارع • وقال جبلة بن الأيهم : « يا أمير المؤمنين ، اتقضي بيتنا وأنا ملك
وهو سوقة ؟ » فقال عمر : « لقد ساوى بينكما الاسلام » •

« وجاء في القرار الظني أن المغدورة زينب لم تكن منسجمة مع عريسها ، فحاولت المستحيل لتحاكي الاختلاء به أو التحدث اليه ، مما جعله يثور ويظن بها الظنون ويتصل بذويها مهددا متوعدا ومتهما اياها بخيانتة . ويظهر أن تدمير الزوج وجد قبولا في نفسية أخي الزوجة غالب الذي حقد على شقيقته ظلما منه أنها انحرفت عن الطريق القويم وأنها تعاشر بعض الاشخاص . ويوم الحادث رافقت زينب زوجها الى مغارة جميتا وكانا على وفاق . وفي طريق العودة طلبت اليه أن يعرجا على منزل ذويها لزيارتهم فوافق ، وعند وصولهما أرادت زينب الدخول من الباب وما ان شاهدها شقيقها حتى فقد أعصابه فتناول مسدسه الحربي وأطلق عليها النار فأصابها بعدة رصاصات كانت كافية للمقضاء عليها ، ثم استسلم لرجال الامن حيث تبين له فيما بعد أن شقيقته كانت عذراء » .

« قلت لك لا تعذبي روحك . . أخبريني من هو عشيقك أو اختاري بأي المسدسين تموتين . » « نواف ، كرمي للنبي . ما عاد بوسعي الوقوف على قدمي . أبوس حذاءك ، أنا أموت من البرد . قميصي وجسمي يقطران ماء . رأسي تورم . اتركني أغير قميصي على الاقل . » « تعرفين أنهما كاتمان للصوت ، وأية رصاصة منهما تكفي لنشر دماغك على الجدار . » « آه يا ربي ! ألا تكفي خمس ساعات ؟ » « من هو عشيقك ؟ » « من أين يجيئني العشاق والشبابيك مفلقة ليل نهار ؟ » « كان مفتوحا ورأيت من الطائفة . » « هذه غرفة ابنتيك ، نواف . محبة بالله ، قتلها لك مئة مرة . » ينهض اليها . يرفعها ككتلة من عجين ويلصقها بالجدار . تمسك يداها بكتفيه ويتهدل رأسها . يتحد قوله بالفعل على نحو لم تأت به نبوءة فنجان القهوة : « تكلمي . » صفعه . « ما اسمه ؟ » صفعه . « من أين تأتيك النقود ؟ » صفعه . « من اشترى لك الفستان ؟ » صفعه . « أين تلتقيان ؟ » صفعه . أخيرا تنكفيء فوق ذراعه

متأرجحة اليدين • يمددها على الطاولة • قبل أن يستدير يشده منظر فخذيها
وقد انحسر عنهما القميص • يقف • يفتلي في صدغيه بخار حار خفي • تمشي
نظرتة فترتطم بالشدي : من فتحة القميص نفر مضغوطا بالساعد الهامد •
« بنت الحرام ، » يفمغم وهو يتجه الى المفصلة ، هائجا ولكن متماسكا • يملأ
جردلا بالماء ويعود • يفرغ الماء على الرأس والشدين والفخذين • يتنفث
هياجه • تفيق أمية للمرة الثالثة •

كذلك تفيق أم خلف • تلبس عباؤها وملاءتها وتقصد البهو • يسألها
علي : « أيقظتك ؟ » تدس أصابعها في شعره الأشعث : « لا • هذه العصافير •
أنت عصفور ؟ » يبتسم محرجا ومفتبطا • « ألن تترك عادة السهر هذه وترحم
صحتك ؟ » « وقت تدلينني على عروس حلوة • » « نم الآن ، وستبوس يدي
بعدئذ وتقول : بارك الله فيك يا أم خلف • نم الآن • وسنذهب الى المنجد
بعد الظهر • » يمضي الى غرفته ، وتتجه هي الى المطبخ • تتوضأ • تعود الى
البهو • تمد حصيرا عتيقة ، تقف ، ترفع يديها حول أذنيها ، وتقرأ من الذاكرة •
والقرآن صوت من ضوء يجلو خاطرها المخمر بفشاء النوم ، يفتح نفسها للفجر
القادم من وراء الصحراء • والذاكرة وعاء • تنحني ، تركع ، تسجد وتقرأ •
تسلم الى اليمين ، وتسلم الى اليسار فترى أشجار الزيتون المتقصفة في حقل
أبي مروان الصغير/فقال يورام أهارون جثنا نبلفكم أن هذه التلة ومنحدراتها
حتى وادي الأقطم صارت ملكا لنا وهذا هو عقد البيع/مطلوب منكم أن ترحلوا
الى مكان آخر/فقال أبو خلف من باعها لكم/قال يورام الآغا فتح الله ترخان
باعها لنا وهذا هو ختم ولاية بيروت فالبيع تم في بيروت/وعلى سفح التلة تمدد
أبو خلف وخلف ورفاقهما وقد اختلطت الدماء بعضها ببعض وبالتراب/أبي
أبي أخي ومن بعيد وقف يورام ورفاقه وبأيديهم بواريد لامعة أبي أخي وكان
منظر الدم مروعا وطعمه منفرا وفيما الايدي ترفعها عن الجثث نظرت الى

يورام نظرة مختلفة أيقظتها من حلم طويل لتريها كابوسا حقيقيا/وشدوا على يديها وجذعها ليمنعوها من الرجفان ولكن كم كان وهما كبيرا ذلك الاستيقاظ/كانت نهاية النوم الحقيقية بعد عشرين عاما/يا للمدة الطويلة / يومها لم يقل لها يورام ولا غيره من البشر مطلوب منكم أن ترحلوا الى مكان آخر فالجليل كلها صارت لنا/البواريد والمدافع تكفلت بالكلام وكانت هي عقد البيع الجديد/آه ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون غفرانك يا رب لو أنهم فقط تركوا لها زوجها أبا خلف أيضا/أو فقط شيئا من جثته / لكان أفضل لو أنها رمت هذا الجسد الفاني ليزوب ويختفي في النيران معه ومع الاهالي والبيوت ويسلم خلف القرية بأجمعها ومحمود الصغير يصرخ والقرية تصرخ والجليل يصرخ والعالم يصرخ والعالم كابوس/تركع وتغمر وجهها بيديها كمن لا تريد أن ترى . تتنهد بعمق ، تشدد عضلات وجهها لئلا ينز منها الدمع . تقيم الصلاة من جديد .

يهبط الفجر على قنة قاسيون ، يحبو نحو سفوحه . نجمة الصبح تشع وتنتظر الصبح لكي تختفي . عينا أقدم مدينة في العالم ما تزالان مكحلتين ببقايا الليل . تحت جفنيهما تدب يقظة كسول وترسم الصور . الشوارع الفيحاء تتعري للضوء المقبل ، ورؤوس أشجارها تهتز كالذوائب أمام هبوب الهواء . يتمن الملك في ما حوله من أشياء الكون ويغمر وجهه بيديه : يا لهذا الكابوس الذي لا ينتهي . سوف يراها مستيقظة ولابسة ثياب الخروج . لا يفهم لماذا تقيم له هذه الطقوس . فوق هذا تستقبله بانحناء عميقة تليق بملك حقيقي ، وهو المضروب على أم رأسه بسياط مصنوعة من ابر الاسكافيين . يمشي على الرصيف الترابي صعدا باتجاه البيت . وقد يخطر لها فتربط حول خصرها شالا وفي الدقائق الخمس التالية تتمايل برقصة هز البطن ثم تفرد أصابعها على كشحيها وتسال : هل أعجبت مولاي جاريته الحقيرة الشأن . ينظر الي

بساتين الغوطة الموصولة بالافق • أو قد تسأل : كيف كانت محظية الليلة
يا صاحب الجلالة • يتلمس جيب سترته ويتنهد : لا سجائر ولا نقود • أو :
هل جدت بما في بيت مال أطفالنا على أم تحسين وزبائنها • يتطلع الى حيث
يختفي بيته بين البيوت البعيدة • أو : هل يأمرني مولاي فأنضوه من ثيابه
وأغسل قدميه ليرتاح من وعشاء السهر • فجأة ينعطف نحو اليمين ويمشي نحو
الحقل الصغير العاري باتجاه الشرق • الشرق القديم الدائع بقدمه المتدروش
بشعاع الشمس المهترىء في الزمن المسنخس بحريمه الكبير بموائده المستنقع
صبابة الجاف ريحا المسوس عقلا الصدىء سيفا المثلوم كرامة المهدور انسانية
المتشقق المتعفن المتهدل المسوخ المنخوس المعقور المبهور المهجن الخلاسي •
يمضي قدما ، يتغلغل بين الاشجار ، يبلغ اخدودا طويلا غطته أوراق الجوز •
ينظر الى اليوم الطالع من وراء الصحراء ويتمتم ببطاء : ما لنا كلنا مفلول
بشيء حدث في الماضي • يرمي حافظة أوراقه ، يرتمي ويوسد رأسه عليها •

تشرق الشمس : يغفو الملك •

استيقظت دمشق ونامت • استيقظ الغبار ونامت الحساسة • صهلت
عروق وحشرجت نفوس • استيقظت اللغة ونامت أوراق الجوز • ولعت الشمس
على صلعة قاسيون •

في شارع الصالحية يمشي عباس للمرة الاولى منذ شهور • تزدهم في جبهته
الانفعالات كأعشاب برية • الحوانيت القديمة ، الصبايا الدمشقيات ، السر
الهادىء المكنون في قلب الضجيج وفوضى المرور ، وجميع دمشق • دمشق -
المستلقية على حضن الجبل وقدميه كفتاة تدثرت بأحلامها المثيرة الخفية •
لأمر ما لم يدركه ، يتوقف عند (البوابة) مستسلما لدهشة نجلام • ها هي ذي
دمشق أميرة وأسيرة ، نسيج متقاطع من كريستيان ديور وتكية السلطان سليم ،

من جنائن الغوطة ورمال الصحراء • ها هنا تحتشد الرغبات في النفس الجائشة
وتموج في حيرة التحرك : وجوه مهمومة وبغير هم ، مقروء عليها إحدى آيتين
أو كلاهما : الشقاء والكذب ، ترسل أعينها في كل اتجاه تصيدا لمصادفة قادمة
أو حدث يثوي في طية الغيب • نفوس تتجمهر على الرصيف والشارع بأمنية
متشردة لا تعرف موضوعها ، تسرف في الصبوة والارتقاء ، وتمرج بالقلق
والشبق • ساق جميلة هنا ، وعينان حوراوان هناك ، لفيف من الاصدقاء
وصعوف متموجة من السيارات والرؤوس • عند الغروب يهم بعباس ذلك
الشوق الغامض الى دمشق : أية معشوقة مدينة الدم المنشق هذه ؟ في إحدى
أساطير الآراميين قرأ مرة أنها أخذت اسمها من معركة ضد الغزاة شق الدم
فيها طريقه نحو الصدور والوجوه • في أية زاوية كمنت طيلة سنوات ، وهو
يراها الآن تاريخا وابنة للتاريخ ؟ يهتف لنفسه : كم ستر وستر تستطيع
رصاصة طائشة أن تعري !

يشعر بالتعب فيجلس في متجر الثياب • يطلب القسائين ويتفحصها • يسأل
عن الثمن • يتردد أمام الخيار وقد خالجه الشك في ابتسامة التاجر الوديعة
الغامضة : لم يستطع أن يثق يوما بالوجوه الصقيلة ولا بابتسامات التجار :
قشرة موز توضع تحت القدم العابرة • فجأة يسأل الرجل الوقف أمامه كم
عاما أمضى في هذا الحانوت • ويجيب الآخر : « أربعين • » يتعجب : « كنت
هنا يوم ولدت ؟ » ويشعر بالانتشاء اذ سجل على غريمه نقطة • تتسع ابتسامة
التاجر : « هنا كان أبي ، وأبو أبي ، وأبو أبي أبي • »

ويرى عباس في الرجل الواقف أمامه جبلا من الجليد عائما على بحر
دمشق • ابن مدينة وتاجر • كيف سيتأكد من أنه لن يفشه ؟ يسارع الى اخفاء
خشيتيه بتفحص مصرّ للفستان ، وقد بدأ يستسلم في سريره لأي تخفيض

يعرضه التاجر • لكن الرجل يشير ، وقد صارت ابتسامته أكثر غموضا ووداعة ،
الى الاعلان الصغير : (السعر محدود) • ويخشى عباس مزيدا من الجدل يعرض
شخصيته للازدراء ، فابتسامة الرجل الواقف امامه تستطيع في كل لحظة أن
تكتسب معنى جديدا دون أن تتغير •

وهكذا يبتاع الفستان • يقول لنفسه : سوف تسرّ به عائدة أكثر لان ثمنه
مرتفع •

في البهو العاتم تجلس عائدة وتبكي • لم تعد الحياة أملا مرجوا ، والعمر
ضائع وحزين • لماذا تحول كل شيء على هذا النحو الغريب ؟ وما الذي حدث
كي يجف الحب والعروق ؟ هل كانت حياة الناس دائما هكذا ؟ ثم تتحدر
الدموع ، سودا بسبب الكحل ، وتخطط وجهها النضير • كانت أجمل فتاة في
المدينة • كان طولها رائعا ، وكانت بشرتها وتقاطيعها كذلك • وكان قد ركع
امام كندرته جميع وجهاء البلد • ولبت اللواتي يشمشن حولهن في مستوى
ظفرها جمالا • لكن نفسه دنيئة ولا يقيم وزنا لغير الجنس • تمسح وجهها
وعينيها ، وتنظر في المرأة الصغيرة : لقد ذاب الحكل • « قل لابن عمك اني
ما عدت أتحمل هذه الحياة • سأترك أولاده يربيهن ، وبيته يطبخ ويمسح
ويغسل فيه • سأرجع الى بيت أهلي • أنا عشت عمري كله في الدلال ولست
خادمة لأحد • صحتي أهم عندي من الدنيا كلها • أحيانا تغبش الكتابة أمام
عيني والكتابة على التلفزيون لا أقدر أن أقرأها • ولست أدري ماذا حدث
لاذني » • الله يعلم ماذا فيهما • أنا لا أسمع نصف الكلام الذي يقال لي ، وكله
بسبب اهمال ابن عمك وقلة أصله • « يقول علي : « الرجل عادة يفتقد شيئا
روحيا ، مثالا من نوع ما ، لست أدري • يمكن ، لو راجعت نفسك ، وحاولت
أن تعرفي ماذا يريد ، وكنت هذا الشيء الذي يريد • • » « ما هو هذا الشيء »

الروحي ؟ ماذا يريد غير الجنس ؟ جميع من يركض وراءهن أبشع من القرد ،
فأين هي الروح ؟ » ثم تخضل كلماتها بالدموع • يخرج صوتها نحيلا ناعبا •
تسند جبهتها على راحتها وتبكي ، فيما يدها الاخرى تعبث بعود الكبريت •
تركن حزينه ومغلوبة على امرها • حتى مع جارتها أمية ، يحاول • من يتصور
أمية تخون زوجها ؟ شاب يعادل اثنين من عباس ، اشترى لها بيتا وسيارة ،
حوائجها من موسكو ولندن وباريس ، يحضرها بنفسه ، وروما •

يتأمل علي حجم جسمها الذي تضاعف بفعل السنين • يتحير نصف مذعور
أمام عمر الجمال القصير وبهاء اللون الغابر : أهذا هو التاريخ ؟ لأمر ما يعيا
عن مشاركتها وتخيفه قسوته : لقد تخلت عائدة عن النضال ، تعلقت بمثال
الحب وعميت عن عالم شرس التغيرات ؛ لعلها رأت ولم تعترف ، واندفعت في
بؤسها وعريها الخفي تضبط قوانين الشعور بالوصايا العشر ، ثم تغفر أملا
باستعادة الزمن الاول ، حتى اذا أضناها الحساب والغفران ترتمي على مقعدها
وتصد بكلتا يديها لجة اليأس المقبلة ، وجلة من الآتي وآملة ، تاركة عمرها
مشبوحة على شعرة التأجيل أو الموت •

يرن جرس الباب فتتنهد • تمسح وجهها وعينيها جيدا : « هذه أمية ثقيلة
الدم ، تتكلم كأنها ترى حلما ، ثرثرة ومطفلة في وقت واحد • » عند الباب
تبدأ المرأتان عتابا عنيدا • أمية تتأخر عامدة لانها تعرف شوق عائدة لها •
وأمية تقسم يمينا على العكس • عائدة ترفض الحجج : « من الطابق الثاني
الى الثالث يؤخذ اذن ؟ » « أنت لا تعرفين نواف • » « ادخلي الآن ، نشرب
القهوة ونحسب بالفنجان • » تدخل أمية الى البهو باسمه • تحيي عليّا وتجلس
على كنية متطرفة / جلس متصالب الساقين ممدود الزندين على ذراعي
الكنبة / قال يا أم إمام عيب الكلام عن المال / هل يتزوج الانسان ليطلق / أمية

تساوي أكثر بكثير من عشرة آلاف / قالت أم إمام يا ولدي الدنيا غدارة وأمية لا معين لها غير الله / لا أستطيع تزويجها اذا لم أطمئن الى مستقبلها / اذا لا سمح الله لا سمح الله عشر مرات / حدث شيء / يكون معها مبلغ تتدبر به / وكيف التدبر الآن يا أم إمام الآن وقد جاء غدر الدنيا من اتجاه آخر / لكنها لن تقبل بالطلاق ما لم يدفع عشرة الآلاف / عشرة آلاف للموئل / هي تساوي عشرة آلاف .

يدخل عباس وعائدة معا . يتبختر أمامها وهو يحمل الفستان ويفطيتها بنظرات مفحمة . تبتسم هي ، مغلوبة على أمرها وراضية . تخب نحو غرفة النوم لتعود بحمالة خشبية تعلق بها الفستان وتعود ثانية . يصيح عباس : « ماذا ؟ ألن تجربيه ؟ » فتتوقف . تنظر الى علي نظرة مستطلعة . يصيح عباس ثانية : « كيف ؟ تجربيه الآن . لعل به خطأ فنصلحه قبل بدء السهرة . » تقول أمية : « ها هو يدلك . لماذا استحييت من الدلال ؟ لو انتظر عباس قليلا لرأيت الفستان في فنجان القهوة . » عندئذ تسحب عائدة الحمالة . تلقي بها على الكنبه . تقول : « يا الهي ! كل هذا المبلغ ! » تدخل وأميه غرفة النوم وتوصد بابها باحكام . يقول علي : « لماذا كل هذا المبلغ ؟ كان كافيا لشراء ثلاثة فساتين معقولة . » يتأنى عباس قبل أن يجيب . يطفو على وجهه كدر هابر وعبوس . يقول : « ليس في خزانتها ثوب يلبس . لم أشتري لها شيئا منذ شهر . » « يمكنك أن تشتري لها كل شهر واحدا من الفساتين الثلاثة . أرى أن لديك تطلعات بوجوازية » . « احتمال غير بعيد . لكنني لا أعرف كيف تحمل البشرية وجود التجار وهم الطفيليات الماصة السامة في الحياة الانسانية . كان ابن الحرام يبتسم لي بطريقة .. أثارت بي شعورا بالدونية . ليس أنا فقط ، وكل ما أمثله . أول

ما دخلت حانوته ظننتني متفضلا عليه • وابن عمك كما تعرف فخور بمركزه ومبادئه • ولكن • • يا الهي • كنت أصلي في أعماقي لدمشق وأتعبد ، أوسدها قلبي وأقلب صفحاتها • عندما دخلت حانوته شعرت أنه هو المالك الحقيقي للتراب والشجر وحتى الهواء • هذا الانسان الذي ليس شيئا • محطة بين المنتج والمستهلك • « أنت اشتريت ثوبا من النوع الذي يقدمه هو لزوجته • » « ولهذا أنا آسف لشراء الفستان • علينا أن نعيش فقراء حتى يوم يستطيع الفقراء الحقيقيون شراء فساتين لزوجاتهم • فساتين يصنعونها وتوزعها الدولة ويتفرج عليها هؤلاء الأراقط فلا يستطيعون شراء مثلها لانهم لا يعملون • » يقرع الباب • يفتحه علي ويرحب بالقادمين : قامتان متوسطتا الطول هبطتا ضمن شروالين وصدارين ، وشاب يرتدي بنطالا رثا وقميصا مشرئبا الياقة • يدخلون الى غرفة الضيوف وأعينهم تجوس فيها برهة واضمحلال • يشدون على يد عباس ، ويقفون الى جواره بارتباك • يطلب اليهم الجلوس فيظلون واقفين • يطلبون كراسي الخيزران فيحلف ويحلفون • أخيرا يستسلمون : ارتباك واضح يغفل في ودهم المكتوم • تحقق اليهم عينا عباس باحساس شخصي بالمهانة : بالكاد تسترت حاجتهم وراء الشوق والقلق فأفسدت بساطتهم النبيلة • لقد تركوا الارض والقربة الى اسفلت المدينة الصلب ، وزادهم الاتضاع والتوسل • يلح عليهم أن يقولوا ، فيتلكأون • يتبادلون نظرات خافتة ، والشاب مطبق الاسارير • أخيرا يحمم أبو فهد مطرقا ، ويصمت عباس : « والله يا أبو لؤي • • جئناك خجلانين • • الله يلعن الحاجة كم تذلل ابن آدم • • » « أعوذ بالله يا أبو فهد • ما هذا الكلام ؟ » يتابع أبو فهد بقوة مفاجئة : « لم يعد الزمان زمانا يا أبو لؤي والظروف شدت الحبل على رقابنا • صار الشباب يركضون وراء الوظيفة ويتركون الارض • صار بودهم البدلات والكرافات • وعندنا هالولد • فهد ، تعرفه • رفضوا تشغيله

هذه السنة في المدرسة • وأنت تعرف الحال • يد من خلف ويد من قدام • مئة وعشرون ليرة ، الله لا يكسرك • كانت تشيلنا • وقلنا ليس لنا أبو لؤي • « بسرعة يكتب عباس رسالة الى مدير التربية ويوقعها • بعناية ، يضعها في المغلف ويناولها أبا فهد : « سلّم على الاستاذ فاضل وقل له سأزوره بعد عشرة ، خمسة عشر يوما • » عندئذ يسمعون دقة واحدة من اصبع خلف زجاج الباب الداخلي • ينهض علي ويأتي بفناجين القهوة • من جديد يلهج أبو فهد بالثناء ويتلثم بالاعتذار • يهتف بصوت شجي : « من قبل يا أبو لؤي كنا نأتي للافندي نطلب واسطة ، يحتقرنا ويهيننا ، ويطلب ثمننا لكل شيء • الآن نشكر الله ، صار واحدنا يطلب حاجته بغير ذل • وأنتم لا تطلبون ثمن شيء • نشكر الله • الله يطول عمر الحكومة • » يمضي في رشف قهوته بسرعة ، ويحذو حذوه ابنه وأخوه •

بعد آخر شفة من فنجان القهوة ينهضون • يودعهم عباس حتى الباب ، وهم يحلفون عليه ألا يفعل • يخرجون ، وتتناول يدا فهد دجاجتين سمينتين مربوطتين على فسحة الدرج • ولأن عباسا يعرف العادة ، يحلف بالطلاق أنهما لن تدخلوا البيت • تقف الكلمات في حلق الرجال الثلاثة ، وأيديهم في الهواء • لقد سبقهم • يعاتبه أبو فهد مستسلما ، وعباس يؤكد له أن عصر الرشوة المهين قد انتهى الى الابد • يمضي الرجال نصف متعثرين على الدرج اللولبي • يستدير عباس فيرى عائدة واقفة بين ضلفتي الباب • تتقدم ومن ورائها أمية • يطلق علي صغيرا أزعز • يقول عباس : « أعجبك الفستان ؟ » تقول عائدة : « حلو ؟ » وتبدو أشبه بأوزة مغرورة • تقول أمية : « سيد عباس ، والله طيب الدجاج البلدي • » •

يبتسم بفيض صغير : « نحن لا نقبل الرشوة يا سيدتي » •

« أصحابك يملكون سيارات وبيوتا وفي جيوبهم دفاتر شيكات • والارذال منهم ، لكل واحد عشيقه وعشيقات • ويأكلون دجاجا بلديا • » •

« هؤلاء سيتساقطون على الدرب الذي لا يرحم أحدا • على كل حال ، نحن مستعدون لدعوتك لتناول دجاجتين ، وليس دجاجة واحدة • » •

« اي ، موافقة • بشرط أن تصالح عائدة وتدللها • مالكم أنتم الرجال ؟ والله مثل عائدة لا يوجد في بلادك كلها • » •

« من قال ان الامر غير ذلك ؟ أنا مدين لها حتى يطفىء الموت هاتين العينين وأمدد على التراب • » •

تلتفت نحو عائدة : « سامعة ؟ سامعة ؟ » للحال تضيء في خاطره فكرة داكنة : من أين لأمية هذه المعلومات ؟ ينظر الى عائدة ، ورغم احتدامه الخفي يلمح في غبطتها أسى وانكسارا •

تنسحب المرأتان لاتمام زينتهما • يقول عباس : « عجبت ، لماذا هذه النوافذ مغلقة كلها ! منذ أيام وأنا أراقبها • تصور ! لا أحد يفتح نافذة • » « هذا تعبير عن النفسية • نفسية خلدية • » « خلدية ، قلت لي ؟ » « نعم • » « وماذا يعني كلامك يا ضوء عيني ؟ » « يعني نفسية انفلاقية • نفسية الخوف الموروث من العصر العثماني الذائب كالمح في شخصيتنا • » « مفهوم وغير مفهوم • لا تؤاخذني • » « لا مؤاخذه • » « قل لي ، ماذا تفعل بوقتك كله ؟ » « أدرس أربع ساعات في اليوم • أفكر وألعب شطرنج • » « تفكر وتلعب شطرنج ؟ لماذا لا تلعب النرد ، مثلا ؟ مسلية أكثر ولا تحتاج لحصر الفكر • » « النرد لعبة تافهة • لعبة الشعوب المتخلفة • بالاساس تقوم على الحظ ، والهزيمة فيها دائما مبررة • » « يعني أن طاولة النرد دخلت في تصانيفك • »

« اذا كنت تناور لأجل شوط أو شوطين فأنا مستعد لك » « سأتيك بأخرتك »
« لا أريدها الآن » ما تزال للعمى بقية ضرورية » « وماذا لو هزمتك هزيمة
نكراء تحمر لها خجلا ؟ » « لن أبالي بضربة حظ سيئة » « ضربة حظ ؟ ألم
يصل الى علمك الواسع أنني بطل العالم بلعب النرد ؟ بأية لعبة تريد أن
أسحقك ؟ » « لكى لا نتعارك بالكلمات ، ارم حبة النرد وأنا أرميها ، والذي
رقمه أكبر يقرر اللعبة » « لا » اختر اللعبة التي ترى نفسك أقوى
فيها »

أمام المرأة تجلس أمية وتلمس جلد رأسها الورم . أي عشيق سترتاح
يده للمس هذه التلعة القبيحة ؟ سوف تتساقط أصابعه قرفا . أي عشيق ؟
عشيق ! قبضة عباس تضغط على يدها بقوة ، ولكن بلا حركة لئلا تلحظها
عائدة . عباس ؟ وع ! تنهض بغتة وتهرع الى النافذة . تمد أصابعها الى
صدرها وتتنفس مغمضة العينين : النافذة مغلقة . نهايتك مع عشيق ، يا ست
أمية ؟ / واشتد زعيق الأبواق حتى بدا لها أن المدينة كلها تزغرد / عشرون
سيارة وانقطعت حركة المرور / تعود الى مرآتها وتضرب بالمشط في شعرها .
تنظر الى عينيها برهة ثم تمد لسانها . تعجبها الصورة ، فتقلب وجهها بأشكال
متعددة . / وكان الفستان الابيض طويلا فضفاض الذيل والشال مشكولا
بالشعر الحريري .

بعدئذ يجلسون . يطردون الصغار من بينهم ويحشرونهم في الغرفة
الأبعد . بغير ما انتباه تتوزع النساء في جانب والرجال في جانب . أصوات
وتقاطع كلمات . أفواه تتحرك وأخرى تنتظر الحركة . يقبل عباس وعائدة
وعلى وجهيهما ابتسامة الرضى : حقا ان يوم ميلاد عائدة عيد : هدايا بالآلاف
الليرات : عقد ياقوت نفيس ، سشوار مع مشط كهربائي ، ساعة يد من ذهب

وفضة ، قداحة دوبون ذهبية حفر عليها اسم عائدة ، قارورة اسانس مدام
روشا ، قنديلان نحاسيان بشكل امرأتين عاريتين أعينهما فيروز ، وغير
ذلك .

والتسريحة جميلة والخصل متناثرة . والشعر قصير وغادة تحبه طويلا .
الحذاء من محلات جيريكس وقد ابتاعه بثمانى وتسعين ليرة . ربطة العنق من
باريس . الفستان من تصميم ساش موديل . نطاق الساعة فضة خالصة ،
والساعة من طراز أوميغا كونستلسايون . السيارة مرسيدس ٢٥٠ س . ي .
غير أن الحياة لم تعد تسمح بمشاهدة السينما . خمسة وثلاثون أسبوعا
والجماهير تحتشد أمام الفلم الهندي (جنكلي) لكن الاستاذ محمد لم يستطع
الذهاب . فلم ممتاز . وأفلام الكاوبوي المثيرة ! أفلام الفروسية ! كلها فات
عباسا . ومنذ عامين لم تشاهد عائدة فلما عاطفيا ، فلم حب وحرمان وعذاب
واخلاص وتضحيات . ذلك واحد من ذنوب عباس ، لقد عشق الصيد ووظيفته
وأشياء أخرى ، كل شيء عدا بيته .

سؤال عن التحرير يزيج الستار عن أم المشاكل : اقتربت ساعة الخلاص
من العدو الفاشم . معروف أن الجندي العربي يتصدى لخمسة - ان لم نقل
لعشرة - من جنود العدو . وقريبا سيوضع حد للكابوس عندما يفيقون ذات
صباح على هدير الطائرات وقصف المدافع . لقد حان وقت استرداد الارض .
نحن أيضا نقف أمام الكون ولدينا أسئلة عن المصير الانساني . في أنفسنا مشاعر
ومواقف عن العلاقات الانسانية . يجب أن يكون علينا ، من بين بني البشر ،
افناء عمرنا لكي نصحح جريمة اقترفها الاستعمار بينما تنتظرنا آلاف المهمات
الحضارية في صنع الانسان الجديد ؟ نحن الوجود الاصيل ولا يمكن اقتلاعنا .
خمسة آلاف سنة من العطاء الحضاري .

ثم يخلدون الى الراحة • يلتقطون أنفاسهم • يخرج الاستاذ محمد قداحته الذهبية ويشعل غليونيه • يشعلون السجائر ، وتتشجع عائدة فتشعل واحدة • تثبت عادة عقد اللؤلؤ في الوضع الأنسب • تتحسس سناء لمة شعرها البرونزية • تتسائل عائدة ان حان وقت الاكل ، فينشم أبو تغلب • عندئذ تقود الطريق الى غرفة الطعام : في الوسط طاولة عرضها متر وطولها أربعة ، صف عليها عشرة عشر نوعا من الطعام • يقول أبو نزار : « ست عائدة ، بودك أن تنتهي سهرتنا في المستشفى ؟ » يقول الاستاذ محمد : « هذه مائدة تقصر عنها موائد ألف ليلة وليلة • » تقول أم نزار : « ليس فقط أنواع الطعام • يسلم لي الذوق • أكلت في مطعم مكسيم بباريس ، والله ليس طعامه أشهى • » يملأون صحنونهم الواسعة واحدا بعد الآخر • تنتشر الرائحة العبقة في خياشيمهم • يدور الطعام المشبع لحما وصنوبرا وسمنا بلديا في أفواههم المتمعة • تنشط غددهم وعضلات وجوههم • تتكاثر فيهم غبطة حسية تكاد أن تبلغ النشوة • يتذوقون الطعام ويحسون أن الحياة لذيذة ورائعة • تنشرح صدورهم وتزداد نسبة المزاح في حديثهم • العقل السليم في الجسم السليم والجسم السليم في الطعام الجيد • في الحقيقة ان سورية جنة العالم • أنواع الخضار والفاكهة كلها موجودة فيها • الهلال الخصيب ولا غرو !

ينظر أبو تغلب الى عباس وكأنه يتذكر سيرة التحرير : « أعن هذا يراح الى الطعام ؟ » •

من عادة أم خلت ألا تفص ، خاصة وأن أغلب طعامها الكبيس والزيتون • لكنها الآن تسعل • تقول لنفسها : صار حنكي رخوا • وتحاول ايقاف اللقمة التي انزلت دون أن تبتلع عندما استرسلت في تذكراتها / جئنا نبلغكم أن هذه التلة ومنحدراتها حتى وادي الأقطم صارت / وجهه كامد وممسوح كنعاس

مطروق / طفر الدم من صدر أبي خلف كنافورة انبثقت من أرض صخرية .
تضرب على صدرها ضربات خفيفة ، تزيج صحنى الزيتون والكبيس جانبا /
كم غرابا يا ترى أكل من لحمه / . ثم تنهض الى المفصلة وهي تسعل / لو
يتزوج محمود هذه الشيطانة أسى فينعم بالجمال والعافية . تفتح الصنبور /
ظل الدم يتدفق حتى لعل الرصاص ثانية وتدفق مزيد من الدم وترك الرجال
أبا خلف مضرجا بدمه . تحسو حسوتي ماء : « يا رب عفوك . » / جاؤوا في
جرح الظلام وكان أهل القرية نياما وفي الصباح قال يوسف أهارون . ينتابها
السفال من جديد / يورام يفتح فمه ببطاء ويقول اتركوا القرية اذا كنتم
حريصين على حياتكم . ويأخذ بها فيختل توازنها وتقع : « نفحة هواء أوقعت
كل هذا الجسم ؟ نشكر الله ، أم إمام ليست هنا / في الصباح أفاق الناس ورأوا
أن قريتهم الجميلة صارت غولة تندفع من جسدها السنة النار ومن فمها أعمدة
الدخان والناس والزيتون تنشوي داخل أوارها الحران والاصوات تفرقع في
الجو كمفرقات الاطفال سوى أن الامر كان جديا ورجال الانقاذ يحاولون
إطفاء النار فتنهش أجسادهم وتعجزهم وأبو خلف يطفىء النار في البيوت أولا
فتعجزه ثم في جسده ثم في عظامه ثم في روحه التي كانت الناجي الوحيد وذهبت
الى بارئها راضية مرضية . تنقل استرخاءها على عجزها الايسر الى الايمن
وتتنهد .

لهذه الاسباب يحب السيد فؤاد س من بيروت السفر بطائرات سابينا :
١ - المضيفات الحلوات ، ٢ - رؤية ساحات بروكسل الشهيرة ، ٣ - أنواع
الاطعمة الشهية التي تغريه ، وهو العربي الذواقة ، بالسفر لمجرد تناول أفخر
الماكولات . سافروا بطائرات سابينا .

يعودون الى الكنبات ، وسرعان ما تأتيهم القهوة . يتقدم عباس من جهاز

التلفزيون • لحظات وتمتلىء الشاشة الصغيرة بوجه المطربة وصدرها العامر •
اليها تنتقل العيون وباتجاهها تعادل الاجسام • يحرك نواف كنبته ليتمكن من
الرؤية الجيدة • يفرك عباس أنفه • تدير النساء رؤوسهن • الصمت • مزيج
من صوت المطربة الرنان وأصوات الصغار 'يفلغل في الاسماع • قارع الدربةكة
يوقع عليها ضربات شيطانية • المصور يتفنن في عرض الجسد الشرقي من زوايا
أفقية وعلوية وتحتية • وعينا المطربة الوحشيتان تغمزان ، رأسها يميل ،
شعرها يمرج ، ذراعاها الناضران يمتدان كأنما لاستقبال قادم حبيب • لاتدري
عائدة ما الذي يعجبهم في المرأة التلفزيونية • ويسارع الرجال الى وصف
جسدها المترهل وصدرها الضخم ولحم حنكيها • شيء واحد فقط يعجبهم :
صوتها الأبح المظلوم • صوتها فقط • تقول عائدة : « صوتها يخلب العقل •
ولكن جسمها ! أعوذ بالله ! مثل الدبة تماما • » غادة تخالفهم الرأي • تؤكد
للنساء جمال المرأة ، بهمس يسمعه الرجال • تلتفت نحوها العيون المذكرة ،
تقع عليها ، تنهض وتقع ثانية ، تصعد وتهبط من قمة رأسها البرتقالية الى
قصبتي ساقبها الورديتين ، مرورا بمنحدر الفخذين وخانق الصدر ومرج
الصدر ورطب الفم • الصمت •

على الناصية يقعي ويراقب العالم الصغير أمامه • لا أحد يدري من قطع
ساقيه ، وكيف قطعتا على هذا النحو الذي أظهر فجاجة تدويره الركبتين •
ولا أحد يدري كيف تدبر هذا الرق تحت مؤخرته وقطعتي الخشب المجوفتين
اللتين نتأ فوقهما ما بقي من فخذه • منذ ستة وعشرين عاما يشاهده الناس
مقعيا على هذه الناصية ، وجهه باتجاه قاسيون وجذعه منتصب أبدا كخابية
من الفخار • لا صوته يستعطي ولا عيناه • أمامه ترقد طاقيته ، وعلى القطع
الفضية المرمية فيها يلمع ضوء مصباح الشارع • فجأة تعلو أصوات صفارات
الشرطة وكأنها في كل مكان ، ويتراكم الفتيان كخراف مذعورة وقد ارتفعت

وراء مناكبهم شعورهم الطويلة • يتدافعون بعضهم ببعض • يتجهون نحو
الناصية • يسقط من أحدهم مذياع • يقفز أولهم من فوق المتسول • يتعثر
به آخرون • تدركهم الشرطة • يلتحم الراكضون • يهوي الجذع المنتصب
ويتدحرج إلى الشارع • تمسك الشرطة بنخسة من الشباب • يتوقف المشاة ؛
يتجمعون • يتقدم منهم اثنان ، يلتقطان ابطي المتسول ويرفعانه • يدب
المتسول بفخذه على الشارع فالرصيف • يستأنف جلسته الأولى • تزداد قطعه
الفضية • من مجلسه يراقب العالم الصغير أمامه : رجال الشرطة يمسون
بالتيان من شعورهم وياقاتهم ، يمتشقون مقصات نحيلة ، يدسون مقصاتهم
في الشعور فيجدعونها ، وفي البناطيل الطويلة السيقان فيشقونها •

يفمز أبو نزار لعباس ، وينفرد الرجلان في الغرفة الجنوبية • بغير ما
سؤال يشرح عباس لصاحبه حقيقة الامور : ما يزال ثمة ارتياب في ولاء أبي
نزار السياسي ، لكن عباسا ضمنه على مسؤوليته ، والتعيين سيتم قريباً •
يعودان بسرعة لثلا تذهب بالضيوف الظنون •

عندئذ يطلق قبقاب غوار الطوشة ، معلنا عن حلقة أخرى من مقالب
الحمام التركي • تظهر أسنانه وراء تكشيرته الأليفة الحاقدة • ويبدأ حيكته
ضد حسني البورظان وأبي صياح • ينسل من صدور المشاهدين احتقان خفي :
بعد دوخة الأصوات الأبح والصدر الوثير يسلمون أنفسهم للبلاهة الفكهة
والضعف الخبيث • يضحكون ملء أفواههم • يحللون المواقف ، ويتنبأون •
غوار فنان عظيم : يستلهم أبطال التراث الشعبي : الشاطر حسن وعمر العيار :
يعبر عن الحياة •

ثم يصمتون • الصفار أيضا يصمتون ، بعضهم يوارب باب الغرفة ويتسرق
السمع والمشاهدة • ويتمدد الكبار في بركة مسراتهم الصغيرة • يبتسمون

وينههون ويعدقون • يدخنون السجائر • يلتهمون أطباقا اضافية من الفواكه ،
ويشربون القهوة مرة أخرى • يمنحهم الجهاز حجما من الضجيج ضروريا لكي
يفقدوا ما بقي من حيويتهم • واذا يبدأ المسلسل الاجنبي ، تخفت الحركة
والكلام والفرح • يسترخون ، وشيئا فشيئا يتسلل الى وجوههم تعب غامض •

عندما يتعب سليمان لا يسترخي ، يتصلب : المشكلة تكمن في عقله الناشط
أبدا ، لا في جسده : كيف يمكن اصلاح العالم ؟ نصف سؤال لا يكتمل قط
لان ثمة أكثر من نصف ثان له : كيف يمكن اصلاح العالم وشيش بيث الرائع
غارق في جاهليته — وابنة أخته سوف تزوج لابن خالتها لمجرد أنه ابن خالتها —
وام سليمان ترى العالم بعينين ضيقتين — ومأساة فلسطين قد شوهدت حياة
العرب — الخ — أنصاف تتزاحم في ذهنه لاحتلال المركز الثاني حتى ليعجز
عن اختيار أيها • منذ سنوات أدرك أن الحكمة عاقلة لا تستطيع أن تمحو
غوغائيات شيش بيث عن صفحة دماغه ، كما فعلت عندما تعرض الملك سيف
ابن ذي يزن لطلاسم السحرة والكهان • وكذلك لم يعد ثمة عيروض بن الملك
الاحمر ليأمره فيختطف ابن أخته الرقيق ويرمي به في وادي الغيلان • وهو
أيضا عاجز عن تحرير فلسطين : لقد انتهى عصر الجن وبدأ عصر أمريكا •

يتجرجر نحو بيته بهدوء وبلا قلق : لن يبرز من قلب العتمة حامل مسدس
يطالبه بما في جيبه من نقود • لم تصل أميركا الى حواري دمشق ، بعد •
أمام مدخل المبنى يفيق فيه احساس مألوف بالعجز ، يزداد بصعود الدرجات
فيفندو احساسا بالقنوط • تزداد أيضا أصوات النسوة والاطفال ، وعند الباب
تغدو دويا • لا عجب من أن حنك العربي أكبر جزء في جمجمته • يطلق زفرة
حرّى وهو يولج المفتاح في القفل : كيف تستطيع ستة أفواه أن تتكلم في وقت
واحد ! يمد ساقه الى الداخل فيتلاشى الضجيج ، ويمد ساقه الثانية فتتسمر

النسوة والاطفال • يشعر بالرجة المألوفة لغضبه المقعد : أية انسانية بقيت في هؤلاء؟ روح الحریم في نفوسهم وكأنهم ما يزالون في عصر ألف ليلة وليلة • يزيد المساء ضيقا ، فيدخل غرفته ويفلق الباب • كل شيء مرتب في مكانه كقبور المدافن • صورة أبيه تتصدر الجدار الاوسط كشاهدة ، بعينين تشبهان عيني المهلهل بن ربيعة / رأيتك يوم ضربك بدمك أبناء من خرجتهم بدمهم • الطاولة تجثم تحت الصورة وعليها تجثم الراديوات العتيقة والاشربة والمفكات • الصورة : شاربان انجدلا فوق خط الفم كقوس الحب • لو أن موصلا كهربيا من هذه الاشربة دس فيهما لاهتزا غضبا / لماذا لم تغضب يوم اكتشفت أنك خدعت / قالوا لك : يا أبو سليمان صحيح أن الشاب طائش ، ولكنه ابن أخت وزجتك ، وعندما يتزوج يعقل ويجد عملا منسبا يعيش منه / وقالوا لك : ابنتك تحب فلاحا وقد افتضح أمرها فاسترها بالزواج / وقالوا لك : أين الشرف يا أبو سليمان تريد ابنتك أن تتزوج من تحب وترفض ابن خالتها من لحمها ودمها / ثم اكتشفت أنهم خدعوك فلذت بالصمت / عشر سنوات وأنت تطارد مزاحميك على الارض وتقتنصهم لتنسى أنك خدعت وأخطأت • ويوم خذلك الجميع ، وقف الفلاح العاشق الى جانبك ، وحده ، صامتا ، غير مطالب بشيء ، فانفطر قلبك ندامة ومت بلا أسف على نفسك / صامتا عشر سنوات : كيف يمترف بالخطأ ومثله يلعب بأعناق الرجال / ويوم قتلك أبناء مقتوليك كان خط الفم ممدودا بابتسامة رضى شيطانية •

تشق أم سليمان الباب وتقف في فتحة : « تتمشى الآن ، يا حبيبي ؟ » ينظر الى عينيها الضيقتين وأنفها النافر من بين وجنتيها / ما الذي أعجب السيد المهلهل منك يوم أحبك / ألم يحفر هذا الانف وجهه / صحيح أن المتميزين يعشقون نساء لا دلالة لهن • « لست جائعا • » تبقى في مكانها • « سأضع الطبخ على نار خفيفة فيكون ساخنا عندما تجوع • • » « لست جائعا ، لست جائعا • هاتي

لي شوية لبن • « تبرم رأسها الى الخلف : « هاتي كأس لبن لخالك يا بنتي • »
تدير رأسها : « جاء ابن أختك وسأل عنك • » « قلت له سأقرف رقبتك ان
يدخل البيت ؟ » « يا بني ، برضاي عليك • هو ابن أختك من لحمك ودمك •
ومستعد أن يبوس يدك • » يجلس على الكنبه متصلبا خاليا من الانفعالات :
« قولي له اذا جاء مرة ثانية : خالك سيقرف لك رقبتك / يبوس يدي / لكأنني
مغرم بلعابه القدر أو مخاطه الزارب / مثلما فعل أبوه من قبله يفعل هو
الآن / خدعوك يا مهلهل ببوسة يد سفحوا أمامك جردلا من الضراعة فسفحت
لهم حياة ابنتك وشبابها • نادي لي سلمى ، لتأتي هنا ، وسخني أنت الاكل • »
/ أي اصلاح يرجوه العالم وهذه الكائنات تدب في نومها الابدبي داخل قواقع
السلاحف وتنبر بأزرار التلفزيون / من عجب أنها لم تنقرض وهي لا تفيق
أبدا / فقدت مقومات الحياة / « والله يا ابني تحيرنا وتنغصت عيشتنا • لا أحد
يستجرى على الحديث معك • تدخل البيت ، لا سلام ولا كلام • تغلق عليك
باب غرفتك ، لا أكلا تأكل ولا كلمة تقول • اذا تحرك أحد في البيت تصيح :
كفى ضجة ، واذا سكتنا قلت : أنتم موتى • لا يعجبك العجب ولا الصيام في
رجب • الله يرضى عليك يا ابني ، كل لقمة ، واحك معنا كلمة ، وخفف عن
روحك الهم • » « سخني الاكم وابعثي لي سلمى • »

تخرج أم سليمان وتدخل سلمى حاملة كوب اللبن • « أغلقي الباب ،
خالي ، وتعالى هنا • » تتقدم الفتاة حانية الرأس فوق الكوب • تقف أمام
سليمان ولا تراه • يتأمل يدها البضة ووجهها الوردي يامعان ساهم • يتناول
الكوب ويمسك باليد فيسحبها نحو الخوان • تجلس سلمى ببطء وهدوء ،
تشبك أصابعها في حجرها ، وتركز ذقنها على نحرها • يتأملها مفعم الصدر
بعنان عكر • ولكيلا يجرع اللبن متمهلا ، يتلمظه ليشعرها أنه غير
ناظر اليها • يقترب منها ويحتوي شعرها الخرنوبي الغزير بيدين حانيتين ،

يرفعه عن نهدها ويرده الى الخلف فيلمس رأس اصبعه وجهها الناعم • تبتسم هي ، وللمرة الاولى تنظر اليه • يشعر أن شيئاً ما في صدره ينفجر • يجلس الى جانبها وقد أصابته عدوى الابتسام • يحتوي تدويرتي كتفيها بيديه : « ماذا قررت ، خالي ؟ » تضطرب الابتسامة على وجهها ، والنظرة المحبة المسددة اليه : « لا أعرف • » « اسمعي حبيبتي • حكينا في الموضوع من قبل ، والآن نحكي فيه بايجاز • أنت في الصف الحادي عشر • اذا قبلت بالزواج من ابن خالتك ، كما تريد أمك وستك ، يعني أنك ستتركين المدرسة وتصيرين خادمة لهذا الرقيق ابن خالتك • هذا شاب غير مسؤول ، وأنت مستقبلك عظيم • أنت جميلة وذكية ، وسوف تكونين امرأة متحررة ورمزا اجتماعيا • لو أن كل فتاة مثلك أصرت على بناء نفسها وقررت أن تكسب عيشها بعرق جبينها لكانت حياتنا أسعد وأغنى • فكري أن القضية ليست قضيتك وحدك • أنت مثال لفريك • فكري أن عمرك سبعة عشر فقط • • • » « تقول ستي انه فاتت سنتان على زواجي • » وتضحك بشيطنة متلذذة ثم تعض على نصف شفرتها وتسكن • « لذلك تنوي تزويجك من هذا المائع • اسمعي ، سلمى • حاولي أن تقرري لنفسك بنفسك • رأيي ورأي ستك معروفان الآن ، لا تقولي : لا أعرف • لن تخرجي من هنا حتى تقرري • » تنعقد الجدية في عينيها وهي تنظر الى الراديوات العتيقة : خالها شاطر باصلاح الراديوات • ينظر اليها مستفهما ، فيربکہا انتظاره : « لا أعرف ، » تقول وتلفت اليه بضراعة مبمهة • يكظم فورة غيظ نفرت في رأسه ، وتغدو الفورة ضبابا يفسى جبينه اذ يهز سلمى من زنديها العاريين ، ويهتف بضراعة قاسية هادئة : « لن تخرجي من هنا حتى تقرري • انفضي عن عينيك غيبوبة المراهقة يا سلمى • »

وقالت أم إمام : « فكري في الموضوع على مهلك يا بنتي • أنت ما تزالين صغيرة على الزواج ، وسيتقدم لك في المستقبل شباب أحسن من نواف • »

أحسن من نواف ؟ مستحيل • وفوق ذلك ستنزح صدرية المدرسة وتلبس أفخر الثياب ، وسيحوم نواف بطائرته بينما هي تلوح له بمنديل أبيض/وعندما يأتي الى البيت ستتعلق بعنقه وترفع ساقيها الى الخلف ويسير بها الى غرفة الطعام حيث سيجد وجبة شهية بانتظاره / وفي المساء يذهبان الى الكازينو ويرقصان على أنغام التانغو الى أن تنبت لهما أجنحة بيضاء ويطيران في غسق السماء البعيدة • « لكن لا تقولي في المستقبل : أمي زوجتي صغيرة وكنت لا أفهم • » لكن أمية اندفعت نحو أمها فطوقت جيدها بيدين خافتين وبللت صدرها بدموع فرح غزيرة : « أشعر كأنني أفيق على عالم جديد يا أمي • خائفة ولكن سعيدة » •

تفلق أمية وراءها الباب وتتقدم • لا تلتفت • تعبر المعبر الصغير الى المطبخ ، مترفقة الخطى ، لجيمة الكبرياء • تصيح عائدة : « الحمد لله على السلامة • عاش من شافك • » ثم تصمت فجأة : ترى في عيني صديقتها شرودا موحشا ونقطتين حمراوين • « ماذا جرى ؟ » فتتنظر الى عائدة بابتسامة عابثة • تبين أسنانها مطبقة على كلمات لن تقال • لأول مرة تعترف عائدة بجمالها ، وقد أشفته الآن حزن رقيق • « الله يلعنك • أنت تخبئين أسراراً • » « لا والله ، وقعت على الشباك • » « ولماذا لا تأتين ؟ صار لك يومان • » « آتي بهذا الشكل ؟ أبشع من أبو بريص • مثل البومة • » « ابقني للغداء معنا • » « لا ، شكراً • لازم أن أطبخ للأولاد • نواف سافر الى نيويورك على عجل ونسي أن يترك نقودا كافية • • » « تريدون نقودا ؟ عباس !! » « لا ، لا ، عائدة • ملعقتي ملح • طلبوا نواف للسفر في غير نوبته • ومن ضيقه نسي النقود وكنا نائمين • » يقبل عباس • يسمع الكلمات الأخيرة فتهرع يده الى جيبه وتستل ما فيها من نقود • تصيح أمية وتقسم • تتناول فنجانا وتملؤه ملحاً • تسرع نصف هاربة ، ملونة الوجه بخجل غضوب • عند باب المطبخ يلتقط

عباس يدها ويدس فيها ورقة مالية • تسرع هي لا تلوي على شيء • عند باب البيت تضع الورقة على قاعدة النافذة وتفر الى الخارج •

تنبر عائدة : « كان ضروريا أن تمسكها بيدها ؟ دخيلة على الله أنا • رأيت وجهها أزرق من ضرب زوجها لها • وتركها بدون قرش واحد ، قهرا لها • ولماذا تمسكها بيدها ؟ » « لماذا ضربها ؟ من قال لك ؟ » وتجيبه إنها سمعتهم : سمعت صراخها وعويلها فنزلت الى باب بيتهم وسمعتهم يتكلم عن حسابات السمان واللحام • وسمعت صوت الكرسي يقع على الارض بعد أن ضربها وأوقعها • قال نواف : بقيت عشرة أيام لانتهاء الشهر ومع ذلك انتهت المئة والخمسون ليرة المخصصة للسمان واللحام • قال انها مستهترة وعاجزة عن التدبير وستخرب له بيته • سألها لماذا هذا المصروف كله وقال انها ترسل لأهلها نصفه وتأتي بهم الى البيت. ومعهم شباب من العائلة تتبسط معهم في الحديث وأنه سيكسر رجل أمها ان هي دخلت البيت ومن الآن فصاعدا لن يعطيها مفتاح البيت وسينظر من الطائفة ليرى اذا كانت الشبابيك مغلقة أم لا وأنها ستموت جوعا اذا لم تتدبر أمرها بالمئة والخمسين • « لماذا شبابيك البيت ؟ » « لانها ترى منها أولاد الجيران ويرونها • » « وكيف وقفت على الدرج ؟ لعل أحدهم فتح الباب وراك ؟ » « كنت أتابع صمودي كأني راجعة من الخارج • » يدرك عباس أن هذه فرصته لدفع شكوك زوجته • يقول بنبرة حاسمة : « على أي حال ، أنا لم أرتح لهما من الاول • زوجها أهلها لأجل المال ، وتزوجها هو بالمال : صبية في الثانية والعشرين وهو في السابعة والثلاثين • وهي دمشقية ليس لها أخلاق الريف ، وليس مستبعدا أن تخونه • أنا لا أحب تردها الى بيتنا • » « دخيلة على أخلاق الريف أنا • لماذا تبصيص اليها وتغازلها كلما حضرت ؟ » « أنا ؟ أنا أغازل هذه الجلد على عظم ؟ أنت

فقدت عقلك • « أنا مجنونة خلقة • ويلي منكم أنتم الرجال ، تقتلون القتل
وتحملون نعشه • »

عندئذ يفر عباس • يقبل الى حيث ينتظره علي رخي البال وراء طاولة
النرد • يهمهم وهو يتخذ مجلسه : « كنا بغيرنا ، علقنا نحن • » يتناول حبتي
النرد فيقذف بهما على منبسط الرقعة • يقول : « ستعلم يوم ينقشع الغبار ،
يا سيد علي • » « من غامض علم الله سقطت عليّ خمسون ليرة • جديدة
وطازجة • اسمع صوتها • » ويموجها بكلتا يديه فتعشس • « أنا أسمع لك
بإعادتها اليّ • أعطيتها لأمية ولم تأخذها • هذه المرأة ستخون زوجها يوما •
هو بنخيل واستبدادي ، وهي امرأة من دمشق • » « ولماذا أنت حزين ؟ حسبتك
سترشح نفسك للقيام بالمهمة معها • العب بنج وسي • » « يجب ألا تخون
المرأة زوجها • الشقاق العائلي أكل هواء لا بد منه ، ولكن أخلاق الزوجة
يجب ألا تنهار • » « كل امرأة تخون زوجها تفعل ذلك مع رجل يخون زوجته ،
ما معنى حكمتك الاخلاقية اذن ؟ العب بنج وسي • لماذا لا تلوم الرجل أيضا ؟ »
« يلعن أسلاف البنج وسي • مرتين ؟ الاخلاق يا عزيزي ، ألا تعرف ما هي
الاخلاق ؟ » « كلا • » « أعوذ بالله ! الاخلاق يا أفندم ، الشرف والكرامة
والكرم وعزة النفس • الوفاء والشهامة والمروعة • هل آتيك بجدول يعبدها
لك ؟ » « هذه مصطلحات رجعية أو برجوازية • بنج وسي • » « أعوذ بالله من
هذا الحظ ! وكيف هي كذلك يا ضوء عيني ؟ » « عندما تنهار علاقات الانسان
مع العالم الذي حوله ومع التاريخ يصبح الشرف عقوبة • ثم فل لي ما معنى
الكرم في المجتمع الاشتراكي ؟ » « هل تريد أن تقول أنك بلا أخلاق يا سيد
علي ؟ العب بنج وسي • »

يضحك الاثنان • يفتبط عباس للاصابة بالحكمة ، فيسدد الى ابن عمه

نظرة ظافرة - يقول علي ببرود مفاجيء : « الاخلاق وعدمها لن ينقذا الانسان من غربته • العب شيش بيش • ما لم ننشئ في حياتنا اخلاق العمل ونؤمن بالاشتراكية العلمية فسوف لن تبقي الولايات المتحدة بيننا لا الاخلاق ولا الرجال لكي يؤمنوا بالاخلاق • » « الاشتراكية العلمية ؟ تعني الماركسية ؟ أنت فقدت عقلك • الاشتراكية العلمية تفقدنا خصائصنا القومية • » « عندما يكون الجنون هو الحل الوحيد لمشاكلك فعليك أن تفقد عقلك • ولكن مصيبتنا أننا لا نتخذ قرارات حاسمة • »

ينظر اليها علي ، مستغرقا في خمسين عاما هي كل ما خلفته لها الحياة • تسأله وهي تقدم له فنجان القهوة : « قر قرارك على الزواج ، والا تريد الانتظار حتى تصير عجوزا مثلي ؟ » ينجلي له وجه التجارب العتيق تاركا في وهلة شوق دماية قنعتة بعابر الكلام • تفيض من نفسها وهلة ووهلتان تطفوان على لجة الزمن ، تستحثان الخطى نحو زوجة وبیت وأطفال يستقرون في الخاطر المتعب ويمنحون النكهة والطعم لمأدبة الحياة والموت • ينصت اليها حتى وهي لا تتكلم ، ووجهه مستلق على يده • تعبر خياله الصور على مدى خمسين عاما وعيناه عالقتان بوجهها ، كأنه يراه لأول مرة • ينهض من مجلسه ويرمي أرض البهو بخطوات طويلات • يقف وينبتسم : « ألسنت أنا يا أم خلف من طلب اليك الوساطة ؟ خبريني عن هذه العروس ولك الأجر والثواب • »

تأمره بالجلوس ، فيجلس • تصف له العروس بيديها ووجهها ولسانها ، تكوّنهما مقطعا مقطعا ، واذا هي تحفة مكتملة الجمال : الشعر والصدر والقوام ، العينان والفم والاسنان والعنق والاصابع ، الشرف والطاعة والخبرة بشغل البيت ، قارئة كاتبة ، عائلة فقيرة ولكن نظيفة • « البنت فائرة الآن ، لكنها ستهدأ بعد الزواج • » ويسأل « هل هي مهتمة بالقومية العربية ؟ »

الجواب : لا دخل لها في السياسة ، ولن تعارضه في آرائه ، حتى أنها لن تتكلم الا بإشارته • فتاة نادرة • « أنا أعرف • اعتمد علي • عندما بعث أبو خلف أمه لخطبتي فصلتني تفصيلا • جربت أسناني بالجوز ، قبّلتني لتشّم رائحة فمي ، وصافحتني لتعرف ليونة أصابعي ، وشربت قهوتي لترى قوامي وشطارتي في صنع القهوة • وأنا عملت هذا وأكثر لأجلك • وبعد يومين سأخذها الى الحمام التركي وأفحص جسمها - أنت مثل ابني - كل مفز ابرة وأعرف هل في جسمها عيوب ، مع أنه ليس فيها ولا عيب » •

يشبك أصابعه أمام فمه ويبتسم : قالت انها متعلمة • طبعا ، أخذت الثانوية منذ عامين ، لكن أباها قال كفى ، خوفا على أخلاقها من كثرة العلم وجو الجامعة ومن شباب هذه الايام السائلين في الشوارع • « ولكن يا أم خلف ، يجب أن أراها أنا • أنت تجعلين مني العريس الآخر من يعلم ، وأنا شاب مثقف يا أم خلف ، لا أقبل الزواج من وراء ستار • • » تقاطعه : « معلوم ! كيف اذن ؟ سادعوها الى هنا بعد الحمام • لن آتيك ببضاعة قبل أن أفحص دمفتها • اعتمد عليّ بعد أسبوع تكون هنا • ولكن يجب أن تسعى بالأثاث • جهّز الأثاث وضعه في بيتنا حتى يوفقك الله ببيت • » وتضيف منذرة : « لكن ، اسمع • البنت لا تعرف شيئا عن الموضوع ! » ويقول هو : « البنت والشاب • ولكن اسمعي أنت أيضا • هذه عمرها عشرون • يعني أنا أكبرها بعشر سنين ، فكيف ستحلين هذه المشكلة ؟ » « أية مشكلة ؟ عندما يكون عمرك خمسين تكون زوجتك ما تزال شابة • هل هذه مشكلة ؟ » •

من الحمام يعلو صوت محمود طالبا منشفة • تنهض الام بمشقة ، تغيب في الغرفة اليمنى لحظات ، وتعود حاملة لابنتها ما طلب • بغير مقدمات يفيض من وجهها الاهتمام والفرح • ينسحب على قامتها العجلة ظل لعدم اكتراث

قديم • كل شيء في تلك القامة ممتلئ وأعزل ، حتى حزنها المراوغ وتقاطيع
عمرها المرصوف • واذ تغيب في المطبخ يغمض عينيه ويتحسس وقع انهيار
بعيدا : صورة مضطربة تنفرش أمامه بلونها الأشهب واستقلالها الجليدي •
يتكىء على حزنه المفيق ، ثم يلف ساقا على ساق ويقبع متصلا ومنفصلا كالظل •
عبر النافذة التي أخذت ثلثي الجدار يتسلل ضوء الشمس الغريب صامتا
محايدا •

تعود أم خلف بابتسامة • يسألها : « ماذا وراء ابتسامتك الممنوعة من
الصرف ؟ » تقول : « رأيته • تفرك شعرك وتصفن • أنا أفهم • تريد
العروس • هيا بنا الآن الى المنجد لتوصي على غرفة النوم • وستقول غدا :
بارك الله بأم خلف ، دبرت لي عروسة ليست كالعرائس » •

تضع على جسمها رداء أسود ، وعلى رأسها ملء سوداء ، تكسو وجهها
بنقاب الحشمة الاصيل • تختفي وراء ستارة القرن السادس عشر ، الا الوجه
واليدان والكاحلين • تنزل وراء علي درجات المنزل بخطوات داوية ثقيلة •
يقول : « ولكن لماذا تفكرين بتزويجي وتركين ابنك ؟ وهو أحق باهتمامك • »
« محمود ؟ محمود يا ابني قرر أنه يتزوج الطبقة العاملة • ويحرر فلسطين
بجيش من العمال ، لذلك يرفض الوظيفة والحياة • • ماذا تسمونها ؟
البرجوازية ؟ » •

يضحكان • يمضيان قدما باتجاه السوق : شارع بلا رصيف الا ما تكوم
عليه من غبار وقشور فواكه وحثالات • على جانبيه ارتصت حوانيت الطين
تحت نوافذ ثنأت فوق الشارع • في جوه المبهور تتقلب الاصوات والغبار
والذباب • غير بعيد عن المدخل ، تربع شيخ أعمى الى جانب صندوق صغير
نضدت فوقه خمس من علب الكبريت ومثلها من قطع النقود • يصيح الشيخ

بنبرة منهته : « الله .. الله .. الله .. الله .. » ويميل رأسه الضخم ثم
يمعده الى مكانه مع كل « الله » .

قبل أن يتخلف صوت الاعمى عن مسمعيهما يتصاعد صوت أم كلثوم :
يا ريت زمانى ما يصحنيش . وتصيح كوكب الشرق من حانوت الى آخر ،
فتسبغ على خليط البشر المتناثر نعمة الطرب والآهات والحب المذيب . تعطل
مفاجيء في حركة المرور يوقف سيرهما الصامت وينحي الصوت الالهى : حنطور
يحمل صفائح خشب ، موقوف أمام أحد الحوانيت ، وسيارتان عريضتان
موقوفتان الى جانبيه تطلقان زميرا عصبيا ، والحمار جاثم يغمز بعينه غمزات
ناعسة فيبتعد عنهما الذباب . يغمغم علي ضجرا : « ما الذي جاء بنا الى
هنا ؟ » تشير له أم خلف أن يسكت : « سوف تدفع القيمة لحمدى الببش وتأخذ
أحسن غرفة نوم . » وعبر الفسحة الصغيرة بين شذقي الحمار والحائط تمرق
أم خلف بمهارة ، وقد ظن علي أن المكان لن يتسع حتى لساعدها . ينسل
متفاديا الشدقين الرطبين والجدار الأغبر ، فيتلوث بنطاله بهما . تغيب أم
كلثوم . يستمر زمير السيارتين شرسا متصاعدا . ويميل علي الى جارته
ضائق الذرع : « يجب أن أعلن على رؤوس الملاء أن للبرجوازية حسناتها . »
لا تلتفت اليه . تتابع سيرها النشيط ، وبعد قليل تهمهم : « أمه ؟ » .

تستأنف أم كلثوم تغنيها بما بدا لعلى أمنية سهلة التحقيق : يا ريت
زمانى ما يصحنيش . يخيل اليه أن صوتها ينطلق من كل فتحة من هذا المكان
المحشو ، ومن جهات دمشق الاربع . النوافذ الطويلة المغطاة بورق الصحف ،
ترسله أو تنصت ، الشرف الناتئة فوق دعائم خشب منخور ، تبدو وكأنها
انتفخت به ، وجميع صور الطين والرحرحة والراثثة والبلهنية ، تمتصه
وترتشع . هنا وهناك تنتصب موجهات التلفزيون ، ولعلها الوحيدة التي ظلت
قاصية عن مداه .

في الحانوت الصغير المزدحم بنماذج الأثاث ، تستقبله أم كلثوم بالأمنية
نفسها من جوف المذراع المتربع على الرف الايمن . يرتطم صوتها بلوحات
كتابية صغيرة علقت على الجدران : يا رب سترك - الحسود لا يسود - هذا
من فضل ربي - لا تكن للعيش مجروح الفؤاد انما الرزق على رب العباد -
الله يرزق القائم والنائم والمتكىء على جنبه . في مكان بارز علقت لوحة
مؤطرة لآية الكرسي ، وغير بعيد عنها صورة لعين مفتوحة اخترقها سهم .

يطل حمدي الببش من خلف بطنه الوسيع ويرفع الصوت ترحيبا بالقادمين .
حفلة استقبال بدستة من التحيات والاسئلة الحميمة . لفطة طيبة من الاستاذ
علي وخلق كريم : لقد شرف بزيارته المكان . تبتدره أم خلف بالحديث :
غرفة نوم يجب أن تكون أفضل ما صنع ، أن يعتبرها لأم خلف . ويعلن لها :
« لا يكن لك فكر . ما دام أن أم خلف شرّفت المكان ، ومعها الاستاذ ، فستأخذ
أتقن الشغل وأجود البضاعة » .

يتحدثان ، وينصرف علي الى تقليب الدليل . تفاجئه النماذج الرائعة ،
ويفاجئه أكثر أنها من ألمانيا الغربية . ثم تفاجئه الكازوزة وفنجان القهوة .
أخيرا يشير الى الطراز المرغوب . يمسك بعجل الحديث ويسله من حنجرة أم
خلف المتفتحة . يقدم للببش خمسمئة ليرة وينتزع منه وعدا بانجاز عمله في
وقت محدد . يشد الببش على ذقنه لتوكيد كلمة الشرف : « بعد شهرين
يكون السريران في بيت أم خلف جاهزين للاستعمال وعلى أحسن ما يرام » .

ينهض علي فتنهض أم خلف بوداعة . خلال كلمات الوداع الحارة لا تنسى
التوكيد على اتقان العمل ، مطلقة جميع ما في جعبتها من سهام الصداقة
والمراعاة . يعودان وتعود معهما أم كلثوم ، تقترب وتبتعد من حانوت الى
آخر ، وقد أدركت الشمس ساعة الأصيل ولم يدركها الصمت . عند المدخل

يعبران بالشيخ الاعمى ، كبريتاته ما تزال في موضعها ، رأسه يميل يمنة ويسرة ، وصوته النادب المنهه ما يزال يهتف : « الله .. الله .. الله .. »

وتتنهد أم خلف لغير ما سبب واضح : « الله ولي الامر والتدبير . » ويعلو صوت المؤذن الرخيم : « الله أكبر ! الله أكبر ! » ويتضرع متسول آخر في ساحة الشهداء : « من مال الله ! الله يدفع عنكم البلاء ! » ويصيح صوت أمام مبنى المجلس النيابي : « الله سبحانه وتعالى أعمى قلبك . » ويلصق بائع الذرة الصفراء على كراجته اعترافا مكتوبا : يا عالما بحالي عليك اتكالي . ويأمر صاحب عمارة ذات طوابق سبع بأن يحفر على الحجر فوق المدخل شيء مثل : الملك لله وحده ، أو غير ذلك . وتتنهد عائدة متعبة من التفكير في المستقبل : « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا . » ويحمم شيش بيش حانقا : « الله يرزقني دو شيش لأريك كيف يلعب النرد . » ويعلو صوت محمد عبد الوهاب : « واللي انكتب عالجبين لازم تشوفه العين . » وتتنهد دمشق .

خبر اجتماعي أوردته إحدى الاسبوعيات تحت صورة صاحبه (وهي صورة تتميز بابتسامة منهمكة وسترة ذات ياقة عريضة مدروزة الحافة) : ملحمة شلهوب . . قرر أن ينقل نشاطه الاجتماعي هذا الموسم من بيروت الى فاريا ومن الساحل الى الثلج . . . فقد استأجر هناك شاليه بمبلغ عشرين ألف ليرة لبنانية . . . والشاليه من عدة طبقات ، ويعتبر فيلا قائمة بحد ذاتها . . . وللمناسبة فان الاقتصادي الشاب يملك في فاريا قطعة أرض كبيرة سيبنى عليها في السنة القادمة فيللة ستكون فريدة بهندستها المعاصرة .

تقترب متسولة في السابعة من شيش بيش وتمسك بكم سترته فيفيق من سباته النردي . « اشتر ورقة يانصيب ، الله يربحك . » « يربحني أنا ؟

أنت تمزحين • لم ينظر في وجهي منذ ثلاثة وثلاثين عاما • لو يبعث لي
دو شيش فقط • « ويقذف بحبتي النرد متوترا فتطفر احدهما وتهوي على
الارض • تمسك الفتاة بكفه الثانية : « الله يوفقك • أعطني فرنكين اذن • »
ينظر اليها وقد تدفق غضبه باتجاهها : « ان لم تخرجي من هذا المقهى خلال
سبع ثواني ونصف مصمت رقبتك » •

تبتعد الفتاة ويأتي النرد لشيش بيث بستتين فيكسب الشوط • يصيح :
« أنا ملك الطاولة • » ينهض متشامخا ويسوي قميصه داخل بنطاله • يتأمله
الآخرون مبتسمين ، بعضهم معجب وبعضهم حائق • يتناول علبة الدخان ثم
تبدل وقفته وانطباعة وجهه : « أين القداحة ؟ من أخذ القداحة ؟ » تكتسي
الوجوه بالحيرة والتساؤل ، ولا يطول بهم الوقت فيخمنون أن المتسولة الصغيرة
قد ربحت الجولة • « لو أنك أعطيتها فرنكين لوفرت ثمانين ليرة • » « ما كنا
نعرف أن بين العرب من هم على هذا البخل • » « يا الهي ! لو أنها انتظرت
دقيقة لأعطيتها ليرة ، أو لو ألحت مرة أخرى • »

ينزج في الشارع بغير ما أحاسيس واضحة • لا يشاء اللحظة أن يستبطن
ما في نفسه ، فيرمي بخلجاتها في بئر خاطرها المنسي • من فم الشارع الجانبي
تبرز مجموعة من الفتيان بضحك وصخب شقًا سكون الليل • يتحركون أمامه
نشيطين فوضويين ، ويطن في مسمعه لفظ كلماتهم المتقاطعة • أكبرهم سنا
يصغره بنخسة عشر عاما : يقود جلبتهم ويتحرك معهم بكل الحرية التي
يملكونها • يدير الفتيتان ظهره • يمشي غير مجروح تماما ، آملا خاملا •
ينداح في الليل ورذاذ المطر ، خلفا وراءه شارعا اثر شارع • عند الناصية
يتوقف • عليه أن ينتظر اشارة المرور الخضراء ، وأيضا أن يعرف وجهة
مسيره • ينظر الى البلورة الحمراء المحسوب عمرها بالثواني ، ثم الى البرتقالية

وقد لمعت فجأة وبلا مقدمات لتعلن الانطفاء الآتي للاولى • ثم تضيء الخضراء •
تنطفئ لحظة أن تتوهج البرتقالية • تنطفئ البرتقالية لتضيء الحمراء •
حمراء ، برتقالية ، خضراء • خضراء ، برتقالية ، حمراء •

وسرعان ما يدير ظهره لدوامه الزمن والموت • يبتاع من أحد الحوانيت
كبريته ويشعل سيجارة • / مستلقية على سريرها وقد انحسر القميص ، عن
فخذها • يشعل سيجارة مرة ثانية / لو أستطيع أن أمسح بأصابعي على
صفحة البحر المساء • يحييه أحد العابرين : « كيف الصحة ، دكتور ؟ »
« ممتازة • كيف أحوالك ؟ » « ان شاء الله بخير ؟ » « نحمد الله • كيف الاهل ؟ »
« بخير الحمد لله • دعنا نراك • » « بين الأيادي • الى اللقاء • » « الى اللقاء /
لو أن هناك وسيلة •

ينعطف باتجاه بيته • ينفذ السيجارة فتنفصل عنها الفوامة المحترقة
وتتعلق بخيط من التبغ • يشعل السيجارة من جديد ، وقبل الدخول الى المبنى
الضخم يتأمل بيته الطيني الأعوج ويزفر / من الشباك ثم أقترب منها
وهي تنظر اليه بتوقع شرس / لا تخافي مني انما جئتكم متعبدا / يفوح أنفي
بين التدويرتين الصلبتين / آه يا أم شهوات الزمن التي لا تخبو • يغلق الباب
ويقصد الغرفة اليمنى ، الطفلة وجدتها نائمتان • يدخل الى غرفته • يغلق
الباب ويسند ظهره عليه / يا ليل الينابيع الغائرة في قعر العالم ألبس
الاشواق الوضاعة ثوبا أسود / عسى أن تكون نائمة الآن • يهبط لنفسه قدحا
من الوسكي • يتقدم من النافذة • يفتح باصبعه فرجة في الستارة المعدنية
فيتسمر جسدا واصبعا : لم تنم بعد • يهوي على الكنبه القريبة ملتهب
الجبين ، فيعجنه تعب مفاجيء وشعور بعجز مفيظ • وبدلا من أن تغرف
أصابعه من ماء البحر ، تنقبض على ذراع الكنبه وكأنها تبكي / أبطال الوثب

الطويل لا يقفزون أربعة أمتار من شباك الى شباك لكن اللوح المسحور يحكم
على مارد من الجان مستعد لمساعدتك فاذا معكته أتاك المارد وحملك أنت
وأسمى الى بلاد أخرى فاذا شعرتما بالبرد أو بالحر انقل زمردة الخاتم الى
اليسار فلا يهكما البرد ولا الحر واذا أردتما النوم انقلها الى اليمين يأتك
سرير وثير واسع واذا جمعتما فهز هذا القدح يحضر أمامك سماء زاهر
بأشهى ألوان الاطعمة وبعد الاكل احتملها المارد فوق السحاب وطار بهما الى
جزر واق الواق واذا بالجزيرة الاولى مليئة بأشجار وطيور وغزلان تنطق
وتتكلم باسم الحب واذا بالجزيرة الثانية حافلة بشمار تكونت على أشكال
الرجال والنساء وبالثالثة متلعة بالصخور والصخور مساكب أزهار علت في
الجو وتفرعت في أديم الشمس فزاحمت رائحتها الهواء / أريد أن أطير فرحا
وأقول لك ما أجملك ما أجمل روحك الشفافة ونفسك الصافية وما أجمل
العالم لانك وجدت فيه وما أجمل هذا البيت الطيني المعشش بالبق لانك تعرين
فخذيك عفوا في احدى غرفه لك تقام صلاة الحب ولملمس جسديك الحريري
تهفو الخلايا وتتأطر في الخاطر المنهور صور أبدعتها رخاوة ألف ليلة وليلة
يا جسد النور المسوس بالشبق ويا حرم الصبوات المضطهدة يا عريشة اللحم
المزهر طيبا وطعما ولونا ولمسا يام غبوق المساء وصبوح الفجر • ينهض السي
الستارة • يتجشأ فيحسو بعض الوسكي • يفتح في الستارة فرجة • تدخل
عينه في الفرجة • تتكتك رقاع الستارة • يمتد الساعد العاري على النحر
الفائر • يمتد الفخذ العاري على السرير الفائر • تمتد عينه العارية عبر
الشباك الفائر • يدخل في الغور • يغور في الغور • يغور فيه الغور / أسمى
لا تخافي انما جئتك متعبدا وتزجره عيناها القاسيتان اللافتان لماذا لا تضعين
ستارة كثيفة على نافذتك كل ما أملكه وسأملكه رهسن اشارتك / تتحرك
تسحب القميص فوق البحر / أنا ذو الربطة النفيسة والنظارتين المهيبتين أتصمغ

تنمو فيها أزهار الموتى وتعلو فنشم رائحتها بغبطة ربداء ونتشوف فيها خوالج الحياة والموت .

فجأة تومض في خاطره فكرة مخيفة : انه بلا تاريخ ، انه يفتقر الى ذلك النوع من الحكمة الذي ينحدر الى الانسان من أصلاب القرون والصناعة المستمرة للحياة . هذه الامة ، لماذا توقفت طيلة ألف عام ؟ ها هو ذا ، طبيب أخصائي ، شاهد العالم وآب الى دمشق وليس فيه شيء أعمق حقيقة من رغباته البدائية . يشعر أن كثيرا قد فاتته ، وفات أجداده ، مئات الرغبات الصغيرة والكبيرة ، وأن تاريخه يبدأ الآن : مع أول تلبية لأول رغبة ، وأن هذا الاستمرار سيصنع بالفعل تاريخا حقيقيا ، عندما تتراكم الاشباعات فتغدو في وجدانه حقيقة صلبة كهذا البيت الذي يعيش فيه . وما التاريخ بعد كل شيء سوى تفجير بدائي للحياة وتلبية مستمرة لها . كلما تفجرت رغبة بدأت حضارة . وهذا الرجعي سليمان لا يفهم أن طهر النفس ونقاءها من الرغبات يعني ببساطة : الموت .

يربحه جرس التفاؤل والحيوية الذي انتهى اليه . ألف عام لا علاقة له بها ، محسوبة عليه وهو لا يريد لها . وكأنه نام خلال هذه الفترة المروعة كلها ثم أفاق وقد صار كاريكاتورا : عقلا كامل الامكانيات ، خيالا حرثته الاحلام ، وجسدا جائعا : لكان عقله نام ليلا واحدا فقط بعد أن مات المتنبي ، وخياله أسبوعا ، وجسده هذا الامد الاميد المديد . ثم أفاق فنهض يبحث عن الطعام بسعار آكل . أي جوع ! وأية فظاظة !

قبل أن ينام يكون قد نسي خوفه من التاريخ .
تتقلب أسمى على سريرها . تطفئ النواصة . تدثر باللحاف حتى

قمة رأسها • تتكور تحت اللحاف وشدس يديها بين ركبتيها • تغمض عينيها •
تهمد • تقذف باللحاف على الأرض • تثب إلى النواصة وتضيئها • تهرع
حافية القدمين إلى المطبخ • تقف في الفسحة الضيقة : الصحن والأواني تلمع
على رفوف الخشب المتآكلة / سلمت يداك يا ست أم إمام صحنك وطناجرك
نظيفة حتى من الغبار ومن أين يأتيها الوسخ ؟ تلتفت إلى حيث خشيت أن
تلتفت : في الركن ترى صحن البامياء الذي أرسلته أم خلف • تستدير بنبرة
إلى الصنبور • تغب من الماء حتى يغب على قلبها • تضرب بيدها على تدوير
السرة وتفركها • بنبرة تغلق الصنبور • في أحشائها توتر يمنع عنها الهدوء •
تتقدم بخطى وثيدة إلى صحن البامياء • تمد أصبعها وتمسح بها الحافة
الملوثة • تتلوث الأصبع فتلمسها ، تقلبها بين شفتيها وتلمظ • تنظر عبر
النافذة المشرشرة متوجسة من أحد يراها : لا شيء سوى موجهاً التلفزيون
على الطرف الآخر من العالم / هذه المدينة صحراء فيها تجوع أسمى ابنة
العشرين ربيبة بيت الطين لسوف ألقت المدينة درسا

تلتفت وإذا إمام بالباب واقف • « أرى أن الجوع زادك رشاقة ، » يقول
لها • تعدو داخل البيت وتعود مؤتزة بجلاية • « لم أقصد شيئاً ، ولكن
تعرفين أباك • » « وانما الامم الاخلاق ما بقيت • » « رأسمال البنت شرفها • »
« الاخلاق أهم من الجوع • » « تجوع الحرة ولا تأكل بشديها • » تنقض على
السرة الناتئة من يده ، تختطفها وتهرع إلى الطاولة المتآكلة • رائحة الكنافة
الساخنة تتغلغل في أنفها محمولة على بخار خفيف • تجلس على الكرسي
وتوقع بقدميها ضربات سريعة قصيرة : « صديغي يرتجف ترحيباً بالكنافة • »

خلال دقائق يلتها طعامهما بصمت : إذا حضر الطعام بطل الكلام •
تثب عن الكرسي وتنقل الصحن والملاعق إلى المجرى • يقول إمام : « أخيراً

تكرموا علينا ببعض المال • « كم أعطوك ؟ مئتين ؟ » « لا يخطر لك أن عاملا اتحاديا متفرغا يعطى مئتين • أعطوني يا ستي ثمانين • ست عشرات وعشرين معدنية • » تختطف المغلف وتنش محتوياته • تذرو الاوراق في الهواء ، تطير الاوراق ، تترنح وتتهاوى • تغرف القطع المعدنية وتقذفها في الهواء • تلتقط بعضها وتقذفه كرة أخرى • في ثوان تتناثر القطع وتدرج على أرض المطبخ • تختفي في الشقوق والزوايا الا قليلا •

يقول إمام : « مثلك من يقود الطبقة العاملة في أمة العرب نحو أهدافها • » « سوف ترى • يوما ما سأرش عليهم أطنانا من المال • » « ولكن المال ليس هدف الطبقة العاملة • » « المال جانب مهم وأنا سأتكفل به • » « حتى يأتي ذلك اليوم ، تعالي نجمع فلوسنا ونفرح بوجودها طول هذا الليل وعرضه • » تغيب الابتسامة عن وجهها : « لماذا ؟ ستدفعها غدا ؟ » « خمسا وستين فقط • وغدا نذهب الى السينما • » يظل وجهها كامدا • « ماذا ؟ » « لا شيء • يبدو أننا لن نشبع الخبز أبدا • » تستدير الى المجلى فتخطب الصحن والملاعق ، وتتعالى قرقرة • يبتسم إمام • يدس يده داخل سترته الخاكي ويسحب فستانا • يجمع الفستان على هيئة مظلة ، وبحذر وخفة يسلمته حول رأسها ويفرشه على الكتفين • تهرع الى المنشفة فتمسح يديها • ترمي بالجلابية على الأرض • تسوي الفستان على جسمها ، تقفل سحابه وتسويه ثانية • تتناول مرآة الحلاقة الصغيرة ، تعاین الفستان ، والمرآة تعلو وتهبط بيدها كالمروحة • ترمي بالمرآة وتثب على إمام : ذراعاها حول عنقه وساقاها حول خصرته • يترنح الاثنان • يتقهقر هو الى الخلف ويداه تتطوحيان في الهواء •

في زمن ما يفيقون • رحمة من الله ، أو علامة من هذا النوع ، تدركهم •

ثم يخلدون الى النوم أو يطفئون المصابيح ويندسون تحت الألحفة • شيش بيش لا ينام • يتذكر رواية بهذا العنوان قرأها ذات مرة ، أو بعنوان قريب منه • أربعة أمتار فقط من مدى العالم تفصله عن النوم ، لكنها لا تنقص أبدا • شارع قزم طولا وعرضا يفصله عن النوم • كلما رآها في الشارع وتابعها حتى ليكاد أن يمسه ، لجمت لسانه تلك المسافة الشريرة • في تحركها العادي النابض ، قوة تدفعه عنها وتجذبه اليها ، تعقل الشوق المتمطي في عروقه المفيقة • قيل ان الابنية على الجانب الآخر ستهدم وستنهض مكانها أبنية جديدة كالتى يسكنها • ما الذى سيحدث عندما تتحضر هذه الفلاحة الفجرية وتسكن بيتا جديدا في مكان جديد ؟ سوف تزداد الامتار ، وسيكون للنوافذ ستائر تغطي عري الفقر المفضوح في البيوت المتيقة • يضغط على جسده الخوف ، ودون أن يعي يتمنى لو تبقى بيوت الطين الى لابد ، لو يقيم الفقر فتبقى النوافذ مكشوفة وجسدها بدون قميص نوم • لكن ، ثمة فرصة دائما ، وسوف تقبل دعوته ذات يوم • ذات يوم ، وسيطرها بأشواق أكثر حياة من حلمتيها ، بحب واهب وخلاق ، سيفنيها عن الكدح لأجل اللقمة ، سيفطي جسدها بالحب وبالثياب ، سيارة وأسفار ، أميرة بيت رحيب وراحة أبدية •

وعندما يخلد شيش بيش الى النوم يشعر أن شيئا ما ينقصه • ليس الرجولة بين الرجال ، ولا حب الحياة ، بل شيء أشبه بالثمل المتقد : حين تنفل الخمرة في العروق وتلهبها الى ما هو أبعد من حدود البشر ، وتثلكا الفزيولوجيا فيتأكد أن كل ما قاله الاغبياء القدماء عن ازدواجية الروح والجسد صحيح لا سخي ، وتغدو الخلايا مرساة ثقيلة تنزل باللهب المستمر الى قاع المحيط •

ولكن ما هو هذا الشيء ؟

سليمان لا يعرف اجابة • يعتقد أن السؤال غير وارد أصلا وأن الوضع

البشري عكس ذلك تماما : أن الانسان راس في قعر ميناء بلا أمواج ، وأن ذلك الشيء المجهول يجذبه من قرارته الى أعلى فينجذب ، يسحبه فينسحب ، يقوده عبر شوارع العالم فيفترب . وعند الباب يتناول من جيبه مفتاحا يدسه في القفل بتؤدة وحذر فلا يصدر صوتا . يدخل ويفلق وراءه الباب . يعبر البهو بلا خوف : أن يلقي الزوج أمامه يضربه بقوة الخلايا العمياء ويكثومه على السجادة الكتامة . لكن القادم عادة دائما . عادة ذات الساقين البرتقالتين، صبوة الرجال وأنشودة عباس . المرأة ذات القميص الحريري كجسدها والشعر المسفوح صوب نحر خالي من النتوءات ، غواية الارض التي يحكمها شيطان من مملكة النفس . تستقبله بضمة حرى وعينين مغمضتين تتصمغان على صدره الخنزيري . في الوقت المناسب تغلغ عنه القطعة المناسبة ، وتضمه . لا يعرف كيف يجتاز المسافة بين البهو والغرفة ، كيف تحركه عادة ، ترفع ذراعه ، تقوده . يعرف أن ذراعيه لا تغادران خصرها الا الى الظهر اثر كل اندفاع من جسدها .

ينتهي طقس التعري : هو ثابت في وقفته الخشبية وهي تتلوى أمامه وبين يديه كالأفعى . أخيرا يلف شعرها حول يده ويسحبها الى الفراش المنبسط على أرض الغرفة .

وتكون تلك حركته الوحيدة . تسيطر عليه بالتواءاتها وشبقها فتسمره . وفيما يحس بامساح جلدها الأملس العنبي على أعشاب جلده السوداء ، يتساءل عن السر الخفي للحياة التي تمتلكها خلايا يمكن دائما أن توضع تحت المجهر . متى سيكتشفه العلم ؟ واذا ينتشله الشبق من قعر مينائه الراكد يشعر كأنه سمكة انبثقت من جوف البحر في نوبة لعب مفاجئة . سمكة تريد أن ترمق العالم المتكاثف فوق الماء دون أن تخسر عالمها التحتي . لكن خوفا غامضا

يفاجئها لحظة دخولها غيبوبة الخروج - خوفا رائعا مروعا • ويشعر سليمان بشيء ينسل كاللهب ليدخل من الباب الضيق للحياة العريضة المخيفة ، وأن عادة تقتنص هذا الشيء بأنانية مطلقة وشبق رجيم •

ولكن ما هو ذلك الشيء ؟

يرمي سليمان ثيابه بتمهل كثيف ويندس في الفراش • يرمق صورة أبيه بصلاية وكدر قديم • ويرمق عباس جسد عادة المضيء في فضاء غرفته المظلم ، ووجهها الناضج لونا ورغبة : قبل أن يستلم زوجها مشروعه الجديد سيستلم هو جسدها المعافى • وتؤمئ عائدة متهدلة الحنك على حافة الوسادة • وقبل أن تسترخي أسمى للمسمة النوم تتلمظ طعم الكنافة • ويضع الملك قلمه في الفمد ثم يطفىء الضوء مطلقا آهة طويلة • وتتلملم أمية تحت لحافها •

ويتثائب الليل • في زمن ما ينامون • في زمن ما يتعبون من الضوء والحركة أو يخافون • لكنهم لا يموتون • دمشق لا تموت • كلما استكانت فيها الاشجار وهمدت أنفاس الناس ، هبت عليها موجات الريح الشرقية ودغدغت جسدها الغيور برمال الصحراء • تثور الريح والصحراء فتفص المدينة بذريعات ميتة • ينعقد الغبار في الجو ، ينسرق عبر النوافذ والمسافات لينتصق بمسام البشر وأجفانهم • وآن يخلدون الى النوم يغيم الغبار فوق أعينهم وينسج غلالات رقيقة قاتلة • يتحرك فيهم عكر قديم شبيه بلجة حبيسة فيحيل البطيخ الاصفر وزهر الياسمين الى رؤى • يصير الناس غبارا • يجوبون فضاء المدينة كما تجوبه عينا عباس في بحثهما عن الصحوة الأكثر شبقا لجسد عادة • العذاب هو أن يمتلىء الخيال بصور لا تكتسي لحما ودما : صور كاهنات المعابد في بابل اللواتي يعلمن دين الرب عبر الجسد المقدس ، غبار الخماسين فوق الوطن الصحراء الذي ما زال ينصب التاريخ منذ خمسة آلاف عام ، اللحم

والدم اللذين ليسا صورة بل مجرد كثافة تتحرك في البيت وتهمد على السرير
كمقدار رصاصي • يتعلقون بكل بخيرة سابعة كما تتعلق أمية بحلم حياتها الآفل •
منذ سنين والبخيرات تتجمع فينتفخ بطن السماء بسحب لا تمطر الا في عينيها
اللتين تراوغان الحزن • لا تدري ما الذي قد يحدث بعد نصف ساعة ، وخير لها
الا تتوقع شيئا فملاك الرب لن يزورها • لكن الحلم صار حقيقتها الوحيدة •
وهي تتبادل مع عائدة نخبه كما فكّتا عقال الكلمات • ليس مطلوباً منه أن
يتجسد بل أن يعزي • بين فراشها واللحاف يترقرق كنسيم دافئ تسلل عبر
جدران الغرفة الباردة : حلم المرأة الصغير بأن يكون الرجل جديراً بالحب •

بوجه الغبار تغلق عائدة الابواب والشبابيك ، ثم تجده مستوطناً شرفات
أضلاعها • أي سديم يتزحزح في لبّ خاطرها الذي رجّته الانهيارات • يوم
فتح الشك أصابع قبضتها فوجدت لا عباساً ، وانما غبار عباس ، مادت تحت
قدميها الارض واحترقت أجفانها • وتسأل نفسها الآن : ألم يكن أفضل يارب
لو أنك خلقت الرجل وفيما ؟ ثم تستغفر الله • وتنظر الى ظهر عباس المتمدّد على
السرير فتجد طينا هلاميا ثقيل الوطأة ، زوبعة جوفاء ، صندوقاً عاجراً ،
بالونا نفخته ريح السموم ، نرجسة وربعا خاليا •

وتحت خيمة الغبار يتناول إمام خبزه كفاف يومه • ويوم يتجمع في جوفه
وجوف أم خلف ، في باطن جميع المتعبين المدعوين الى راحة المسيح ، تصير
البخيرات غماما وتسقط مطرا ينقر الجدران والارض بحباته الضخمة الهاوية •
الحياة هي أن تكسو صورة المستقبل لحما ودما حاضرين • الموج ينبش تراب
الصخور ثم يكسوها بحلة خضراء • وأبو إمام صخرة عرّتها المياه المالحة وألقّتها
في بيت من الطين يعيش فيه الله والفقر • القليل الباقي من انسانيته يتعمشق
كجذوع مكدودة على نتوءاته الجارحة • مثل هذا الوضع البشري علّم إماما

أبجدية الثورة : صراع طبقات الزمن الذي يثمسك فيه الموتى بقتل الأحياء .
أم إمام وأمية ضحيتان . إمام وأسمى كسبا الجولة الأولى . أم خلف ارتضت
من حياتها غدوات الموج وروحاته على أديمها المتشقق . محمود ذو العينين
الخرساوين والقلب المتوهج سيطعن في المستقبل أما أعداءه وأما نفسه . سيزخ
المطر بين يديه وينقر مجاري تحمله الى لباب الصحراء .

ينقر علي على سطح الحياة المصمغ المصنع ويمد أطراف التاريخ الى مدى
ألف عام آت . الناس مهمومون بالخبز والصناعة ومحمومون بالكلمات . لو
ينزعون الصفيح يجدون كم هي تافهة ومضحكة حركاتهم البهلوانية وصخبهم
الكرتونى : فالشقوق المتعمقة في النفس صارت بؤرا للظلام بدلا من أن تكون
مصائد لؤلؤ . الشرخ حدث منذ بدء الخليقة ، مذ رفض آدم وحواء أن يخددا
مطلق حريتهما بطوق من التفاح . ما الذي يبقى من هذه التشكلات والصيغ
والنواميس بعد ألف عام ؟

الاسئلة عقبات يفرزها عقل كسول . ليس لدى شيش بيش وقت يضيعه
في الاسئلة . شيش بيش يمطر حبا وكرما وشهوة . ليست الحياة لعبة ممثل
مسكين ، كما يقول مكبث ، بل مجد الحركة والعيش المستغرق لجميع الثوانى
والخلايا والاهتمامات . انها اطلالة الفارس العربي من فوق صهوة جواده على
أفق الصحراء الأرحب . ويشب عن كنيته الى الستارة المعدنية متهيبا ولكن
جسورا . يشق بين رفاق الستارة أفقا ضيقا يعبره بعينه . لأمر ما يريجه
الظلام الكثيف في الغرفة المقابلة . يتنفس الصعداء ويتناول من كأسه جرعة .
يضيء النواصة ، ويمضي الى درج طاولته فيسحب مجموعة من الصور . من
درج آخر يتناول عددا من الاطارات يرتبها على الطاولة . يثبت الصور في
الاطارات ، ويجر الى جانبها كرسيا . يجلس على مهل ، وفي ضوء النواصة

البرتقالي تصافح عيناه جسد أسمى اللافح متمددا ، ملتويا ، متفتحا ،
متكورا •

يهوي سليمان بأسئلته المزمنة على وجه أبيه وعلى قبائل كليب وربيعه :
لقد تركتكم في لحمنا شللا ، أهذا ما كنتم تبغون يوم احترقتم سفك الدماء ؟
لقد اتخذتم من الحركة ديدنا ، وكلما تحركتم ضرب سيف سيفنا ، فما الذي
يدفعكم الى أن تفصدوا من عروقكم سلامها وراحتها ؟ ولماذا تكون عادة حفيذة
هند ، ولماذا ترفض السلام داخل بيت تخفق الارواح فيه ؟ أي اشباع تجده
في العهر ؟ ما الذي يغريكم بوعورة الصخر وجوب الفيافي ؟ فجأة يلمع في ذهنه
سبب العطل في المذياع • يتزحزح من سريره وينير الغرفة • يفحص المذياع
المعطّل بتؤدة • يفصل زوجين من الاسلاك عن بعضهما بعضا ويصلهما ثانية
في مكان آخر • يولج الآخذ بالمأخذ ويفتح الراديو • في آخر هزيع الليل تنبعث
موسيقى القرب مبعثرة من اذاعة ما في هذا العالم • أهى قرب البدو في شرقي
الاردن أم موسيقى الكرنفالات في اسكتلندة ؟ ويسترخي على قماش كرسيه
الطويل منصتا •

لو أن أسمى تنهض من نومها الآن وتسير تحت المطر • لو أن شيش بيش
يلتقي بها ماشيا في الاتجاه المعاكس ورافعا ياقة معطفه الى أذنيه • لو أنهما ،
دونما كلام ولا تساؤلات ، يلصقان كفا بكف وزندا بزبدا • ويدلجان في الليل والشآبيب •
لو أن المطر يبلل يديهما فيبعث في خلاياهما رعشة منتشية • لو أن الشوارع
تتصل وتمتد ، ودمشق تبقى نائمة • بل لو أن أسمى عاهرة تقيم في أحد
مواخير بيروت ، وهو زائر ليلي يلتقي بها مصادفة فينكر كل منهما معرفته
بالآخر ، ويرمي معطفه المبلل فيما نظرتة تسري عبر مواقع لحمها المكنون ،
هاريان صامتان ، راغبان ، كل منهما ينكر معرفته بالآخر •

وتسقط يد شيش بيش الملوثة ، تسقط نظرتة وانتباهه •

يمخر الملك عباب المطر شاهرا قلمه • « مطلوب من كل كلمة أن تكون
رصاصة • ليس فقط أن بين ظهورنا عدوا من صنع أسلاف الرئيس نجونسون ،
فتلك كليشة تسهل قراءتها صباح كل يوم في عناوين الصحف • الأهم من ذلك
أنه حتى طواحين الهواء لا تجد من يطعنها • كان دون كيشوت يعيش خارج
الزمن ، أما هؤلاء فلا يعيشون اطلاقا • فليوجد من يدس قلمه في أقفية
عقولهم المتكلسة • فلتنفض البكرات كلها ، لأنها أغشية على العيون • لو
يبصرون يرون أنيابا صفرا وليس فقط طواحين هواء • غير أن •••

ينتبه : مقبض الباب يدور نحو الاسفل ، الباب يفتح ، على العتبة تنتصب
ست الحسن يمينها العاصمتين وقبقابها العملاق • تبتسم بعذوبة وتتقدم
بالتقرير التالي : « ولي العهد ، يا مولاي ، برح به وجع ضرره ، وهو في
حاجة قورية الى مراجعة الطبيب ، فعساك أن ترمي بيجامتك وتلبس ثيابك
وتمضي الى الدكتور شيش بيش • » ويقول الملك : « أما عندنا بعض المسكنات ؟
أعطه بعض المسكنات • » تقول ست الحسن بنظرة ذات معنى : « المسكنات لم
تعد تفيد شيئا يا سهدي • » عندئذ ينكمش خاطر الملك وتمتد يده الى ثياب
الخروج •

وبينما ينامون تنعقد الرؤى فوق دمشق ، والكوابيس في شقوقها
وتلافيها • في عوالمهم السرية يتشرنقون ، بدون أقنعة يتحركون • يفصلهم
عن ضمير النهار الاسود شعور رغيد بأنهم غير مراقبين • عيون النهار انطفات
الآن في المدى العاتم لحواري دمشق وليلها المجنون • والمدى والليل اذا سجي
عيون محرورة تنطق عن الهوى وتنشد نعيم الحياة الدنيا • يتخذون الليل
لباسا • لا لأجسادهم بل لضمائر أثخننتها ضرورة الحب والزنى •

وفي زمن ما يفيقون فينبسط أمامهم عالم مختلف • يسمعون في مناكبها
مستقبلين يوما جديدا ، عاما جديدا ، دهرا جديدا • كل يمنحهم احساسا
بالانتقال ، كأنهم كانوا في موضع وصاروا في آخر ، أو في بقعة ضيقة من
الارض أمست أوسع وأضوى • ويمسح إمام وجهه بيديه ، ويتمطى مستعذبا
ذلك الاحساس • كذلك يفعل عباس • تتقاطع خواطر الرجلين في المدينة المتشعة
بالضوء الجديد ، في أزقة البؤس والكدح التي تعبرها عينا إمام ولا تعبر ، وفي
غرفة عباس المزينة بالأرائك والشعارات وأجهزة الهاتف • كلاهما غرز رجله
في الوحل ، أيام الصبا • كلاهما يشكو من بدايات الروماتزم • لقد شبعوا
جوعا وعريا • لهذا يستعجلان الزمن • يرتديان الصباح الأهل جلبابا حاكته
الآمال الكبار ووشته التوقعات الصغيرة • وينشم عباس متجها نحو سيارته ،
ثم ينطلق بها الى مقر عمله : لقد أعفى السائق من عناء الاستيقاظ الباكر ،
ليس فقط لانه يعشق قيادة السيارة - وأية قيادة - وإنما ليمتج ذلك الكائن
البائس مزيدا من الراحة • لقد تمنى دائما أن يفدو الى مقر عمله ماشيا ،
لكن الوقت من ذهب وركوب السيارة ضرورة عملية • في صباح كان يمشي
خمسة كيلومترات ذهابا الى المدرسة وخمسة أخرى ايابا •

وكل صباح يرفع إمام ياقة سرياله الى أذنيه العريضتين وينطلق • الممرات
نفسها والحارات العتيقة ، لكن نبضها لا يضعف أبدا ، نبض الطين والتبن
الذين نهضا من التراب وصارا بيوتا ووطنا للجياح • عند الناصية يلتقي
بمحمود أو ينتظره • يسلمان بكلمات قليلة وابتسامة مستمرة ، وينطلقان •
ليس عالم هذا الصباح مختلفا حقا بالنسبة لهما • انه عالم قديم مشرش ،
لكنهما جديدان فيه •

عالم متماثل ويوم آخر - على الاقل بالنسبة لأم خلف وأمية وعائدة •

منذ الأزل والمرأة تحسن الحلاب والصر ، فما الذي سيجد الآن ؟ في الزمان
الاول كان الشعراء يمتدحون المرأة المترفة ، نؤوم الضحى ، المتحركة بتشاقل
وكأنها لا تتحرك . وفي الزمان الاول قامت الحرب لان امرأة صاحت :
« وامعتصماه ! » أما الآن ، فلا الشعراء ولا غيرهم يمتدحون أية امرأة . انها
تفطس عملا في البيت ويلتمن أبوها تعباً ، وليس من يسمع خفقات الشوق
الى ابتسامة محبة . عندما لا تكون نوافذ البيت مغلقة تكون نوافذ القلب .
ومتى تفتح هذه أو تلك اذا كان الرجل رتاجها الصديء ؟ في الصباح تنهض
أمية من فراشها وهي تعلم أنها لن تنتخب ملكة لسعداء العالم . أمامها طفلان
يزعقان ، وابنتا امرأة أخرى توفيت منذ سنوات . وتعلم أنها بعد قليل ستلتقي
بعائدة وستنقصد بينهما المشاورات حول طبخة اليوم ، وستتقاطع أصواتهما
عندما تتحدثان معا وفي وقت واحد ، وسوف ، وسوف . تماما كما سيحدث بين
أما وأم خلف - اذا ما توفرت للمرأتين النقود لشراء أضاميم السبانخ وأوقية
اللحم .

لكن هذه الاهتمامات الصلبة كحقيقة دمشق ، ليست حقيقية . على نحو ما
يتحسسون غطاء مده النهار فوق رؤى الليل ليقي العيون هجير اناراتها . وأي
خير يأتي من كشف الغطاء والاحتراق بحقائق النفس التي لا يمكن أن تغدو
حقائق الحياة ؟ لتتراكم اذن أغطية السماء المنزلة ، ولتتخذ شكل كلمات
وتضاريس عن جنة كالحلم ولكنها حقيقة ، مكان محسوس قصرت عن وصفه
ألف ليلة وليلة ، تشبع فيه الرغبات وتتحقق الأمناني ، يباح في حياته العليا
كل ما حرمته الحياة الدنيا ، يهلك فيه الجوع . ولكن الى متى يستمر التستر
الزائني على الرغبة في الزنى ؟ لن يجيب النهار عن سؤال من هذا النوع .
حسبه أن يمد الغطاء ويمنح فرصا : فرصة لسليمان كي يغدو الى الاجهزة
الكهربائية المعطلة ، وأخرى لشيخ بيش ليتناول معوله ويحفر في أسنان

في عري جوعها الابدى ، ورابعة لعلي كي يحكم بالهلاك على طقوس وشغائر
لن يبقى منها بعد مئتي عام سوى الذكرى .

لا يعرفون تماما : أهم يراوغون الليل وبياض حرите أم النهار وسواد
واقميته ، أم انفسهم وتداخل ألوانها . يعرفون أن خطأ ما قد حدث ، تكرر
وتراكم ، أن صيحة « وامعتصماه ! » التي لبثاها الخليفة بجيش لجب لا تجد
من يلبيها . من تراه يغير على الروم لانهم أذلوا امرأة عربية ؟ يعرفون أنهم
أفاقوا على هذه الصيحة . وشيش بيش واثق من نهار يتعقد في فضائه غبار
الفرسان المنطلقين الى عمورية . يتخيلون ظفرا مقبلا ومجدا طارفا . يتسع
الخيال وتزداد التوقعات حتى تسلمهم في أوائل الليل الى الحلم . عندئذ
ينفلت الفرخ من ربقة القهر ويمشون على مياه السنين الى زمن اليقظة
الصافرة .

وبعدئذ يفيقون .

يفيقون بحشود كثيفة من عشرات الملايين ، بجوع مزمن الى خبز الافران
وخبز المسيح . مئة عام وهم يفتحون أعينهم على هذا النحو ، يشيلون
ويحطون . كان أجدادهم متسولين رعاا ، تنهرهم عصا الوالي والأفندي
والآغا أن يبتعدوا عن حبة القمح التي زرعوها والزيتون الذي غرسوه . وهكذا
لاذت أم خلف بالقرار من وجه يورام أهارون الذي اقتطبت روح دعاة سمجة
وجدية زعاف . القهر يتجمع ، يتراكم . سقط العرش . قتل الخليفة .
أبيدت بغداد . أغرقت الكتب . انساح التتار على الارض الدافئة . ثم راح
البشر يتضاءلون . ملايين نفقت كالكلاب الجائعة ، ووذت تحت الراية
الغضراء المرفرفة في اسطمبول . صار الوطن مقبرة . وبقي الباقي لأن الموت

تعب وكلّ ، لان الوالي والأفندي والآغا كانوا في حاجة الى من يتقوس ظهره كدحا وخنوعا والى من ينفلع لحمه تحت مداعبات السياط الحانية • ثم جاء الجنرالات ، وجاء الدولار •

ويقول سليمان : « افتح عينيك جيدا • ماذا ترى ؟ » •

يقول شيش بيش : « ماذا أرى ؟ أرى الجماهير تشق طريق الحياة • عجيب سؤالك ! أرى نعشا كبيرا يصنعه الكادحون للامبرياليين • أنظر اليهم • من هذا الشباك ترى وجوههم الحازمة ، وأسنانهم الناصعة التي ستنهش المستغلين - ليس لأنني طبيب أسنان • • • » •

يقول سليمان : « اذن ، أنت لا ترى سوى الضباب • الوجوه الحازمة هذه ، كلها آلات تنقصها البراغي ، آلات صدئة ، أسلاكها مقطعة مثل تلافيف دماغك الغوغائي » •

يقول شيش بيش : « يا ابن ستين أب ، ما دخل دماغي في الموضوع ؟ أفكار مقابل أفكار ، ما دخل دماغي في الموضوع ؟ أنا أقول الثورة ماشية ، ماشية كالنار في الهشيم ، وجهد الامبريالية أن تعوق انتشارها ، لا أن تخمدتها • ألم نتفق أنه في النقاشات الموضوعية نتجنب الجوانب الشخصية ؟ » •

يقول سليمان : « بهذه الضبايات التابعة لك ، تسميها نقاشات موضوعية ؟ أنت تمسك المجهر بالمقلوب وتنظر من الناحية الغلط • أصلا أنت رأسك على الارض ورجلاك في الهواء » •

يقول علي دون أن ينظر اليهما : « من فضلكم احرصوا ، أنتم الاثنين » •

يقول سليمان : « والله معك حق • لا فائدة من محاوراة انسان لا يميز بين

الافكار التي في رأسه والحقائق التي في الواقع • يتفزل بهذه الوجوه الميتة
ناس لا يحسون بقيمة الزمن ، أو بقيمة العمل ، أو بقيمة أي شيء - يتفزل
بهم ، ويقول : ثورة » •

يقول شيش بيش : « طول عمره الانسان يرفض الواقع • والا ما معنى
الواقع ؟ هل الحياة جهاز راديو معطل من النوع الذي تشتغل به ؟ أو أسنان منخورة
من النوع الذي أشعده كل يوم ؟ نحن نتعامل مع الجانب المعطوب من الحياة ،
معلمي • نحن لا نصنع الحياة • انما تطلع الى هؤلاء الاطفال • أنت ! افتح
عينيك جيداً • وقل لي ماذا ترى ؟ » •

« الموت ، » يقول سليمان • « بعد ألف سنة يمكن أن نصير بني آدم •
الآن ! الشاب يحلم ببنت يفتصبها ، والبنت تعلم بعريس ، لا يهم علمه ولا
أخلاقه • هذا هو كل شيء • الثورة في بلادنا لا تعني سوى خلق فوضى جديدة
توصلنا الى الموت بطريقة جديدة • أنظر الى الثوار كيف يتساقطون • أو
بالأحرى كيف يرتفعون : مال وجاه وبيوت ونساء وسيارات • متعهدين صاروا ،
أصحاب أرصدة • وأنت من أنت حتى تتكلم في الثورة ؟ ومن أنا ؟ نحن نملاً
فراغات في آلة برجوازية البلد • العمال صاروا كملاً لسترة السلطة ، والفلاحون
الكم الثاني • بعد ألف سنة يصير الفلاح ثورجي » •

يقول الملك : « أيها السادة القمل ، يا سيد داحس ويا سيد غبراء ،
اتركوا العمال والفلاحين لهمومهم وكلوا هواءكم بالشوكة والسكين » •

لكن كلمات الملك تزول من الوعي لحظة زوال أصواتها • سليمان يفتقر
الى رؤية تاريخية ، يقول شيش بيش ، الى أن يضع المرحلة في موضعها الصحيح
على خارطة التاريخ • سليمان سيفعل ، يقول ، عندما يكف شيش بيش عن

انتهاك عرض الكلمات الكبيرة : خارطة التاريخ ! تشرفنا ، وهي خارطة بالالوان
أيضا . بالالوان ، طبعا ، يقول شيش بيش ، وكل لون رمز لقيمة معينة . هذه
أمة دخلت التاريخ كذا مرة وخرجت منه كذا مرة . لكن هذا كله مضي ،
يقول سليمان ، ولم يبق على خارطة التاريخ - يقولها متهكما - سوى حقوق
اليهود في فلسطين ونساء هرون الرشيد الاربعمئة .

ثم تأتي لحظة الوعي المزدوج . يصعد الاهتمام بالنقاش الى السطح وتحت
تمور اسرائيل والنساء . العرب ، يفكر سليمان ، عاجزون عن ايقاف التاريخ
الصهيوتي ، ليس لديهم سلاح الدين ولا حتى سيف الدولة :

وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبك تميل

يهتف شيش بيش : « هذه هي مشكلتنا الآن . غزو مباشر من الخارج ، وعقد
جنسية من الداخل . وامراضنا الجميلة هي امراضنا . أيام العز لم يشبع
هرون الرشيد من النساء ، فكيف بأيام العزاء . يستحيل أن يشبع الانسان
من النساء . وظيفته أن يحب لا أن يشبع ، والحياة هي حبيبتي الفائرة
المضطجعة على سريرها . » يقول علي : « نشكر الله أن التاريخ لن يسجل
سخافاتكم . سيأتي يوم تصير فيه الامة العربية معافاة وتنسى حوار الطرشان
التابع لكم . » يقول سليمان كاظما : « الاشياء المريضة والسلبية ، دائما كانت
تسير التاريخ . مجتمع ألف ليلة وليلة ، دائما كان المجتمع الحقيقي ، في كل
العصور والبلدان . عبد الناصر ، قال . ماذا يمكنه أن يفعل بشعب من التنايل
والحشاشين ؟ سيحولونه الى لاعب أكروبات . » يقول شيش بيش مستبشرا :
« سيأتي ، بعد ألف ليلة وليلة ، أيها السيد المحنط ، يوم ترى فيه جماهير
العمال والفلاحين حاملة مشاعل الثورة العربية وتهتف للنصر . وسيعلم
البرجوازيون أي منقلب سينقلبون » .

يشيح سليمان برأسه مستضيحا مزيدا من الكلام • ويقول الملك وهو باق على جلسته : « أيها السادة القمل ، يا سيد داحس ويا سيد غبراء ، اتذكروا العمال والفلاحين لهمومهم ، وكلوا هواءكم بالشوكة والسكين » •

ويكون إمام ومحمود منصرفين الى همومهما • على أنها ليست الآن من النوع الذي يوقد ضمير الملك ورفاقه • ليست تحرير الارض ولا نضال الطبقة العاملة • في دمشق ما يزال التاريخ يقعي ويصوص أمام الدكاكين • ما تزال الفواتير والايصالات وظهر الجمعة تعطيه الضوء الاخضر • كذلك إمام ومحمود • سيمضيان الى الدكاكين ، وسيطلبان الخبز والخضار واللحم عشرة أيام أخرى قبل أن يدفعوا ما لن يكفي لرسم الخطين المتصالبين على رقبة ديونهما • ويتمتم محمود : « يزعجني علي بأريحته البرجوازية • انسان آدمي وعلى قد حاله • لكن كرمه الحاتمي لا يعجبني » •

يسأل إمام وهو يشعل سيجارة : « ما الحكاية ؟ » •

• « الخميس الماضي عرض على أمي دفع ايجار الغرفة ثلاثة شهور سلفا » •

• « ولماذا أنت محقون ؟ » •

• « طبعاً محقون ! جاء السمان يطلب فلوسه ، وتبهدلنا • قام السيد علي وعرض فلوسه فبهدلنا هو الثاني » •

• « أنت كبرياؤك ستأتيك بأخرتك ، يا ابني » •

• « بسلامة تواضعك ، أستاذ إمام » •

• « أنا لا أكابر وقت تكون النتيجة زيادة روابطي مع الناس » •

يفهم محمود المعنى التحتي لكلمات رفيقه • كذلك يشعر بصفاائه الاصيل :
بعد كل شيء هي أخته ، وهما قطعة من بلاد الله الشرقية •

ينبر بنفاد صبر محب : « هات سيجارة ، هات » •

« ما معي سجائر • حتى تخفف عنجهيتك التافهة شوية • صحيح هي طالبة ،
وأنتم فقراء ، الاثنين • لكن ، وماذا يعني ؟ أسرة نموذجية مؤسسة على دين
العمل ، وقت تتخرج هي تتحسن حياتكما تحسنا كبيرا » •

« زوج الدكتور ؟ يا حبيبي ! هذا ما كان ناقصا • وأنا سأكون ممرضا ،
سأناولها المخارز والكماشات » •

« أنت رجعي حقيقي » •

« أنا عامل • العامل في بلادنا السعيدة لا يتزوج دكتورة » •

« تريد لها لفأية لتتزوجها ، اذن ؟ ستقضي على مستقبل البنت يا غبي •
لن ينتظرك أبو إمام الى الابد • هناك من يحوم حول البنت » •

يتوقف محمود عن المسير ويتفحص رفيقه : أهو جاد أم يرمي قنبلة
اختبارية ؟ يتابع إمام سيره متعمدا • يسرع محمود اليه ويلتقطه من
ساعده :

« ماذا تعني ؟ أنت تتبع أساليب المخابرات » •

يتوقف إمام ، يداه في جيبه ووجهه جاد وحزين : « أعني جارنا ، طبيب
الاسنان ، يلقبونه شيش بيش • اذا تقدم ، لن يقول له أبو إمام : كلا • عمره
ثلاث وثلاثون ، ماتت زوجته منذ أربع سنوات ، وتركت له طفلة تعطني بها
ستها » •

يتهيج محمود دفعة واحدة ، ويهز ذراع رفيقه : « أنت مجنون ! لن تقبل
بهذه الصفقة • والا كنت خائنا » •

« ولماذا تقبل أنت ؟ تفضل ، البنت جاهزة » •

يطرق : « أنا ؟ لن أتزوج أسمى • هذا نهائي » • ويحتدم ثانية :
« اتركوها تشق طريقها ، يا أخي • هذا ما بودها » •

يتابعان المسير صامتين متكدرين • ينظر إمام الى الشمس الغاربة ويطلق
زفيرا • بعد قليل يتمتم : « ما بودها ليس أهم شيء عند أبو إمام » •

يعقب محمود بغضب كظيم : « لا تقل لي أنك عاجز عن منع هذا
الزواج » •

ويدرك شهرزاد الصباح • يصمت الرفيقان وهما يتابعان سيرهما الوئيد •
تتلاشى أصواتهما في مهمة المدينة الخافتة • تغيب الشمس ، ثم تحمل اليها
بقايا ضوءها • تلمع أضواء السيارات والنجوم البعيدة • تتراكم الغيوم في
السماء ، وفي قلوب البشر • ويلقي المساء بثقله على الشوارع ، فيغلق محمود
باب غرفته ويشتم في سره المساء • هذا ما كان ناقصا : أسمى في ثوب الزفاف
الابيض جالسة في السيارة الفخمة ويدها بيد الدكتور ، ورتل من السيارات
بطلق من أبواقه أصوات العرس البرجوازية المنفرة • يتناول من رف الكتب
مجلة ويجلس على الكرسي ماذا ساقه على الطاولة • يصرخ : « أمي ! اعلمي
لي قهوة / متأسف يقول أبو إمام البنت طالبة جامعة وبودها تصوير دكتورة مثلك
ومن تظن نفسك أنت هذا ما كان ناقصا / ولكن لا ، أبو إمام لن يقول ذلك /
المؤخر يا ابني ٢٠ ألف ليرة • يفتح المجلة لا على التعمين : السياسة العربية
أمام منعطف حاسم / انما لا تنعطف أبدا • ينهض بالمجلة ويعيدها الى رفها •

تدخل أم خلف حاملة فنجان القهوة : « كنت أغليها لك ، » تقول له . يترك كتابا همّ بتناوله ، ويعود الى أمه : « يا أغلى أم في الدنيا ، » يقول ضاحكا ويقبل يدها الحاملة للفنجان . يرشف شيئا من القهوة ويحمم معجبا . لكن (مسرحيته) لا تنطلي عليها . ترمقه مستبطنة وتبتسم . تغلق وراءها الباب .

بهدوء يترس الباب ويمضي الى درفة خزانته المقفلة . من هناك يتناول كتلة خشبية مقمطة ، وازميلا ومطرقة وورقة برداخ . يضع أشياءه على الطاولة ويسدل الستائر . يقف أمام الستارة ، فيما تصله أصوات المدينة الحياضية الخافتة . يضع يده في راحة يده الاخرى ، وفي رأسه تساؤل مبهم بلا كلمات ، حيرة كدرة . تلوح أسمى في ركن من مخيلته ، في مكان ما من المدينة ، ثم تنتقل الى ركن آخر ومكان آخر . تلوح كخطوط أولية لرسمه انشغل الفنان عن متابعتها بالتهجد لها فبقيت في خاطره الولوع . لكنها ليست أبدا في البؤبؤ من. غينه الداخلية . لسبب ما ، لخوف أو شغف أو تعب ، تبقى بعيدة عن مرمى البصر . تظل في تلك الزاوية مرئية وغير مرئية ، ويظل خاطره راشعا بوجودها ممتنعا عن التوجه اليها . ومن يدري فقد يسعدها الدكتور . بيت من حجر نحيت ، ودخل وفير . يقولون ان الحب غشاوة من بلاهة وعازة ، وبعد حين تنجلي فيصير المرء عارفا بما يريد . هي ، ماذا ستقول ؟ ستبقى حيوياتها حرزا يصونها من الاستنقاع . ستظل أقوى وأجمل .

يعود باطمئنان رقيق الى الطاولة .

ينزع القماط ويبدو رأس ارتسمت منه معالم وجه مؤنث وعنق ممدود وصدر عار . في البداية فكر أن يضع عليها وشاحا نصف شفاف يكسبها خفرا وغموضا . ثم سقطت الفكرة . قال لنفسه ان الخضر هو الاسم الطلي للمبودية ،

والغموض ليس الوصف الأحب للحياة • لان أسمى هي الحياة ، والعري
والحرية ، والريمان والعنفوان • وهي البراءة • وأسمى ستظل فراشة
رداؤها جناحها ، وحقيقتها ألوان بشرتها الزاهية وملمسها الوردي •

تحمل يداه الازميل والمطرقة وتقتربان بثبات من كتلة الخشب • تقتربان
فتتوالد فيهما شدة متوترة ويهم بهما الارتعاش الا قليلا • ببطء يمتد رأس
الازميل الحاد نحو الكتف المغطى بشعر مبهم ، ببطء يلمسه ويستقر عليه •
عند العصر تلقي أسمى بنظرتها الاخيرة الى مرآة الحلاقة المربعة في المطبخ •
تدس يديها في جيب معطفها وتنطلق • في الشارع ترشقها قطرات المطر ، فتشب
من مكان الى مكان موحومة ونافرة • تستدير باتجاهها الرؤوس وتحديق
الأعين • وفي منتصف شارع صغير ، يثبت شيخ عكازه على الرصيف المسقوف
ويدفد اليها وهي تنطنط ثم تهشل • يبتسم متهدل الذقن •

وفي البهو الواسع يجلسان • بينهما والمطر زجاج لا لون له ، وانفاس
الرطوبة المنعشة • وأمام المجلى تقف أم خلف : الى يمينها هضبة من الصحون
والأواني وبيدها قطعة الاسفنج الراشحة صابونا مذابا •

عتمة خفيفة وسكون كثيف • حركة صغيرة لا تجرح صمتا : يقدم علي
للفتاة سيجارة ، ويفاجأ بتناولها لها • يشعل السيجارتين • يرمق الوجه المنير
وحب الشباب المتفرق عليه ، الشعر الأشهب السابل وتدويره الأنف الصغيرة
البارزة • ابتسامة تتفادى الحرج ، وكلمتا حب للمطر تعبران الصمت بلا
صدى : كيف يفهم الامور بين سيجارتها وهذا الحياء ، الانكماش الشرقي
ونظرة العينين الثابتة ؟ تعب من سيجارتها بانتظار هادئ •

حتى الآن ما يزال الجسر قائما • لكنه بغير عابرين ، بغير عابرين سوى

تأملات تفر من عينيه ويعجز عن ضبطها • يشعر بها ثقلت بلهفة الماء الى المصب : أمامه ينتصب جذعها كسهل بدوي يتدور داخل قميصه بيضاء احتوت كل سمّ فيه وشدت عليه بلا تثنيات • من أديمه الواقف كقصبة نهريّة نبتت محارتان وشقتا مكانا وعليدا تحت جنح الثوب الصغير •

يتذكر اختبارات أم خلف بفرح خبيث ، الحمام التركي وغرفة النوم وجملّة المسرات الآتية • يبحث عن الكلمات فيردها عن ذهنه وجه غير مصغ وعينان شاردتان • مرة أخرى يقدم سيجارة ويشعلها • ينظر الى تكوين الفتاة الخالي من زيادات الشحم ونقص اللحم • تعبّره صور عمر أعرج وتطوحات حياة باهتة ، وتترك تحت وقع المطر ترجيعة حزن •

وتتذكر اختبارات أم خلف بفرح خبيث ، الحمام التركي وغرفة النوم وحياة الزواج المقبلة • تبحث عن الكلمات فتجدها جاهزة مسلسلة • تمبل نحو النفاضة • مطرقة ، وسبابتها تنفض السيجارة ، تسأله :

« أعجبتك البضاعة ؟ »

لا يجيب ، يتساءل وجهه • ثم يرتبك • يرى الى الغضب الساخر المنسدل على وجهها ، ويشعر أنه يهوي الى منخفض عميق •

تقول وهي تحديق الى المطر : « أم خلف فحصتني جيدا • أسناني قوية ورائحة فمي لطيفة • جسمي جميل ، خال من العيوب • لين في المحلات اللازمة وصلب في المحلات اللازمة • أهلي سيوافقون - طالما تقبض راتبا ثابتا • أمي سعيدة جدا لأنك أوصيت على غرفة النوم • سيكونون كلهم بالاجمال سعداء • من قبل باعوا أختي أمية ، الآن يبيعونني أنا • الصفقة الاولى أربع • أنت مدرس ، نواف ضابط • لكن أم خلف أكدت لأم إمام أنك شيء مختلف عن زوج

أمية • خلوق وعقلك كبير • وهذا رأسمال عظيم • • الدليل أنك جئت تنقلب ،
من الامل ، على سنة الله ورسوله • • »

يصيح هو : « كفي عن هذا الكلام ! » •

منذ البداية تخرج كلماتها داوية ، تمر على حواسه فتخلطها بعضها
ببعض • يدرك في أي شرك لا انساني أوقعته الدعابة واللاكتراث ؛ لا يبقى
لأحاسيسه من جلسة أسمى غير صوت مزدان بتلاوة من آيات الجمال ، صوت
صاف رنان يكاد أن يتوسل أو يلوم • يتمسك به كفريق وخشبة ، طافيا فوق
خجل سلوكه البائس • ها هو يعي الآن حياءها الذي كان غضبا متخفيا ،
وسيجارتها التي كانت جرأة متحدية •

تسأله : « تريد معلومات زيادة عني ؟ » •

سوف تمشي معه الى نهاية الشوط : أية طينة بشرية هم هؤلاء البرجوازيون
الصغار ؟ ويدرك هو أن لعبة شد الحبل قد بدأت • يقول : « معلومات شخصية •
مختزلة » •

تعتدل في جلستها • وتسحب من سيجارتها نفسا : « سموني أسمى • اسم
حلو • ممنوني من الانتساب للجامعة حرصا على أخلاقي • نفسياتي مضطربة ،
كما ترى من حب الشباب على وجهي • أحب الخنافس من المفين ، وعمر الشريف
من الممثلين ، وأموت في أم كلثوم بعد منتصف الليل • أدخن وأشرب العرق ،
إذا صح لي • أكره أمي وأبي وأخي ، وأحتقر أختي • يكفي ؟ » •

تخرج مع الكلمات هبات الدخان المتقطعة وتتشابك مع نفس علي الهاربة
شعاعا • يستسلم للاضطراب ، وتبهجها حيرته • يلجأ للصمت درءا للتهافت

لناشب وراء وجهه الكثير • لكنها تحاصره ، تسقط عليه الاسئلة كالطر
لنازل من السماء :

« لماذا تريد أن تتزوج ، أستاذ علي ؟ » •

« أريد أن أعيش تجربة مباشرة في هذه الدنيا ، يا آنسة أسمى » •

« وهل الفتاة فار تجارب ؟ ألا يخطر لك أن لها أفكارا أو رغبات خاصة ،
أو أن تجربك مثلما تجربها ؟ » •

« كلامك صحيح • أنا لا أريد الزواج من فتاة عادية » •

« ألا تعرف الحب يا أستاذ ؟ كيف تتزوج بدون مقدمات أساسية ؟ » •

« يا الهي ، يا آنسة ! من يقول أنا لا أعرف الحب ؟ أنا عاشق مؤبد •
لكنني لم أنجح • فشلت وضعف اهتمامي » :

« لأنك فاشل ، تريد أن تتزوج على العمى ؟ تظن لمجرد كونك رجلا يحق
لك أن تلتقط ما أحيا الله من بنات الناس وتزوجها ؟ ألا ترى في هذا البلد
كل انسان يحاول أن يكون شيئا أو يصير شيئا ؟ » •

« ألا تلاحظين يا آنسة أنك تبهدلينني ؟ » •

« أنا آسفة • على أي حال ، أنت بهدلتني عمليا • أنت أردت أن تشتريني •
عرفت أهلي فقراء •• ما عندنا غير الأكل والكسوة •• الخفيفة •• وأنهم
سيوافقون • عرضت مالك لقاء زوجة تطبخ لك وتفسل وتنتظر رجوعك آخر
الليل ••• » •

« غير صحيح اطلاقا • وأنا آسف فعلا • كنت أتصرف بحسن نية » •

« وانما الاعمال بالنيات • وستتزوج بحسن نية • وعندما تكتشف أنك
أناني وطلاغية مثل جميع الرجال ، ماذا تعمل ؟ » •

يشعر أن جوهما انفرج • يسألها مداعبا : « جميع الرجال ؟ » •

لكنها تبدو بعيدة عن المزاح • تقول « الرجال اما برجوازيون يلداء بلا
رجولة • أو فقراء يصنع الفقر لقلوبهم نصف نعل • أحيانا يصير الفقير غنيا ،
ينخلع عن طبقته ، فيعتقد أنه قادر على امتلاك المطر في الهواء وضربه
بالكرباج » •

تبترد عيناه بقسوة تعرف كيف تشق طريقها كلما اتقد خاطره • ينصت
لأسمى وهي تفصد بكلماتها وجوه الرجال ، تعلن السخط المحترق ذاته الذي
دأب جيل بأكمله على اعلانه • يدركه الصمت ، كما يفعل دائما عندما ترتطم
بجبهته الاسئلة •

وتمضي هي في عالم كلماتها الفطري • يرتفع وجهها العاتم بوجه الفضاء
وقد برزت تقاطيعه التي صقلتها الطبيعة وندرة الطعام • وتعلو احتجاجاتها
فوق سرير الغمام المطير وتتكىء على ضمير مقهور لزنوبيا معاصرة تختلج في
شوارع المدينة •

يسترخي في جلسته منصتا لسحيج المطر • يتأملها ويتمنى لو قوة رجته
منذ لحظات تحمله الآن اليها — هي الجالسة على مقربة منه — ليحضن ارتماءها
على جذران هامة •

يهز رأسه ولا يقول • الدروب كلها تنتهي الى مدينة الكلمات • هناك
تنتفخ بالونات الغضب ، تشع صخور النفس ، يتشكل العالم وتوضع على
التاريخ علامة • وفي أفلاكهم يستسلم السابحون للغروب والشروق ، للنسيم

الرّخي الحامل قطرات المطر ولغبار الصحراء ، للجسد من كل عمر ، ولحوانيت
الطعام والزينة • وعلى ذلك المد المتقطع من كهرباء الضيق والاسى ينجرّف
علي بقربى جديدة تشده الى الأنثى المسترخية أمامه ، الناظرة الى أيما اتجاه
عدا ذلك الذي يحتويه : ماذا يمكن أن يقدم لها شخص منمط من هذا النوع ؟
غرفة نوم وخزانة ثياب ومطبخا وسهرات عائلية - كل شيء عدا الحياة • ومن
هو ليفهم حياة الطبقة العاملة ؟ فطرتها ، والعالم الجديد الذي تقيمه على أخلاق
العمل ؟

ينظر اليها متسائلا : ماذا يمنع وحها من الالتفات اليه وعينيها من
رؤيته ؟ ولماذا تركت لشق تنورتها أن ينحسر فيفصح عن خط اللحم الجمري ؟
يراها في استواء أعصابها الراهن ملكوتا وعافية ، آدمية تجلس فريرة البال
وتنتظر • انه سيد اللحظة العابرة • سيد هذا الوجه العكر والعينين المتحاشيتين •
وتسعل هي ، تمرغ فوامة السيجارة في المنفضة • تدمع عيناها ، وتكح من
جديد ، لكنها لا تنظر اليه •

يسألها كيف عرفت وقد كان الامر سرا بين المرأتين ، فتحكي له عن عيب
أمها الكبير : انها لا تحسن الكذب • هي نفسها فهمت وأسلمت جسدها
لاختبارات أم خلف • ومضت معها الى الحمام التركي بشعور اللامبالاة والطرافة
نفسه الذي زيّن لعللي الاستمرار ، وكان عندها ملونا بالمر والسخرية •
وعادت الى أمها تمتع منها السر • كبّلتها الام بالعهود والأيمان ألا تفتح
سيرة ، وزفّت اليها بشرى الخطبة • عانقتها وقبّلت شعرها وداعبته • دعت
لها ووصفت العريس الذي لم تشاهده • وعند العصر جاءت تلبي دعوة أم
خلف •

يسألها : « وكيف حملت هذا الغضب كله ، ألم تتعبي ؟ » •

للمرة الاولى تبتسم : شيء من الخفر وكثير من الثقة • في تنقل نظرتها الى
لا مكان تعبر بعينييه وتعلق بهما • تبتسم الحيرة فيهما والمودة الخافتة • ثم
تستدير نحو المطر • هو أيضا ينظر الى المطر ، والزجاج العازل • لا يطيل •
يعود اليها • تلتفت :

« تريد أن تساعدني ؟ » •

« أساعدك ؟ كيف ؟ » •

« قل لي بالاول • وهل يمكنني أن أثق بك ؟ وألا أشعر أنني مديونة لك ،
لأنني سأوفيك كل شيء ؟ » •

« على مهلك • سؤال ، سؤال • الجواب : نعم ، عن كل الاسئلة » •

« أهلي لا يعرفون أنني طالبة • طالبة طب أسنان ، سنة ثانية • ولكن يجب
أن تعدني • انتهى ؟ وعد شرف ؟ اي • حالتنا تعبانة • • باختصار ، ما عندي
ولا كتاب ، ولا أمل لي بشراء • • أي كتاب » •

يخسّان بخطي أم خلف البطيئة تقترب منهما • يقول : « ذكرت اسم
أختك أمية ، وزوجها نواف ؟ » وتصيح له : « زوجة الدب نواف • لا أعرف من
سماء هذا الاسم • كل يوم صرعة • ضرب وجلد وسجن وما لا أعرف » •

تصل أم خلف باسمه مرفوعة الوجه • تمسح يديها ناظرة اليهما بمحبة
متعبة ورضاء • تضع البشكير على الطاولة • تسألهما : « ان شاء الله خير ؟ »
ويقول هو : « لا والله يا أم خلف • نسينا أنني لم أخدم العلم • وأنت تعرفين • •
سنتان ونصف • • من غير الله يعرف ماذا يحدث » •

تدرك أم خلف • تتلهى بجمع فنجاني القهوة على الصينية : عجيب هذا

الجيل ! كان الرجل يبحث عن المرأة ، فاذا أعجبه شكلها تقدم للزواج ، وبعد الزواج تكرس المرأة نفسها لزوجها تلقائيا - طالما أن الرجل مبسوط بها ، كل شيء ماش ، يكرمها ويعزها ، وهي تخلص له . . أما الآن . . عجيب هذا الجيل ! عجيب هذا الزمان ! لم يبق شيء من القديم . . زمان بالوعة . . كل شيء يهوي . تحمل الصينية وتنظر اليهما : الكاذبان الصغيران ، من منهما رفض ؟ هذه المجنونة ؟ لو أن نفسها صافية مثل علي لما ظهر حب الشباب على وجهها .

تنهض أسمى متهيئة للخروج . تودع أم خلف وتمضي . يلحق بها . ينزلان على الدرج . على الفسحة الاولى تمد يدها مودعة . يدس يده في جيبه ، يخرج ورقتين مائيتين ويضعهما على اليد الممدودة . تتأمل الورقتين وقد انثنت أصابعها فوقهما بحركة عفوية . يمد يده الاخرى الى وجهها فيمسح عليه ، والى أذنها وجيدها . « أراك عشقتني ، » تقول له . « تقريبا ، » يجيب بابتسامة أسيانة . وتقفز على الدرج هاربة وملوحة . وتقف قدماه على مربع الخشب تحملان جسما ناحلا أحس فجأة بالتعب .

يثوارى حضورها من البيت في تلافيف الشارع ، فيتمتم لنفسه : لا أحد يريد اللقاء ، لكن الجميع يريدون . تزعجه هذه الرنة الرومانتيكية في شكواه . أترأه عشقها حقا ؟ يعرف أن الجواب بالنفي نوع من الكبرياء . لقد كانت متأبية عليه طول الوقت . لم تعطها أعوامه الثلاثون أي شعور بالامن أو الاحتياج . ومع أن أم خلف أكدت له مرارا أن البنات جديرات بأن يفرقن في حبه ، فلم يبد أن أسمى ستكون واحدة منهن . لكنه في الحقيقة لم يعشقها . شيء ما يجعل عشرة الاعوام الفاصلة بينهما مسافة مستحيلة العبور . أهذا هو الزمن ؟ يوم خرج الى الدنيا بوعي جديد كان يهاجم كل شيء ، الافكار

والتقاليد والحياة اليومية • كانت الثورة خاتم شببك لبيك الذي سيقرب
الأوضاع رأساً على عقب • وكان هو ثائراً ، وما يزال • لقد حكم بالموت على
الرواسخ ، وآمن بالمستقبل • قبل لحظات كان أمامها في موقف دفاعي • لقد
سبقته • عشر سنوات من ستة آلاف تركته في الخط الثاني من مواقع الحياة
– وربما في الخط الرابع أو العاشر ، من يدري ؟ أهذا هو الزمن ؟ وماذا بشأن
إيمانه المطلق بالمستقبل ؟ هذه القطعة الحمقاء تعتقد أنها أكثر ثورية منه !
لقد محق كل فكرة قديمة من رؤيته للحياة ، وبتر كل تصرف تقليدي ،
واستعمل لغة جديدة طوال خمسة عشر عاماً •

ويستمر في وقوفه على الدرج : عشر سنوات • عشر سنوات • يبدو أن
التغير الذي حلم به قد وصل إلى بوابة الصالحية • قريباً ، سيلتقي بتلك اللجة
التي عشقها وهادن لأجلها الحياة • قريباً جداً ، لحظة تسنح الفرصة •

والحياة في دمشق لا تقف • أقدم مدينة في التاريخ ، ليس فيها شيء قديم
فعلاً • إنها عادة تسلقت الجبل ومدت ساقها في الفوطتين • ولعل هذا أجمل
ما فيها : ستة آلاف عام تكفي لطمر كل نبضة قلب • ودمشق ما تزال تنبض •
دمشق دائماً جديدة • صحيح أن علياً وأضرابه يعيشون في زواياها المعتمدة
وحواريها الحلزونية ، غير أنها ، هي أسمى ، تعرف أن تجعل من التكايا فرجة
للسائحين • قبل قليل دفع لها الزكاة – لأنه كان محتاجاً إلى كمشة من نور ،
إلى أن يظل متمشقا على الزمان الدمشقي • كان هادئاً طول الوقت ، ويبدو
سيد الموقف بهذا الهدوء الرصاصي والابتسامة العوجاء • لكن سيادته لن
تطول ، لأن دمشق ستزف إلى الطبقة العاملة وسترش تكاياها بالمبيدات •
وسيعرف البرجوازيون أي منقلب ينقلبون •

الورقتان الماليتان تخزان راحة يدها • وتظل الوخزة حتى بعد هبوط

المورقتين الى قاع جزدانها • أي همّ ثقيل وسخيف وأبله هذا الهم • وأية أخلاق
برجوازية عفنة ، وخليفتها فقط اشاعة القلق والسخط • من الذي خلق لها
ضميرا وأخلاقا كهذه ؟ هي لا تريد ما فلماذا يضعونها في رأسها • علي مصعوق
في داخله لطلبها الفلوس : هذا وحده يكفي لقبولها •

تظل الوخزة حتى المساء ، عندما يأتي إمام أخيرا وتروي له ما حدث ، ثم
تقف مسددة اليه نظرة متسائلة منتظرة • « ليس من عادتي أن أشير عليك بأن
تفعلي أو لا تفعلي ، » يقول لها ، فتعرف أنه لم يستلطف هذا الدين الطويل
الأجل •

تنير بعصبية : « غير موافق • ما تزال القيم التقليدية تؤثر عليك » •
يبتسم • يستيقظ فيه حب المماحكة : « وأنت ؟ » •

« وأنا • ولكن لماذا ؟ لن أكون عبدة لشيء • طالما أنه عرض ماله فسأقبله •
لماذا لا أقبله ؟ رفضته هو ، أنا أرفض • • ولن أسمح له بأن ينظر اليي وكأنه
متفضل علي • ولكن من حقي أن أكون شيئا • • أرفض هذه • • أنا بلا عمل
ولا أقبل أن أكون عالة على أحد • أنا لي حق ، لي حق في أن أكون انسانية
منتجة » •

لا تفارقه الابتسامة • يتجه الى المكتبة ويقف أمامها • بدون نبرة ، ولكن
باهتمام حقيقي ، يقول لها : « أنت عقلك طاير بالهوا • » ويتفحص كتبه •

تنظر اليه مدهوشة : « كيف ؟ » •

« الفلوس وأخذتها • ان كنت راضية انتهى الامر • بعد خمس سنوات
تردينها له » •

يضحكان ، هو بمحبة وهي مقهورة • تقول : « أنت تضحك ؟ » •

« ماذا أفعل ؟ قصتك غير مبكية » •

فجأة تغير موضوع الحديث : « رتبت لك الكتب ، اليوم » •

ينصرف عن المكتبة بشيء من الانشغال ، لكنه يظل مرحا : « هذا واضح •
لم أعد أعرف أين الكتب • » ويرتمي على الكنبه المخلعة : « لا فرق ، كلها
كتب نظرية مملة • مؤلفوها الذين قرأوا خمس كلمات من الماركسية يغرفون
من خردتها منهجها واكتشافاتها فيجعلونها شعارات وكليشيهات للمجتمع العربي
وادانات للبرجوازية • التطليل لثورة البروليتاريا يغني عن الثورة ، وكفى
الله العمال شر القتال • » تسترخي بي على ذراع كنبه مخلعة أخرى وتنظر
اليه مشغولة البال بهمّ جديد : « متى يأتي المستقبل ؟ » تسأله فيبتسم ،
وتبتسم •

« المستقبل يأتي في كل لحظة • ولكن ماذا نفعل نحن ، هذا هو السؤال •
العرب أمة مفيقة ، بدأت تعانق الحياة من جديد • وهي تحتاج الى تحديد
المعاني وتوضيحها — عمل يقوم به مثقفون ثوريون ملتزمون بتطلعات هذه الامة
وعارفون بمشاكلها وعلل حياتها • مفكرون يكتبون وراء طاولاتهم الصقيلة
عن الوعي الطبقي • ولكن ماذا نعرف عن مجتمعنا ؟ هذه الملايين الشقية الامية
• • بماذا تفكر ؟ بماذا تحلم ؟ ماذا تريد فعلا ؟ المفكرون والمسؤولون يقولون
لك بماذا تفكر « الجماهير الشعبية » وبماذا تحلم • ولكن ماذا تقول « الجماهير
الشعبية » نفسها ؟ وبالمناسبة ، لا أفهم اصرارهم على هذه التسمية : الجماهير
الشعبية ! هل رأيت أسخف من هذا البالون اللفظي ؟ » •

تنهض أسمى وتخطو في الغرفة : أنا أقول لك بأي شيء تحلم الجماهير

الشعبية العربية هذه • « تمشي عاقدة الذراعين مشرّبة الوجه : » الجماهير
تحلم بالخبز والحرية • نريد أن نوقف استغلال الانسان للانسان • نريد أن
نؤمن عملا لكل من يستطيع • نريد أن تسكن كل عائلة بيتا صحيا مشمساً •
ونريد قبل كل شيء أن نطرد المستعمرين من بلادنا • « ويكون وجهها محترماً ،
وفي عباراتها جوع وعطش ونفاد صبر •

يقول إمام وهو يعدجها بنظرة لاعبة : « انتهى • عرفنا المشاكل • لم يبق
• الا أن نحلها • » يضحكان •

تتابع مشيتها : « ولكن متى يأتي هذا المستقبل ؟ متى ؟ » •

يقول إمام : « عندما ندرك أن هذه الاحلام ليست هذا الواقع • يجب أن
نكف عن أحلام التنايل والغوغائيين ، ونبدأ تحليلنا العلمي الموضوعي للواقع
العربي ، مسلحين بنظرية ثورية وتنظيم ثوري • » ثم ينهض لغير ما سبب
واضح • يخطو في الغرفة وقد تعباً وجهه بعدة مفاجئة وانصرفت عيناه الى
تأمل شيء ليس في الغرفة • للحظات يبدو الاخ والاخت ، في مشيهما الرصين
الخافل ، أشبه بالمجانين ، أو باثنين تلقيا للتو نبأ مثيرا للقلق ، وشاءا ألا يبتذلا
مشاعرهما العميقة بالاعلان عنها فأثرا الصمت على الكلام والحركة على
السكون • ويكونان متوترين محرورين ، ينتظران في مشيتهما أمرا كبيرا لم
يحدث بعد لكنه مؤكد • مرة أخرى تحملهما الكلمات الى أرض القلق المشرّب •
هناك يبطل مفعولها وتنحل الرموز • تغدو عاجزة عن الانتقال بهما بين أرض
الحقيقة وأرض الحلم ، حيث يغدو العبور حاجة جسدية ، وحيث يتخذ الجوع
شكل الضمير • هناك يتأبى عليهما الجلوس ويحرك القلق أقدامهما •

عباس وشيش بيش : الاحلام سماء الواقع • المعادلة بسيطة وواضحة :

الواقع هو التخلف والتجزئة في العالم الثالث - ويضيف علي : والخروج من التاريخ - الواقع هو خابية الرئيس جونسون التي لا تشبع ذهباً ونفطاً - هو العقلية الغيبية والذهنية القدرية والنفسية الاتكالية ، الخ - والاحلام أمانى أمة من المحيط الى الخليج ، استيقظت وراحت تقرر أبواب التاريخ بعنف مصري - وسيعم الوعي طبقات الجماهير الشعبية ، وستغدو المعامل للعمال والارض لمن يعمل عليها ، وسيوضع حد للاستيطان الصهيوني - الامبراطوريات ستتلاشى ، والقصور المنيقة ستنهار على ساكنيها - وستعصف الريح بالبغي والعدوان ، وسيستنشق البشر رائحة الارض الطيبة التي دنسها المستعمرون الاوغاد واذكيطامن رب الرياح نفوسا تجيش بالرفض والعزم، وبالنية الحسنة - في يفاعته كانت دار المعلمين تتبختر في ذهن عباس قصرا مسحورا - ثلاث سنوات ويناديه الجسيع : أستاذ ! وتنتبج في جيبه ٢٢٥ ليرة شهريا ! ثم قالوا له : أستاذ ، ولبس بدلة وصديريا وربطة عنق - غازل البنات وكانت له أكثر من قصة حب - وكان للبنات والمدينة طعم مثير : وجبة غنية ودسمة توضع أمام فلاح للمرة الاولى - وغرف منها بملعقة كبيرة ، فشبع عروقه ، وبقيت روحه جائعة - تدعمت في نفسه ثقة بها ، وصار قادرا على مراجعة حساباته - ولم يمض وقت طويل حتى استنفذ أحلامه في عدد لا بأس به من الوجبات - وكانت الكلية العسكرية قد غدت في خياله قصرا مسحورا شحنه بالقوة الكافية للحصول على الشهادة الثانوية - وبعد عامين وضع على قمتي سترته الخاكي نجمتين ، وأحس أن منكبيه يزاحمان السماء - لقد استعذب اعطاء الاوامر ، وجد نوعا من الرجولة والامان في تلقيها وتوزيعها - تعمقت في نفسه ثقة أكبر فوصلت الى قاع تصفر فيه ريح خوف مريد : خوف من الانكفاء ، من أن يكون في الحقيقة صغيرا أمام العالم المندفع بقوة الى الامام ، من أن تفقد أمة ينتمي اليها حصانها في سباق الامم فتبقى متفرجة - لهذا كله استهدف وعشق القيادة - صحيح أن

شيئاً حاسماً لم يتحقق بعد ، لا الثورة نجحت ولا الاستعمار ضرب على قفاه .
لكن الشباب بدأوا مسيرة الألف ميل . للتخلف عمر يبلغ مئات السنين ، وكذلك
للاستعمار . وللاثنين ، مثل شجرتين سامتين ، شروش ضاربة في أعماق الانسان
والزمن . يجب أولاً تعطيل السم ، نزعه من الذات ومن الآخرين . وهذا هو
الذي يحدث الآن : الى فعل الثائرين التاريخي في فيتنام وكوبا والجزائر ينضاف
فعل البرجوازية في نفسها ، فالبرجوازية ، كما يقول ماركس وانغلز ، تخلق
حفاري قبورها بأيديها . وليس ثمة موقف وسط .

خط الوسط خط وهمي . قبل عشر سنوات كان وضعا ورهيفا كحد
السيف ، يفصل بين أرضين من شهوة وجمال . أما الآن فهو امتداد متسع لفسحة
دائرية تراصت فيها رسوبات الشعم واللحم . من هناك تتعارم استطالة كثيخ
الصعاري ، تنتشر وتتضخم متدورة متكورة . ناعمة اللمس ومثيرة ، عندما
يعم الظلام وتمحي صورتها من العين . منذ عهد وجيز هبط فيها انهدام بسيط
ثم تمطى وتمدد دون أن تعرف لذلك علة معقولة . وبالمقابل ، نتأت ذروتها
ومطت فابتعدت عن المركز العميق ، منفصلة بحركتها عن حركة الكتلة المركزية ،
أو متأخرة بعدد من الثواني يكفي لتمييز الحركتين . وفي الحقيقة ثمة استطالتان
متجاورتان وانهدامان وذروتان . في المطبخ أو في الشارع . تتقلقل هذه
الثنائيات كحبات البطاطا في مقشرة كهربائية ، فتجعل من الحركة جهدا مستحيلا
وضرورة مضمينة .

تلك هي عجيذة عائدة . انها تسترخي الآن في الكنية المجوفة وقد ارتصت
عليها هموم لا حصر لها : عشر سنوات ! تغير خلالها العالم كله ، ترهلت الرشاقة
وبلى الحسن والجمال - الا قليلا . تهدمت الصحة ونضب الحب . لكنها تتناول
نكاشة مدببة وتدسها بين ضرسيها . هكذا تبدو تكشيرتها طبيعية أمام أمية ،

التي راحت تذرع البهو جيئة وذهابا بخطى بطيئة مهمومة وذراعاها معقودان فوق بطنها الضامر . المرأتان صامتتان ، وعائدة تزداد حنقا مكظوما من تحرك جارتها القلق الساهي .

وكان أبو خلف قد عقد الاتفاق واشترى الزيتون وعُرسه في الأرض قبل أن تسمع هي بالخبر . وعندما ثارت ورفضت أن يعرق ويشقى على أرض لن يكسب سوى ربعها ، كانت عيناه الرضيتان الباسمتان تنتظران لحظة صمتها ليقول لها : « لا تولعي يا أم خلف ، لا تولعي . طولي بالك . هو ربع الأرض قليل ؟ خمس دونمات - مش قليل . » وقد أعطى للأرض أكثر مما أعطى لأولاده . كان ينطلق في الصباح إليها ويعود في المساء . يسقيها في الصيف ، ويسمدها بروت البقر ربيع خريف . وقد سيّج كل شجرة ، وسيّج تخوم الأرض وحرثها . سبع سنوات ، ولد خلالها محمود وصرع خمسون مليوناً من البشر في حرب مجنونة . كل ذلك ليفهمها أن من يملك أرضا ليس كمن يعمل أجيرا عليها . لكنها بقيت عنيدة : شقاء أبي خلف يساوي الأرض كلها وليس ربعها فقط ، ماذا يفعل هؤلاء سوى أنهم يملكون ورقة الطابو ؟ غير أن كل شيء مضى الآن . يورام أهارون ورث الربع وثلاثة الأرباع والأشجار والسياح . لو أن أبا خلف لم يستشهد ، لو أنها بقيت ومحمود على ربع الأرض ، أفما كان لتلك الرقعة الخضراء أن تبقى ملكا لهما ؟ أرضا وبيتا وجرة عسل ؟ والمشاور ورؤية الأرض والزيتون شجرة شجرة . وأزاهير (لباس القطة) بلونها الشفقي الدافئ . وسلالم القطاف المزدوجة . وأكوام الزيتون . . . ومعاصر الزيتون . . . ويدا أبي خلف القويتان تشدان ، وأيدي الرجال ، على عتلة المكبس فوق الرقاق السائلة زيتا .

وكان السيد شحيحا وظالما . وكان يضني عبده الفقير بكثرة الأعمال التي

يطلب منه تأديتها ، ويقدم له ولعائلته نصف وجبة في اليوم • وذات صباح قارس البرد أمره أن يحضر حملا من الحطب لتدفئة القصر • فمضى العبد الى الغابة ، وهناك لمح خابيتين صغيرتين معلقتين أعلى الشجرة • فصعد اليهما • وتناول الاولى فوجدها فاضية ، فقال لنفسه : اذا أراد الله أن يضحك على الفقير جعله يضيع حماره ويلقاه - لو كانت هذه الجرة مليئة بأرز مطبوخ مع ديك ولوز وصنوبر • • ولم يفرغ من كلامه حتى امتلأت الخابية الصغيرة بما وصف فنظر اليها وقلبه يقفز من بين أضلاعه طربا • وانكبّ عليها يلتهم ما فيها حتى أتى على آخرها • وحملها عائدا الى القصر وهو يرقص فرحا ، فرآه السيد وعلم منه بأمر الخابية فانزعها منه وضربه • وعاد العبد الفقير الى زوجته وأولاده وهو ينوح ويندب حظه ويتلمظ طعم الدجاج الذي لن يذوقه بعد اليوم • وفجأة تذكر الخابية الثانية فأسرع الى الغابة وأنزلها وطلب منها مثل سابقتها • وامتدت من الخابية يد ضخمة فصفعته صفعة قوية كادت أن تقلبه على قفاه • فتوسل اليها باكيا أن ترحمه لانه عبد فقير • واذا باليد تختفي • نظر الى الخابية مذعورا وهتف : « ان كنت أنسا أو جنا ، اخرجني أيتها اليد • » فخرجت وبدأت تتلوى أمامه كالثعبان • فأسرع الى القصر وهو يكاد يطير من فرحه ، حيث رآه السيد وعزم على أخذ الخابية الثانية منه • لكن العبد أمر اليد بالخروج وضرب السيد ، ففعلت وضربته ضربا مبرحا • فاستغاث السيد وهمّ بالفرار لكن اليد لحقته أينما ذهب • وأخيرا ركع أمام العبد الفقير وطلب الرحمة ، فأمره العبد بارجاع خابيته الاولى • وهكذا يأسدة يا كرام حمل العبد خابيتيه منتصرا على السيد وترك القصر فعاش مع عائلته في نعيم مقيم حتى أتاه هادم اللذات ومفرق الجماعات •

البناء ضخمة ونوافذه عريضة • كل غرفة فيه مجهزة بهاتف ومذياع

وتلفزيون وستائر وسجادة وخزانة وتدفئة مركزية • في الحمام ماء دائم
السخونة • وفي المطعم وجبات دائمة الجودة • والمطعم قاعة طويلة نصدت
طاولاتها بحيث تنزل كل لقمة في جوف أكلها هنيئة مريئة • ليس فقط لان
القاعة وثيرة الاثاث ، بل لأن روادها قوم يمضفون الطعام جيدا • والمضغ
الجيد أحد أوامر الطبيب المشددة ، وهو علامة رقي وتحضر وأسلوب مهذب
لتبادل الاحاديث الجدية في شؤون العالم العظمى • لم يعد العالم مكانا مريحا
لقاطنيه • الغلاء يكشف عن أنيابه الصفر • اسرائيل تهدد باحتلال منابع نهر
الاردن • الولايات المتحدة تفتك بشعب فيتنام البطل • الاستيراد والتصدير
مشلولان • ثم آخر اشاعات الرشاوى والنهب في دوائر الدولة ، وآخر أحداث
انتهاك العرض والاغتصاب •

من هناك يخرج الملك وفي رأسه طنين • كيف قادته قدماء الى بؤرة العفن
ومصيدة الضمير ؟ وتهز صدره جشأة عنيفة تضطره الى رفع رأسه • لقد شعبوا
حديثا وبيانات عن « مسؤولية الاديب تجاه المعركة » وكذلك شعبوا طعاما •
كانت المعركة الحقيقية هي كيف يستعمل الشوكة والسكين دون أن ترتجف
أصابعه • وعندما بدأ الحوار شعر أن الشوكة والسكين قد جردتاه من
ادعاءاته • عبثا حاول أن يؤكد لذاته أنه لا ينتمي الى (فندق أمية) ، انه ابن
الحداد محمد الكعكي ، أن مسؤوليته تجاه المعركة تخرج من نار الكور في دكان
والده • لكنه طول الوقت كان مهرجا يستعمل الشوكة والسكين • لقد هناؤه ،
وتبادلوا معه الأنخاب وشدوا على يده • وساعدته تلك التهنئة وحرارة
المصافحة على طمر شعوره بالعار في أغواره المجهولة • ثم جاءت تلك اللحظة
التي لم يعد ممكنا فيها حبس الكلمة، فقال لنفسه : طظ على الادباء ومؤتمراتهم
وخرج •

ينعطف يمينا ويمشي على الشارع الصغير وراء الفندق • ثم يقف • ليس
بسبب الجشاة العنيفة الثانية هذه المرة ، بل لانه لمح كتلة سوداء تتكور بين
برميلتي القمامة • يتفحص المشهد مليا : برميل انتصب وآخر مطروح أرضنا ،
والكتلة السوداء تتجمع أمام اليرميل الثاني • ويعي عن أن يتبين ما هناك •
أترى ، عيناه تغزلان سكرًا وشبعا ؟ يقترب وثيدا ، لا صوت لا نامة • يقترب
حتى تغدو المسافة بينهما دون المتر ، وهي مستفرقة في نبش الخليط الخم
بالقدر ، والى جانبها هرة تشاركها الوليمة والاستغراق • لكأنها عثرت على
خابية علي بابا والاربعين حراميا • لقد فقدت تماما احتفالها بالعالم الخارجي
وهي تزيج محتويات اليرميل بأصابع هادئة ولكن جاهدة • تعثر على شيء ما
فتودعه فمها ، وتعود الاصابع والعينان المسمرتان الى البحث • تمد الهرة
رأسها فتنهرها يد المرأة برفق • لكن الهرة تعرف كيف تراوغ جارتها فتنتش من
نثار البرميل ما يشغل فمها لبعض الوقت • تعثر المرأة على شيء آخر وتدنيه
من فمها ، ثم تبعده • يبدو أن رائحته أنتن من أن تطاق • تنفخ عليه ، تمسحه
بأصابع اليد الأخرى ، تزيل قسما منه • ثم تشمه • لا فائدة • ترميه ورامها
بلا احتفال فيضرب ببنتال الملك ويلوئه • تمد يديها الى جوف البرميل وتخرج
المزيد من القمامة • بقية أرز هنا وكسرة هناك ، واليهما فرمات بندورة
مخبوصة •

يقترب الملك منها حتى تختفي بينهما المسافة • بيد هورقة مالية • تهز
صدره من جديد جشاة صاخبة • تفر الهرة الى مكان قريب ، وتلتفت لترى
ما الذي سيحدث • تنتفض المرأة واقفة • تنظر اليه بدعر لا نهائي ، وتهتم
بالفرار • يلتقط ذراعها متضرعا : « خالة ! خالة ! » تتيبس في مكانها •
تدهمه جشاة أخرى • يدس الورقة في يدها المتقلصة : « لست خادم الفندق •

وان كنت أسوأ حالا ، « يقول وكأنه يهمس بالجملة الاخيرة لنفسه • يترك ذراعها • تبتعد عنه ووجهها اليه • تبتعد • تستدير ، تطرق ، وتمضي قبل أن تسمع هقتين متتاليتين خرجتا من فمه بصوت ناحب • فجأة يشعر بالبرد وبالتهاب جبينه • ويخترق جوفه مقص حارق كسيخ محمى • يتكىء على البرميل الاول ياغياء غير مفاجيء • يحس بالطعام متصاعدا الى صدره ، مندفعاً من حلقه ، ثم مندفعاً من فمه •

بعد دقائق يخرج من جيبه متديلاً ورقياً معطراً • يتأمله وينتصب : عندما اختلسه بنيفة ولد صغير عن طاولة الطعام ، لم يكن يظن أنه سيحتاج اليه بهذه السرعة • والآن ضاع الطعام والجهد والمندبل ، وربما أفسد على جائعة أخرى الاستفادة من برميل الثبامة المنتصب • لكنه يحس بالراحة • من صدغه ينجلي البخار المدوخ • شيء واحد يؤسية أسى مزدوجاً : خمس الليرات التي رشا بها ضميره وهدأ مشاعر المرأة • • كان ينبغي أن يرعبها ، ويتركها تهرب بجوعها واملاقها ، لكي يغتلي فيها الجوع ويدفعها الاملاق الى السرقة ، الى اقتحام البيوت والسرقة • • فلتنقل رعبها الى قلوب المسترخين أمام أجهزة التلفزيون ، وصرير امعائها الى أدمغة المتحلقين حول موائد المؤتمرات العظيمة • ليس مثل تدمير الخواطر القريرة والاسنان الذهبية ناقوس يثقب الذاكرة البشرية ويودع فيها الاسماء الحسنى من مثل : المرض والسغب والعري والتسول والعنف • • اذا لم تتعملق من بؤرة العفن جراثيم تقضي على العالم الحر • • اذا لم يخرج العفريت المارد من الزجاجة المسدودة ويسحق الضمائر الجاهزة • • ولكن ، آه ! لماذا هذا السخط كله ؟ أية انسانية تبقى في الجائعين اذا حقن الحقن عروقهم ؟ هذا هو الاستعمار : تدمير انسانية الانسان ثم تجريمه بقوانين يصوغها المترفون • • كتلة سوداء • • تنوء بالثقل المزدوج للحاجات

التي خلقتها الطبيعة وللضمير الذي خلقه المترفون .. كتلة سوداء أيتها الكتلة
السوداء يا عار حياتنا .

اذ ذاك ينوء ثقل المدينة على صدر الملك : دمشق الخالدة ، قلب العروبة
اللولب . يصل الى ساحة (سبع بحرات) . يمشي غير مبال بأعين العابرين ،
ويرتمي على التبة الأعلى . جسد ضئيل يواجه معبدا بسبع طوابق مسمى
مصرفا مركزيا / الرجل القابع وراء نظارته : أستاذ عبد البر ، لو أنك تحذف
بعض المقاطع المتعلقة بالجنس والدين والسياسة ، وتغير بعض العبارات
والاوصاف ، وتخفف من حدة لهجتك ... روايتك ممتازة ، في عشر السنوات
الاخيرة لم أقرأ شيئا أفضل .. ولكن بعض العبارات والمقاطع .. أنا لست
ضدما .. أنا معها مئة بالمئة .. بدون هكذا معالجة لا يمكن تحسين وضعنا ..
ولكن كما تعرف سياسة الدولة تقتضي / ينظر الى المبنى الضخم / الدولة
جاءت .. ذهبت الآلهة وجاءت الدولة .. ذهب المعبد وجاء هيفل وبقي الفقر
.. بقيت الخنازير والجنائز .

شاهدته أمية واقفا عند الباب الموارب ، فدخلت وكان شيئا كريها يلحق
بها . لكن صوتا كالقبايع أوقفها قبل أن تغيب : « عمو ، قولي للبابا ، المدير
واقف بالباب . » خيّل اليها أن به مسا : لقد فهمت كلماته واحدة واحدة
لكنها لم تفهم الجملة . وهزت رأسها بالايجاب فيما تتفرس في شكله
القلقاسي .

تسألها عائدة ضاحكة : « وكيف شكله ؟ » فتصفن الاخرى محاولة استعادة
الصورة : « لا أعرف . ليس له شكل . » تضحكان . « رأسه أبطح . وعيونه
غائبات يبين منهما ثقبان مثل ثقوب الغربال .. عيون غريبة .. وجه مثل
كرتة الكنادر . عمو ، قال عمو . »

بصعوبة توقف عائدة ضحكها : « يقطع عمرك • ما كأن على قلبك هم شيء • » وفجأة تتذكر : « أين كنت يا ضربانة كل هالمدة ؟ » وقبل أن تجيب أمية تبدأ هي بتعداد ألوان الطعام والسهرات الجميلة ، والوزراء والمسؤولين والضباط الذين جاءوا في الفترة الأخيرة ، وكلهم فاتها مشاهدتهم • يطرق وجه أمية ساهما عاريا • واذا تفرغ عائدة من سرد قائمة الاسماء تكون خواطر جديدة قد حملت اليها شعورا مغايرا شغلت به عن وجه جارتها المشغول • تصمت المرأتان ، احدهما واقفة والاخرى قاعدة • تصل اليهما الاصوات القوية المبهمة من غرفة الضيوف • يزحف نحو عائدة وليدها ويلتقط رداءها ، فلا تعيره انتباها • يتمسك بالرداء ويتناهض متزهز العود • تخطفه بيديها وتضمه بشوق حميم • تعانقه • يمد يديه فيطوق عنقها وشعرها • تجتاح بالقبل وجهه وعينييه وعنقه • تناغيه وتدعو له ، وفي دعائها تعلق على كاهله الصغير جميع ما فاضت به نفسها من خائب آمنيات الصبا والشباب •

تضع الوليد على حجرها وتنظر الى أمية : أجل. ستشكو لهاتين العينين الحياديتين • انها عزلاء مجروحة الخاطر • ماذا عساها أن تفعل ازاء وجه القلق المطل عليها من كل صوب ؟ الانهيار أمام صبوات أولية رحلت في الزمن والقلب حتى وصلت الى القرن العشرين • لقد راوغته بالاهتمامات العابرة وبالرجاء • أحنت رأسها لريحه الشرسة • أفرغته في شحنة دمع • توهمت وخيّل اليها • عندما تستلقي على سريرها يربض في عينيها القهر والأرق • تخاف من الغد المقبل حاملا معه عطية الامس ، وتتمنى لو مرة واحدة يصير الزمن الى ليل أبيض لا صباح بعده •

ولكن كلا • لن تشكو لأمية • فيما مضى كان يستملح النساء • أما الآن فهو يطاردن • اذا لم تأت عادة وزوجها ، يجد وسيلة لتأتي أمية • وفي المحافظة

حدث الناس عن مطارده لواحده ، معلمة عاهرة ، والاخبار تجيء كل يوم .
شاء الله ! هذه هي ثورتهم ، ما شاء الله ! ثورة على أعراض الناس . كل
رأة تفتح لهم ساقها تصير غالية على الثورة . ما شاء الله !

تسمع دقتان على الباب الداخلي لغرفة الضيوف . تهم عائدة . يالنهوض ،
كن أمية تشير لها ألا تفعل ، وتقصد المطبخ .

داخل غرفة الضيوف تتناسل الاصوات من رحم اللغة متخذة شكل الكلمات :
بعد فترة وجيزة ستعد الامة العربية جيشا من جماهير الشعب تسحق به
أعداءها . الخطأ الأكبر كان عزل الجماهير عن المعركة . ان تجنيد طاقات الامة
العربية كفيل بالاجهاز على الامبريالية والصهيونية بأربع وعشرين ساعة .
لكن هذا الخطأ لن يتكرر . يجب وضع البترول في خدمة المعركة . يجب القضاء
على الرجعية العربية الضالعة مع الامبريالية والصهيونية . يجب حشد طاقات
الكادحين لخدمة المعركة . وبعدئذ يغدو تفكيك الكيان الصهيوني سهلا كشربة
ماء . فقط لو أن أميركا لا تتدخل .

يعلو صوت المدير بنبرة حارة : « شعبنا يمر كله في مرحلة تطهر ذاتي .
ما من أحد يقبل على نفسه البقاء كما صتعت له المرحلة التاريخية أن يبقى » .
ويضيف عباس بثقة : « سوف يثبت شعبنا أنه جدير بالحياة والحرية » .

تقبل أمية بفنجان القهوة . تنتبه عائدة وتبتسم : هذا هو اذن عالم
الرجل . . الحياة والحرية . وتتصور مدينة ورشوارع وبلدانا واعلانات
كهربائية . تقرر الباب ، فيفتحه عباس ويتناول الصينية . تمكث المراتان
وراء الباب وتتبادلان نظرة باسمه . تهم أمية بالانصراف فتشير لها عائدة
أن تبقى . واذ تهديان تسمعان حوار الرجلين . يقول المدير : « ابن عمك

علي ، عمل لنا مشكلة في المدرسة • قال للطلاب ذلك اليوم أن عمر بن الخطاب هو لينين العرب • وقام عدد من الطلاب المتشجنين وقالوا هذه اهانة • بالكاد تمكنت من تهدئتهم • أكدت لهم أن الاستاذ علي تقي ومؤمن ، وأنه يريد القول أن تاريخ العرب لا يخلو من بناء الدول • « ويؤكد عباس أن الامة العربية أمة معطاء ، قدمت للعالم خمس حضارات من عشر ، وستعطيها الحادية عشرة باذن الله • لكنهما هذه المرة يوجزان الحديث : انتهى فنجان القهوة • جملة أو جملتان عن القديم العظيم ، وينهض المدير مودعا • ولا ينسى عباس تجديد وعده بحل المشكلة : خلال أسبوعين يصدر أمر النقل من الرقة الى دمشق •

ثم تتوقف الاصوات عن اختراق الباب المغلق بين الرجلين والمرأتين • يغلق الباب الخارجي وراء الزائر الراحل ، فتبتعد المرأتان عن الباب بحركة غريزية الى أقرب كنبتين • ينبثق عباس من الباب ويرمق المرأتين باسترابة • يقول : « لا شك عندي أن الانسان سيعرف ما على سطح المريخ والزهرة • أما أن يعرف ما يدور بين النساء من أحاديث • • مستحيل » •

ويحدث في تلك اللحظة أن يؤوب كل من الآدميين الثلاثة الى وعيه الصامت الخاص ، فيصير صمتهم المفاجيء اغترابا عن الذات مريحا وفاضيا ، بلا نهاية ولا جدوى •

انهم يقفون على مفارق الطرق وفي المنعطفات • يشيرون بأيديهم أو بقلوبهم أن خذونا الى مكان لا نكون فيه متوحدين ، أو تعالوا لنلتقي دون أن نخسر أنفسنا • لا يلحون في الطلب ، ولا يضنيهم الانتظار ، لكنهم لا يهجرون توقعاتهم ولا تقعدهم الخيبات المتسلسلة • حياتهم أكثر من لا وأقل من نعم ، وبين هذه وتلك تكرر عليهم الايام والليالي • وينتظرون •

من قديم ، أنشد طرفة بن العبد :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
فمنهن سبقي العاذلات بشربة
وكرتي اذا نادى المضاف محنتا
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
وجدك لم أحفل متى قام عوادي
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
كسيد الغضى ، نيهته ، المتجرد
ببهكنة تحت الطراف المعمد

لم يصدق أن في الصحيفة أمر قتله ، وظل يعتقد أن فيها أمرا بجائزة كبيرة ،
فاضطر العامل الى سجنه لخوولة كانت بينهما . فما كان من عمرو بن هند
ملك الحيرة الا أن وجه عاملا جديدا بدأ بقتل سلفه ، ثم خير طرفة في ميتة .
وقال طرفة : اسقني حتى أسكر ، ثم افصدني ودعني أنزف حتى أهلك . ففعل
الوالي . تبتسم أم خلف لأمنيات طرفة ، لكن قصة موته لا تفرح قلبها . تقول
لعلي : « بهذاك الزمان ، يا ابني ، ما كان فيه اسرائيل . يا حسرة على
فروسية . . ما اسمه ؟ لو رجال هالزمان يثبتون على مبادئهم مثله . » يقول
علي : « كان فيه كسرى أنوشروان . » تقف : « اي ؟ تركه العرب يسيد
ويميد ؟ » يحس بحماس مفاجيء : « أبدا . ضربوه علقه ماكنة في معركة
ذي قار . » تحدق الى وجهه باهتمام عاقل وفضول : « هذا مكتوب عندك ؟ »
« أين ؟ هنا ؟ لا هذا كتاب . مسرحية » .

تمضي الى المطبخ ، ويتمدد هو على الكنبه . يسوي وضع الوسادة
المربعة وراء رأسه ويستغرق في قراءته . تعود أم خلف حاملة سطل الماء
والمسحة : « يا فتاح يا علي . بماذا حشرت رأسك من بكرة الصبح ؟ ما هذه
المسرحية ؟ » ويصيح ممحود طالبا قهوته ، فتجيبه أن الفنجان على الطاولة .
يصيح ثانية أن تأتية به الى السرير . تضع السطل والمسحة جانبا لتلبي
الطلب .

بعد تحركات صغيرة يتخذ علي وضع الاسترخاء الافضل • يستغرق في القراءة ثانية • تعود أم خلف وتتناول أشياءها • تتذكر أمرا فتقف : « يوم الجمعة ، كل الناس يخرجون الى المنتزهات • وأنت قاعد هنا • ما هذه المسرحية ؟ » •

دون أن يرفع رأسه يقول : « اسمها (في انتظار غودوت) • أخذت شهرة عالمية » •

« من هو جودت هذا ؟ » •

« غو - دو - ت • رجل • ينتظره اثنان صعلوكان • لكنه لا يجيء » •

« لماذا ينتظرونه وهو لا يجيء ؟ » •

« لان حياتهما متوقفة عليه » •

« الله يلعن هكذا حياة • واقفة على رجل لا يجيء ؟ لماذا لا يدورون وراء شغلة يشتغلونها ؟ » •

يطوي الكتاب حول اصبعيه وينظر اليها مداعبا : « لان كل شيء في حياتهم متوقف على ما يفعله لأجلهم • لانهما مرتبطان به ارتباطا أعمق من أمور الحياة العادية • حتى تفكيرهما جزء منه » •

يأتي محمود حاملا فنجانه ، مبتسما ومنفوش الشعر : « أحببت اليوم أن أعمل نفسي برجوازيا يأتيه فنجان القهوة الى الفراش • التنازل فقط يستطيعون شرب القهوة في الفراش » •

يقول علي مجاملا : « يحتاج الامر الى انسان محب للكسل • لكن واحدنا ينهض من فراشه بمجرد استيقاظه » •

تقول أم خلف متابعة حديثها عن غودوت : « هذا واحد غني وابن حرام ، هذا جودت • وهؤلاء مجانين • لماذا ينتظرونه وهو لا يجيء ؟ أرض الله واسعة • أنا أدور فيها وأجد أي شغل » •

يقول علي ، محولا اهتمامه من محمود الى أمه : « غو - دو - ت ! هم فعلا يقفون على أرض واسعة - وفيها شجرة • لكنهم لا يتركون مكانهم لئلا يجيء غودوت فلا يراهم » •

« اي يلعن أبوهم واحد يقول للثاني • هؤلاء رجال ؟ أنا لو محلهم أطلخه رصاصة » •

يقول محمود : « أمي صايرة ثورية ، ما شاء الله ! أنت لا شغل لك الا الحكي : ماذا تفهمين عن أحوالهم ؟ الفقير العربي في عالم الرأسمالية ، قادر انه يطبخ بقعة ؟ نحن عبيد ، يا ست • لا معنا مال ولا سلاح • الناس الفقراء للخبز ، فقراء للحرية • والاغنياء يمشون على سياسة جوع كلبك يتبعك • وأنت تظنين أن لسانك يكفي لتحرير العالم » •

. تنبر هي : « اي اسكت ، اسكت • كل الناس وصلوا لشيء الا أنت • قاعد في المطبعة بمئة وتسعين ليرة » •

يتناول محمود فنجانه بصمت • تختفي من معياه التعابير • يقبع على كنبته . ويطرق غير منتظر شيئا • ترتكز أمه على نصل المسحة بسيماء ندم خفي جللته شدة منتظرة : عساه أن يقول شيئا ، يؤنبها أو يروي نكتة ، لتستريح هي • يتابع محمود صمته مرجئا كل شيء الى حين آخر غامض • وتتحرك الام فجأة ، فتبدأ المسح بنشاط عصبي • بعد لحظات تغايط عليا : « حمدي الببش يقول لك ، غرفة النوم صعب خلاصها في الوقت المحدد •

الحكومة غالقة باب الاستيراد ، والخشب مقطوع من السوق • بس ، بودك الصراحة ؟ حمدي الببش أكسل واحد في سورية • وإذا حكيت معه قال لك ، كله من الله ، أو الرزق على الله • مثل أصحابك المنتظرين جودت هذا •

مطرقا فوق كتابه يقول علي : « غودوت ! قولي له أن يحول الشغل الى خزانة كتب ، طول ثلاثة أمتار ، وارتفاع مترين » •

يلتفت محمود الى علي المنكب على كتابه بشعور مفاجيء بالحب : برجوازية صغيرة أو غيرها ، البشر كلهم يستحقون الحب / أسمى أمام المجهر المصوب على شريحة لحم بشري / بيت طيني / مرج أخضر وشمس • يتسلل الى صفاء نفسه ظل صغير من المرارة : ليس البشر كلهم / مشكلة محيرة •

تثبت عينا علي عند جملة في الكتاب • يعتريه خوف غامض اذ يذكره احتياج الصعلوكين لغودوت بتعلقه بهذين الكائنين الغافلين ، محمود وأمه • خير للانسان أن يؤجل عواطفه ، أو يلغئها اذا لزم الامر ، من أن يبذلها في تلوث هذا العالم • هذا زمن الحب الاسود والمرارة المستساغة •

قبل عام طرق علي باب البيت برفقة الدلال البطين • وعندما فتحت له أم خلف شاهد وجهها عريضا قاسي الملامح ، عينين كثيفتين وفما دقيقا وشعرا أشيب • شيء ما في ذلك الجسد الاموي أرهبه وأشعره بالضعف • واذ دخل الرجلان وبدأ حديث الايجار معها ، راحت تتفحص بين تقاطيع الكلام القليل ارتباك وجهه وتلكؤ كلماته • للتو رأت فيه نقيضا بنويا ، فاضطرابه الظاهر اعلم صرامتها الظاهرة ، وتماسكه المعزول هبط على انهيارها الداخلي وغطاه • لم تتحر كثيرا حسن أخلاقه ودقته في الدفع • كان متعبا وكأنه جاء من سفر بعيد ، وخمنت أن بحشه لدى الدالين قد أرقه انتقالا من شارع الى شارع وحي

الى حي . وفي المساء جاء محمود وكان جافا . لم يوافق بالاساس على تأجير
الغرفة . ولكن الام هي الام . وفي هذه البلاد يقطع الحبل من السرة فقط
وليس من العقل والقلب . وزاد الطين بلة كون المستأجر مثقفا ، وربما مثقفا
ثوريا ، فمحمود لم يعرفه بعد . وفي هذه الحالة سيتعين عليه تحمل الكثير من
الغرور وأكثر من النظريات والشعارات .

ومرت الايام فنقح محمود موقفه الى حد التبديل . المشاعر السلبية عبء
ثقيل لا يطيقه . واذا كان لا بد منها فهو لا يستطيع طمرها ، لانها ستظهر
في أفعال وردود أفعال شرسة ثم تغيب مخلفة وراءها تعباً غير ضروري . وراقه
أن عليا يؤمن بالطبقة العاملة وبالتطهر عن طريق العمل . الجميع يؤمنون
بالطبقة العاملة - قال لنفسه ذات يوم ، وكان منحنقا من أريحية علي - الجميع
يقرعون لها طبولا أفريقية ، وفي النهاية يخوزقونها . لكل عليا أبطل ترتيبات
رفيقه ، ليس بجهد خاص أو ارادة واعية ، بل عبر ذلك الشعور بالطمأنينة الذي
انسرح منه كلما جلس الى محمود وتحدث معه . الطبقة العاملة هي البراءة
والكدر المقدس ، بيوت الطين المؤتثة بنصاعة القلب ومباشرة الحياة . في
البداية لم ترق لمحمود هذه الجمل الرومنطيقية . وضايقه الاهتزاز الذي
أصابته به مخه كلما سمعها . ثم مسّته حرارة علي وهو يقولها ، فدعاها
شعرا منشورا .

وها هو الآن يتأمل الوجه القزير المنكب على القراءة . ينظر الى الباب
مستطلعا ، وبعد قليل يفتحه فيدخل إمام . توقف أم خلف المسح وتهتف :
« من زمان القمر ما بان » . يتقدم منها ببشاشة ويقبّل جبينها ، فيما ترسل
أصابعها في شعره السرح . « لا تزعلي ، خالتي أم خلف » . لأنني جئت أزور

الاستاذ علي • « يتأمل علي زائره المجهول ببرود • يضع الكتاب جانبا بانتظار التحية • « استاذ علي ، أنا إمام ، أخو أسمى • »

يعلنها ببساطة وصفاء ويراقب الآخرين من وراء عينيه الضاحكتين •
يوقن أنه أحدث التأثير المطلوب في خبيثة أم خلف : ستتحول حكاية القهوة وقبله
الفم والحمام التركي الى أرق عندما تستلقي أول الليل على فراشها وتساءل :
لماذا قدّم إمام نفسه لعلّي بهذه الكلمات ؟ ويخشى أنه أحدث أكثر من التأثير
المطلوب في نفس علي ، فيما هو يسعى الى صحبة جديدة تزيد من علاقاته
بالبشر وتعطيه شيئا •

ويكون توقعاه صحيحين • تفتنم أم خلف الفرصة فتنفذ بجلدها الى المطبخ
حاملة ممسحتها والسطل • لقد خمنت من اعلان إمام عن زيارته أنه يعرف
كل شيء • وهي الآن خائفة مطمئنة • خائفة لأمر لا تدري كنهه ، ومطمئنة
لأنها أقنعت نفسها أن إماما من هؤلاء الرجال الجدد الذين لا يعملون عراضات
لأجل الشرف • وينهض علي لاستقبال زائره النشيط بنشاط مماثل • علي
وجهه ابتسامة مرحبة وفي خاطره تطير غير مدعور من عنف محتمل أو مشادة
كلامية • ينبسط في ذهنه تاريخ طويل من سفك الدماء والتبجح الحيواني
بالقتل دفاعا عن الشرف الرفيع • الجاهلية بعيدة في التاريخ ، قريبة في
الوجدان ، والطبقة العاملة تتكشف عند اللزوم عن مستودع للاهواء المضغوطة
الجامحة • لقد قرأ في الوجه المتقدم علامات قسوة مرسومة على الفم الشهواني
والعينين السنجابيتين ، خاصية تفتقر الى الذوق • وهذا الجسم المديد المفتول
العروق ، أية قوة حيوانية سكنته ؟ وزاد ارتياحه فهم مفاجيء لتصرفات أسمى :
هي الاخرى كانت تفتقر الى الذوق ، كانت تريد أن تؤكد موقفا لا أن تفهم —
بل كانت تريد أن تحتقر • ثم قبلت نقوده في النهاية •

تفعمه الثقة بموقعه الاخلاقي العالي •

تزداد المشاعر الخبيثة تشابكا اذ يتابع إمام كلامه : « أسمى قالت لي ،
عندك مكتبة جيدة • وجئت أستعير منك بعض الكتب • • اذا تكلمت • »
يتصافحان بمودة حارة ، يتبادلان عبارات التحية المألوفة • يجلسان فيما
محمود يتفحص وجه علي تحت ضوء جديد : اذن هو أيضا التقى بها ، علي
الأغلب تحت هذا السقف • يحس بانفراغ خانق في قلبه • لكن غضبا أبيض
يبزغ فيه ويدفعه ، فيخاطب عليا بحماس : « إمام أفندي ، عامل مثقف •
سيبني الاشتراكية للفقراء العرب بقراءة الكتب • » يقول علي بكرم مستبد :
« أي كتاب • خذ جملة كتب • عندي قصص ومسرحيات ودراسات • • كتب
تاريخية • ما عليك الا أن تنتقي • واذا لزم الامر أستعير لك الكتاب الذي
تريد • »

« هذا كرم عظيم منك • اذا كان عندك كتب عن حرب التحرير الشعبية ،
كتب واقعية ، لا نظرية • أريد أن أعرف كيف تنهض شعوب العالم وهي
تعارب • ماذا فعلوا في الصين وكوبا وكوريا وفيتنام والجزائر • »

« كتب واقعية ؟ كأنك تتوقع من كتابنا الجهابذة أن يعيشوا يوما فيتناميا
أو كوبيا • لا • العمر قصير ، وهذه مضیعة للوقت • لماذا وخیالهم قادر علی
اختراق العوالم وسد الفراغات كلها ؟ • »

« كتب عن حياتنا نحن العرب ، اذن • أنا لا أرى في المكتبات دراسة
لأوضاعنا • الكتب كلها تتحدث عن أوروبا وأميركا ، آخر شيء سمعت به كتاب
عن الصراع الصيني السوفييتي • ما هذا ؟ لدينا هنا ألف مشكلة • لا شيء عن
اسرائيل والامبريالية ، شعارات ولا أرقام ، مواضيع انشاء ولا دراسات

علمية • ما هذا ؟ وأنت تعرف المشاكل التي نغرق فيها • الزواج ، العرض ،
الثارات • الكسل ، الثرثرة • • أحيانا أشعر أننا بضائع للاستهلاك في هذه
المرحلة • أحيانا تجيئني هذه الافكار ، مع أنني واثق أن العرب لن يهزموا » •

يقدم علي لجليسيه علبة الدخان ، ويشعل لهم ولنفسه • يقول : « أنا أقل
تفاؤلا منك • كثيرا ما أشعر أن العالم كله أثقال ، أو أنني لعبة بيد خفية • •
قوية ورهيبة • لعبة تتحرك وتصدر أصواتا وتفهم وتصرخ وتستعمل حواسها
الخمس • • وكل شيء • • لكنها لعبة • وهي تسأل نفسها أسئلة مضحكة ،
مثل : لماذا لا أقدر أن أنجز شيئا ، لماذا لا أقدر أن أكون شيئا ، لماذا أنا بزال
مثبت في آلة الحياة اليومية ، لماذا عليّ أن أكذب وأساوم حتى لا أذل
وأهان » •

يصمت فجأة ، ينمض رماد سيجارته • هذا الجرس الرومانيكي ، الى
متى ؟

يقول إمام : « هذا شعورنا جميعا • همّ الفقير العربي أن يحصل على
لقمة العيش • عندما يحصل ، تغريه البرجوازية بشيء من النفوذ والسلطة •
إذا قبل انتهى الامر • وإذا رفض عاش ساخطا • في كل حالة ، الحياة ذل •
ما من أحد حر في هذا الجزء من العالم » •

ينبر محمود بعصبية محسوبة وقد ضايقته المبارات المنضدة : « ما هذا
الكلام كله ؟ نحن ، ماذا. نعرف نحن عن الذل والاهانة ؟ نحن لا يحق لنا أن
ننتسب للنضال • أنتم سمعتم بقصة سليمان السمان ؟ هذا المناضل الذي مات
تحت التعذيب وهو ينكر حقائق اعترف بها المشتركون كلهم • كان الجلادون
يقولون له كذا كذا ، وهذه هي التواقيع ، وهو يقول : لا أعرف ، لا علاقة لي •

ومات تحت التعذيب • مات وهو يرفض اعطاءهم تبريرا واحدا ، ولو أعوج ،
لجرائمهم • هذا - انسان حر • وله الحق في اصدار الاحكام ، يحتقر أو يحترم
كما يشاء • وليس نحن الذين لا نقاوم طاغية ولا نجرؤ على الوقوف بوجه
جريمة • »

يسترخي إمام مبتهجا بكلمات محمود • يتأمل بقعة الشمس الزاحفة ببطء
على أرض البهو : طورا غائمة وآخر واضحة • يقول وكأنه يخاطب نفسه
أولا : « نريد رجالا يسجنون ، ورجالا يموتون ، يستشهدون • نحن الآن نحتاج
أو نهزأ ، في المقاهي والبيوت • • والشوارع • بعد حين نوصل صوتنا الى
حكامنا : نريد أن نحارب الامبريالية والتخلف ونتوحد في مجتمع اشتراكي
عربي • بعد حين نوصل رصاصنا الى صدور المتخاذلين منهم ، والذين يلعبون
بنا كما يلعبون بكلمات اللغة • العرب لم يتعودوا على النضال حتى الآن •
لذلك يتاجر أعداؤنا بنا • لكن الكلمات لا تشق الطريق الصخري الى واحة
انسانية ، لا تشق سوى حلوق قائلها • »

ويكون علي طوال الوقت منصتا متفحضا • بطريقة ما ترهبه الطبقة
العاملة ، رغم ايمانه بها • لوهلة يخشى أن يكون انفصل عنها ، ثم ينفض
الخشية من قلبه • يتحير أمام المستقبل الذي ستصنعه رؤوس متلاصقة حاشدة •
لو انطلقت شرارة من كل رأس فأي حريق سينتشر في هشيم العالم • كيف ياترى
ستكون ألوان الحياة ؟ يقول : « هذه مرحلة وستمر • هذه منطقة أزممت فيها
الصراعات منذ أيام الأكاديين • لكنها استمرت • ليست قضية عرقية • أنا
أتكلم عن شخصية حضارية مستمرة • قوانين حمورابي ، أبجدية أوغاريت ،
فتوحات نبوخذ نصر ، ثم نحن ، أعني حضارة العرب • • هذه كلها الشخصية
العربية • • »

يعتدل إمام في جلسته متحمسا : « هذه هي المشكلة • لماذا لا نستوعب تاريخنا برؤية علمية جديدة ؟ الشعب لا يعرف منه سوى الامر والنهي • والمثقفون شغلهم الهزم به والتندر عليه • معظم ما نعرفه عن تاريخنا خليط من كتابات مفرضة دسها علينا الامبرياليون الاوروبيون • ونحن نعرف عن اخيل أكثر مما نعرف عن سيف الدولة ، وعن أرسطو أكثر من المعتزلة • نريد باحثين يدرسون تاريخنا بحسب قوانين علمية ، يخلصوننا من النظرة الرومنتيكية والغيبية والنظرة الهجائية • نريد أن نعرف عن التيارات الخفية ، التي تحت ، التي كانت تحكم تطور حياة العرب • العرب أمة عظيمة ، ولهم مكانة بارزة في التاريخ • ولكن لماذا طفت أخبار التجار والجواري على معاني حضارتهم الخالدة ؟ » •

يقول علي باسما : « في هذه الحالة سأريك مسودة كتاب خربشتها عن ظهور الاسلام » •

ينهضون الى رفوف الكتب • وتقبل أم خلف باطمئنان أكيد حاملة فناجين القهوة • تغيم بقعة الضوء وتتضح ، مثلما تفعل الحقيقة في أذهانهم • لعل اليقظة عملية متقطعة أيضا • قد يفيق الجسد ويبقى الوجدان شائلا في جوع الحلم • وهؤلاء قوم يحبون الحياة ، هؤلاء المتسولون أمام عتبات التاريخ • يمتطيهم الجوع فيمتطون الحلم : تحملهم أراجيحه عاليا فيفتحون أفواههم للامن والسلوى ، ثم تهبط بهم نحو الارض لينفذ في مسامهم الغبار والرمل فترفعهم الى الخلف ، تعيدهم الى ذلك الاعرابي الذي احتال على فارس في قلب الصحراء فسلبه حصانه وهم بالرحيل فناده الفارس وتوسل اليه : اذا سألك الناس فلا تقل انك سلبتني حصاني وانما أعطيتك ، لئلا تموت المروءة بينهم ، الى ذلك الاعرابي الذي أعاد الحصان خجلان نادما •

وفي الحادية عشرة والرابع يعلو صوت المذيع مبشرا بموجز الاخبار : عدوان
اسرائيلي جديد على جنوب لبنان ، الطائرات الاسرائيلية تقصف مخيمات
اللاجئين ، لبنان يتقدم بشكوى عاجلة الى مجلس الامن - وزير الزراعة يغادر
الى (الحسكة) ليشترك في ندوة توعية لجماهير الفلاحين .

واذ ذاك تهب الريح في الفضاء وتهزم بصوتها الحاد اللزج . تنفخ في
الغيوم وتشردها . تمحي عن أرض البهو بقعة الضوء الصامتة ، تعود ، تمحي ،
تغيبش . تزحف من مسقطها وراء الزمن المنسل ، هاربة ببطء من عتبة الذاكرة
الى مكان مجاور ، فأخر مجاور ، دون أن تنهض عن الأرض .

وعبثا تطلب عائدة من أمها ألا تجلس على الأرض . وتنهض أمية متأففة
من الالاحاح ، تدور في البهو العاتم ، تقف أمام لوحة رديئة . تبتسم عينا
أم حسن في العتم الراكد ، تقول بحرج واصرار ، مبررة جلستها : « أح !
برودة طيبة . فطسنا من الحر . » تتحرك أمية الى النافذة : من خصاص
الابجورات المغلقة يئج في الفضاء فيض الضوء القائظ ، ويتسلل الى وجهها
فيشطبه بخطوط منيرة ناحلة . وتصمت النساء الثلاث . وجوههن تنبىء بين
الحين والحين عن برم وحيرة . دائما يفسد الحر استمتاع الانسان بالصيف ،
والبرد استمتاعه بالشتاء ، وريح الخماسين استمتاعه بالربيع . والخريف ،
آه من الخريف . لولا بطاقة الشيوخوخة التي يحملها على ياقته لكان زماننا
ممتعا .

عائدة تنصت : وجهها كظلم ويدها تحت ذقنها . أحيانا تضطر الى الابتسام،
ونادرا ما تقول . فجأة تند عن أمية آهة ثم تنطفئ . تقول لعائدة : « أخذت
نفسا عميقا . رئتي لطمت بأضلامي » .

تسألها عائدة : « صار شيء جديد ؟ » •

تجلس : « ما سمعتم الاصوات ، البارحة ؟ » ومثل امرأة عجوز مر على حكايتها دهر ، تقص لهما كيف انبسط أنفها في الليل القائن فالتصق بوجهها اثر لكمة جيدة التسديد من قبضة نواف العجينية • تمد يدها بحركة متقوسة لتصور لهما اختبائها تحت الطاولة حيث جعلت تنذر نوافا أن يترك المسدس • هناك أصابتها لبطلتان أو ثلاث — لم تعد تذكر — فشكرت النجار الذي صنع الطاولة عريضة ليتقلب تحتها الانسان وكأنه تحت سقف فسيح • لكن الحماية لم تطل كثيرا • طارت الطاولة في الهواء وأقعت على قائمتيها الخلفيتين • وهكذا انكشف الغطاء ، وبانت الارنب المسمرة العينين على قامة متعملة تنز وحشية • اقترب منها نواف بطيئا مصمما • وضع المسدس جانبا • اقترب • أطل عليها كالذئب ، فيما هي تراقبه بعيني فأر مذعورتين • واذا مد نحوها ذراعيه وثبت اليه كالنابض فطوقت بيديها رقبتة وبساقها ظهره • ولكن عبثا • نثرها من مكنها في العرين وقذف بها فألصقها بالجدار : من هو عشيقها ؟ ولم تكن في وضع يسمح لها بالاجابة ، اذ أحست حينذاك بفرقة في ظهرها ، ثم بأخرى في دماغها ، وأخيرا في حوضها عندما انحل الصمغ وسقطت على الارض • الخلاصة : بعد وقف اطلاق النار ، تفحصت نفسها واذا الخسائر على النحو التالي : أنف بودرة ، عجنته وفكته عن وجهها وأعادته الى ما كان ، ضلعان توجها نحو الاحشاء ولم يستطيعا العودة ، كلية سقطت بين الامعاء الدقيقة ، كتفان محدقان بالاذنين ، دم أزرق ••

تكف عن الحديث ، فتكف عائدة عن القهقهة ، وتبلغ أم حسن ريقها • ينضم اليهن الصمت مقطوعا بتنهدات خفيفة • تحس أمية بسائل ساخن يتسلل فوق جفنيها • ترمي رأسها على جذع الكتبة وتغمض عينيها • تنتبه عائدة •

الى حركتها ، وترى خطي الدمع على الخدين الابيضين • تهتف : « أمية ! لا •
الآن كنت تضحكين ! » تنهض وتقف أمام صديقتها • تعقد ذراعيها على
بطنها : « أمية • لا تزوديهما • » •

ترنخر أمية ، وتبتسم • وتلمحها أم حسن فتفتنم الفرصة التي انتظرتها :
« الحق عليك • » وتصمت منتظرة استفسارا • تفتح أمية عينيها وتنظر الى
محدثتها : « هكذا يا أم حسن ؟ وأنت ضدي ؟ » تقول المرأة الوقور : « لا •
أنا معك ، بس الحق عليك » وتنتظر استفسارا ثانيا •

« أنت معي ، والحق علي ؟ » •

« اي ، » تقول أم حسن ، وتنظر الى محدثتها لتتأكد من اهتمامها التام ،
ثم تقدم حلا جذريا : شيء من آثار نواف ، خصلة مما يعلق على مشطه ،
مزقة من آخر ثوب لبسه ولم يغسل ، تأخذها الى الشيخ ويفضل العلامة الشيخ
كامل - مع اسم الام ، وسيسحب قلمه الكوبياء ويبله بريقه ليمتزج بأنفاسه ،
ويكتب لها حرزا مكينا تعلقه فوق الباب الذي يعبر منه نواف في مجيئه ورواحه •
وسترى أمية • ستري كيف يصير بين يديها كالنعجة • سوف يسلمها راتبه
أول الشهر ، يخصصها بالهدايا ، يقصر نظره عن جميع نساء الارض ، يأخذها
الى أي مكان تشاء ، يساعدها في شغل البيت ، يصنع قهوته بنفسه ويملا كأس
الماء بنفسه • • باختصار ، سيكون خاتما في بنصرها •

تقول أمية وقد مسحت وجهها وعينيها : « بودي يا أم حسن ، حرز
يفطسه • ماذا أفعل به حول أصبعي ؟ وزنه ثمانون كيلو • » ثم تطلب منها
أن : « جيئي بحرز لابنتك عائدة ، ما دام هكذا » •

• تتحفز أم حسن لدعم حكمتها • تعقد ذراعيها تحت صدرها وتعاتب

أمية : « أنت تسخرين • لو تعرفين ما جرى لبنت الآغا مع الهذح الرابع ، لما
سنرت • وهذه قصة صارت قدام عيني • كنت طفلة يوم صارت » •

وتعديج أمية بنظرة ثابتة انتظارا لفضولها • لكن الانتظار يلتقي بعينين
لموبتين ووجه باسم مصغ • وترى أمية أن الام تتوقع منها سؤالا • تقول :
« وماذا حدث لبنت الآغا والفلاح الرابع ؟ » •

انها ليست قصة من ألف ليلة وليلة ، تقول أم حسن • قصة حقيقية ،
حدثت في مفلولتها وشاهدت فصولها بأم عينيها • وهي قصة تحدث بين الفلاحين
لانهم يؤمنون بالله ، ينشون كلمات الله المكتوبة • الخلاصة ، حتى لا تطول
السيرة • كان في الحارة الشمالية من الضيعة عائلة فقيرة ، تعيش من الفلاحة
مثل بقية الفلاحين • وكان الاب والاولاد يشتغلون على الارض بالمرابعة ، يعني
يأخذون ربع المخصول على البيدر • ووقع المحذور فأحب ابن الفلاح ابنة
الآغا ، وكانت ست زمانها في الحسن والجمال والدلال • ولكن كيف يتزوجها
وهي بنت سيده ومخطوبة لابن آغا آخر ؟ وضعف الولد ، فاستحلفته أمه ،
فباح لها بالمقدور • وكانت الام تحب ابنها زيادة لانه الابن البكر • وهكذا
حملت حالها وراحت الى قصر الآغا • صارت تخدمهم ليل نهار • أخيرا تمكنت
من الحصول على خصلة صغيرة من شعر البنت المخصوص • وأسرعت بها الى
الشيخ كامل مع شوال حنطة ، فكتب لها أقوى حرز كتبه في حياته • ووضعت
الحرز في دمية جميلة خاطتها بنفسها • دمية أرنب من الصوف الانكليزي لها
عيون وفم ، ورافعة رجليها أمام وجهها هكذا ، وقاعدة • وبعد أن حاكت
الدمية حملتها الى بنت الآغا • « حبيبتي » قالت لها ، « جئت لك بلعبة ، تجلب
السعد • حطيتها في غرفة نومك ، صوب السرير • لا تحركيها ! خليها تتطلع
فيك • » وتلقفت الفتاة الدمية ضاحكة ، وتفحصتها ، بينما قلب الام يخفق

هلعاً • « إه • وبلا طولة حديث ، » وضعت الدمية مقابل السرير ، وبدأت شغلها مثل دقات الساعة • ذهبت الام ، ومرت الايام والاسبوع ، والام والابن ينتظران صامتين ساكتين ، لا يأتيان بحركة • « يرجع مرجوعنا لبنت الآغا ، » فمئذ تلك الساعة لم تعد تعرف النوم • تارق ولكن لا تتعذب في أرقها • كانت تفكر في الفلاح الرابع • الاكل مثل الناس لم تعد تأكل • والمهم ، بدون اطالة ، في يوم زواجها ، وفي ساعة الدخلة • يأتي اليها عريسها • يتناول عنها ثيابها • ولكنها تحس بشيء يأكلها من الداخل أكلاً • شيء يحملها عن الارض • تركت عريسها وهي بقميص النوم • وركضت • طلعت من القصر وهي تركض • وظلت تركض حتى وصلت الى بيت الرابع • وتعرفين بيوت الضيعة • بيوت وخشب لكن الطين كان أحسن من القصر عندها • فتحت الباب • ودخلت وارتمت عليه وهي تصيح : « أنا امرأتك بعهد الله » •

تصمت النسوة • تفاجأ أمية أن القصة انتهت ، وقد ظنتها طويلة ومتفرعة كمسلسلات التلفزيون • وللتو تنزلق الحوادث من واعية عائدة وتغيب • تنقل أم حسن عينيها بين المرأتين منتظرة تعليقا ومرفرفة جفنيها • تنتبه أسمى الى رغبتها فتضحك • تقول لها : « والعروس ، ألم يبطل مفعول الدمية فيها ؟ هل جاءت والدمية معها ؟ » •

ينتاب العجوز الضيق • تشرع في سرد مزيد من الحكايات ، ووراء صوتها ينبر احتدام نصف ملجم • حكاية وراء حكاية ، حتى يتهدل المرح من وجه أمية وتلتصق عيناها بوجه محدثتها الرصين • « أنت يا أم حسن ، بشر حكايات ، » تقول لها ، وتنهض متمطية متهيئة للانصراف • ومن ليس ؟ والحياة بساط منسوج من أحلام طفولة لا تشيب وتجاعيد شيخوخة لا تموت •

زيهم زي دمشق • قديمون مثلها ، وجديدون • وهي مدينة لبست ثوبا حاكه طول الامد ، طيبته رائحة الياسمين ، عرقت فيه التكايا ، زركشته المباني الحكومية والخمارات • تغفل النهر فيها صفيرا عكرا وملا عروقها بالدم النقي • وهي كالنهر - تنبع وتصب وتبقى حيث هي : نهرا يغزل الحكايات كطفل يلعب تحت الشمس والرياح والمطر ، ويعبر بهذه الطحالب الى مصب النسيان كشيخ تكور وجهه • هي النهر • وهي قاسيون : كتلة نتأت من جسد الطبيعة ، وتبرت عريا قاحلا ، وجاعت ، ومن هناك أطلت على السهل الخصيب المتصل بأفق الصحراء • وهي السهل : تربة يذروها في الصيف مارد الخماسين وتعجنها في الشتاء الامطار ، تعطش فتفتت رملا شيطاني الاذى وتشرب الماء فتستنقع ، وفي عطشها وارتوائها تكتسي بالشجر والزهر • وهي الصبية بنت الرابعة عشرة ، المتألقة في شارع الصالحية : على رمشها مثقال ذرة من الكحل أو مثقالان ، وعلى شاشة عذارها صور محتدمة حارة •

ليس في دمشق حياة ، يقول سليمان ، بل مزيج من حياة الموت وموت الحياة ، موت في موت واستمرار للمادة الصماء • ألف عام آسن عبر قلبها وترك فيه طميه الثقيل • وقبل الالف آلاف • لقد أناخ الزمن عليها وأبهظها وعشش فيها • وما هو ذا : في منكبيه يتكلس التاريخ ، تتعجر الصيغ ، تتقمص العلل ذواتها ، تتشابك العلاقات الخائقة ، تمد الاخلاق ساقها المترهلتين وترخيها على قلبه الموحد الصغير • واللغة في أفواه الناس تجعل اثنين واثنين تساوي خمسة ، مئة ، والعمل يجعلها تساوي صفرا ، والشعور سديما • والناس أجهزة تلفزيون حكّاءة ، بل يعبرها الحكي ، آلات وأشرطة معقدة صنعها الزمن وليس الوعي • ليس في دمشق جمال الشيوخ ولا رقة الصبا ، فيها بيوت الطين المتوارية كماهات نفسية ، والعمارات التي تنهض بسرعة وتهرم بسرعة

كي تناسب هذا العصر السندويشي العجول • مدينة تفتقر الى الكهولة ، اولادها
الذين في الاربعين مراهقون ، والذين في الستين مراهقون أيضا ، والذين في
العشرين شيوخ عصبليون ، والذين في العاشرة شيوخ أغبياء •

خليط محير من الطفولة والهرم ، الحلم الزاهي والواقع البلقع • هذا
صحيح ، يتمتم شيش بيش متأملا دمشق من (ساحة المهاجرين) المطللة على
المدينة • يعود بكرسيه الى الوراء فيلمح ابنته مقتربة ويدها ممدودة بالزجاجة •
« خلصت الكاوززة ، بابا ؟ » يتناول منها الزجاجة ، وقبل أن يفرق أصابعه في
شعرها الهفيف تفر عائدة الى صويحيباتها وهي تحبل خطوتين على كل قدم •
يتأملها بشغف وابتسامة : أجل ، هذا صحيح • فقط لو أن أمها لم تمت • لو
بقي لهما ذلك الوجه المنير الجميل ، لكان هذا الغروب أرضية لحضورها الدافئ ،
وهذا العمر السائح مدورا ومزنا •

وتعبر ذهنه صور تقاطعت وتآونت عن شابة وطفلة وكهل ، يفيضون
بلذاذات أعمارهم • ثلوث الحياة المتشابك الجميل • ثلوث من أناس لم
تتشكل نفوسهم بعد ، لم يتغلغل فيها التاريخ مذ أفاقت على وقع أقدام القرن
العشرين • ولأجل ذلك يحسون الحياة طولا وعرضا ، يعيشونها ارتفاعا
وعمقا •

كهل ؟ أجل • أحيانا يشعر بالكهولة • شيء ما في كينونته يفيض ، يترك
وجهه وصدره وخياله ، يبتعد أحيانا حتى ليخلف احساسا بالانتهاء ، أو يلبث
قريبا منه مبتسما بضجر : مثل صديق قديم عرف عنه كل شيء •

ينظر الى ساعته : حان وقت الذهاب الى العيادة • يشعر بأسف خفيف لانه
سيترك هذا المشهد الوادع المريح • ثم يبتسم : والبديل هو أسنان الناس

الخربة • ولكن ، العمل • ينهض وينظر الى حيث ابنته تلعب فيرى سليمان متقدما بهدوء بين صبية وعجوز •

لاول مرة منذ زمن طويل يقف متأملا سليمان • فجأة يبدو هذا الصديق وكأنه اتخذ شخصية جديدة • انه الآن أحد أطراف ثالث مشابه لما كان شيش بيش يفكر فيه قبل لحظات • ولكن ثمة ما هو أكثر من ذلك : انه ثالث متنافر ، وسليمان يبدو كئيبا • بل لعله كان كئيبا طيلة عمره ، وانما شيش بيش لم ينتبه • وتتعرض ابتسامته •

تميل سلمى الى خالها وتهمس : « هذا هو صديقك الدكتور ؟ هيئته مخيفة » يقهقه سليمان بقوة ، ولكن للحظات فقط : « أنت لا تعرفينه • هذا أكبر مهرج في البلد • » ترن الكلمات الاخيرة في أذني شيش بيش فيضحك بلا صوت • يراقب سليمان وهو يقود الاثنتين الى طاولة ثم يقبل اليه •

يتصافحان بمودة وكلمات قليلة • « أنا تارك لك المكان ، » يقول الدكتور ، « استمتع بالنيابة عني • » يهز سليمان رأسه : « ليس مع هاتين السلحفايتين • » وبعد وهلة يضيف : « في الحقيقة أنا أكره المساء • فيه ثقل وكآبة لا تطاق • أنظر ، كيف تبدو المدينة • كأنها جدران ملطخة بالسخام والهباب • »

المساء • هناك شيء غريب في المساء • عندما يجلو الضوء عن الزوايا والتكايا والساحات ، مخلقا وراءه فراغا متزايدا السواد ، تتأبط الناس رغبة في الخروج : من أين وإلى أين ؟ لا يعرفون تماما • الملك يحاول أن يعرف • في العشيات يجلس وقد استحضرهم في ذهنه كرعايا مطاعين ، ويفكر فيهم : هؤلاء الذين يحبهم ويفضب منهم ، يكره غفلتهم ويتوجع لشوقهم وجوعهم • ما الذي يكتبه عن حجمهم الصغير الضائع في الكون ورائحة عرقهم الأليفة ؟ يتعبونه حتى ليخيل اليه أنه معلق في الفضاء ، أو مرمي على سطح بردي • •

انه المساء الدمشقي ، مد من الصحراء المختبئة وراء البساتين ؛ غبشة
تتظلل فيها التلال الجرداء بلون أقل دكنة ، كأنها تركت لمثل هذه الساعة بقية
من الضوء المنسحب . وهم لا يعرفون ماذا يحدث . لكنهم يشعرون أن هذا
الشيء المنشور من الشمس قد مضى وأن هذا اللاشيء القادم من لا مكان قد حل
محلّه . لعله الخوف من الفراغ ، أو من الغياب . لعله شعور بالضيق والحصار .
لعله رجوع غافل لعبادات قديمة ترعرعت يوم اقترنت مخافة الموت بحلول
الظلام . انهم يخرجون ، يتقاطرون الى الشوارع كتفا لكتف وصوتا لصوت .
يحتشدون . بعضهم صامت ومعظمهم يتحدث . يخترقون الشوارع بنصف
انتباه ، غير آبهين لحركة المرور ولا لأضوائه . وتنفخ أبواق السيارات زاعقة
بهم أن تنحوا . تقطع عليهم مسيرتهم عربات شاء سائقوها أن يجعلوا من
الأرصفة مرآبا . يتجمعون أمام حوانيت الشطائر ، كأن مادة الأكل حقيقة
تطرد هاجس العتم من نفوسهم . وأمام دور السينما ، ومحلات الأزياء ، وباعة
الحلوى والذرة المشوية ، والكتب والمجلات المعروضة على عتبات الدكاكين
المفلقة . وتخفق التنورات الزاهية والصدور الياينة واليافة . تلمع
المستحضرات على الوجوه ، والكحل على الأجفان اللاقطة الناعسة . هنا وهناك
تتشكل معارض للرجولة والأنوثة ، تلتئم على رصيف ما ثم تنفرط ، لتنعقد
من جديد على ناصية أو تتحرك على امتداد شارع طويل . الرغبات .
الأمانى . العيون العدوانية والعيون المتحسرة . والمشغولون بالسياسة ومصير
الامة العربية . والحانقون حتى الموت على الفجور والتعهر الماثلين في الثياب
القصيرة والسجائر المتدلّية من شفاه لم ينبت حولها الشعر . عوالم تتداخل
كفمائيم غبار وتنفلش ، لكنها لا تنتهي أبدا لأنها تنفم من الداخل . يصير
المساء مهرجانا . يصير طقسا وثنيا يذبح فيه الزمن ولا نيران ، ويمشي الناس
على ايقاعات أشواقهم الواهجة .

يمر المساء • ويمر الليل • لكن نوبتهما في النفس لا تنتهي •

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الاصبح منك بأمثل

يتمد العتم الى مكان آخر من العالم ، الى قوم آخرين • ويهبط الخوف تحت شقوق غائرة في الضلع الثقيل بالمساءات • ثمة شيء غريب أيضا في الصباح • عندما يستيقظون ، يستيقظ الماضي أيضا ويلحق بهم : يضع الصباح دمرة ومساحيق على وجهه الحرباوي ويلحق بهم • وهم قوم ضربت جذور لغتهم في الفعل الماضي ، ثم صنع الحاضر منها صناعة • في الصباح يغدو المساء ظللا يحملونه تحت آباطهم وينجرفون معه باتجاه الزمن الآتي • لا يروونه تماما ، لانه مرتسم على شبكية أخرى غير التي يرون بها العالم النهاري • لكنه بين حين وحين يزيح برأسه كومة النسيان وينبثق • يطل حاملا شوقا مشرشا أو عبئا زمنيا سئم منه حتى زهير بن أبي سلمى •

لقد كاشت تكاليف الحياة مضيعة دائمة للعمر – يفكر عباس وعيناه مسمرتان على شقوق النافذة المقابلة : لهذا تنهض هذه الفتاة الرقيقة في السابعة من صباح عمرها ، وجهها مرشوش بالتعب وعيناها بالنعاس • لقد اعتقد دائما أن سواة هذا العالم هي الضرورة – ضرورة العمل لكسب العيش ، والعمل لتزجية أوقات الفراغ • في هذا الصباح الجميل ، يغدو الناس ويروحون متعبين عرقى ، ضاربين في الارض ، متفصدي المشاعر • يعبرون فيلقون في خاطره فيضا غامرا من الاشفاق والعطف • وتدغدغ عيناه عبر الشقوق الى الفتاة المتعبة : أنظروا اليها وهي تتعري فتثير الشهوة والاعجاب والصدق ، ثم ترتدي ثياب العمل فتتنفض عنها الهالات ، تغدو شيئا • وعباس لا يحب ذلك •

هذه الفتاة التي تثبت الآن حمالة ثدييها ، أي شعور أعمق من الخوف يمكن أن تشعر به وهي تسرع كل صباح كي تصل الى عملها في الوقت المحدد ؟ عليها أن ترتدي ثيابا لائقة وتبدو منشرحة الوجه • وعليها أن تجد زوجا • ولكن ماذا بشأن لياقة النفس وانسراح الفؤاد والسعادة ؟ كلا ، هذه حياة لا ترضي عباسا • لا يعجبه ما يدعيه الماركسيون من أن العمل مطهرة للنفس • ويعرك ساقيه على الكرسي الثاني فينال مزيدا من الراحة ، ويتكىء بذراعه على افريز الشرفة • لقد جعل الماركسيون من الضرورة ناموسا ومن العبودية طيلسانا • يجب أن تكون حياة الانسان مكرسة للأنبيل وللأجمل • الاشتراكية الحقيقية تعزز تلك المعاني العظيمة • وتجذب عينيه حركة متسرقة على الشرفة الادنى ، فيمط رأسه : أمية ! تهبط عيناه على منحدر الصدر ، تستقران على الخط الفارق بين النهدين الخافقين • تطأطئ أمية فترسم تقاطيعها تحت ثوب النوم • تتناول قميصا وتنتصب • يعتدل عباس فورا ولكن بلا اضطراب • بعد كل شيء عليه أن يبدو رصينا / متمددة على سريرها مغمورة الوجه بشعر مموج كالبرق • ما الذي سيحل بها ، وبابنها ، وبنواف أيضا ؟ يجب أن يكون هناك من يحميها ، يحدب على هذا الجمال الأنيس ويحتضن براءته • الوجه النبيل ؛ الوادع أثناء النوم ؛ الباسم الوجل في النهار • لهذا تقوم الثورات • كي يجدد الانسان ذاته وينعم بأشواقه • يتخلص من تكاليف الحياة • ينتهر الضرورة ويعيش حرا • ينساب في الوجود / متمددة على سريرها / أعضاؤها تتحرك بسهولة وانسياب فتلامس وتلتصق وتطوق / تهرع بذراعيها كطفلة / تستوعب كامرأة / تضم كأم رؤوم •

يرشف ثمالة قهوته ، ويمج النفس الاخير من السيجارة • يخطر له أن ينظر الى الاسفل متفقدا مجيء السيارة ، ومستطلعا وجود أمية على الشرفة •

يبتهج للاصابة المحكمة • منذ طفولته وهو يبتهج لاصابة عصفورين بحجر واحد ، أحدهما مطلوب والآخر تغطية • صحيح أنه يكره التبرير ، يؤمن بشرعية أشواقه ، ويريد أن يندغم داخله بالخارج فلا تموت خلاياه جوعا • لكنه ليس طفلا يساريا كي يخرج الى العراء ويقاتل الثعابين • كلا • اللاعب الماهر من لا يكشف أوراقه دفعة واحدة • واذ ينهض مسويا وضع ربطته تطفو على ذهنه فكرة حزينة : لقد وصل به العمر الى تلك المرحلة التي يتعين فيها على الانسان أن يخفي مقداراً من حقيقته عن الناس جميعهم • ينزل الدرج وبقعة الاسي تزداد انتشاراً • ففي ذات يوم آت قد يكتشف أنه أخفى حقيقته كلها • لقد مد الآن خطوة واسعة نحو الموت ، أما في ذلك اليوم فسيكون الموت نفسه • الى جانب السيارة يجد الشرطي المرافق واقفاً يتصلب ومهابة وقد فتح له الباب • يحييه مصافحة ، كالعادة • وكالعادة أيضاً ، ينتبه الى انتباج سترته فوق المسدس المحشو • يدخل ويسلم على السائق • ينغلق الباب بلطف • ها هو ذا بين جدران محمولة على أربع عجلات ، ووراءه على الزجاج الخلفي الستارتان الميزتان لرجال الدولة • صورة أخرى من صور الجلال والموت •

ولكن ، كلا • ما تزال بينه وبين الموت مسافة واسعة • تنطلق السيارة ، وبعد ثوان تمرق كالسهم عبر شوارع المدينة المفيقة • توقظ الحركة فيه احساساً متزايداً بالحياة • الاشجار الجميلة المدروزة على الارصفة • شعاع شمس الصباح المتوهج كخدين عاشقين • وهو ذاهب ليلتقي بوجوه الفلاحين البريئة • ما احلاها عيشة الفلاح ، مطمئن باله ومرتاح - يتمرغ على أرض براح ، والخيمة الزرقا ساتراه • وظيفته أن يصنع الحياة • قبل شهور قرأ عبارة للطبيب النمسوي الشهير فرويد تقول ان في الانسان نازعي حياة وموت

يصطرعان باستمرار • وعباس يعتقد أن هذا صحيح ، ليس فقط بالنسبة للأفراد ، وإنما بالنسبة للأمم أيضا • والأمة العربية مثال واضح • لو أن كل رغبة لبیت • لو أن كل أمنية تحققت • لو يشبع الإنسان جوعه الدهري • أناس كثيرون لا يعرفون حقا ما اذا كانت يقظتها الحاضرة فيقة الموت أو معانقة الحياة • هو يعرف • الأمة العربية ليل كموج البحر أرخى سدوله على عباس ليبتليه بأنواع الهموم التي تحملها معانقة الحياة • هذا هو قدره • تلك هي صناعة الثورة •

من مسافة لا بأس بها يشاهد ذلك الموج • وعندما تقف السيارة يشعر أنه قد صار في وسط اللجة المترجحة • عشرات الفلاحين تحركوا في أماكنهم انتظارا للوقوف • على وجوههم تعبير وظلال ، تكشيرات محبة وتوقع مرتاب • يفتح الباب ويخرج ، فتمتد اليه الايدي الخشنة المخددة • يفيض في صدره شعور خانق الفرح • يحس أنه بعض من كل منهم ، مرتبط بهم الى الابد ، متحقق فيهم •

هناك فرق بين أن يتكلم المرء في الثورة وأن يعيشها • في السنة النهائية من دراسته ، كان يخرج مع الطلاب الى الشوارع ليهتف بسقوط الدكتاتورية العسكرية • كانت أياما مجيدة طافحة بالحيوية والايمان • وكان يرفض انهاء المظاهرة الا معتقلا أو مبحوح الصوت • واذا ظفر بكلا الاعتقال والبعة أحس أن وساما يخطف ضوؤه الابصار قد تعلق على صدره • لقد تكثف العالم يومذاك في زنزانة رطبة مظلمة فاقت قصور الخلفاء جمالا وعزا • وكان الشرطي يأتي بمقصه الصديء فيدسه في شعره ويجدع ، صانعا من رأسه خريطة غريبة التضاريس • الا مرة ، كاد فيها الشرطي أن يجدع أنفه • لقد حاول عبثا أن يشرح له حقيقة الامر ومعنى النضال : الطلاب يتظاهرون من أجله ، من أجل أولاده وكرامته ، كي لا يكون زلّة للسلطة • وتحت عمرته الغبراء ، استشاط

رجل الامن غضبا : هو زلة ؟ كانت عمرة ضيقة انشدت على صدغيه بطريقة بدا وكأن الرجل يفتقر الى جمجمة • هو زلة ؟ ومن أجل كرامته ؟ وقد أثبتت الصفة القادحة على وجه عباس أنه أكثر من ذلك • وتعمق الاثر فصار جرحا عندما أخلي سبيل رفاقه وبقي هو • وتعين على أبيه - ذلك الشيخ الابراهيمي الجليل - أن يحمل مسبخته مسافة خمسة وعشرين كيلومترا كي يتشفع له ويكفله شخصيا •

الآن تغير كل شيء • لأجل تلك الصفة - هي بالذات وليست الصفات السياسية - تعين على الثورة أن تنظم برنامجا متواصلا لتوعية الفلاحين والعمال ، الكادحين جميعهم ، والشرطة أيضا • يجب أن تعي الجماهير الشعبية قضاياها المصيرية وتكون على مستوى المسؤولية التاريخية الجسيمة الملقاة على عاتقها • « أيها الاخوة ، » يقول لهم • ويروي حكاية تلك الصفة الباقي أثرها ، ليس على خده • وانما على ضميره • « يجب ألا يكون الكادحون أعداء لمثليهم الحقيقيين لمجرد جهلهم بمن يمثلهم • » يلتفت أحدهم الى الحاضرين بحماس ويهتف : « يعيش المحافظ عباس • » ويرددون : « يعيش ، يعيش ، يعيش ، » فيما ذراع عباس ترتفع محتجة • يخبرهم أنه لم يأت ليستل منهم هتافا بل ليشعذ همهم ووعيهم • اذا كان لا بد من هتاف ، فينبغي أن يصدر عنه هو • هو الذي يجب أن يهتف : « يعيش الفلاحون ، » « يعيش العمال • » فهؤلاء هم ملح الارض ذو الطعم القوي • هؤلاء لحمة الثورة وسداها ، مدامكها القوي • من وجودهم تستمد الثورة وجودها ، ومن تحقيق أمانهم تستمد الثورة استمرارها • يجب أن تتعزز البنية الطبقية للمجتمع ولعلاقات الانتاج لأجل تحقيق الوحدة القومية • والفلاحون والعمال هم القاعدة الصلبة الراسخة لهذا الانجاز التاريخي العظيم •

يلتفت الفلاحون الى بعضهم بعضا بنظرات مستترة • يبتسمون طربا
وارتياحا : هذه الكلمات الكبيرة ، كلها لهم ! فليظهروا شيئا من الامتنان ،
ليكون الامر كلمة حلوة مقابل ابتسامة حلوة • يركبهم الشعور بأنهم أشياء
كبيرة ، كأن ثقلا لا طاقة لهم بحمله قد وضع فجأة على كواهلهم ، فتعين عليهم
التصرف بأهمية ورزانة • غير أنه ثقل محبب ، يكاد يرفعهم عن الارض بدلا
من أن يغرز أقدامهم فيها • لم يسبق لهم أن أعطوا مثل هذه الرفعة • تصوروا
أن الفلاحين مبرر استمرار الثورة ! وهم لا يملكون بندقية ولا سيارة ولا
قصر ! حقا ان الثورة هذه نعمة هبطت عليهم من السماء • وما هو ذا المحافظ
يأتيهم بنفسه ويخاطبهم كواحد منهم •

ولكن لماذا يمتدحهم المحافظ ، وليس لديهم شيء يهدونه له ؟ انهم هم
المحتاجون وليس هو • وتستمر نظراتهم الخاطفة في التنقل المستتر المستخف •
يقال انه ابن فلاح مثهم ، أي ليس ابن آغا • والفلاحون يمتدحون بعضهم
بعضا في البيوت وعلى المصطبات • الا أنه امتداح متبادل واعتيادي ، وهم
يعرفون صفته الهوائية •

ثم يتبدد ارتيابهم اذ يتمنطق عباس باللغة العربية • يحدثهم عن الارض
التي سقوها بماء عروقهم فاخضرت ، عن جباههم السمر التي لوحتها الشمس
وخذدها التعب • هذا التراب الذي يقفون عليه يعرف رائحتهم ووقع أقدامهم •
انهم وآبائهم هنا منذ آلاف السنين ، ولن تستطيع قوة في الارض أن تقتلعهم •
لا الاستعمار ولا الصهيونية •

وتأخذ عباسا شحنة العاطفة التي انبجست منه على حين غرة • منذ يومين

وهو يحسب لهذا اللقاء ألف حساب ، خاف أن تخذله الكلمات فيفقدو أهزوة
أمامهم . خاف أن يتكلم بلغة لا يفهمونها ، وقد صمم على أن يخاطب عقولهم .
ضرب أخماسا بأسداس باحثا عن الأسلوب الأمثل للتوجه اليهم . أخيرا حزم
أمره على الكلام القليل والفعل الكثير : سيتحدث الى الفلاحين عن ضرورة تنظيم
الجماهير الشعبية في اتحادات نقابية ثم ينصرف الى معالجة مشاكلهم
الاساسية .

وقد فعل . وما هو يخاطبهم رامحا على متن الصور ومنفعلا برنين الكلمات .
اتحاد الفلاحين ، أجل . لم يدر كيف تحول شوقه العتيق الى أسلاك
مكهربة تماسّت فأحدثت بهم مسا . وهم قوم يعشقون الفصاحة ويطربون للمثل
العليا . يصيحون : « يعيش ! يعيش !! » وهو يرجوهم ألا يفعلوا . بعضهم
ينسق شاربته ، والآخر يهز كتفا ليسوي وضع السترة . بعضهم يجد نفسه
منساقا باللجة على مضض ، فيتمتم ويوحوح ، أو ينقل ارتخاء عجزته من قدم
الى أخرى . وجميعهم يقر له بصدق العاطفة ، ويحيون فيه الاخلاص والحماسة .
ثم تنبثق الاصوات مؤكدة له أنهم بلا الاستثناء سينتسبون الى اتحاد
الفلاحين .

لان الجماهير الشعبية المناضلة لا يجوز أن تبقى بدون تنظيم . التنظيم
يفجر طاقاتها ، يدفعها باتجاه الثورة ومقارعة الامبريالية والاستعمار
الاستيطاني . « من سراقبنا ويصححنا اذا أخطأنا ؟ » يسأل عباس . ويجيب :
« أنتم . أنتم ضميرنا . ويجب أن نتعاون معا لتحقيق أهداف هذه الامة . »

أخيرا يدرك شهرزاد الصباح . ويشعر عباس بغمامة تنجلي عن ذهنه :
لقد أصاب نجاحا كاملا . الآن يستطيع أن يبحث معهم شؤون القرية . يتقدم

منه الساقى بدلة القهوة المرة ويصب له ثلاث رشقات ، ثم يطوف أمام الحاضرين • يحتسون قهوتهم بصمت طارئ ، فيما عينا عباس تتجولان في باحة القرية بلا تعيين • يلمح الساقى مقبلا نحوه مرة أخرى ، فيهرز يده بالفنجان • ويطول الصمت اذ يجمع حامل الدلة الفناجين •

يتنحى أحدهم متهيئا للكلام • تلتفت اليه العيون • يمسح على شفتيه بتؤدة ويسوي بذلك تناظر شاربيه • يبدو واثق النظرة ، دون أن يخصص بها أحدا • « وعدتنا الحكومة ، » يقول ، ويصمت قليلا كأنه يستجمع شجاعة غادرته على غير توقع • ينتظر أوبتها بلا اضطراب فيزداد توقعه إرهافا • « وعدتنا الحكومة قبل شهر بتزفيت الطريق من (عكورة) لساحة البازار • ست كيلومترات ، ما غير • بدون تزفيت ، لا دراجة تقطعها ولا مترو • ونحن شغلنا عالدراجة والمترو • بودنا أن ننقل الخضار على بكر ، وشوفير الباص لا ينقلها • نرجو من سيادة المحافظ أن يعطي باله لهذه المسألة الاضطرابية • »

على هذا يجيب عباس : « معك حق • بس آلات التسوية والتزفيت استعارها الجيش • يريد الجيش شق طريق عسكري هامة • ومعلومك نحن في حالة حرب • لازم كل نشاطنا يكون في سبيل المعركة • كل الطاقات لأجل المعركة • قريبا ، ان شاء الله ، ننهي تزفيت الطريق • »

ينفض أحدهم عن كرسيه متحمسا • لا ينتظر انتباها ولا انصاتا : « أبو لؤي ، أعزك الله • دوخنا مخطط الضيقة ، هذا الذي يحكون عنه • ساعة ، يقولون الشارع يمر من هنا - يرتفع سعر الارض • ساعة ، يقولون من هناك - يرتفع سعر الارض هناك • وبصراحة ، أبو لؤي ، الله يديمك ، الناس تحكي عن رشاوى • أصحاب الارض الفلانية رفعوا سعر المتر خمس مرات ،

لشأن أرضهم صوب المدرسة الجديدة • وناس خربت بيوتهم بسبب الهدم •
لأن الحكومة هدمت البيوت ، لا تؤاخذني ، وما عمرت غيرها • والضيعة ماعادت
ضيعة ، يا أبو لؤي ، ولا عاد فيها شيء تتعرف عليه • اي الله الوكيل ، الله
الوكيل ، يمين بالله ، بعض الناس صار لها حسابات وشيكات في البنك » •

على هذا يجيب عباس : « يا أبو الطاهر ، مخطط التجميل لم يتقرر حتى
الآن ، وكل شيء باق على حاله • وأنتم لا تعطوا فرصة لتجار الاراضي
والمضاربين • لا تشتروا ولا تبيعوا • الارض هي أثمن شيء نملكه • ابقوا
في الارض • الثورة لن تسكت على المتلاعبين بأرزاق الشعب • وستضرب بيد
من حديد كل من تسول له نفسه استغلال الفلاحين • قريبا ، ان شاء الله
سترى » •

يهتف أحدهم : « ومضخة الماء ؟ » •

فيسأل عباس : « ما شأن مضخة الماء ؟ » •

يجيب أحدهم : « طلعت أفندي يقول ، الماء في البئر شحيح • قال ، اذا سقينا
أرضنا ، أنا وأبو راتب ، بقيت أرضه بلا سقي • وكنا متفقين أن ندفع له •
وأخر مرة بحبنا له الدفع • • » •

يقاطعه أبو راتب وقد استاء من أن صاحبه أغفل الناحية العاطفية :
« صارت أرضنا صحراء ، يا سيادة المحافظ • نحن حياتنا كلها موقفة على
هالارض • شف البقدونس كيف صار • » ويسحب من جيبه باقة بققدونس
فاتحة الخضرة متهدلة الاوراق ، ويضعها على راحتيه بمحبة كأنها بيضة
ينخس على الكسر • « هذا بقدونس يا سيادة المحافظ ؟ هل تقبله على
طاولتك ؟ لو الارض مسقية كان هكذا طول الفرعة ، » ويشير بيديه •

يقاطعه فلاح ثالث بنبرة واضحة : « ونحن لنا الحق في السقي • ندفع
مثل غيرنا ، أبو لؤي • نحن الفلاحين لنا حق في السقي مثل طلعت بيك • يعني
لأنه يملك المضخة ؟ طيب ، ما نزل المطر السنة ، يعني راحت علينا ؟ » •

على هذا كله يجيب عباس : « مشكلة السقاية على مسؤوليتي • واعتبروا
المشكلة منتهية • نحن نطالب الفلاح بزيادة الانتاج ، وواجبنا تأمين الماء
لأرضه » •

تترك كلماته فيهم التأثير المطلوب : ذلك عقد وعهد وهم سعداء بالالتزام
به • يهمهمون ويبرهرون ، فيسترخي عباس في جلسته مرتاح البال • ينبثق
أحدهم واقفا ويصيح وسط اللغط : « سيدي ، واللف والسماذ ؟ » •

تتوجه اليه العيون وقد صمتت وارتقبت • يتأمله عباس منتظرا •
« وعدتنا الحكومة ، » يقول بلا تلوؤ ، « أنه في نهاية الشهر الماضي تؤمن
اللف والسماذ • الله يطول عمرك ، سيادة المحافظ ، عندي كم دابة وقطعة
هالارض • حياتهم حياتنا • اللف مفقود والسماذ مفقود » •

يسأل عباس مستغربا : « مفقود ، كيف ؟ أغرقنا السوق باللف والسماذ ! » •

يقول أحدهم : « سيدي ، اللف والسماذ ، مفقود من السوق » •

وينهض آخر : « علف وسماذ ، موجود ، أبو لؤي • بس السعر أربعة
أضعاف • الحكومة مفكرة أنه الناس تشتري على قد حاجتها • الحكومة قلبها
طيب بزيادة • الناس راكضة وراء المال ، سيادة المحافظ • كل واحد معه
مصارى يشتري ويخزن ، شهرين ، ثلاثة ، وتصير مصاريه ثروة » •

عندئذ ينظر الرجال ، المحافظ والفلاح ، الى بعضهما بعضا نظرة مستبطنة

كل شيء ، كان فلاحا واحدا فقط من تكلم بهذا الاسلوب المخاتل الذي ينم عن معارضة للثورة ؛ وها هو قد ندم الآن .

عودة الى مخطط القرية والبيوت المهدمة . وتوكيد جديد بأن مصالح الفلاحين لن تضار . فجوة أخرى تفتح في النسيج الأثري لحياة القرية ، ويتدفق منها الاسمنت والخشب ومواد البناء . متى تتجسد هذه الكلمات وتغدو أشكالا ملموسة ؟ لم تعد بيوت الطين والتبن مبعثا للرضى ، ولا الخيمة الزرقاء دثارا للنفس البدوية .

وسؤال عن مشروع تمديد المياه الذي يترقبه الفلاحون بلهفة وصمت . عامان مضيا ، يقول أحد الفلاحين ، وهم ينتظرون . لم تعد الآبار تكفي ، يقول المختار ، بعد هذا الازدياد المخيف في عدد السكان ، وبعد أن نزل الجنود ضيوفا في المنطقة . صحيح أنهم لا يقيمون طويلا ولكن يأتي غيرهم . والأمراض ، يهتف ثالث . مياه الشرب ليست صحية ، والاطفال موبوؤون على مدار السنة .

وسؤال عن اىصال الكهرباء . عامان أيضا مضيا ، والتمديدات منتهية والاهالي ينتظرون . لقد قال المحافظ ، عندما زار (سراقس) ، أن أساس نشر الحضارة هو الكهرباء والماء والمدرسة والطريق . أين المساء والكهرباء والمدرسة ، وأين الطريق ؟ متى تحل هذه الاشياء في (رأس العين) الملتحفة بالكفاف ؟ .

يفكر عباس ، بعد سيل المشاكل الذي تلا سيل خطابه التوعوي : يجب أن تنجز الثورة نفسها ، والا . . ماذا سيحدث ؟ يحاول أن يتخيل وضعاً بشريا يتهاوى اليه هؤلاء الفقراء اذا ما أعيت الثورة أصحابها . لا يتمكن ؛ لانه

لا يريد • يمكنه أن يتصور أي شيء إلا أن تفشل الثورة • وقديما تمنى عمر ابن الخطاب أن يمد الله في عمره فلا يبقى في هذه الامة غنيا ولا فقيرا • ثم ترك جمهور المسلمين الملتف حوله ، برما على ما يبدو من ضرورة اهراق الزمن قبل انجاز الاعمال العظيمة • ولكن أين الطريق ، يسأل عباس نفسه ، مكررا كلمات الفلاح الاخيرة •

يودعه الفلاحون بالصيحات والهتاف ، وقد صار الوقت ضحي والشمس ساطعة • لكنه يلمس الآن في نفسه شيئا من العكر • الفلاحون ليسوا مطمئنين ، لا مرتاحين ولا مريحين • بل ان شراويلهم وقنابيزهم نظيفة ، ويبدو أنهم لم يتمرغوا البتة على أية أرض - سوى أن أيديهم صلبة وخشنة •

تنطلق به السيارة على ستة الكيلومترات المحجرة المخددة • هذه هي الطريق ، يتمتم متعاطيا شيئا من الرمزية • وأبو لؤلؤة يكمن في موضع ما منها • بل لعل هناك ألف أبي لؤلؤة ، وهذا الحارس لن يكفيه شرمهم على رغم استعداده لبذل الحياة • انهم ذلك التاريخ المديد من التصبن على حال واحدة ، وقافلة الالغام القاتلة التي بثها الاستعمار تحت كل موطن قدم • والجماهير لا تعرف كيف تكتشف الالغام كما يعرف الجندي المتمرس • الجماهير ترغل في الأزمنة القائضة كحشد من القطا البري فتضع نفسها بدون فطنة في مرمى بندقية الصياد •

مليون بشري منها يملأ مدينة دمشق • يفيقون فيدرجون على الشوارع والجادات ، في الدكاكين والمعامل ودوائر الحكومة • يشمون الهواء ويزفرونه • يفرحون للصباح الصاحي ، ويوحون للمطر • يبتهجون بالحلوى والاسعار الزهيدة واللغة العربية • يكدحون ويتسولون ويسرقون • يتجادلون وتحتقن أعصابهم • يعرقون في الافران والمناشر ومجابل الاسمنت • يهبطون من القرى

حاملين على دراجاتهم الالبان والاجبان وقرعون أبواب البيوت • يطوفون الشوارع وراء طليعاتهم الحافلة بالنعناع والخس والبقدونس والفجل والسلق والسبانخ والارضي شوكي والبصل الاخضر - وكل خيرات أرض البلاد الطيبة • يقتعدون النواصي مطوقين أنفسهم بسحارات الصبار اليانع ، ورفقتهم قنديل باهر الضوء وراديو تصدح منه أم كلثوم • يبيعون العصير والشراب والقهوة المرة وأوراق اليانصيب • يتعاطون النكتة والكلمات البذيئة • يطربون لرمية نرد موفقة ، ويتحرك فيهم خوف مبهم من القنبلة الذرية • ويسمعون من الراديو أن الرئيس جونسون قال لجلسائه اللطيفين : أعتقد أن مزيدا من فتياننا سيذهبون الى فيتنام في نزهة عسكرية •

وعند الضحى يجلسون في بهو حرص مستخدموه على ابقاء جدرانها عارية وبلاطه كامدا • بعضهم يتناول مجلة قديمة فيقلبها ويبدو مثقفا • بعضهم يحملق الى لا مكان • بعضهم يداري جلسته فلا يقع به الكرسي المخلع • وبعضهم يختلس النظر الى السيدة ذات الطفل الصغير • أخيرا يطل شيش بيش ويجيل بينهم عينيه الخضراوين الوقادتين : « دور من ؟ » يسألهم ، فيجيلون أبصارهم بين بعضهم بعضا ، كل يأمل بأن يزوغ من الدور ويلبي دعوة الطبيب • لكن كهلا متورم الحنك ، قصير القامة ، ينهض ويمشي بهدوء ونشاط ساحبا وراءه طنفسة شرواله الجوفاء • يعود شيش بيش الى العيادة ، فيدخل الكهل وراءه متقدما بثقة من الكرسي المعلق وواضعا جسمه عليه • يحس بنظرة الطبيب مسددة الى حنكه الورم وخده الورم وعينه الورمة • لا يريم • يظل مطرقا مدفقا الى الارض ومثبتا كوعيه الى ذراعي الكرسي • يسأله شيش بيش ماذا حدث ، فيشير بيديه طالبا قلما وورقة ويعود الى جلسته • يتأمله شيش بيش ثم ينفجر ضاحكا • يناوله ما طلب ، ويقف الى جواره ليقرا • ويكتب الكهل

أن ضرسه كان نصف منخور ، وكان يسبب له أوجاعا فظيمة ، وفي ساعة ألم مبرح ربطه بخيط قنب متين ونتره ؛ وطار الضرس مسافة قامتين ثم طار وراءه الدم . يسأله شيش بيثش ماذا حدث لحباله الصوتية كي يلزم الصمت ، فيكتب أنه يخشى أن يلطم لسانه بمكان الجرح ويسبب له نزيفا ، لان لسانه سريع وهائج الحركة . ويسأله ثانية لماذا لم يأت البارحة ساعة اقتلع ضرسه بهذه الطريقة الثورية ؛ فيكتب أنه لم يكن لديه نقود . وهل لديه نقود الآن ؟ كلا . كيف اذن ؟ هكذا ؛ البارحة قالوا له ان أجرة الطبيب الشاطر خمسون ليرة فاعتقد أن فجوة ضرسه ستشفى لا محالة خلال أربع وعشرين ساعة . لكنها لم تفعل ، واضطر للمجيء . وهو مستعد للتوقيع على « كمبيالة » يدفعها من أول « قبضة » لثمن الفول الرجعي . وثن الدواء ؟ أي دواء ؟ أليس هو الطبيب الذي سيشفيه ؟ الدواء الذي سيتوجب عليه شراؤه ؟ آ ، هذا ، يفرجها الله . هل يوجعه موضع الضرس الآن ؟ نعم ، وجعا شديدا .

يهز شيش بيثش رأسه باسم . يطلب منه فتح فمه ، ويعمد الى مراهمه وقطنه وملاقطه . ينظف الجرح ويطهره ، ويثبت عليه قطعة قطن بليلة : « ابصقها بعد ربع ساعة ، » يقول له ويمضي الى طاولته . وفيما يكتب الوصفة يعطي مريضه التعليمات : « اسمع جيدا . خذ هذه الادوية لمدة أسبوع . بعدئذ تعال الي . بعد أسبوع لا تقل طاب الجرح وما عدت بحاجة للدكتور ! سامع ؟ ووقت تباع الفول تعطيني مالي . اذا لم تجيء بعد أسبوع سأقول انك هربت من الدفع . » قبل أن يتم كلامه يهز الرجل رأسه يمينا ويسارا : لن يكون ذلك الأبق ، وسيدفع المال على آخر قرش - هكذا تشير يده . ويقول شيش بيثش : « بعد ربع ساعة احك كما تحب . بشرط أن تأخذ الدواء . » ويهز الآخر رأسه موافقا .

يناوله الوصفة ومعها خمسين ليرة • في منتصف الطريق اليهما تقف يد الرجل اذ يرى الورقة المالية • يهم بالكلام ثم يمتنع • يسحب يده • يلتقطها شيش بيش ويدس في راحته الورقتين : « وقت تبيع الفول ، » يقول له ، « هذا دين عليك • » ويضع الكهل يده على صدره ثم يضع طرف اصبعيه على شاربته •

يتقدم الطبيب بمريوله الابيض ، كسول الخطى ، آلي الدهن ، متوهج العينين • يقف بالباب ويهتف : « دور من ؟ » تنهض سيدة متقنة الصنع والصناعة وتنحني فوق طفل في الخامسة • تمسح على حنكه بحنان وأسى ، تلتقط يده وتمضي به وراء الطبيب الذي عاد الى عيادته • في الداخل يتعرف هو الى الشطيرة الطويلة اللذيذة • يدرك أنه قد بدأ يجوع • تقول هي : « نزار لا يشكو من شيء خاص كما أظن • ولكن • • قلت أعرضه على الاطباء المختصين ، من باب الوقاية • » يتأمل هو الطفل باسماء ، ويتعجب اليه • يحمله وقد أدرك غرض أمه ، ويضعه على الكرسي المعلق • يطلب اليه فتح فمه ، ويفحصه بالمجسات والمخارز ، متأنيا مدققا ومنصرفا بكليته الى العمل • تشعر المرأة بالامتنان لانه قبل ادعاءها ، وبشيء من الرثاء لهذا الشاب الذي ضيع عمره القدر •

أخيرا يدعوها الى الكرسي ، معلنا أن أسنان الطفل سليمة تماما • تنهض من جلستها الوادعة • تسأله : « لم تعد تزورنا ، يا دكتور • »
يبتسم : « مشاغل الحياة ، يا ست غادة ، كثيرة • وأنا والله أحب سهراتكم • كيف أبو نزار ، مبسوط ؟ » •

مبسوط ، ومشتاق ؛ تقول له • تجلس ، تلقي برأسها على المسند ، وترخي ذقنها فتنفرج الشفتان • من بين أهدابها نصف المقمضة تتفحص

وجهه ، ويسئمها ألا تجد الانطباعة التي توقعتها • تتحرك قليلا فيزداد نهداها
انتصابا : « هكذا يجب أن أجلس ؟ » •

منهمكا بأدواته يقول : « كيفما شئت • » يتقدم ويوجه المنور الكهربائي
على أسنانها الناصعة • تفتح عينيها وتسال : « هل أزيل الحمرة ؟ » يهز
رأسه بالنفي • يتناول مجسا مديبا وينقر برأسه على نقطة زرقاء لا تكاد
ترى في أسفل سنها • تنقر ويهتز صدرها • تنظر اليه معتذرة بصمت • لكنه
لا يهتم • ينقر سنا آخر وثالثا • وتفكر هي : أترى أخبره سليمان بما بيننا ؟
يقول : « ثلاثة أسنان بحاجة الى معالجة فورية • كان اللازم أن تأتي من
قبل • الآن ننتهي من واحد ، اذا أردت • لو جئت من قبل لما احتجنا
للرصاصة » •

تبتسم بحزن كسير : « بودك الصراحة ؟ فكرة الشيخوخة مخيفة • »
وتبتسم بمرح •

ينظر اليها بدهشة حقيقية : « أنت ، تفكرين بالشيخوخة ؟ دائما كنت
أعتقد أنك تملكين الحياة وتقبلين عليها » •

عندئذ تتيقن أن سليمان قد أخبره ، ويريحها ذلك • فجأة يثر صدق
كلامه وعفة نفسه رغبتها في البكاء • ينظر الى عينيها الغائمتين المتسولتين
ويتعمد اللامبالاة • يقول لنفسه : هذا جانب من شخصيتها لم يحدثني سليمان
عنه ؛ لعله لم ينتبه اليه •

« هل نبدأ ؟ سأحفر السن قليلا ، وأحشوه بهذه • » ويريحها كيسا صغيرا
فيه مسحوق أبيض •

ترد بالايجاب • ويعمد هو الى مستحضراته فيخدر فكها • ثم يسحب

المثقب من حامله المعدني ، ويلقي بقدمه على الدواسة • يثز الصوت فسي
المثقب ، وتزول النقطة الزرقاء • يتحول المسحوق الى محلول ، فالى معجون •
ويستقر المعجون في الفجوة الصغيرة فيتصلب • ويسترد السن المنخور مادته
المفقودة ، وامتلاءه ، ثم شكله •

وطيلة الوقت يبقى الاثنان صامتين • من عادته أن يتحدث لزبائنه ،
على الاقل كي يشغلهم عن الخوف والعصبية • أما الآن فهو في حضرة الحزن •
يعرف أنها حالة مستعصية ، وأن العالم لا يحفل كثيرا • يعرف أن الحزن
أبعد مهبطا في النفس من أي شعور آخر • ولكن ، هؤلاء البرجوازيون ! يبدو
أنهم ليسوا ذئابا كلهم ، أن بعضهم ضحايا • منذ فترة لا بأس بها يراوده
تفكير لا ينسجم كثيرا مع مبادئه الثورية : أليس هؤلاء أجدر بالاشفاق منهم
باللعنة ؟

سليمان يعرفهم جيدا • البشر كلهم جديرون بالاشفاق ، وباللعنة أيضا •
يتساوى في ذلك الكادحون والبرجوازيون • ذلك لان البشر كلهم ضعفاء :
ضعفاء أساسا ، ذكرا وانثى • بعضهم يأتيه بحذاء مرقع وسترة خلقة ليشتري
لمبة كهرباء • لقد احترقت في بيته واحدة وجاء يستبدلها • انه ينتزع ثمنها
من جيبه وكأنه ينتزع ضرسا من فمه • أكان ضروريا أن تحترق ، فتحرم
صفاره من رغيف الخبز ؟ وبعضهم يشتريها بالطريقة نفسها ، كأنه ينتزع
ضرسا من فمه : أكان ضروريا أن يدفع ليرة كاملة بلا مبرر ؟ بعضهم يستدعيه
الى البيت كي يصلح جهاز التلفزيون المعطوب • انه ليس الجهاز فقط ، بل
حياة بأكملها • ويشعر سليمان أنه يحسن بهؤلاء أن يخشعوا ركعاً للآلة وأن
يتضايقوا اذا انعطبت ، فلولاها لافتقرت حياتهم الى رابط وانفلتت انسانياتهم •
انهم يرتدون البلالات الأنيقة والربطات الثمينة • يلبسون أحذية ملصقة

وشعورا حسنة الترجيل • وعلى أجساد نسائهم ما يكفي لشنق الفقر ثيابا وحليا وعطورا ومساحيق • هذه الهياكل التي تسترخي على مقاعد سياراتها ورفاسات كنباتها ، ماذا يبقى منها عندما تنزع ملابسها ساعة النوم وتأوي الى مراقدها ؟ وهؤلاء المهدورون سعيا وراء اللقمة ، المتضعون أمام الحاجة ، أي طعم لنهارهم المبدول كله في العمل ؟ جلودهم متشققة ، عروقهم ناتئة • عضلاتهم متصلبة وممسوخة • نهارهم عمل وليلهم غطيط • أو العكس بالعكس • الانسان بلا عمل آفة ؛ وبعمل ، نتن وخميم • لقد أمر الناس بالوجود دون أن يكونوا مستعدين له • وغامروا فيه فتعثروا على صخوره ، ولسع أقدامهم جليده وجحيمه • هناك شيء يعزل الآخذ عن المأخذ فيقطع تيار حياتهم • لذلك هم صغيرون جدا •

ينظر من وراء زجاج حانوته الى الاجسام العادية الرائحة : كل يحمل همه الخاص الذي لا يدري به أحد قط • لوهلة يبدو كل شيء طبيعيا : باعة الخضار والفواكه منتشرون في الشارع العريض الى جانب طبلياتهم ؛ المشترون يتفحصون المواد لينتقوا أفضلها والباعة يرفضون عملية الانتقاء • والمشادات مستمرة منذ الصباح • فوج يأتي وآخر يروح ، والشمس تنسل وراء الغيوم • لكن شيئا من هذا كله لا يعلق بنفسه • ينصرف الى تفحص المدفأة الكهربائية ، يفك أسلاكها بأناة • يضع الاسلاك في خزانة معدنية • ويأتي بغيرها • دقائق واذا المدفأة صالحة للعمل • يتناول الآخذ ويولجه في المأخذ ويقف منتظرا توهج المعدن القوي •

تستلفت انتباهه حركة غير عادية • ينظر • المشهد المعتاد يتغير بسرعة مذهلة • الطبليات تندفع أمام أصحابها اندفاعا أعمى • الميازين والأكيال تختفي • باقات الخضرة النضرة المنمقة على الرصيف تزج بخشونة في أكياس

القنب ، وأصحابها يرفعونها على المناكب ويفرون • هنيهات وإذا الشارع
فاقد نبض الحياة المألوف ، خال الا من ظلال الغيوم السارحة بلا توان •
يختفي الباعة في الشوارع الفرعية الضيقة كماء غار في شقوق الارض • ثم
تندفع في الهدوء الشامل سيارة جيب تنعطف نحو مكان الباعة الخالي • فجأة
تقف • تنفتح أبوابها وينبثق منها أربعة شرطين • فجأة أيضا يلمحونه :
بائع لا يملك طبلية ، تلكأ فلم يتلاش كما فعل غيره • يراه سليمان ، فيفتح
باب حانوته بتأن ، ويقف على العتبة متفرجا • أصوات الصفارات تثر في
الهواء الرطب ، وأجساد الشرطين تمرق كالسهم المريشة •

يكتشفون أنه لا ضرورة لهذا العناء • لقد وقف الرجل كجرذ أيقن
بفريزته أنه محاصر من كل ناحية •

يتقدمون منه ، بعيد الضحى يتقدمون ، والسحب السوداء تسرح في سماء
المدينة • اثنان يمسكان بذراعيه • يهبط الى الارض • يتعلق ذراعا في
الهواء • يسحبانه • يصمغ قدميه بالارض • تنجرف القدمان • يصيح :
« البقدونسات ! اتركوا لي البقدونسات ! » ويتضح له أنهم غير مهتمين
بالخضرة • يلتفت الى رأسه بنظرة حسراء ، بظهر متكور وقدمين تنجرفان •
« في عرضكم ! » يصيح • « أنا عندي عيال ! » يصرخ • « عندي أولاد
مثلكم ! » •

وهاهي ذي أبواب السيارة تغلق • تدور الدواليب الى الخلف ، ثم تكرر
هادرة في اتجاهها السابق • ويقف أصحاب الدكاكين ، كل على عتبته ، متفرجا ،
صامتا ، أمسح الوجه • وفيما عدا زفراتهم التي استطالت وخفتت ، يبقى
الشارع هادئا ، صامتا ، مسترخيا في الرطوبة وظلال الغيوم •

والملك يكره هذا الهدوء • يكرهه باخلاص • يراه مرتسما على وجه

رئيس التحرير ، فتحتقن عروقه • يقول رئيس التحرير : « تغيير كلمة أو كلمتين ، أو خمس كلمات ، سيدي • ماذا يضرك ؟ طالما أن الفكرة الاساسية تظل موجودة • » ويجب الملك - بهدوء ولكنه هدوء مختلف - وحجمه الضئيل محشو في الكنبه الوثيرة : « أخي وعزيزي ، أولاد ••• هؤلاء الذين ندعوهم العرب ، لم يخترعوا لغتهم جزافا • الصارم غير الفيصل ، مع أن أي واحد منهما ينفع في قطع رقابكم • »

ينهنه رئيس التحرير : « ألم أقل لك ؟ تستطيع أن تقطع الرقاب بالصارم وبالفصل • فاستعمل الأنسب • لماذا تحمل السلم بالعرض ؟ » •

يجيب الملك : « صحيح • أنا أحمله بالعرض • لاني أريد أن يراه الناس ، وأضرب به بعض الرؤوس ، لأنكم كلكم عميان • أو تغمضون عيونكم عمدا • »

وهكذا يزفر رئيس التحرير ، ولكن بمحبة : « لا أعرف لماذا تشتغل نفسك وموهبتك بمشاكل جانبية • نحن ملتزمون بخط شامل أقرته الثورة بعد دراسة علمية موضوعية للواقع العربي • معركتنا الاساسية هي ضد الامبريالية والصهيونية • والامة العربية تمر في مرحلة حاسمة من مراحل نضالها • من يستطيع الآن أن يفتح نجبة مع الرجعية ؟ دع الفتنة نائمة ، يا شيخ ، لعن الله موقظها • اكتب عن اسرائيل يا أخي ! أليست هي أم المشاكل ؟ اكتب عن اللاجئين الفلسطينيين ! لا أعرف لماذا لا يتفاعل الادباء مع القضية الفلسطينية ! » •

ثم يزفر الملك وقد داخله اليأس • لعلها المرة المئة التي يعاد فيها الحديث ، ولكن بكلمات مختلفة • يقول : « خطر اسرائيل الحقيقي هو أنها صرفتنا عن أنفسنا • أنت غير مهيا لحرب اسرائيل لانك منخور ومعطوب من

الداخل • أنا يهمني الداخل • الى متى ستبقى اسرائيل مبررا لهذا الشلل الذي أصبتمونا به ؟ الكتابة ممنوعة في الفقر ، والجنس ، والدين ، والاخلاق ، والرشاوى ، والنهب ، وكل شيء • وأنتم قاعدون تنفخون البالونات ضد الامبريالية • ماذا قدمتم للفقراء ؟ هذه الاشتراكية العرجاء ؟ » •

يضحك رئيس التحرير مرة أخرى : « تعرف ؟ لو أن مسؤولا يسمعك ، يضعك في السجن » •

يضحك الملك ، ولكن بمرارة : « طبعاً • والا أي شغل تلاقون ؟ أنتم تطاردون الناس في لقمتهم وضميرهم • » وينهض مغادرا • يلتقيه المحررون فلا يلقي بالا لأحد : مجموعة من العبيد • الخطر الأمضى من اسرائيل هو موت الحرية • ليس على هذه الارض حر واحد • لهذا يبدو الناس تافهين ممسوخين • ولكن ، ذات يوم سيرمض الجوع هؤلاء الفقراء ، وسيعضهم عضاً يطير بهم الى رقاب جلاديهـم •

في غرفته يجلس • يسحب اليه كراس الورق ويتخذ وضع الكتابة • بعد كل شيء عليه أن يكتب ، فليس بوسع أحد أن يكسب مالا ويكون شريفاً وحراً في وقت واحد • يمسك بالقلم ويرسم خطوطاً مستقيمة متقاطعة ، وهو يشعر باحتقار ذاتي لا حد له • تاريخ العرب كله يتزمهر على رأس هذا القلم ، من ذلك الذي سئم تكاليف الحياة الى الذي ولد بباب اسماعيل • واللغة التي كتب بها القرآن ستهوي الآن الى صفحات هذه الجريدة • وهو يعرف أنه في المال سيكتب ما يريده رئيس التحرير • هو : مسمار صدئ غرزته المصادفة في خشب سفينة نخر • يلعن في سره شيش بيش للوصفة الطويلة التي حشاها بأسماء الادوية • العائلة كلها ، ما شاء الله ، مصابة بتسوس الاسنان • لهذا ، سوف تبقى جيبته مثقوبة الى الابد •

يقد اليه محرر منقوش الشعر ، بين شفثيه قلم قصير ، وعلى أذنه
سيجارة • يرسل أصابعه بين الأوراق المخلوطة على طاولته ، ثم يتفحصها
واحدة واحدة • يقترب من الملك باحثا بعينيه عن شيء ما •

يسأله الملك : « ماذا يريد رابندرانات طاغور ؟ » فيجيبه نصف حاضر
الذن : « الوصفة • رأيت الوصفة ؟ » يثب الملك دفعة واحدة ويستقر على
طاولته • يمس رأسه باتجاه رأس زميله فيكاد أن يلامس القلم : « هل
أشعل لك سيجارتك ؟ » يقول له ، فيمسك الشاعر بالقلم متهيئا لاشعاله •
يقترب لهب الكبريت من رأس القلم المدبب ، ويتقعر قم الشاعر بالقلم مرتين
متتاليتين • وفيما يطفئ الملك العود ، تزفر شفثا الملك الدخان : « رائع
هذا السيجار • أعتقد أنه من النوع الذي كان يدخنه ونستون تشرشل » •

يقول الملك : « هو نفسه • ولكن أدخلت عليه تحسينات كثيرة • في الحقيقة
العالم يتطور أفضل بكثير مما يتطور الانسان • ما رأيك ؟ » •

يؤم الشاعر شفثيه مترويا قبل الاجابة : « لهذا نحن نناضل ، ومن
ورائنا الجماهير الشعبية ، لادخال أفضل التحسينات على الانسان ، لتحرير
ارادة الانسان ، لتحقيق انسانية الانسان • ولدينا من القدرة على الاستمرار
أننا كلما انثقب بالون، نفخنا آخر • المطلوب ألا نياس ، وخاصة في هذه الظروف
المصيرية التي تجتازها الأمة العربية » •

يسأل الملك ، متفكرا هو الآخر : « هل أنت متأكد من صواب استعمالك
لكلمة (تجتاز) ؟ أعني •• تعرف كم نحن حريصون في هذه الايام على دقة
المعاني » •

نصف ساعة يمضي وهما يتعابشان • يطأ لسانهما جميع التعابير السياسية

والشعارات الملصقة في سوق الحكومة • يضحكان وينفعلان ويشتمان • أخيرا يدرك الملك أن مزيدا من الدعاية سيصير الى سماجة • يراقب صديقه وهو يسحب الوصفة من بين الاوراق ويتجه بها الى الباب • وها هي الشمس تنسل الى قطع الزجاج الملون في النافذة وتلتصق على الجدار المقابل • الصمت — وحديث النفس • والملك مثقل بحديث النفس • يريد أن يمحي هذا الشريط المتكلف في مجتمه بذكرياته وأفكاره وصراخه • ألا توجد حياة الا داخل الرأس ؟ ماذا يفعل البشر في هذا العالم ، والى متى سيظلون يفصلون الحرية ثيابا لا يلبسونها ؟

بالطبع ، ليس الآن وقتا للمسائل العظيمة • لا الآن ولا أي آن ، على الاغلب • أمامه الكراس ، وعليه ملء ثلاث صفحات بخطه الابري • عدد الكلمات المطلوب يتراوح بين ١٤٥٠ و ١٥٥٠ • وقد استحسن رئيس التحرير منذ البداية أن تكون الموضوعات فكرية ، عقائدية • تساهل أول الامر ، فسمح « بانزال » ثلاث مقالات عن التقيد بإشارات المرور ، وعن آداب الحضور في الاماكن العامة ، وعن أهمية احتواء علبة الكبريت على عيدان تشتعل • لكنه في المرة الرابعة كان حازما : ليس فقط لأن مستوى الصحافة يجب أن يرتفع الى مستوى القضية المصيرية ، وانما لأن الملك طاقة خلاقة متفجرة ينبغي ألا تتشتت في المسالك الثانوية الفرعية •

يمسك بالقلم منتظرا من طاقته الخلاقة أن تنزلق مع حبره السيال • يريد أن يكتب عن هذا العالم الموصوف بالثالث ألفا وخمسة كلمة • لكن اللغة ورئيس التحرير يطوقان ذهنه وضميره • الجملة الاولى : « مشكلة العالم الثالث أن مشاكله ابتدائية • » حتى الآن لا يوجد خطر • سيعرف كيف يقنع رئيس التحرير أن قول الحقيقة ليس شتيمة للشعوب المناضلة • يخط الجملة

الثانية : « الحرية والخبز والجنس والقانون ، وليس الآلة والترف والقرف والجريمة » . هذه سيهلل لها رئيس التحرير . فيها اداة واضحة للعالم الصناعي الامبريالي وتمجيد أصيل للشعوب المناضلة .

بلا مقدمات ينجلي من ذهنه عتم غامض المصدر . تسري في بدنه شدة وجموح . يذوب الزمهرير عن رأس القلم فيكتب : « والعالم الثالث هوى لم تتشياً بعد ، وهذا هو سر أحلامه ومآسيه . يمتلك حياة لا حدود لها ، وبالتالي فوضى لا حدود لها ، ومن الواضح أنه سيمتلك التاريخ بعد حين . تمر به الايام كلمى هزيمة ، ووجهه وضاح وثغره باسم . ليس لديه من مقومات الحياة سوى أنه يحبها - الاشياء الاخرى تثوي بين الحلم والامكان . ليس لديه فعل ، وانما ردود فعل - ردود فقاعية . فيه ملايين تموت جوعا ، وملايين أخرى تتضور جوعا ، وملايين أكثر من الجائعين . وفيه الناس عبيد الا ضمن دائرة قطرها نصف متر : عبيد للامبريالية ، للحياة اليومية ، للطقس الحار ، للانفعالات الاولى الذاهبة جفاء كزبد البحر . وفيه الاستغلال المزجج والرشوة الجميلة والسرقه الحلال ، والجريمة الصلعاء . فيه المتسولون والحفاة والمشوهون جسديا . وجنسيا ، المزدوجون والمثلثون والمربعون والمعشرون . بعبارة واحدة : انه عالم ألف ليلة وليلة . ومع ذلك ليس هناك من يقتل أحدا يستحق أن يقتل ، ولا من يستشهد ليحيا مبدأ أو تتحرر أرض ، الا في فيتنام ، ولا من يعيش أو يموت حرا ، ولا من يعرف الحب أو الحقد أو الوداعة أو الشراسة أو الطهر أو القذارة . ليس هناك من يقف عند أي حد أقصى . حياتهم مأساة : مأساة السيطرة الرأسالية ، والعلاقات المخلعة ، والافتقار الى بؤرة ؛ لكنهم يتفرجون عليها وكأنها نازلة ألت بغيرهم .

« والعالم الثالث محكوم بعبودية ذاتية وجوع شيطاني ونزعة ربداء

للفوضى • كمجتمع ، تقوم روابطه على قيم متعفية وعلاقات عائلية عمرها
آلاف السنين • لا أحد يؤمن بها ، ولا أحد يقطع دابرها • كدولة ، ينذر أن
توجد فيه مراكز قوة أو جماعات ضغط متجذرة في طبقات الشعب ، باستثناء
منظمة واحدة ...

آه ، هذه لن تمر • يشطبها ويكتب : « يتناوب قاداتها حمل عبء الثورة
الفادح • القانون أمر نسبي ، ودائما يمكن الفتك به أو دفعه الى الارشيف
باسم الثورة والظروف الاستثنائية • يرفعون القيم الاخلاقية حتى السماء
كي ينظروا الى عوراتها • في الصداقة والحب يسيلون سمناء وعسلا كي
يتزحلقوا عليهما ، واذا ما وقعوا ورضت مفاصلهم تعلقوا بالغضب والعروة
الوثقى • وكل يوم يكبرون في عالم يتضاءل كل ساعة • يشعرون أن الحياة
تحملهم ، تورق وتخضر فيهم ، وأن كل شيء بانتظارهم حتى الولايات المتحدة
الاميركية • المال والبنون والراحة والطعام واللغة زينة حياتهم ، والعرق
والجوع وصرير الاسنان وبين بين • يتقبلون هبوط الانسان على سطح القمر
وكأن بوسعهم الصعود الى هناك مشيا على الاقدام ، حتى اذا جن الظلام وتكبد
ذلك القرص الزهري رقعة السماء ، خشعت ارواحهم أمام وثن الجمال الغامض
وسفينة الليل الساهرة » •

بلا مقدمات أيضا يتحرك الشرطي القابع في قحف رأسه ويسأله لمن يكتب
هذه الكلمات • لدولة تعتقلها ، أم لشعب لن يقرأها ، أم لمن ؟ وكان العلاج
قد رأى أكثر مما ينبغي ، فاستودع سره أحبابه الفقراء • وقد انزعج منه
الحكام والفقهاء فعذبوه تسع سنوات • ثم جلد ألف جلدة ، وقطعت أطرافه
الاربعة ، وضرب عنقه ، وأحرقت جثته وذر رمادها في دجلة • وحملت الشرطة

رأسه الى خراسان ، بينما أحرقت كتبه ونودي على الوراقين بعدم تداولها .
وطاردت الدولة أنصاره مدة سنوات وقتلت عددا كبيرا منهم .

وقال العقيد المهداوي للمتهم : « متآمر ، عميل ، أجرب ، منحرف جنسيا ،
شنو تريد تقول تدافع عن نفسك ؟ » .

وقال المتهم : « آني ، يا سيادة رئيس المحكمة ، لست متآمرا ، وآني مواطن
عراقي شريف » .

وقال المهداوي : حاه ! تقول شريف ! كل الناس يقولون عنك خاين ابن
خاين ، يعني هم كلهم كذابين وأنت الصادق ، هاذي تدخل في منطقتك ؟ أنت
ضابط استخبارات ، وماكو عندك علم بالمؤامرة التي أقيمت في الموصل ، هاي
شلون تتفسر ؟ تفضل ! » .

وقال المتهم : « سيدي ، هذول المؤامرات يقيمونها في السر . فلنأخذ مثلا
ثورة ١٤ تموز الخالدة . . . » .

« اسكت اسكت ! ماتقول بلا تشبيه ؟ هاذي ثورة اجتماعية عادلة . أما
ثورة الشواف في الموصل فمعروف أذناها وأصولها . أكو عندك شيء تضيف
تدافع عن نفسك ؟ » .

« والله ، يا سيادة رئيس المحكمة ، ما لي علاقة بالمؤامرة . » .

« حاه ! ما ليك علاقة بالمؤامرة ؟ اش جابك للمحكمة ؟ » .

والملك يعرف هذا الشرطي جيدا . لقد باضته الثورة وحضنته ، ولقمته
القضية والضرورة والحقن المصيرية . انه هنا ، حاضر غائب ، مسترخ ما بين
المخنيخ والبصلة السيسائية ، ووظيفته القاء القبض على الافكار دون أن

يُزعج الدولة بتقاريره • لا يحتاج الى سيارة ليكبس بها على خارقي القانون :
الافكار جميعها تمر من بين ساقيه ، فاما تتعمد واما تتفصده •

ولكن أية موضوعات فكرية يريد لها رئيس التحرير ؟ سؤال يظل بلا
جواب ، لأن زميله الشاعر يدخل الغرفة حاملا رزمتين من الادوية ومذيلا
بمحرم ثالث •

بعد هنيهات تغدو أصواتهم جزءا مندغما من ضجيج المدينة • ويفدو
جلوس الملك أمام الافكار مثل جلوس سليمان أمام جهاز التلفزيون المعطل ،
مثل وقوف شيش بيش أمام الاسنان النخرة ، مثل جلوس عباس أمام مكتبه ،
مثل الليل اذا سجي • انهم يقفون ويصدرون أصواتا • يتحركون ويصدرون
أصواتا • يبيعون ويشتررون ويحزنون ويفرحون ويعشقون ويأكلون ويتبرزون
وينامون ويلعبون ويبردون ويسخنون ، ويصدرون أصواتا • كأنهم بالضجيج
يريدون أن يملأوا فراغا : شيء ما يعرفونه يجب أن يظل غائبا عنهم ، منبطحا
تحت مؤخرة الشرطي بين المخيخ والبصلة السيسائية • يريدون أن ينسوه
الا قليلا ، يضبطوه ، يبعدوه الى مسافة آمنة ، ثم يتذكروه لثلا يتهموا أنفسهم
بالخيانة • يظل حلما وأمنية هادية ، يريحهم أنه هناك وأنهم يسمعون اليه •
لأجله يكتبون القصائد ، يشترون الاسلحة ، يبيعون سندات المستقبل ، يشدون
على بظونهم وأحيانا يمشون عليها ، يتحملون الارهاب والبشاعة • يدعونه
معركة ، أو نضالا ، أو ثورة ، أو قضية • باسمه يشتمون الاستعمار واسرائيل
والتخلف والتجزئة ، ويجعلون كل ساعة من حياتهم مصيرية وتاريخية • لكن
أحدا منهم لا يخرج على الناس شاهرا سيفه •

لقد صبح العزم على شهر السيف ، لكن الدهر أبى • وهذه هي الشيمة

اللعينة لهذا الدهر اللعين • وفي الحقيقة ، ماذا نفعل بارث ألف عام من
الانحطاط ؟

غير أنهم في الواقع ليسوا منحطين تماما • وإذا كانت الاعمال بالنيات ،
فهم أرقى الامم • بل ان بعضهم يريد أن يشهر سيفًا ، سوى أن سوق الحميدية
لم يعد يبيع الا السيوف الاثرية • لقد عبر على هذا الرصيف أناس محاربون
سابقا • وقف هنا خالد بن الوليد ، وأبو عبيدة ، وصلاح الدين • لكن أسماء
هؤلاء دخلت في خانة الوفيات • ولأن السيوف لا تموت ، لم يستطيعوا
اصطحابها معهم الى القبر • وماذا يفعلون بها في الدار الآخرة ؟ لقد تركوها
لأنسألهم كي يحفظوها من صدأ السنين •

وفي زمن ما فقدت السيوف قدرتها على البتر •

لقد ضايق ذلك محمودا وكدر خاطره ، ولكن على نحو غريب • انه
يكره السيوف ، وخاصة عندما يكون الحديث عنها رمزيا • يقول لنفسه : بعد
ألف عام من الانحطاط ، نعود الى هذه الاداة البدائية ؟ بغير لف أو مواردية :
نريد شعبا يحمل الديناميت والقنابل والبنادق ، الآن الآن وليس غدا •

منذ الصباح وهذه الافكار الجنونية تندفع عبر رأسه كالشهب • لم يخطر
له أن تنفذها ربما قوض دعائم السلام العالمي والسياحة والاصطياف • السلام
العالمي ، كما يقول إمام تماما ، يعني تجميد الاوضاع الراهنة كي لا ينزعج
الامبرياليون أثناء اجتراحهم خبز الشعوب • في الساعة الثامنة كان متهيئا
لتحمل تلك الاحذية الذي يبعث به سكان الطوابق العلوية ممن يحملون القلم •
وهذه هي العادة يوميا : الصبر قليلا كي تغدو الحياة ممكنة • انما للصبر
حدود ، كما تغني كوكب الشرق السيدة أم كلثوم • وها هو الآن يتمنى لو

أن جملة الديناميت يفجرون السقف الجاثم فوق رأسه اللاطيء تحت الأرض ،
لينهار مبنى الجريدة ويوضع جد لبغاء الكلمة .

والحكاية هي أن هؤلاء البرجوازيين الصفار ، المدعوين كتابا ومحررين ،
ما فتئوا يشيدون بالطبقة العاملة وينسبون لها المعجزات . يضعون لها كتفي
جلقماش ، ويحملونها نار بروميشيوس . ثم يحذبون عليها ويفمرونها بالمطف
والرعاية . يشبتمون باسمها الآخرين ، ويعلنون ولاءهم لها . وعبر ذلك كله ،
لا تعرف الطبقة العاملة أين وضعها ربها .

يشير الى زميله على الكرسي الايسر ، فينهض ويأتي اليه . يطأطئ
فوق رأس محمود باسطا راحتيه على ركبتيه . يقول محمود : « اقرأ باسم
ربك الذي خلق ، ما كتبه هذا الملقب بابن الجماهير . العنوان : المكاسب التي
حققتها جماهير الطبقة العاملة في عهد الثورة . واقرأ هذه . » يزجره زميله :
« اسكت ، خلني اقرأ . » فيصمت . يتابع بعيني الانطباعات التي يتركها
المقال على وجه أبي فاروق ، منتظرا تعليقه نصف باسم ونصف متوتر .

أخيرا يبتسم أبو فاروق بوداعة ويهز رأسه . « عشنا ، » يقول لمحمود
محولا نظرتة الى وجه المرتقب القاسي . « يوم تطلقنا هذه المرأة ، يصير معنا
مكسب جديد من مكاسب الطبقة العاملة ، ويكتب عنه ابن الجماهير . »

يسأله محمود : « شفت الدكتور ؟ كم طلعت النسبة عندك ؟ »

يجم وجه أبي فاروق وينظر الى لا مكان : « صارت اثنين وأربعين . وأم
فاروق حاسة بالموضوع . بس صابرة على حظها . تعرف نسوان بلادنا . »

يصمت الرجلان . يطرق محمود ويصفن . متى تصل نسبة الرصاص في
دمه الى درجة يفقد معها طاقته الجنسية ؟ لا يعلم بالضبط ، غير أنه يتوقع مثل

هذا المستقبل • ينتظره • أحيانا ينسى ، سوى أنه نسيان العارف • رصاص
في الدم ! وفي الرئة والخلايا والعروق • بعد أعوام سيهترىء وجهه ، يتحفر •
ويقول له إمام ، تزوج أسمى !

في الطرف القصي من القبو ، والى جانب جدار وسخ كامد اللون ، تبرز
قائمة أبي نصوح • يراها محمود أولا ؛ وينتبه أبو فاروق لالتفاتة زميله •
بهذه عينظران الى الرجل الأربعيني الحاسب نفسه متخفيا عن الأعين • من
جيب قميصه يخرج مرآة بحجم علبة الدخان ومقصا صغيرا متناحل الساقين •
أصابعه الغليظة المكدودة تثبت المرآة أمام فمه • يتفرّس في شكل شاربيه
الأبيضين • ويبدو أنه يشاهد في تناظرهما خلا ، اذ تمتد يده بالمقص الى
الشارب الايمن وتشذب شعرات طالت أكثر مما ينبغي • يعيد النظر اليهما •
يدفع بلسانه بين الاسنان اليمنى والشفة العليا • يكتشف الخطأ في انحناءة
الشارب • يقص ثلاث شعرات • يعيد لسانه الى مكانه • يتأمل نفسه في
المرآة • يحرك رأسه قليلا ذات اليمين وذات اليسار • يبرم بوزه بأشكال
مختلفة • التناظر تام • يعيد المقص الى جيبه الايسر ويتناول نصف مشط •
يعيد تركيب المرآة أمام وجهه ويفرز أسنان المشط بين الشعر الابيض • ينتصب
الشاربان ويتقوسان فوق شفته العليا • يبتسم ، يعيد المرآة ونصف المشط الى
جيبه •

كان أبو فاروق قد عاد الى مكانه بطلب من محمود • لقد خشيا أن يراها
أبو نصوح فتذهب به الظنون • وظل محمود يراقب • لا يستطيع أن يرفع
عينيه عن شاربى أبي نصوح الأبيضين • ويعود الاخير الى غرفته دون أن يلتفت •
يفيب وكأنه لم يكن •

يتناول محمود زجاجة الحليب ويكرع ما تبقى منها بعصبية • يعود بدوره الى مكاسب العمال في عهد الثورة وينقشها بحروف من رصاص •

ويعود القبو الى صمته الصاخب • الى اليسار آلتا طباعة ضخمتان تجمعمان كالطاحون وتنسلان الصفحات المطبوعة • في صدر المكان ثلاث آلات لصف الاحرف جلس أمامها ثلاثة عمال ، فبدت وكأنها معابد وثنية ركع حيالها حاملو القرايين - معابد وقرايين من نوع مختلف : فعلى خاصرة كل آلة فرن صغير يتدلى فيه قالب من رصاص ، والقالب يذوب ببطاء محسوب كي يزود الآلة بالكمية اللازمة لصف الحروف ؛ وعلى بعد ربع متر منه يجلس محمود وزميلاه • من هنا أيضا تصدر أصوات ثاقبة ، ليست طاحنة لكنها تكفي لعزل سامعها عن العالم الخارجي • وبين اليسار والوسط لفائف ورق ضخمة ونفاياتها ، وفوقها علقت لوحة حائلة اللون : خطر الحريق •

الى اليمين انحشرت غرفة بلا نوافذ ، يعلو من وسطها دست يغلي فيه الرصاص المستعمل ويسيل منه الى مخدات مستطيلة فيتخذ شكل القوالب • أمام الدست وفوقه قليلا يقف أبو نصوح حاملا مغرفته الخالدة ، ظهره متقوس قليلا ورؤوس أصابعه سوداء • يزين وجهه لون أحمر صارخ وحفريات كأنها آثار جذري • غير أنه ، وقد سوى شاربیه منذ قليل ، متصرف بكليته الى عمله ، غافل عن أطلال وجهه وعافيته • يمسك مغرفته ويسحبها نصف مائلة على سطح الذوب المتقلقل فتمتلئ حبرا وبقايا رصاص • يفرغ المغرفة الى اليسار فوق تلة رمادية داكنة بعضها سائل ومعظمها جماد • ثم يعود بها الى الذوب • ينتبه الى توابيت الرصاص وقد تجمد فيها قالبان • يتناول مجسا فيخرجهما معا ، ويضعهما في ركن الغرفة • يدير الصنبور فيندلق الرصاص الذائب ويتخذ طريقه الى المجاري المألوفة •

على نحو ما يشعر أنه ليس وحده في الغرفة • يلتفت فيرى محمودا مسترخي
الجزع الى الجدار الوسخ ، مبتسما بارتباك • « أهلين ، » يحييه بنصف بشاشة •
يتشجع محمود ويقول بلا مقدمات : « ما شربت الحليب • » تمر لحظات صمت
قليلة يدرك الاثنان خلالها أن توترا على وشك أن يبدأ • يجيب أبو نصوح
ببرود : « ما شربت الحليب • » ويضيف : « وما أكلت البيضة • »

يعقد محمود ذراعيه على صدره ويحدق الى زميله • يتناول أبو نصوح
مفرقة صامتا ، ويكشط بها سطح الذوب • يسكب الطفاوة على التلة
الرمادية • يطأطأ ويتفقد التوابيت • ينتصب ويمد المفرقة •
دون أن يلتفت الى محمود ، يخاطبه : « أخي ، الله يرضى على اسمك ،
لا تعمل لي محاضرة • »

يقول محمود : « لا ، يودي أعمل لك محاضرة • قل لي ، أنت مخطط
لمشروع انتحار بطيء ؟ الحليب دواء لك • وصفه الطبيب • اعط أولادك
ياكلوا أي شيء ! اذا مت حضرتك ، يموت أولادك بعدك • »

دون أن يلتفت ، يتوسل أبو نصوح بجهد واضح لضبط النفس : « حبيبي ،
لا تخض لي دمي ، الله يرضى على اسمك • مت ، ما مت ، شغلة ما لك دخلة
فيها • اتركني بحال سبيلي • » ثم يستدير الى محمود صائحا : « أنا ميت ،
يا ابن القحبة ، أنا ميت • باق لي كم يوم ، وبعدها أنا ميت • عندي طفلة
عمرها أربعة أشهر وكل دمها رصاص • لا تأكل البفتيك ، لكنك اشتريت لها
بفتيك ، بس هي لا تأكل البفتيك • هذه تأكل الحليب • أربعة أشهر • رح
واتركني ، الله يرضى عليك • »

يسكت محمود عن الكلام المباح • لا يدري بالتحديد لماذا بدأ الكلام أصلا •

إهي نزعته الانسانية التي شكا منها إمام ؟ كلا . بل هي محاولة للهروب من عبزه عن الفعل . يعرف أنه صفر على الشمال ، وليس بوسعه الاقدام على شيء . لكان أفضل لو جاء الى أبي نصوح وسخر منه ، عيره بفقدان رجولته ، ضحك عليه لاهتمامه بإشاربيه الابيضين الرخيصين ، حرّضه وهيّجه الى أن دفعه الى اغتيال المدير العام خنقا . يبتسم لنفسه ساخرا : وهكذا تنتصر الطبقة العاملة .

يظل مستندا الى الجدار ، ويقول : « خل أمها ترضعها » .
يهز أبو نصوح رأسه ويبتسم : « أمها ! من منا يقبر الثاني ، لا أعرف .
أمها ، قال . خلها ترضعها . خدامة بيوت ، دائرة من بيت لبيت ، عشر ساعات ، وفيها حليب ؟ هو الرصاص وحده يقتل الانسان ؟ » .

« والبيضة ؟ أنت لا تأكل البيضة . »

« البيضة ، نعم . منسحة رسول . أكلها من هنا ، أطيب من هنا . »
« أنت تبالغ ، » يقول محمود بهدوء . « كم/نسبة الرصاص عندك ؟ » .
يشخط أبو نصوح بوجهه : « آخر مرة كانت ١٨٠ . عجبك ؟ » .
« لا ، ما عجبني . خذ اجازة وراجع المدير العام ، يعينك بوظيفة حاجب ،
أو أي شيء . »
« المدير العام وعدني ، أنه بس لاقني من يأخذ محلي يشغلني . بس هات
من يأخذ محلي . »

« أنا آخذ محلك . »

« أنت اخرس وارجع لشغلك • أنا تحملتك بزيادة • كل يوم محاضرة ،
يلعنك ويلعن وعيك الطبقى وكتبك • أخي ، خلني غفلان • حل عني • »

عجيب أمر هذا البلد • الانسان فيه غير قادر على الفعل ، ولا حتى على
التحريض • كل شيء فيها يبدو مهجنا ومدجنا • الناس يعرفون كل شيء ،
ويفهمون كل شيء ، لكنهم لا يملكون شيئا — سوى أرواحهم القلقة •

وما هو الآن أمام الآلة • الكلمات ، الكلمات • والدوائر الصغيرة المرسومة
عليها حروف ذات أشكال مختلفة ، تمسها الاصابع بتتال سريع فتنبثق على
الطرف الآخر أشكالا ناتئة من رصاص : هذه هي أفكار الانسان • أفكار
سرعان ما تكتسب صفة الآلة وتغدو نشاطا مصنوعا نزع من عالم الوعي • حتى
الأفكار الثورية تغدو مساطرا وبروقا خلّبية في سماء بني يعرب •

ينتبه الى نفسه وقد أخطأ في إحدى الكلمات ، وعليه أن يعيد السطر
بأكمله • يستغرقه العمل وتكتكات الآلة • يلفه ضجيج المطابع ويحتويه •
يتضامل الى حده الأدنى • يصير جسدا قاعدا على كرسي في قبو خائق من أقبية
مدينة هرمة جديدة سميت باسمها بلاد خصيبة وقاحلة تشرش فيها الحضارات
والبؤس وتنتمي الى العالم الذي لم يهدأ يوما واحدا ، والذي سمي ثالثا لأنه
ليس هناك رابع •

ذلك هو محمود بن أبي خلف ، الذي قتل أبوه مدافعا عن رابية من فلسطين •
لقد توقف عن الطباعة الآن : ستون جهمنا • أبو نصوح مر به دونما كلام •
يتبادل وأبو فاروق نظرة صامتة ، ثم يلتفتان الى الرجل المبتعد : قامة باسقة
وجسد عتليت • لو عاش أبو خلف لكان في مثل هذا الشكل • ولكن ، أهو حي
هذا الرجل الماشي بمهابة الى المرحاض ؟

يتحول عن وجه الآلة ويتكىء على ركبتيه • السؤال هو : ما العمل ؟
يقولون في الكتب ان الطبقة العاملة ستفجر ثورة سريعة حاسمة وتغير وجه
العالم • أين الطبقة العاملة ؟ الجوع مستوطن في كل قم • والجوع مستوطن في
كل مخ • جوع عمره ألف عام ، للخبز والحرية ، للرغيف الساخن والهواء
النقي والبشرة الطرية والكلمة المضيئة • وملايين الجياع تكتظ على أديم
الأرض • كلما احتقنت عروقهم بالغضب ، خرج شيء من عب البرجوازيين
ونفثت هذه العروق •

أتكون مجرد شعور بالتعاطف ، هذه الحميا الصبيانية ؟ وما الذي يقدمه
لأبي نصوح في المال ؟ ارتخاءة على الورك ، ابتسامة بلهاء ، اثارة أعصاب ،
وانسانية سقيمة •

وأبو نصوح نفسه - كل صباح يأتي الى مغارته : ثقل الوطأة ، مهيب
الخطى ، لابسا سيماء القوة والشباب ، مصفوف الشاربين ، مسرح الشعر ،
مكوي القميص والبنطلون • لا شيء يهمه سوى أن يبدو رجلا تطفح منه
الفحولة • لماذا لا يخرج على سكان الطابق الفوقاني شاهرا مسدسه ؟

ربما لانه جاوز الاربعين • وإمام يقول ان هناك رديفا لصراع الطبقات
هو صراع الاجيال • بل لان الكادحين العرب مخصيون • هذا هو السبب •
مخصيون لا أكثر ولا أقل • بل لان شيئا ينقصهم ، بعد • هم غير مهياين
لثورة ، بعد • ولكن ما العمل الآن ؟ الآن قبل أن يفوت الوقت •

الزمن • أجل • كل صباح يأتي الى هذه الحظيرة ، مثله مثل أبي نصوح •
هو أيضا يستنقع بين روائح الرصاص والحبر ، يتراكم في ذاته حيرة وقلقا •
صحيح أنه ما يزال شابا ، وأن الماضي ليس حضورا مفزعا بالنسبة له • لكنه
لا يريد أن تنصل هذه الرؤية الزاهية أو يرتمي في قيعان الامس محذقا الى

الغد الذي أفلت منه • ولكن ، ما العمل ؟ يوم يمضي وآخر • شهر وعام •
ليس فقط أن الايام متشابهة وانما معدودة • قال له أبو فاروق مرة : « تعلم
كيف تصبر يا محمود • والا هلكت • وخذ أدوية مثلنا • » وأضاف بعد أسبوع :
« أو اترك هذه الشغلة ، وانفذ بشبابك • »

يومئذ ضحك • ثم اغتاض فيما بعد ، عندما قال له إمام بلا مبالاة : « لاتسرف
يا بني في تقدير دورك التاريخي • عليك في البداية أن تتقي الله ، مثلما يقول
أبو إمام • ثم اعرف بعد ذلك أن الثورة قد لا تقوم على أيدينا • الطبقة
العاملة العربية لم تبرز بعد • هناك عمال ، وليس طبقة عاملة ؛ فقراء ، وليس
ثوريون • الساحة العربية الآن ملك البرجوازية الصغيرة والرجعية الكبيرة • »

ورد محمود محنقا : « ما العمل اذن ، يا حضرة الفلاسوف ؟ »

فارتدى إمام مسوح الفلاسفة ، وهز كتفه ليسوي وضع سترته العتيقة :
« نصنع خميرة • نحافظ على مواقعنا • قد يفعل الجيل الجديد شيئا ما • أنا
معجب بالجيل الجديد ، بالقطيعه الحاصلة بينه وبين الموروث الميت • لكنني
أخشى أن لا تكون لديه مثل عليا ، كرد فعل على انهيار الاخلاق الاقطاعية
والبرجوازية • ولا تنس يا عزيز عيني ، أن كل قدرة عربية معطلة تقريبا
بسبب اسرائيل • »

« معطلة ؟ ظننت أن التحدي الاسرائيلي حادث ايجابي ، يا أستاذ • »

« على المدى الطويل • ولكن ليس قبل أن تتصالح معه البرجوازية الصغيرة ،
أو غيرها • أما الآن فالتصدون له هم المنتفعون بوجوده • عندما ينهي هؤلاء
خلافهم مع الطبقة الحاكمة في اسرائيل ، يبدأ الفرز الطبقي الحقيقي ويتمكن
العرب من رؤية عورات حكاهم • »

« ونحن ؟ سنبقى في انتظار غودوت ، على رأيك • »

« كلا • يجب أن ننجو بأنفسنا من مصير القرامطة • » وكانت عيناه باردتين وخاليتين من المرح •

على الدرج الضيق العاري تصعد قدما إمام • وعند نافذة الدوارة العارية يتوقف ، وينظر الى أشجار الغوطة الغربية • يقولون ان دمشق هي جنة عدن التي أودع الله فيها آدم وحواء قبل سقوطهما • لا شك أنه مكان جميل لانسان لم يكتشف الخلل في طبيعته - وشرط ألا يحيله تجار البناء الى جحور فأرية •

تلطم وجهه قطرات مطر حملتها الريح • من تراه يشبه الثاني ، هذا المطر العنيف السيلي أم أهل هذه الصحراء الخصيبة ؟ يحمل نفسه ويتابع صعوده • يحسن به ألا يتلكأ ، والا تبدد غضبه على الدرج المرهق • لن يستفيد شيئا ، يعرف ذلك جيدا • لكنه لن يدع الخيانة تمر بسهولة •

أثناء صعوده يلتقيه عدد من العمال والمراجعين • يحيونه ويفسحون له الطريق • يحييهم ويفسح لهم الطريق • يستغرب أن أحدا منهم لم يراجعه بشأن من عديد الشؤون التي تنفخ قلوبهم • واذ يدور مع الدرج يرى أعينهم مصوبة اليه : بعضهم ينظر اليه مباشرة ، بعضهم يرمقه لحظة وينصرف ، بعضهم يتفحصه باستغراب ، وبعضهم يحدق اليه بمزيج من الثقة والتهديد • يتابع صعوده وقد داخلته الحيرة • أيكون وجهه وأشيا بغضب نفسه ؟

أخيرا يصل الى الباب المغلق • الأذن الذي اعتاد الوثوب للحيلولة دون دخول المراجعين مباشرة ، يشب عن كرسية مسلما • يتجه إمام اليه ويصافحه : كيف الصنعة ، وكيف الهمة ، وكيف الامل ؟

يقرع الباب ويدخل • رئيس الاتحاد واقف ببدلته الزيتية وابتسامته
الأنيسة ، والمكان الواسع نصف الوثير خال الا من الرجلين وصوت المطر •

« أعرف لماذا جئت ، » يقول الرئيس •

« لا أظن • والألما كنت مبتسما • »

« بلى أعرف • جئت لأجل التشريعات العمالية الجديدة التي لم تصدر
بعد • الحكومة تعتبرها صيانة نهائية وأبدية لحقوق العمال ، وأنت لك رأي
مغاير • أعرف ، أم لا أعرف ؟ » •

يبتسم إمام رغما عنه : « تعرف يا سيدي • بس نسيت أن تقول أن الحكومة
لم تعط أذنا لمناقشاتنا في الاتحاد هنا • »

« الحكومة أعطت أذنين ، لا أذنا واحدة • » ويخرج من وراء مكتبه
فيجلس وإمام على كنبتين متقابلتين • « لكن الرأي اتجه الى أننا في المرحلة
الحاضرة لا نستطيع أن نعطي كامل ملكية المعامل والمنشآت للعمال • لان هذه
الخطوة متقدمة جدا ، وبقية قطاعات الاقتصاد متخلفة الى درجة لا تسمح
بتمليكها للعاملين المنتجين فيها • كما سيخلق مستويين متفاوتين جدا للتركيب
الاقتصادي ، وللعلاقات الاقتصادية • »

« لم أسمع في حياتي بتطبيق اقتصاد اشتراكي بدأ في جميع القطاعات دفعة
واحدة • يمكننا أن نبدأ بالعمال ، ونجعلهم مالكين للمعامل التي يعملون فيها ،
ثم نتابع في بقية القطاعات • نحن الآن أمام اختيار حاسم : اما أن يملك العمال ،
واما أن يظلوا تحت سيطرة العلاقات البرجوازية بينهم وبين رب العمل • »

« لن يكون هناك رب عمل ! الحكومة أمتت المعامل والمصانع وكل شي • »

وعلاقة العمال بالحكومة ، لا برب عمل ! » •

« الحكومة هي رب العمل الجديد • هي التي تشغل العمال وتدفع لهم أجورا • لم يحدث تغيير • صحيح أن الأجر سيزيد ، وسيصير للعمال حصة من الارباح • لكنهم سيقون أجراء ، لا يملكون • اهتمامي لا ينحصر في المال والتعويضات و • • القضية قضية قضية ترسيخ وعي اشتراكي في نفوس العمال • عندما يشعرون أن المعامل لهم ، ملكهم ، تضمن الثورة أن هذه الطبقة بأكملها ستدافع عنها • »

يصمت الرئيس • على وجهه ترين حيرة خفيفة بين اختيار الممكن والتمسك بالمثال • يشبك أصابعه أمام أنفه ويطرق •

« ما العمل ؟ » يسأل إمام •

« ما العمل ؟ » يسأل رئيس الاتحاد بنبرة تشير الى استحالة أي عمل •

« نحن اتحاد العمال • يسوى أن نرسل برقية شكر ، على الاقل • لا تنس أننا دولة العمال والفلاحين • »

« خذ راحتك في السخرية ، عزيزي إمام • أنا من جهتي قلت ، صدقني ، كل ما يمكن أن تقوله أنت في ساعة غضب • لكن الدولة هي الدولة • والسياسة العليا لها ضروراتها • »

« نحن غير ملتزمين بالدولة ، وانما بالعمال أولا • على الاقل بدولة تصدر هذه القوانين : أنا أعتبر القوانين المقبلة هذه تراجعا فظيما عن مصالح الطبقة العاملة • وعلى هذا الاساس يتحدد موقفني • ويجب أن يتحدد موقف الاتحاد أيضا • اليوم ينتفون شعرة ، وغدا ينتفون اللحية بكاملها • »

« أخي ، ألن نكف عن ترديد هذه الأفكار ، ونحن • • »

« لا ، حبيبي ، لن نكف عن ترديد هذه الافكار • لنتذكر على الاقل أننا لم نطلعها من المبغى • نحن لا نعمل مناورات بها ، نحن نعيشها • المسألة أبعد من مسألة تكتيكات • »

يصمتان • يرفع إمام ذقنه ويضع تحتها أصابع ترتجف • ويطرق رئيس الاتحاد موقعا باصبعه على مفصل اصبعي اليد الاخرى • يصل الى مسمعيهما تنقير المطر على النوافذ وصوت الريح التي هبت فجأة •

يسأل رئيس الاتحاد بهدوء ، وهو ما يزال مطرقا : « ماذا يمكن لاتحاد العمال أن يفعل ؟ »

يجيب إمام بغضب مكظوم : « اذا كنت تعني عجز الاتحاد عن القيام بعمل ، فسؤالك يجب أن يكون : ماذا يمكن للاتحاد أن يفعل وهو لا يقوى على معارضة السلطة • هكذا يجب أن يكون السؤال • »

« لكننا لا نستطيع في هذه الظروف أن نقف موقف العداء من السلطة • »
« لكن السلطة تستطيع • وقد فعلت • نحن قادرون على فعل الكثير ، اذا أردنا • ندعو المؤتمر العام للانعقاد ، ونناقش موضوع قوانين تنظيم علاقات العمال بالدولة • وعندما تتوسع المشكلة ، وتوضع أمام الرأي العام ، لن يجرؤ أحد على سلب العمال حقوقهم • المهم ألا نبصم • »

يبتسم الرئيس بوهن ، وينظر الى النافذة البليلة : « وفي رأيك أن هذا الهيكل الكرتوني سيقف معنا ؟ أنا لا أوافق على عقد المؤتمر • الحركة العمالية في بلادنا ، غضة ، رخوة • العمال لا يعرفون أنفسهم كطبقة ، وان عرفوا فهذا كل شيء • لا فعل • »

« لكننا الآن أمام قضية خطيرة • وهي تصلح كبداية لتنشيط الحركة العمالية • موقف من هذا النوع ، سيزيد العمال وعيا بأنفسهم كطبقة • سيعرفون أن المكتب التنفيذي يفعل شيئاً غير البصم وتوقيع الاوراق • »

يتأمل الرئيس بعينين واضحتي الانشغال • يتأملان أحدهما الآخر برفاقية وتساؤل • أخيراً يعلن الرئيس : « لا • يمكن البلاد مقبلة على حرب ، وفي هذه المرحلة ، قضية من هذا النوع تصير ثانوية • المسألة القومية أهم • ثم لا تنس : الذي بيته من زجاج ، لا يضرب الناس بالحجارة • »

« بالطبع ، نحن كلنا نتحرك في اطار قومي • ولكن أف ! كم ان هذه البلاد مقبلة على حرب ! منذ عشرين سنة والبلاد مقبلة على حرب ، والحرب مدبرة عنها • أي كلام هذا ؟ حتى أنت ركبك بعبع الحرب ؟ الحرب ستقع فقط اذا هجم علينا العدو ؛ أما ، نحن نقوم بالحرب ؟ وبعدئذ ، اذا كانت بيوتنا من زجاج فعلاً ، خلها تتحطم سيدي • لا أحد يحرص على بيوت زجاجية • المهم أن نخرج على الناس ونرميهم بالحجارة • »

« أخي إمام ، نحن غير قادرين على عمل شيء • الآن نقبل هيكل اتحاد ، حتى يتعود الناس عليه ، يقولوا والله عندنا اتحاد • وبعدئذ ، من نحن لنتحدى السلطة ؟ خلنا واقعيين • الانتخابات القادمة يسقطون أسماءنا من القوائم الانتخابية ، ويجيئون بناس لا يعملون مشاغبات • جهدنا الآن أن نحافظ على مراكزنا ، لا بغايات شخصية • وهذا كلام موجه لك بصورة خاصة • أنت العين عليك حمراء • لأنك ماسك السلم بالعرض • ويمكن الانتخابات القادمة • • • »

« أنا لا أبالي بأحد • أنا أنجح بالانتخابات لأن العمال ينتخبونني • خلهم يفتشوا عن لعبة غير هذه • »

« طيب • ينتخبك العمال في المرحلة الاولى • في المؤتمر العام من ينتخبك ؟
تعرف كيف تجري الامور في المؤتمر العام • كل شيء محسوب ، ومرسوم • »
« لست حريصا على مركز لا أمارس فيه مسؤولياتي وقناعاتي • »

« صدقني ، هذا سؤال لست وحدك من يسأله • لكننا هنا أفضل منا في الخارج • »

« هذا موقف توفيقني ، أو كما تسميه أنت ، عملي • لكن الثورة لا تقوم في المكاتب والمؤتمرات • الثورة تقوم في المعامل والساحات العامة • لن يطول بنا الوقت حتى نصير شلة موظفين • »

« أنا معك • لكن ظروف الثورة لم تنهيا بعد • »

« ونحن نعمل جهدنا لتأجيل تهيتها • »

« بل نحن نقوم بعمل عظيم • وجودنا هنا يعلم العمال ما هي اللاثورة • وهذا شيء ممتاز • أنا لا أمزح • »

« برافو ! أهنئك • وماذا بشأن القوانين الجديدة ؟ »

« ماذا بشأنها ؟ »

« وأمرهم شورى بينهم ، تعني أن العرب أول من عزف الديمقراطية في

العالم • بل اليونان أول من عرف الديمقراطية ، لماذا التمصب ؟ اليونان ؟
كانوا مجتمعا طبقيًا ، والسادة منه فقط ينتخبون • العرب كانوا ينتخبون
الخليفة • ليتهم يفعلون ذلك الآن • الديمقراطية في خبر كان • أية ديموقراطية
تعني ، النيابية أم النقابية ؟ كله في خبر كان •

أخيرا يبتعد علي عنهم بالقدر الكافي ، فلا تصله أصواتهم • ينزل الدرج
بخطى ثقيلة ثم يدلف الى غرفة المدرسين • يرتمي على كنبه مغلعة ، وفيما
ينتظر الشاي ، يمضي في سلسلة من التحيات • يقول وجهه وكلماته يمينا
ويسارا ، وفي قرارته شعور بالرضى : لقد كان الدرس ناجحا • يأتيه السائل
الساخن فيحسو منه ثلاث حسوات متتاليات •

يتساءل أحد المدرسين : « متى نقبض أجر الساعات الاضافية ، يا جماعة ؟ »
ولا تقنعه اشارة الجهل التي أرسلها علي فيتحول الى زميله : « أستاذ أنطون ،
ماذا ؟ » •

يهز الاستاذ أنطون رأسه متفكها : « ليس قبل أن أبيع السيارة • »

يقول ثالث : « أنت عندك سيارة تبيعها ؛ نحن لا نملك الا هذا نبيعه • »

يقول رابع ساخطا : « لا أفهم لماذا يطلعون روحنا كل سنة ، قبل ما نقبض
أجر الساعات الاضافية • واحدنا يستر عورته بهذه الساعات الاضافية • »

يقول علي : « نحن شحادون بربطة عنق • ماذا بسام بك ، متى نقبض ؟ »

يقول بسام بك ، موجهها اهتمامه كالعادة الى المسألة الحضارية : « أخي ،
نحن شعب متخلف • في أوروبا ، تعد الجداول وتخصص الاعتمادات قبل بدء

السنة الدراسية بشهرين • فهمان ، أخى ؟ أما نحن ، فحتى يفرجها ربك •
حتى يخطر على بال الموظف المسؤول جمع التواقيع على الجداول • وهناك مئة
موظف • لا يعرفون أن الليرات القليلة أساسية للخبز والدواء • والمازوت ومئة
شفلة • فهمان ، أخى ؟ » •

يقول الخامس ، خجلا ولكن متشجعا : « بصراحة ، نحن لا نشبع الخبز • »
يقول الرابع : « المحاسب ، ألا يعطي سلفة ؟ » •

يقول الاستاذ أنطون : « حزر ، كم يبقى من أجرنا بعد المرسوم ١٦٧ ؟
والحسميات والضرائب ؟ لا شيء • » •

يقول الاول : « الله يلعن هذا الاجر • سلفة أو بدون سلفة • هل تحس أنك
قبضت فعلا أجر ساعات اضافية ، بسام بك ؟ والله لو بدونها أفضل • »

يقول بسام بك : « الأسس الموضوعية للرواتب عندنا ، موضوعة من ثلاثين
سنة • من أيام الانتداب الفرنسي ، فهمان أخى ؟ نفقات المعيشة زادت •
الاسعار ارتفعت • وهذا الجيل لم يقنع بالخبز الذي كنا نأكله من أربعين سنة •
فهمان أخى ؟ هذا هو السبب • »

ينهض علي قاصدا المحاسب • في الخارج يلتفت باتجاه يد أمسكت بذراعه •
المدير يستدعيه بغمزة من عينيه • يمشي الرجلان الى الفسحة بين الدرج
والجدار • يشير المدير أن انظر ، وينظر علي : مدرّب الفتوة وبيده مقص
ثقيل أسود ، موجهان مفتوحا السيقان ، ثلاثة من الطلاب المسؤولين - تحلقوا ،
وفي الوسط وقف شاحبا مذعورا طالب يرتدي سترة لمعت عليها ستة أزرار
وبنظالا ضيق الحوض فضفاض الساقين •

يقول المدير : « تفضل ، سيدي • هذا هو ما تدعوه التربية الحديثة ؟ »

يقول علي : « ما الحكاية ؟ » .

يقول المدير : « تطلع ! تطلع بعينيك ! »

ويردد علي : « ما الحكاية ؟ » .

يقول المدير : « شف ، » وينتر سترة الفتى الى الاعلى . « شف ، » ويرسل
أربعة أصابع في شعره الطويل . « شف ، » ويشد ساق البنطال بيده الاخرى .
« ماذا تقول في هذا الشاب الذي نعتمد عليه في تحرير فلسطين ؟ » .

يتجمع الطلاب حول المشهد ، صامتين مرتقيين . يركن الفتى في منتصف
الحلبة مزداد الشحوب .

يقول علي : « قصدك من شروط تحرير فلسطين أن يكون الشعر قصيرا ،
والجاكيت بأربعة أزرار . »

يقول المدير : « أقصد الدماغ ، أستاذ ، الدماغ . » ويضرب بظاهمه
أصابعه على صدغ الفتى . « هذا الدماغ المحشو بالموضة والبنيات . سله ، هل
يعرف شيئا عن اسرائيل ؟ » .

يقول علي : « وماذا نعرف نحن ؟ نحن أنفسنا لا نعرف ما لون العلم
الاسرائيلي . »

يقول مدرب الفتوة : « ليحفظ رجولته على الاقل . هذه ثياب زعران
ومخنثين . »

يقول علي : « اذا كان أبواه موافقين ، ما دخلنا نحن ؟ هل تريد من
المدرسة أن تتخذ موقفا مضادا لرغبة الآباء ؟ » .

ثم يتسلل اليه شعور مألوف يصدع الجبل الذي كانه حتى الآن • تتناثر
الحجارة الصلبة على قعر بهتان لا يراه أحد • لحسن الحظ ، يبدو على المدير
احساس بالخطورة من كلماته الاخيرة : الابوان موافقان ! يا للغرابة ! يلتفت
الى الفتى الباهت المسترخي العنكين • يتفرس في وجهه ، فيصطاد عينيه
ويأسرهما : « البس هذه الثياب خارج المدرسة ، يا ابني • الطلاب هنا معظمهم
فقراء ولا يرتاحون لهذا المنظر • »

عندئذ يقرع الجرس • في ثوان يبقى المدير وعلي وحدهما • يقصدا
غرفة المدير •

« أخي علي ، يجب أن تقبل منصب معاون المدير • وبعد فترة ستأخذ
مكاني ، لأنني سأعين مديرا للتربية • وبعد ذلك تسلك الطريق • انتبه لنفسك
يا رجل ، أنت مستقبلك وزير • »

« أرجو ألا أوقع بنفسي هذه العقوبة • »

« عقوبة ، ما ؟ ماذا تقول في عقوبة كونك مديرا ؟ » •

« الادارة تحتاج الى رجال متوازني الشخصية ، يعرفون كيف ينزلقون عن
حد الموسيقى دون أن يجرحوا • »

« بودي أسالك • كنت جادا في الدفاع عن هذا الولد الرقيق ؟ هذه ظاهرة
خطرة ، أستاذ ! تصور شبابنا كلهم يفعلون مثله • ماذا ستكون النتيجة ؟ دمار
كامل • الاخلاق ، أستاذ ! الاخلاق ! يقول حافظ ابراهيم :

وانما الاسم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهب اخلاقهم ذهبوا

هذه التقاليع والتصرفات مجوم امبريالي شرس غير مباشر ، على قيمنا

وشخصياتنا - يريدون لهذا الجيل أن ينحرف عن طريق النضال ، يبتكرون له
ألف ألوية وألوية ليميعوا شخصيته . »

« عزيزي ، هذا شاب عمره سبعة عشر عاما . تصوره بعد مثل هذه المدة ،
وزيرا مسؤولا عن وزارة بأكملها . »

« معقول هذا يصير وزيرا ؟ ما اسمه ؟ من هم أقرباؤه ؟ » .

« على مهلك . ما زال بينه وبين الوزارة سبعة عشر عاما . ولكن تصوره
وزيرا . تصوره مسؤولا عن وزارة بأكملها . عن مئات الناس والقضايا
والمصالح . وهو بالاساس قد تعرض لناس مثلنا منعه من أن يشبع مراهقة .
منعه من التألق وملاحقة البنات وتلبية حاجات هذا العمر الخطر ، المراهقة .
ماذا ستكون النتيجة ؟ اذا كنت غير قادر على التخيل ، فلا شك أنك قادر على
التذكر . »

يقهقه المدير بطرب خاص : هذا كله شيء آخر : المهم أن الفتى لن يصير
وزيرا في المستقبل المنظور ، وليس له أقرباء مهمون . يضرب كفا بكف وهو
يضحك ضحكة ملغمة مسخسغة . يبدأ حديثا آخر محلى بالدعابة والصداقة
والسجائر . يطلب فنجان قهوة ، فيذكره علي بالجرس الذي رن معلنا بدم
الحصة الثالثة . يقول للأذن : « شف المراقب حكمت ، خله يشرف على الصف
العاشر ، الشعبة الرابعة ، لبينما يأتي الاستاذ علي . » يلتفت الى زميله :
« انتهينا ؟ الله يخليك . هذه التفاسير عن عمر بن الخطاب . نحن في غنى
عنها . أنت تعرف الطلاب والبيئة التي تعيش فيها . »

« لم ننته من شيء . يجب أن يكون هذا الامر واضحا . سأستمر في تفسير
ثورة الاسلام علي النحو الذي أوّمن به . هذا هو الشيء الوحيد الذي بقي لي

لأشعر أنني كائن حي • أنا محاصر وممنوع من الفعل والتجربة • الحياة كلها
تفاهات • وأنا في حاجة الى سلوك واحد على الأقل يمكنني من احترام
نفسي • «

يفتح المدير عينيه مذعورا • تهرب من عينيه الدعابة والمودة مطاردتين
بالخوف • يشعل علي سيجارة ويحرق الى وجهه بثبات • ينهض عن كرسيه ويقف
أمام مديره •

« أستاذ علي ! ليس الآن وقت الحديث عن تاريخنا • هذه أمور تأتي فيما
بعد • الصراع الاساسي الآن ضد الصهيونية • «

« الصراع ضد الصهيونية هو الطارئ • لأن الصهيونية نفسها طارئ
تاريخي • الصراع الحقيقي هو ضد الوضع الانساني ، والتاريخي ، الذي
نعيش فيه • وهو يشمل الصهيونية وكل شيء • «

« أنا معك • نحن لا نعرف عن تاريخنا الا القليل ، ولا نفهم منه الا
الأقل • انما النتيجة الوحيدة لعملك اعطاء الرجعية المحلية مبررا أو فرصة
للتآمر على الثورة واسقاطها • الوقت الآن وقت المعركة • يجب أن نتفادى
المعارك الجانبية • معركتنا الاساسية الحاسمة مع الصهيونية ، والامبريالية •
كل ما عداها بلبله وتشويش واضعاف للانتاجية الثورية • الرجعية تبحث عن
مشاكل من هذا النوع لتنزل الى الشارع لابسة الأكفان • «

« أنت تتحدث معي كمدير مدرسة أم كصديق؟ كإنسان تقدمي يريد التغيير؟
الى متى يستمر هذا التأجيل القاتل؟ الذين أعرفهم ، كلهم يضيع أعمارهم
التأجيل • بدأوا بالمطامح والامل العريض والثورة ، وانتهوا الى الخيبة •
وعند هذا الحد رفضوا الاعتراف باليأس ، وفقدوا القدرة على مقاومته •

وتركبت حياتهم على الامل المقهور والخيبة العارقة والتأجيل الذي ينتظر المعجزة . تركيب عجيب . فريد في أنه يوصل أصحابه الى قبورهم الباردة بعد عمر مليء بالقهر والفيظ والتفاهة . هل يعجبك هذا ؟ حركة التاريخ تتجه في العالم كله الى الامام ، ونحن نتراجع . لماذا يوجد دائما ذلك العاطل الخفي الرصاصي ، الحائل دون أي فعل وأي ممارسة ؟ » .

ينصت المدير واجما . واذ يفرغ علي شحنته ، يهز رأسه بضحكة صفراء صامتة : « أنت دخلت في الاساسيات ، يا عزيزي . »

« لأنني أشعر أنني خارجها . »

« لماذا لا تكتب مافي رأسك وتؤلف كتابا ؟ أنت تعرف الوضع في المدرسة والمجتمع . »

« ومن قال لك أنني مكتف بالجلوس رجلا على رجل ؟ لدي كتاب في الدرج من سنتين ، ولكن هات من ينشره في هذا الجو الثقافي الوبش . »

عندما جاء عباس الى المنطقة قبل عامين ، كان الاهالي في حرب حقيقية . حرب العائلات ، وحرب مياه الشرب والسقي ، وحرب الأعراض . حالة مروعة . تنافر وصراع تغلغلا في شرايين ليلهم ونهارهم حتى صاروا صفة نفسية . وبدأ بأن تصدى لمشاكلهم اليومية التي امتصت أعصابهم . ووقتهم : فلاحان يتخانقان على أسبقية السقاية من النبع ؛ دواب أحدهم عبرت حقلا مزروعا لآخر ؛ الأغا السابق يصطحب أصدقاءه وكلابه في رحلة صيد تتلف الموسم ؛ فلاح يريد أن يترك الارض ويصير عاملا أو موظفا ؛ معلم يرغب زوجته المعلمة على البقاء في البيت ؛ زوج يضرب زوجته ؛ مراهقون يسرقون مواسم الفلاحين . مشاكل صغيرة لا تحصى ، انبثقت في وجهه فجعلته يحس كالمصفور العالق بالدبق :

كلما رفرف طالباً الخلاص ، كلما علق أكثر . لكن هذه « العلقة » فاضت عليه بمشاعر حادة ، وغنية . منحته وعياً بأنه يصير الى شيء آخر يزداد كل يوم ويدفعه الى المزيد . شعر كأن الاضطهاد الغامض الغريب الذي ابتلي به في طفولته ، قد صار الآن طاقة خلق متفجرة . كان في القرية يرعى قطيع الغنم والماعز والبقر ، ويبيده كتاب . أراد وهو في البراري أن يلحق بحضارات ناطحات السحاب . أحياناً يأكل وجبتين ، وغالباً وجبة واحدة ، وما تبقى فمن البرية كالحيوانات الشاردة .

لكم تمنى لو قيض له فانوس سحري ، أو خاتم أسطوري . اذن لأسبغ على كل مريض ثوب الصحة والقوة . ولأعطي كل انسان بيتاً جميلاً مجهزاً بكل ما يوفر له الدفء والهناء والامان . ولوهب الناس مالا غزيراً ينفقونه بلا حساب . ولأتاح للجميع فرصة العيش مع الحبيب الغالي في الربيع الزاهر والصيف المثمر والنسيم المقيم . ولأبعد عن البشر الحزن والعذاب والاثم والجوع . خاصة الجوع ، هذه الخاصية الأعظم لبني البشر . لو قيض له مثل هذا الخاتم لخلق عالماً جديداً زاخراً بالغدل والمساواة والشبع .

يجد المراجعين بانتظاره منذ وقت طويل . وفي ثوان تمتلئ بهم كراسي غرفته الكبيرة ، ثم زواياها والفسحات بين الكراسي . وينهض في الشكل المستطيل معرض مثير للازياء : الى جانب الشحاطات والبشروال والجلابية والكوفية والملاءة السوداء والجلباب الكحلي ، تلمع ربطات العنق والدبابيس الكريمة والبلوزات والتنانير والاحذية والكنادر ، والوجوه أيضاً . وفي الزاوية القصوى يلمع وجه نافر الخدين والشفيتين ، وتبرق كلما انفتحت الأجفان عيناان تتحدثان بأكثر من لغة واحدة . كل جاء يحمل همّاً ، معتكر الفؤاد مدلهم الوجه . وعلى نحو ما ، كل يعتقد بأن المحافظ قادر على شطب همه وإزالة

الشمور الداكن من نفسه القلقة • انه المحافظ ! شيء شبيه بالخاتم السحري !

بعد حين ينتبه عباس الى أنه يطيل الوقت في مناقشة المراجعين • صحيح أنهم بذلك يتأكدون من اهتمام المحافظ بهم • سيقولون ان المحافظ استقصى كل صغيرة وكبيرة ، قبل أن يدون على مفكرته الاسم والمشكلة والحل المقترح والوقت الذي يستغرقه الحل • لكنه ، عباس ، يضبط في نفسه سببا آخر : يريد لهذا الوجه المتوهج أن يشحب تعباً وانتظاراً • لا يدري لماذا ، لكنه يريد ما عندما تبدأ الحديث أن تتخفف من الشمور بأنها شيء خاص عن بقية المراجعين •

بعد أن أنهكه مراجع كان بالتأكيد يدعي الغباء والمسكنة ، يسأل عباس المحافظ نفسه : أهذه هي الثورة ؟ حل مشاكل المراجعين ؟ أم أن ثمة أسلوباً ثورياً أكثر حسماً ؟ يستغرقه العمل مرة ثانية ، ثم تنبثق الاسئلة في خاطره • يشطبها ، فتبقى مع أنها مشطوبة • يلفظها • عجيب أنها ترد الى ذهنه ، وفي لحظات كهذه • لقد انحلت المشكلة منذ عام ونيف ، عندما استقرأ العمل الثوري ووجد له مسارين متكاملين متعارضين : الحلول العاجلة للمشاكل المرحلية ، والحل الشامل للمشكلة الاساسية • في عهد البرجوازية ، كان هؤلاء ينتظرون في بهو المحافظة ساعات ، وأياماً • وغالباً ما كانوا يعودون بخفي حنين • أما الآن فهم يقابلون المحافظ •

هذا طبعا لا يكفي • لكن الثورة ، في الحقيقة ، أمر شائك للغاية •
ومربك •

وهو أمر لا يدخل في صناعة مستوطنة كل بيت — داخل هذه البيوت

المتراصة ، المفلقة على التاء المربوطة والتاء المفتوحة • انه مياه تجري من تحت قدمي عائدة دون أن تحس بها • تعرف جيداً صناعة المحشي ، وشيخ المحشي • ولكن لا شيء آخر • حتى أسماء الطبخات الفكهة ، من نوع « طباخ روحه » و « حراق اصبعه » و « ست ازمقي » ، لا توحى لها بغير العناء والتكشير المكفهر •

لقد اسودت يداها من تقوير الباذنجان ، وعلى نحو ما اتسخ نحرها ووجهها • وعلى الطاولة الكبيرة تراكم اللب الهالك وتيجان البامياء وقشور الثوم والبصل والبندورة ، نقيع الرز واللحمة المغشوشة دهناً ، والسكاكين والمغارف وعلبة السمن البلدي • نصف ساعة كاملة في تقشير الثوم ، هذه المادة المعجبة التي لا تستطاب البامياء بدونها • وساعة كاملة في قطع تيجان البامياء • عباس يتحدث بلا كلل عن الثورة ! لكن الثورة لن تدخل أبداً عالم الثوم والبصل والبامياء وتريح المؤاة من أكبر تعب على وجه الأرض • تقشير الثوم والبصل والبندورة ؛ دق الثوم مع الكزبرة ؛ فرم البصل والبندورة ؛ قطع تيجان البامياء ؛ تقوير الباذنجان ؛ نقع الرز - هذه كلها أعمال تحضيرية فقط • لقد نزل من عينيها أثناء فرم البصل دموع تملأ زجاجة نيرون ، ذلك الطاغية الروماني الذي يتحدثون عنه •

والآن تبدأ المراحل المترابطة الحاسمة : قلي اللحمة ، اضافة الثوم والملح ، قلي البامياء مع اللحمة ، اضافة البندورة ، اضافة الماء ، تغطية الطنجرة •

وبين هذا وذاك ، تجد عائدة باستمرار عملاً تقوم به • ليس فقط أن لؤي يتدحكل بين ساقى أمه وسيقان الطاولة ، أو أن الهاتف يرن ، بل هذه الفوضى المدوخة في محتويات المطبخ • بعد قليل يتلاشى العالم الخارجي من بين صدغيها وتنطلق النافذة المفتوحة • وبين وقت وآخر تمد راسها وتمسح حبيبات المرق

عن جبينها • المطبخ هو الغرفة الوحيدة التي لا تحتاج للتدفئة في البيت كله •
عشرات المرات تنتقل هي ما بين فرن الغاز والطاولة • عشرات المرات تفتح
صنبور الماء وتغلقه • عشرات المرات تمضي الى رفوف أدوات المطبخ • عشرات
المرات يدور باب المطبخ ويدور ثانية • تبحث عن الملح • تبحث عن السكين •
تبحث عن البهار • تبحث عن شيء نسيتها • يفور الماء وينكب على الغاز
فيطفئه • تتعثر بالكروسي • تجرح اصبعها بالسكين • يقع صحن وينكسر •
تنشخ باذنجانة • يحترق البصل في المقلاة ويدخن • تمتلئ الطاولة تماما •
الرز • الحشوة • الملح • الماء • الفلفل • الملعقة • الحامض •

يقرع الجرس وتدخل أمية • تقف على عتبة المطبخ مسترخية على ساق
واحدة • تراها عائدة فتبتسم باعياء • تمسح عرق جبينها : « خلصت
طبختك ؟ »

« أم • من زمان • »

« هنيئا لك • يا أختي ، عباس لا يأكل الاكل كيفما كان • »

« لا أحد يأكله كيفما كان • لماذا ، ألا يعجبك طبخي ؟ نواف رغم كل شيء ،
يقول انه لا يذوق أطيب من طبخي • »

« لا والله ، أنت طبخك طيب • يقطع الطبخ وشغله • لا أعرف كيف تخلص
طبختك بسرعة • »

« ما عندي طشم أبقى بالمطبخ • يصيبني صراع • »

« صراع وبس ؟ موت أحمر • »

« طيب عجلي بشغلك ، واخلصني عنى بكير • »

« اذا خلصت بأي شيء أتسلى ؟ »

ينظر المحافظ الى ساعته ، واذا هي تشير الى الثانية • وحق السماء !
من فضاء الغرفة الفارغ ، تقترب المرأة معلنة بابتسامتها أن دورها قد
جاء بعد انتظار طويل لم تنزعج منه • شيء ما يتوفز تحت جلده مع اقترابها •
ينظر اليها بصرامة ، فتزداد ابتسامتها خضوعا • يدرك أنه صار صاحب اليد
العليا ، وفي مأمن من مكائد ضعفها الشيطاني ، فيزداد التوفز تحت جلده • يشدد
انتصابته وراء الطاولة الفخمة وقد اطمأن الى تأملها مباشرة ، مجازفا هذه
المرّة بخروج التوتر الى سطح الجلد ومستغرقا في تلبسه التام لشخصية المحافظ :
الرجل المسؤول عن مصالح الشعب المكرس نفسه لقضية الثورة •

لكنها تقترب كثيرا • تضع يديها على الطاولة ، فيلمغ أيضا ساعدها
الماريان • هؤلاء النساء ! يلبسن المعاطف ، وتحتها بلوزات بتراء • بل هي
خبيثة تعرف نقطة ضعفه الوحيدة •

« أنت تعرف قصتي ، » تقول له • أجل ، ولكن لماذا تخاطبه بهذه الالفة
الابليسية • كأن لها دالة عليه مبعثها تفاهم غير معلن • تريد أن تغريه ولا
تعطيه • ينقلها الى المدينة ، وبعدئذ تقلب له ظهر المجن •

« ماذا ؟ زوجك يضربك مرة ثانية ؟ أذرتة المرة الماضية ، وحلف لي أنه
لن يعيدها • »

« أوه ، لا • قصة الضرب تعودت عليها • بودي أنتقل الى المدينة • »

« كلكم بوده ينتقل الى المدينة • »

« أخاف من الطريق وركاب الباص • يهجمون علي • ولكن • • • القصة

طويلة • الآن ، يمكن ، لا وقت عندك • »

« فعلا أنا تأخرت • لدي موعد هام في هذه اللحظة • »

« هل تأتي إلينا ، المساء ؟ سأحكي لك قصتي • أنا أموت رعبا • ربما يكون زوجي غائبا ، لكنه لا يطيل الغياب • تعال الساعة السابعة • »

أمام وجهه تنتصب عيناها وخداها ونهداها ، وتهاوى بقية جسدها كأنها مستلقية على الظهر • عظيمة هي المرأة ، اذا صممت على العطاء • ورائع عطاؤها ، بلا حدود • وهذه أخبث امرأة شهية في العالم •

تمد يدها مصافحة ، وترجع بجذعها الى الخلف وهي تبتسم • ويمد يده •

يراقبها وهي تتناول المعطف ، ترفع ذراعيها لترتديه فترتفع التنورة عن الركبتين التفاحتين • ثم تغيب •

من ذهنه تنجلي كثافة صامته ، ويحس بفراغ مريع • للتو يدخل طلعت بك • بلحظة واحدة يشكر عباس ذكاء المرأة الذاهبة : لو بقيت دقيقتين آخرين لأثارت شكوك هذا الثعلب البرجوازي •

يقول طلعت بك : « سيدي ، أنا كنت أنتظر انتهاء المراجعات • ووقتك ضيق • والآن وقت الغداء • أم نزار طبخت لك الأكلة التي تحبها • أنا لا أغريك بشيء ، ولكن أم نزار هي التي طبخت • غداء عمل • ينتهي الغداء من هنا ينتهي الشغل من هنا • سيارتي واقفة أمام الباب • تفضل سيارتك ؟ كما تريد • »

كالنائم ، يقول عباس وهو ينظر الى ساعته : « بعد ثلث ساعة أكون عندكم • » وتستوي في ذهنه عادة بساقيها البلوريتين والتدفئة المركزية الناضجة من جسدها • هذا الخنزير البري يعرف أيضا نقطة ضعفه الوحيدة • والاتفاق

قائم وتام ، وان يكن غير مكتوب . واذا يختفي الرجل من أمامه ، تعود اليه الاسئلة الجارحة . في البداية كان يريد اذلاله . لقد مر حين من الدهر صال فيه الاقطاعيون على هواهم وجالوا . شربوا عرق الفلاحين ثم بصقوا في وجوههم . اعتدوا على أعراضهم ، شخصيا وبالمخارز . ثم لفظوا النساء الى المبني أو الموت . في البداية أراد اذلاله بالطريقة نفسها . لكنه سرعان ما اكتشف أن ثمة خلافا جذريا في القيم نفسها . طلعت بك لا يهمه ما بين فخذي امراته . لقد ارتاب في التسهيلات ، بادىء الامر . وظن أن الثعلب ينصب له فخا . اذ لا يمكن لرجل فيه حس ، أن يسكت عن النظرات المفترسة التي رشق بها عباس جسد غادة . غير أن طلعت بك كان دائما مرحا ومتحررا وبريثا . يعرف مدار الطبيعة البشرية ، ويرفض محاسبة الناس على نواياهم . ولكن ماذا لو صار شيء بين عباس وغادة ؟

لم يحدث شيء ، بعد ؛ وهذا هو لب الحيرة . فبعد وقت قصير ، رأى عباس في التسهيلات شركا حقيقيا . صيد محار بلا لؤلؤ . وعرف أن طلعت بك ، الاقطاعي العريق قد سلك دربا آخر لاذلاله — هو ابن الفلاح العريق : يفاويه بزوجة ترخص الحياة لقاء الحصول عليها ، ولا يمكن الحصول عليها . ليس طلعت بك هو المانع ، بل شيء آخر لا يدري جوهره بالضبط . غادة تهديه القمصان والأزرار وربطات العنق ، وطلعت يهدي عائدة الجرادين والشكلات والمطور . وبقيت غادة شبه مستحيلة . كل شيء واضح ولكن لا شيء متحقق ، خلا بعض المبادرات التي تزيده أوارا .

وهكذا دخل في الصراع ضرام جديد . عباس يريد أن ينتصر . يريد أن يظفر بغادة ، وأن يذل هذا العتل ، الذي مكنته ثروته من أن يتزوج جنية

تصغره بثمانية عشر عاما • لقد عرف اللعبة ، وسيمضي فيها الى شوطها
الاخير •

وفي الطريق تلسعه الريح القارسة فيرفع زجاج السيارة • عجيب مناخ
هذه المدينة - تصفو السماء فوقها فتبترد الشمس وتهزم الريح • ينزل المطر
وأذا هو كالطير الأبابيل • ويأتي الصيف فتود الناس لو تخرج من جلودها •

على الباب يستقبله الزوجان الناصعان • وفي البهو المترف الوسيع يتبادل
الثلاثة النوادر والملح • تهيء لهم غادة كؤوس المارتيني ، ويتناخبون •
يخبرها زوجها أن أبا لؤي دائخ اليوم من مراجعته ، ومحتاج للراحة والطعام
الشهي • وتبتسم المرأة لأبي لؤي بحنان حيادي • يشعر عباس بالتطويق :
الحنان صفة المرأة غير العاشقة ، التي لا ترغب • ويدرك أنه موشك على
الوقوع في الفخ • « غلطان ، أبو نزار ، » يقول مخاطبا الاثنين • « أنا من
النوع الذي لا يتعب • أنت لا تعرفني • نحن الفلاحين نزداد نشاطا بالعمل • »
يرفع أبو نزار يديه الى كتفيه : « أنا أرمي لك الطاعة • أنا يا أخي
تعبان • وإذا سمحت لي ، سأغير ثيابي وأدخل الحمام • عشرون دقيقة وأكون
عندكم ، غير الساعة • »

وينسحب • يشغل عباس سيجارة ، وعبر الدخان يبتسم لابتسامة غادة
الحنون • يقول : « أنا جائع • متى تطعموننا ؟ » تميل رأسها بالتلبية وتزيد
ابتسامتها : « الخادمة تهيء كل شيء • لا يهتمك ، طلعت يعرف أن بيننا وبين
الاكل ثلث ساعة • ألا ترمي معطفك ؟ » •

صحيح • لقد نسي أن المنزل مدفا مركزيا • ينهض متجها الى المشجب ،
فتدركه غادة في منتصف المسافة • يرمي معطفه ، فتتناوله وتمضي به • يهم

بالرجوع • كلا • ستعود هي من المكان نفسه • لقد آن الأوان • تلك القميصة
البيضاء • تعود • تراه واقفا • ابتسامتها الحنون نفسها • فيها شيء أبعد
من الحنان هذه المرة • معنى مبهم • عادة سيدة المعاني المبهمة • تصل إليه •
في ابتسامتها تساؤل عن وقفته • يقبض على ساعدها العاري النضير • « اي !
يلعن أبوك ، » تصرخ • يجذبها • يدس يده تحت ابطها الآخر • تغمض
عينها •

لا يدري كيف انقضى ثلث الساعة • لكنه كان كافيا لتجريدها من حواشيها
الداخلية وطرحها على السجادة النفيسة • طرحها أرضا فاعتنقته وطرحته
معه • واستغرب أنها انشبتت معه في اللحظة نفسها • كأنها كانت تنتظره •
يبهجه هذا التواقت : لقد حسب أن الوقت لن يكفي سوى له ، وصمم على
الانفراد بالشبق بعد كل ذلك الصبر الطويل ، مجازفا بأنها ستلعبه فيما بعد •
لكنهما خرجا من الزفة متكافئين ، وهذا ضمان للمستقبل •

يقول لها وهما يسويان من ثيابهما : « متى أراك ؟ » « لا أدري • »
« كيف ؟ » « وقت أريدك ، لا تكون حاضرا • اذا لم تكن حاضرا ضاع كل
شيء • »

ذلك شيء جديد لم يعتد عليه • « وزوجك ؟ » تعود لها ابتسامتها : « في
الشهرين مرة • » يجلس على الكنب • لا يفهم • أهذا هو السر كله ؟

يدخل طلعت عاصفا : « هيا ، هيا ، الاكل جاهز • »

تبقى الابتسامة على شفتي غادة : « كنت علي وشك دعوة أبو لؤي • »

في غرفة الطعام ، تقدم لهما الصحن الاول ثم تنصرف • انها تتبع نظاما
غذائيا صارما منذ أن زادت ألفا ومئة وخمسين غراما في الاسبوع • ويريح

هباسا خلاصه من حضور لم يعد ضروريا • لقد انتهى دور المرأة الآن ، وجاء دور العمل • وطلعت راغد في اعتقاده بأنه ضحك على المحافظ •

• وطلعت بك رجل عملي • يطلب اليه المحافظ أن يعطي نصف الماء للفلاحين ليسقوا أرضهم ، فيوافق : « على عيني • أي شيء تطلبه ، أبو لؤي • ولكن لا تنس أن القانون لا يجبرني على السماح للفلاحين باستعمال المضخة • حتى ولو دفعوا • انما ، كرمي لك ، سأفعل ما تأمر • ولكن أنت رجل صعب ولا تحب التعاون • »

ينظر إمام الى ساعته • لقد تجاوزت الثالثة والرابع • يشعر بالفربة في هذا البهو الجليل الصامت المترامي الأرجاء ، ولولا ايمانه لشعر بالضالة • جالس على كنية بنية اللون ، منتظر التماع الضوء في شبه اعتصام • لم يبلغ السيل الزبي بعد ، لكنه لن يسمح له بذلك وهو صامت لا يتحرك • •

ويقول المحافظ : « أي تعاون تقصد ؟ من أين للبرجوازيين مثلك أن يتعاونوا مع حكم ثوري ؟ الطرق كلها مقطوعة • »

« أخي ، الله خلق الخلق • وكلنا أولاد بلد واحد • تريدنا أن نهرب قلوبنا الى الخارج ؟ خاشا لله • هذا البلد بلدنا ، وهنا يجب أن نعمل • »

« بارك الله فيك • الحقيقة أنك كلك وطنية • »

« أبو لؤي ، الناس كلهم وطنيون • نحن نحب هذا الوطن مثل غيرنا • وكل ما نعمله ، لمصلحة الوطن ، لمصلحة من ؟ دعنا ندخل في لب الموضوع • »

ينهض إمام ويقترب من النافذة • يزيح الستارة النفيسة وينظر الى الاشجار الباسقة الهادئة • كل شيء هنا يوحى بالجلال والمهابة • حتى الاشجار

تبدو رصينة مترفعة ، رغم الريح السارحة • أترى سيأتي يوم يزول فيه آخر أنماط الآلهة الذي نسميه الدولة ؟

يقول المحافظ : « لا تنس أن مشاريك مرتبطة دائما بالدولة • لذلك يجب أن تحسب حساب الصالح العام • والا ، التعاون مستحيل • نحن لسنا متشنعين • ولكن المصلحة العامة تأتي أولا • »

« هه ! يا عيني عليك • أنت تحكي جواهر • مشاريعي دائما تكفل ربعا للجميع • نحن قبلنا بتدخل الدولة • والدولة على عيننا ورأسنا • ولكن خل الدولة تقبل بوجودنا : ومصلحة الجميع مؤمنة • »

يرتد إمام عن النافذة ، ويترك الستارة فتسدل بدقة الى مكانها الاول • ينظر الى الساعة بحركة استعراضية ، ثم الى السكرتير • لكن السكرتير لا يرى شيئا • لا شك أنها أوراق رئاسية هامة • ولكن كيف قبل المسؤولون بتعطيل مصلحة العمال واعتبارها أمرا ثانويا ، بل أمرا خطرا يجر أمورا خطيرة ؟ مبدأ اشتراكي أساسي • حق بيتن كالمين المقلوعة ، يتحول بتوقيع الى عين زجاجية •

« هات ما عندك ، » يقول المحافظ •

« أخي ، أبو لؤي • أنتم متكتمون على مخطط التجميل لقرية (عكوبة) بدون فائدة • وغرضكم منع المضاربات والارتفاع غير المعقول لأسعار الارض • ولكن الى متى ؟ سيأتي يوم تعلنون فيه المخطط ، وترتفع فيه الاسعار كل ثانية • وستصير فوضى وارتجالات ، وبيع غير طبيعية ، ومشاكل لها أول وما لها آخر • والفلاح المسكين سيضيع عقله وحقه في الدوشة ولن يعرف كيف يتصرف • وسيقول الناس ان المحافظ غشنا ولم يقل لنا الحقيقة • لو قال لنا ،

كنا عرفنا كيف نتصرف بأرضنا • كنا أوصينا على مواد بناء ، وأخذنا رخص
بناء ، بعنا أرض التجميل واشترينا في مكان آخر وربحنا كم ليرة • • »

يخرج أبو نصوح حاملا زجاجة الحليب والبيضة المسلوقة ، والى جانبه
محمود وأبو فاروق • يتجهون الى مواقف الباصات • يودع أبو نصوح رفيقيه
وعلى وجهه الوردي ابتسامة محبة كالحة • وبعد ثوان يودع محمود أبا فاروق
وينطلق •

يقول المحافظ : « يبدو أنك تدربت جيدا على المحاضرة • تريدني اذن أن
أضع خارطة التجميل في صالون المحافظة وعند مختار (عكوبة) ليعرف كل
انسان مصلحته ويستفيد • »

« لا ، سيادة المحافظ ، لا • هذه أشياء تجري بشكل غير مباشر • يطلع
عليها الناس المعنيون ، فيستفيد أصحاب الارض ، والمهتمون بتقدم البلد من
ناحية العمران والسياحة ، وتستفيد أنت • »

« أستفيد أنا ؟ قصدك سوء السمعة • »

الباعة في الساحة مطمئنون الآن الى أن الشرطة لن تأتي • لم يبق من
خضارهم وحشائشهم إلا كل طويل العمر ، وقد راحوا يبيعونه كيفما اتفق •
وهكذا تنزل الاسعار بالتدريج • جرزة البقدونس بعشرة قروش • ولكن أي
بقدونس ، تقول احدى الشاريات لنفسها : أصفر ، ذابل ، مقرطم ، لا يصلح
للمتبولة • والبندورة تخبصت لكثرة ما مستها الايدي • والكوسى تحفر • ولم
يبق من البامياء إلا كل طويل العمر : القرون الضخمة الطويلة • غير أن
الشاريات مع ذلك يشتريين • طالما أن السعر رخيص ، فلتستفدن منه • بعد

كل شيء ، البامياء هي البامياء • وشراؤها خير من رميها للدواب • والبائع
المسكين سيستفيد أيضا •

« لا ، أخي أبو لؤي • أنت تستفيد خمسين ألف ليرة • عدا ونقدا ، وهذه
هي • »

ويميل طلعت بك الى يساره فيتناول محفظة جلدية خلقة • يزيح صحن
طعامه • يفتح المحفظة ويدس يده فيها • وعلى الطاولة ترقص الاوراق من
فئة المئة • يزيح طلعت بك زورق طعام آخر ويملا مكانه بأوراق من فئة
الخمس مئة • يقول : « لو كل مستفيد أعطاك اثنين بالمئة ، يطلع لك أكثر من
هذا المبلغ • »

تصمت شهرزاد عن الكلام المباح ، ليس لان الصباح أدركها ، وانما البفتة •
أمام عيني عباس ، تتراقص الاوراق بالمعنى الحرفي • ويغدو هو عباسا فقط •
يحس أن البدلة الرسمية قد سلت عن جسده • ويتناول طلعت بك تفاحة
فيمسحها على رداءه الحريري ، ثم يفرز أسنانه فيها ، وينتفخ وجهه الايمن
بقضمة هائلة •

صمت • صمت تام •

أي انفعال يظهره المحافظ سيعمل ضده • أية ذكرى تظهر على وجهه عن
الحفاء والعري والجوع ، وروث البقر ، ستنشي بذلك الضعف الذي لا يقهر ،
الضعف الخفي المرصود في قلب الفلاح كالطلسم • لم ينس بعد أن قرينه كلها
لا تساوي خمسين ألفا • كيف يستطيع ؟

يتمسك بالصمت ، وقد تلبسه خور مفاجيء مثير للحس • لقد تطورت
اللعبة على نحو درامي صاعق ، لكن ضبط النفس يبقى حجر الزاوية فيها •

وعباس قرر أن يلجها حتى النهاية • ماذا يطلع بيد ثعالب البرجوازية العفنة ؟
صحيح أنهم ليسوا أغبياء ، لكن غيرهم أذكى منهم •

يقول المحافظ : « تعرف أني أستطيع في هذه اللحظة أن أزج بك في السجن ؟
هذه رشوة بلا رتوش • »

فيقول طلعت بك : « أعرف • لكنني أعرف أنك أذكى وأوعى من أن تفعل
هذا الفعل الخالي من الكياسة • ثم هذه ليست رشوة يا أخي • أنتم الثوريين
تفكيركم عجيب • في جميع أنحاء العالم ، كلما عقد طرفان اتفاقا حرا وبالتراضي ،
يخصص أكثر من اثنين بالمئة لمن يسهل عملية الاتفاق • هذا جزء محسوب من
النفقات العادية ، والا ما معنى أن يتعب الانسان نفسه في عمل الخير ؟ بهذا
يكون ضميره مرتاحا ، وحالته مرتاحة • بالعكس ، أنت تأخذ أقل من
استحقاقك • »

ينفخ إمام زفيرا طويلا ، وقد صارت عيناه أكثر تربصا • لكنه هادئ •
سيرى من يقول (آخ) أولا في لعبة عض الاصابع هذه • قضية عمالية من هذا
النوع لن تلفف بالبروتوكولات وهيبة الدولة • العمال قلة ، صحيح • لكنهم
لا يخافون أحدا • وهو سيبقى هنا حتى الصباح ، حتى يأتي الرفض المعلن
المباشر لطلبه مقابلة الرئيس •

يفتح الباب الايمن بهدوء • يطل منه السكرتير بهدوء • يخلق الباب
بهدوء • وكذلك يتجه الى طاولته بهدوء • يجلس الى كرسيه الدوار ، ويمد
يده الى سبعة الهواتف فيلتقط سماعة أحدها • يتكلم بصوت غير مفهوم • يضع
السماعة • هذه المرة لا يتشاغل بالاوراق • يتكئ بمرفقه على ذراعي الكرسي
ويطرق بلا تفكير • ثم يتخثر •

وينفخ إمام زفيرا طويلا ، وقد انضبط فكاه على بعضهما بعضا . العملية مقصودة اذن . عملية اذلال ، وليست فقط تنجاهلا . وماذا بوسعه أن يفعل ؟ هذه الدونكيشوتيات ! اذا ذهبت الى الحكومة ، لا تحمل بيديك كلمات . لا تقزع الجرس المعلق وراء باب الحكومة ، بل اخلع الباب وادخل .

مسكين طلعت بك . ها هو ذا يبرعط أمام عباس كالبرغوث المفروك . هذا الرجل الاربعيني ، أشيب الفودين ، طويل القامة ، زوج المرأة التي ضاجعها عباس قبل دقائق . مسكين طلعت بك ، ظن أن ثلث ساعة لا يكفي لأكثر من المفاذلة والعناق . لا يفهم أن العصر عصر السرعة ، وأن الثورة هي عملية حرق المراحل . لا شك أنه سيعتبر نفسه هدفا من الدرجة الاولى اذا خرجت هذه الاموال من جيبه ودخلت في جيب المحافظ ؛ مثلما انزاحت زوجته من تحته لتستقر تحت المحافظ . المحافظ ، وليس عباسا . ولكن لا يهم . المهم ، عباس فعل ما فعل ، محافظا أو غير محافظ . وعباس هو المحافظ ، والمحافظ هو عباس . والمحافظ قادر على أن يبطش في أية لحظة بهذه الثعالب الوضيعة . طالما أن الثورة سوف تستأصل أمعاءه في المال ، تجرده من كل فلس وعقار ، تمنعه من أن يكسب قرشا واحدا لا يعمل لأجله بعرقه ، تصدر ابنيته مثلما صادرت أرضه وتوزعها على الفلاحين الذين سيبيعون أرضهم طمعا في كسب عابر وسريع . هذه الخمسون ألفا دفعة على الحساب . والمرايح التي سيجنيها الفلاحون ، أيضا دفعات على الحساب . بعد قليل تعود الثورة فتؤمم الارض والعقارات وتعيدها الى أصحابها الاصليين الكادحين ، وعندها سيضحك هو والفلاحون على طلعت بك ، هذا البهلوان الذي خانت زوجته وهو في الحمام . وسيعرف هو والبكوات الآخرون أي منقلب ينقلبون .

« يا عيني عليك ، » يهتف طلعت بك . « كنت دائما أقول انك رجل

دولة ، على الأخص بواقعيته وعمليتك • « يقهقه عباس قهقهة عريضة •
ليس للأطراء ، بل للظن الذي خاب في ذهن طلعت بأن جليسه سيتناول النقود
مرتبكا تحت وطأة شعور بالعار • كان ظلنا سخيلا مضحكا مبعثه .نقص في
الادراك • طلعت بك ، ظن أن المحافظ ، سيأخذ النقود مثقل الضمير : وبالتالي
يهبط الى مستوى أخلاقي أدنى • لقد دخلت الكرة في مرمى زوج غادة : ارتفعت
النقود عن الطاولة ببرود وبلا مبالاة ، واستقرت في محفظة المحافظ •

في الخارج يودعه الزوجان الباسمان • يدلف الى سيارته بكأبة خفيفة
متمطية ، شفت بفعل شعور بالراحة تسردق في أعماقه •

يعبر إمام البوابة غير ملتفت للشرطي القابع في محرسه اتقاء الريح •
على الرصيف يرمي سيجارته ويمعسها بقدمه • الشارع كثيب ، والسيارات
تعبر عليه مثل كتل غريبة لا حضور لها • والناس ، هؤلاء الذين لا يعرفون أين
وضعهم تاريخهم ، يتشرنقون داخل ثيابهم وهمومهم ولحظات العار التي
لا يشعرون بها • لقد انهزم • منذ الصباح كان يتوقع ذلك • وفي هذه الهزيمة
طعم مرير من الهوان • كل شيء تقرر ببساطة وسرعة وحزم • لم يرف جفن •
لم يتعكر مزاج • لم تهبط الطبقة العاملة من مكانها الرفيع على منصة وزارة
الاعلام • ولم يعرف أبو ذر بما حدث •

ينزل على شارع هادئ ، وبزاويتي عينية تلطم الدور والقصور • هل
سيبقى الفقير فقيرا الى الابد ؟ لقد ضجر من الاسئلة • ليس في رأسه سوى
الامثلة والاسئلة ، ولا فعل • ما العمل ؟

يستيقظ سليمان ، وينزل ساقيه عن الكنب الطويلة الهرثة • ينهض الى
صنبور الماء فينسل وجهه ، ثم يفتح الباب معلنا بدء المرحلة الثانية من عمل
يوم آخر في حياته • ينظر الى الساحة الخالية • يدخل اتقاء الريح ، ويفلق

الباب وراءه بلا انفعالات • يجلس وراء جهاز تلفزيون معطل ، ويفرك أنفه بظاهر يده •

يتقدم شيش بيش من مبنى العيادة بخطى كسولة • لم يبرح به الشوق لملاقاة مرضاه ، غير أن حدسا غامضا ساقه الى العيادة قبل الوقت المعلن بنصف ساعة • وحدسه غالبا ما لا يخطيء • أصلي كليرة الذهب العثمانية • في أبأس الحالات ، سيكون ثمة بعض موجوعي الاسنان ، وسيتسلى بهم ومعهم •

وقدماه على العتبة ، يراها : جالسة هناك في صدر الغرفة تقرأ مجلة قديمة • وجهها جدي ومتقد بالجمال • شعرها طائش على منسكب النهدين • ساقاها ممدودتان على طولهما ، ونعل كندرتهما مرفوع باتجاه الباب • تنتبه اليه ، وتبتسم اذ تتبينه • يضيء وجهها بفرح صغير • ترمي المجلة وتمضي اليه غير حافلة بأحد ممن قبعوا انتظارا له • تدركه عند باب العيادة • يقف : عيناه المضطربتان لا تمتان بصلة الى وجهه الكتيم •

تقول : « ممكن أجيء قبل الموعد وبدون موعد ؟ » •

يتفرد وجهه ويبتسم : « ممكن جدا ، يا ستي • تفضلي • »

يدخلان الى العيادة ، ويفلق وراءهما الباب • تقول ببشاشة وبلا خفر : « أنا أسوأ زبونة تدخل هذه الورشة • تصور أنك ستعالجني دون أن تأخذ مني أجرة • »

يبتسم الطبيب ويتجه الى كرسيه وراء الطاولة • هناك يشعر ببعض الحماية والتماسك • ويشير لها أن تجلس ، فتفعل • تسائل نفسها : أليس بوسع الدكتور أن يتحرك حركة أوسع من الابتسامة ؟ تقول : « هنا ، أم هناك؟ » وتشير الى كرسي المعالجة • « هنا ، لا بأس • احكي لي أولا عن أسنانك • »

« آ ، أسناني • لا أشكو شيئاً محدداً • ولكن ، قلت لحالي ، الانسان العاقل يفحص جسمه عند الطبيب بين وقت ووقت • أحياناً يلمع خرسى ، وأحس أن لطمة وقعت على دماغي ، ويزوغ بصري • »

يتأمل عينيها بثبات • وتتأمله هي بعثت عابر متفحص • يقول : « هذا يعني أن نصف أضراسك معطوبة • »

تقهقه بفرح ، وتمد يديها بين ركبتيها بارتباك • ينظر اليها مندهشاً من ضحكها • ليس في كلامه ما يضحك • ولا هو قيل بقصد النكتة • ولماذا أيضاً هذا الارتباك ؟ هذه شخصية مركبة ، فيما يبدو • عفوية ولكن غير بسيطة •

وتستغرب هي : لماذا ، بحق الجنة والناس ، هذه السيماء الصارمة على وجهه • لقد حسبت أن الامور مفهومة وواضحة بينهما • أم تراه يحسب أنها لم تلمحه وهو يفتح رقاق النافذة المعدنية ليتأملها بقميصها الداخلي ؟

ينتبه الى سلوكه الجدي ويراه مقيتاً • هو ، شيش بيش ، ملك الطاولة ، يبدو جاداً ؟ يشير لها برأسه إشارة أمرة ، ويقول : « الى كرسى اللوعات ، يا آنسة أسمى • » تنهض : ابتسامتها تلتف حوله وتخبره أنها عارفة بباعث سلوكه وغير مكترثة بالتعليق •

على الكرسى • متعددة على نحو يذكر بها في غرفة نومها • كم مرة تمددت هنا النساء ، ولم يكن لأى منهن معنى خاص • فجأة يمرج في داخله شوقه العتي اليها • أسيمكن لهذه الفتاة الطافرة أن تعيده الى فاعلية الحب ؟ أو تنتشله من رقدة الموت التي غارت فيها زوجته وعاطفته ؟ يخطر له أن يحضن الكتفين العبلين ويواري الوجه الحي في صدره • أو ينحني على الشفتين نصف المنفرجتين ويشمهما بشفتيه •

يقترب منها بمجسه المعدني اللامع ، فيما عيناها الباسمتان تلتفان حوله
وتخبرانه أنها عارفة بكل شيء وغير مكتثرة بالتعليق .

يدرك أن تحقيق رغبة كهذه أمر مستحيل . أن أطول مسافة في العالم ،
هي تلك التي تفصل بين رجل وامرأة . وهكذا يمد مجسه بثؤدة وينخس به
ضرسا . تنتفض هي صائحة : « أيّ ! » ينخس ضرسا آخر ، فتنتفض وتصيح :
« أيّ ! » وضرسا ثالثا ، و « أيّ ! » أخرى .

يشعر أنه امتلك نفسه . تصل الى وجهه ابتسامة من داخله : « أستطيع
أن أجعلك ترقصين هكذا مدة ثلاث دقائق ، » يقول لها ويده مرتدة بالمجس
الى صدره .

« أوه ، جزيل الشكر . إذا أردت أرقص لك ، بس بطريقة ثانية . »

« وعد شرف ؟ »

« وعد شرف ! »

« متى ؟ »

« أي وقت . الا على هذا الكرسي . »

وقد قيل الكلام بسرعة ودونما ضابط . ينظر اليها مستطلعا هادئا .
وتنظر اليه باسمه هادئة .

عند الطرف الشمالي لصاحبة المدينة الغربية ، ينقد عباس سائق التاكسي
أجره ويمضي في الظلام المبارك . يحس من خطواته أن نومة العصر قد أعادت
له نشاطه . لقد خشي أن يكون ثلث الساعة الجامح مع غادة قد أفقده القدرة .
لكنه الآن مطمئن . ينزلق عبر الزاروب الفارق في نسيج الظلام مقتربا من

الباب المقصود • يجده مفتوحا ، والضوء الشاحب وراءه يكاد يتلاشى قبل أن يصافح العين • يدخل ويوصد الباب • يعبر فسحة الدار الى حيث وقفت باسمه مضطربة • تتراجع أمامه اذ يقترب ، ويدخل وراءها •

« هات لأشوف • رق التقریصة ، » يقول محمود بغضب مازح •

« أمرك سيدي • كله من صحن فول ؟ والله نشاطك عجة • أنا يبست رجلي ، والثانية اخضرت • مع أني قاعد على عرش • »

يعاين محمود الرغبة على جدار الفرن الاسطواني • قبل قليل كان رقا منفرا من العجين ، وها هو الآن يتورد وينفث بخارا ككائن حي • وفي مساحات منه تنتفخ حبيبات كالنمش على الوجه • أطرافه فقط ما تزال عجينية •

« لحق ، لحق ، الفرن فارغ ، » يقول محمود •

وعندئذ تقترب منه كأفعى في يوم قائط وتطوق عنقه بساعديها العاريين الباردين • « أرجوك ، انقلني • أنا امرأة ضعيفة ولا سند لي • » ثم تبكي • تقبله وتبكي • تقبله من فمه ووجهه وعينية وجبينه وتبلله بالدمع • ولا يدري كيف يستجيب للوضع • تنتفخ في جسده خلايا وتجمد أخرى • يلجم رغبته تعاطفه المتزايد ويضرمها كون المرأة بين ذراعيه • « بودي السترة • السترة وبس • » يدرك ادراكا مبهما أن دموعها تكفير مسبق عن ذنب آت • ويقع في معبر السكون اذ تنفصل غريزته عن شعوره • فبينما تدفع المرأة بحوضها الى الامام استجابة لتوتره ، يشعر ببرود يكاد أن يكون عضليا في ذراعيه وفمه • برودة ساعديها تثير شعورا بالصدود مرميا على سطح انسانية متنبهة ، وآخر بالمطف متغلغلا الى أعماق خفية في ذاته الجائعة •

ينبر متضايقا من حيادية عاطفية أوصله اليها المشهد غير المتوقع : « خذينا

الى مكان دافئ • الغرفة باردة • « فتصيح هي : « اي ، اي • تعال • النار
شاعلة في غرفة النوم • » وتقوده •

يسدد اليها نظرة حاسبة متهيبة • لقد نضجت الآن • مع كل رغبة يمتلكه
تهيب جديد • تفوص يده في الفرن ، ويسد وجهه وذراعه الفوهة المتوهجة •
تنتر اليد الرغيف ، ويرتد جسمه الى الخلف • ينقذف اليه الرغيف • يلتقطه
باليده نفسها •

يصيح زبون من الخارج : « أخي ، جمدنا من البرد • صار ربع ساعة وأنا
واقف بالمطر • »

يقول أبو معدوح بوقار : « بالدور ، أخي ، بالدور • البيع بالدور • »
يتعالى من الخارج صوتان في وقت واحد :

« أولادي داخوا من الجوع • حتى لقمة الخبز ؟ »

« سيادة العقيد منتظر بالسيارة من ربع ساعة • الى متى يعني ؟ »

يكب محمود على فوهة الفرن ، ويسحب وراء يده رغيفا آخر • يضعه على
البسطة ويتناول خرقة رمادية فيمسح بها عرقه • هذه المرة ينظر الى زنده
واصبعيه متضايقا • يمضي الى رف صغير فيسحب عنه أنبوبة ويمسح بمعجونها
مكان الحرق • يصيح جاسم من فوق عرشه : « لازم لك فت خبز كثير حتى
تصير شغيل فرن • » يبتسم وهو ينفخ على زنده واصبعيه •

يقول عباس : « انتهى ! سأنقلك غدا • غدا صباحا • بس امسحي دموعك ،
خلصينا • »

« اي ، اي • خلص • لز أبكي • » تقترب من المدفأة الواقدة • تنحني

فوقها قليلا مادة يديها وساعديها وزنديها ، وملتفتة اليه في توقع مستجيب .
تتجول عيناه في أنحاء الغرفة تغطيه لحيرة عميقة استبدت به . فجأة يشعر
بالتعب وكأن نومة بعد الظهر لم تفده شيئا - لم ترد له قواه . لقد بات
واضحا له أنها لم تكن تمثل . لكن هذه الصفقة التي أرادت عقدها معه نوع
غريب في تاريخ الصفقات البشرية : جسدها ، شرط أن ينقل الى جوار بيتها !
ماذا يبقى من المرأة بعد استباحة جسدها ؟ عاهرة أو غير عاهرة ، لن تستطيع
احترام نفسها بعد . وان فعلت تكن نوعا عجيبا من البشر . ولكن من المستحيل
أن تحترم نفسها .

يرى يديها تمتدان الى أزرار القميص ، كأنما لتوفر عليه عناء الخطوة
الاولى . تلفحه موجة حر خانقة تهب عليه من الداخل . يشير بيده أن لا
هذه الجرأة الروحية - أم لعلها أخلاقية ؟ - تذهله . تسأله باتضاع : « غيرت
رأيك ؟ » وكأنها تسأل : ألن تنقلني ؟ هذا التحدي والتصميم على الدمار !

« اقعدني هناك ، » يقول لها . فتفعل . « أنا بصراحة محتار . أنت
تلجأين الى أذل أسلوب لتحقيق غرضك . ولنفترض أن شغلك في القرية مشكلة
فاجعة - مع أنني أتصور ، التعليم في القرية عمل نبيل للغاية . »

« صحيح ، صحيح . بس كل يوم خناقة ، وضرب ، وشرشعة بين الجيران ،
إذا تأخرت خمس دقائق . والباصات ، تعرف . أحيانا السائق تمن على باله
الشاي ويقف ربع ساعة . المهم ، مئة سبب للتأخير . وإذا التمّ الضوء ، أي
واحد يفكرني شرموطة . »

وتعود الى البكاء . يتشاغل بالنظر الى الاثاث البسيط الذي جعل جميلا
بلمسات خبيثة . تتمالك المرأة نفسها . تنظر اليه .

« أنت تحيريني فعلا • الآن تبكين لأن الناس ، بعض الناس ، يشتبهون فيك • وبعدئذ ، لا تؤاخذيني ، أنت تعرضين لي جسدك مقابل أني أنقلك الى هنا • لا أفهم • »

« لا أطلق الخوف مع الشرف • أخاف الاغتصاب ، من يوم تزوجت • لا أستطيع تحمل الخوف • »

« طيب • هذه فهمناها • وجسدك ؟ أعني • • أما لجسدك قيمة ؟ كيف تصلين الى هذه الدرجة التي لا يتحملها • • • »

« آ • فهمت • تريد أن نتكلم في الفكر الآن • في الفلسفة • »

« لا • في الاخلاق • في القيم • »

« في الاخلاق • كلها تسميات واحدة • لكنني لا أملك الافكار الواضحة بهذا الخصوص • يا سيدي ، مسألة الذل • جسدي جزء مني • أعني ، أنا ، أنا ، شيء أكبر من جسدي • بالعكس ، الجسد ليس مصدر قيمة - صحيح الموضوع موضوع أخلاق ، كما قلت • هذا جسم ، أنسجة ، له وظائف يقوم بها • الذل أن يضربني زوجي • أن يكبسني الناس على رأسي ، يحتقروني ولا يروا في غير جسدي • الذل لا علاقة له بالجسد • بالعكس ، الجوع للخبز يذل أكثر • كل مصائبي أني لازم آكل • طبعا ، بلادنا متعودة على نسج أخلاقها من الجهاز التناسلي • ليأخذوا راحتهم • وأنا آخذ راحتي • لا أشعر بالعار • قلت لك ، لا أحسن التعبير • طبعا أفضل النقل الى هنا بدون هذه العملية • في وضعي الحالي أنا ذليلة ، وأذل كل يوم • الشيء الوحيد الذي أملكه ليخلصني من ذلي ، جسمي • ليكن • وجعة ولا مئة وجعة • هذا الجسم لن يلقي الذي يحبه ، فقط الذي يشتهي • خله على الاقل يقدم لي خدمة • »

يقول عباس ، مازحا لأول مرة : « لو أن الأمور تجري كما يشتهي الانسان ، لصح نقلك ليس للمدرسة هنا فقط ، بل لتكوني أستاذة في الجامعة . فعلا ، الجسد والجنس ليسا كل شيء » . مسألة يلزمنا وقت طويل لنفهمها . هذا الجوع لن يرتوي أبدا من هذه الثمرة . ولكن ، أنت ؟ أما عندك صبوات ، رغبات ، هكذا ؟ » .

تهز برأسها نفيا . وتضيف : « رغبات عابرة . الآن مثلا ، أرغب في أن أنام معك ، إذا أردت . رغبة صادقة . يبدو أنك غير ما يقال عنك . »

يقول بأسى رجل مظلوم : « خلي ما يقال عني على جنب . وهيئي حالك للنقل . بعد نصف يوم يتم نقلك . » وينهض . يسوي ربطة عنقه بتلقائية غير ضرورية ، ويمضي الى الباب بلا ابطاء . تهرع اليه فلا تدركه . تلحق به عند الباب الخارجي . تلتقط بذراعه فيلتفت . تضمه اليها وتفرش أصابعها على كاهله . وتذرو حرارة الشعور ثلج الارادة من عقله المستريح ، فيرى نفسه وقد انحنى قليلا وعانقها .

في الزقاق يشعر لأول مرة منذ سنوات أنه مرتاح .

صحيح أنه لم يعرف الحب بالصورة التي غمرت خياله مراهقا وشابا ، لكنه في لحظات كهذه يشعر بالراحة العميقة . وهل الحب في المال سوى هذه الطمأنينة النهائية الواقية من فزع الوجود ؟ يدرك أنه عندما اتسع أفق الحب لديه فشمل الناس وحياتهم اليومية ، لم يكن يمضي في المسار الخاطيء . أما ذلك الحب - ذاك اضمحل صورة بعد صورة وزال . الحب وهم ، نصدقه حينما ثم نفيق منه . تلك هي الحكمة الأزلية لحياة الانسان . في السابعة عشرة من عمره التقى بنخضرة بنت المربع زيّود ، وكان حبا بكرا عفويا نما مع الاعشاب

والأجام في حواكير القرية وبساتينها • كانا يلتقيان تحت عريشة لا يمكن أن يتسلل اليها سوى الفيء والعصافير ، وهناك يضغط بشفتيه على شفتيها معتقدا أن هذه هي القبلة • ثم ما يلبث أن يحضنها محاولا التعويض عن خيبة القبلة ، ويشعر بنشوة طاغية اذ تنضوي هي بين جذعه ويديه مغمضة عينيها الكبيرتين الخضراوين • مرات كثيرة علق شعرها الجدولي بالعوسج المتشابك ، فخلصه وهو يضحك لتكشيرتها الغاضبة •

خلال عام ، اضمحل الحب الكبير • بعد الزيارة الثالثة لبيت طالبة في المدينة عرف أن خضرة لم تخلق له • لقد انجلت على حقيقتها الخافية : فتاة تحسن الحلاب والصر ، ولا شيء آخر • تجاوزها العصر • وتعجب من نفسه كيف أحبها ونسج صورتها في بساط المستقبل • بالطبع ، كان الفضل في ازالة الغشاوة عن عينيه لنائلة ، الفتاة الانيقة الطويلة التي كانت تطرب لقراءة رسائله المدججة بمبارات الحب • كانت لقاءاتهما قصيرة عاصفة ، تحت المطر ، في الزواريب العاتمة ، على المقعدين الاخيرين من صالة السينما •

وانتهى حب نائلة أيضا ، فركض وزام فتاة أصعب منالا • لقد عرف الامل ، وقامت القيامة ، وأبعدت الفتاة الى بيت أخيها في دير الزور • وحلت محلها ندى المرحلة التي أطعمته من الحب أولا بأول ، بادئة بتدريبه على القبلة • ويوم قبّلها على النحو الصحيح أدرك أن دروس الجغرافيا لم تعطه صورة دقيقة واضحة عن اتساع العالم • وبعد القبلة استطعم الجسد العاري • وصار اللقاء عراقا • أراد أن يصل الى الاعماق ، وكان ذلك مستحيلا • ثم بدأ العنف • صار يصفعها فتدوي الصفعة في أذنيه • وكان دويا لم يعرفه من قبل • ليس فقط لأن ندى ازدادت في عينيها جمالا وانسانية ، بل لأن أعماقا فائرة في ذاته رددت الصدى كذئاب جائعة • أفزعته الاصوات فركض • انتبه الى

جوعه وركض • فرّ من جوع أعماقه الى رواء أعماقها فانتطح صدره بالبوابات الموصدة • وفي مرة هوى الى الارض ، سقط • ونهض ، فأدار ظهره •

بعد قليل نسي طعم تلك القبلة ، والتي بعدها • وصار ينسى طعم القبل التالية بسرعة • وجاء يوم لم يعد يعي فيه طعم القبل • الآن لا يستطيع أن يتذكر طعم أي شيء ، لا القبلة ولا غيرها • يتذكر فقط أنه ركض • حتى عادة ظلت متأبية • هذا الجسد المرمي • لقد لامسها ، وقبّلها ، وعانقها ، احتضنها ، ومارس معها الحب فكانت ذروة من النشوة • الآن يستنفر حواسه كلها ، علّتها تستعيد واحدا من تلك الأحاسيس المفعمة التي اغتلت فيه وهو يتحد بها • عبثا • لكأن يده لم تمتد ، وشفتيه لم تمتصرا ، وجسده لم يلتصق • وكانت هناك قبل ذلك مديحة وأمل ودلال ومنى ورتيبة وسهام • عازبات ومتزوجات • لم يبق باب موصدا • لكنه ظل يركض • شيء ما في نساء المدن كان يسقيه فيعطشه • وشيء ما في أعماقه كان يشرب فلا يرتوي • أحب دائما أن يخضعهن ، واذ خضعن لم يرض • وظل يركض • توقف أحيانا عند محطات أمنة ، وعرف قليل الهدوء وكثير الحب • كبرت الصورة داخل وعيه ، وتحللت فيها نساء المدن والريف وعوالم الحياة الاولى • صار الركض سرعته العادية • أحيانا كان يركض وحده ، وأحيانا مع النساء ، وغالبا مع أناس كثيرين يعرف ملامحهم ولا يعرفهم • ولأنهم جميعا كانوا في حركة لائبة ، لم يستطع أن يرى ذاته أو غيره في وضع شاذ • لكنه تساءل : الى متى ؟ أية نهاية تنتظره وهو يعدو وراء الحب والمجد والحياة الجديدة ؟

يعرف الآن أنه لم يحب أبدا • لكنه لا يعرف لماذا • حتى عائذة لم يحبها • وحتى في ليلة الخطبة كان يعرف ذلك • يومها عاد الى غرفته وأغلق الباب وظل يتقلب على فراشه حتى الفجر • لقد وقع في الحفرة • أوقعته الشهوة

أخيرا وعصبت عينيه • لم يكن يدري الى أين يتجه • لم يكن يدري شيئا في الحقيقة ، سوى أن ذلك الميدان الأملس الذي انسبدل الى جانبيه زندان بضان طويلان صار بالنسبة له حياة بأكملها • الملمس • أرق بشرّة في المدينة • وقد أوصلته الى ما قبل انعدام المسافة ببوصة واحدة • كانت مثله راغبة ، لكن الشرف تكلم فصمتت الرغبة • أكان بقي من ذلك الحب شيء ، يا ترى ، لو انعدمت المسافة ؟ وبكت هي - حبا به وحسرة على شبابها • ثم قالت أم حسن : « أنت لن تتزوجها • أقطع يدي هذه ، من هنا ، ان كنت ستتزوجها • أنت تضحك عليها ، والايام بيننا يا ابن الشيخ سليمان ، من سيطلع الكذاب ، أنت أم أنا • »

بعد يومين اشترى خاتم الخطبة ، وربحت أم حسن المعركة •

وكان عبد الله بن سلام واليا معاوية على العراق ، وقد تزوج من زينب بنت اسحاق التي قيل انها كانت أجمل نساء عصرها • وقد رآها يزيد بن معاوية فأحبها حتى أسقمه الحب • وعرف معاوية بحب ولده للمرأة وبامتناعها عنه ، ففكر أن يطلقها من زوجها ويزوجها ليزيد • وهكذا استدعى عبد الله ابن سلام ، فلما مثل بين يديه قرّبه اليه ثم فاتحه في أن يزوجه من ابنته ، فما كان من الرجل الا أن طار فرجا • وأضاف معاوية أنه لا ينبغي لعبد الله أن يجمع الى زواجه من ابنة أمير المؤمنين زوجة أخرى • ولم يفكر عبد الله طويلا فطلق زينب ثلاثا • وبعد المشاورات وجد أن ابنة معاوية ترفضه زوجا • وأن معاوية رجل متحضر يرفض أن يرغم ابنته على زواج تأباه •

غير أن لشيش بيش رأيا مخالفا • الحب حالة تتجاوز مشاعر عباس ويزيد

ابن معاوية • كان هذا منذ ست سنوات • أما الآن ، فهو أمر مضي • الحب الآن
قرارة باردة تنطفئ عليها عيدان الكبريت المشتعلة • كلا • • الحب كلمة
صعبة التعريف • انه فعل ، كينونة لها حالات وتحولات • قبل عشر سنوات
كان فعلا مرتبطا بفعل الحياة ذاتها • ويوم ضم زوجته اليه للمرة الاخيرة ،
كان شعوره نفسه يوم ضمها للمرة الاولى • تلك فترة لم تدم طويلا • أربع
سنوات • ثم انطفأت كالنيزك في الفضاء المديد • ولكنها كانت كافية لكي
يتذوق طعم الحياة الأبقى - ذلك المذاق الزائل كحس والباقي كشعور • بل
حتى الأحاسيس تعود له بين حين وحين بكل ريعانها الذاتي وتحركها النافذ في
بدنه • انه لا يحب تذكرها كثيرا ، وان فعل فهو لا يحب استعادتها • شيء ما
فيها يجعلها تتسامى على العزاء الذي يتسوله الانسان البائس من ذكرياته
المرغيدة • وهو يضمن بها أن تغدو غذاء للخيال والنفس الجائعة • انها أنبل
وأجمل • لقد استقرت فيه ، تغلغلّت في أنسجته ، وقبعت هناك كمياه كوثرية
بين طبقتي أرض كتيمتين •

بعد ذاك جاء زمان الوجد • بالطبع ليس هو أول انسان أذهله الموت •
لكنه لم يكن أمام هذا الحدوث المفزع أقل فزعا على ذاته • صار كمن يرى
العالم بعين واحدة ، ويبتسم بشفة واحدة ، وينام على جانب واحد • صحيح
أن الانسان قبل الزواج يعيش حياة من هذا النوع ، ولكن كم هو البون شاسع •
الطوفان قبل بناء السد شيء ، وبعد انهياره شيء آخر • هذه المباغته • ذلك
الانتهاء • الإدراك المخنجر أن حضورا ضروريا قد غاب منذ لحظات ولن
يعود أبدا • منذ لحظات : شعور تنكّبه مدى عامين كاملين • عامين ، وهو
كلما افتقدها يشعر أنها غابت منذ لحظات ، ويدرك للمرة الاخرى بعد الالف
أنها انتهت •

ثم اعتاد أحادية الرؤية والنوم والابتسام • أيقن أنها ماتت وأنه لم يموت • موت الحبيب لا يعني بالضرورة توقف المحب عن الحياة • في تلك الفترة ائتلف مع سليمان • وجد في سخطه الدائم وحكمته القاتمة تذكيرا مفرحا له بأنه ما يزال يحيا • تذكر صغبه وأريجيته وحماسه واستطالاته الأخرى ، وكل ما جعل منه الزوبعة الأليفة التي عصفت بركود العمل واللقاءات • كان سليمان دواء من نوع غريب • أمين ومخلص وحازم ، لكنه ينث من بين كتفيه الصليب نسيمًا صقيعيا جعل شيش بيث يفرق خشية التحول الى مومياء • عبر سليمان ، رأى المنحدر الذي كان يتهبطه بلا انتباه • كان سليمان في الوادي ، مستريحًا للرطوبة والظلال وحصى النهر الجاف ، مزدريا عناء القائظين ورعشة المبردين في الأعالي • كان يطيل حياة متكلسة لم يعد فيها ما يشبع جوعه المتكلس • ولم يفرح ذلك قلب شيش بيث الذي لم يكف عن الخفقان • لقد أفزعه ، وكان الفرع من نوع مختلف • ليس فرع فقدان ، بل الموت •

صداقة عجيبة • كلها أصدقاء ومتنافرات • لقد أحب شيش بيث جميع ما اعتبره سليمان جدًا ينقصه الدفن • أحب الكرم في عصر الاشتراكية ، وعلاقات الصداقة الشخصية في دهر علاقات الانتاج • أحب البخيش واليانصيب والمتسولين ولعبة النرد ، والدعوات الى الطعام منه واليه ، الشجار لأجل الدفع أولا ، السلامة الطويلة المحشوة بالمبارات الجاهزة ، النصرة والوفاء والغيبة والنميمة •

لهذا خفق قلبه من جديد لأسمى • بقي كما هو ولم يموت • اجتاز مسافة الموت • قبل عشر سنوات ، كان تماس أصابعه مع تلك البشرة التي ارتحلت يرسل في جسده رعشة تستفرقه كتيار ملموس ، كمجس يداعب الخلايا فتضحك ضحك الأطفال • كان يسلمه لنصف غيبوبة متوهجة ، متضاعفة الوعي

والاحساس ، قريرة على قرارة رغد أبدية • أما الآن فهو يتساءل ، على أية صورة ستكون الاشياء ، بعد هذه اليقظة البطيئة ، هذا الشروق المنير للوجه المجلل بالحسن • كيف سيمارس صفاته وعيشه من جديد •

وقد أحب أن يدخل في التجربة •

طاردها من حيث لا تدري - أو هكذا خيّل له - في الشوارع والاماكن والحوانيت • اشتهاها جسدا غارقا في الحس ، واستحلاها حركة نابرة في المكان والاعصاب ، وحملها على خياله المرتحل في تكوينات تتجسد وتشف وتنشق فتلامس الحياة • تكوينات ، حقا • مولد جديد ، رآه أو أحس به في حشود البشر •

ولطالما تخيلها وهو خارج من عيادته : هذه الألياف والأوتار والعضلات التي صنعت ساعديها وفخذيها وجسمها ، كان ممكنا أن تناسب صورة لفرفة التشريح ، هناك حيث يتمدد الانسان مجرد جسد ملقى على قارعة السريّر الخشبي ، لولا ذلك الشيء الذي صنع منها كلا أكبر من أجزائه وأضاف اليها الحركة والفرح والانس ، طعمها بجمال غير ملموس وأطلقها في العالم الحي • ذلك الشيء الذي ظن شيش بيش أنه قد استله من نفسه ووضع زهرة فواحة سوداء مع باقة الريحان الاولى التي وضعها على قبر زوجته • لقد اكتشفه للتو ، لحظة انتبه لأسمى أول مرة • وبعد حين اكتشفه في ذاته • ثم صار يجده على وجوه الناس التي لم تصقل بعد ، وفي حركاتهم النشطة العائرة ، في تعاملهم العشوائي ولفتهم القديمة الجديدة وثيابهم العصرية المنسدلة على عقل متفتح وادراك قاصر • لكنه اكتشفه • وكان سعيدا لأنه رأى فيه نفسه •

كانت أسمى يقظته الخاصة • لم تتبدل له ملجأ يفد إليه عند المغييب ويرمي عليه أثقاله • كلا ، ليس هو ذلك الانسان الذي يترنح تعباً عند مفارق الوعي والحضارة • لقد استيقظ من سباته الدهري وسلك الدرب على خط الشمس النامضة • لم يتصورها في أي مساء ، وان كان يراها من مكن العتمة • فالمساء لم يكن يليق بها - تلك الكآبة المتزايدة حتى الارهاق ، وذلك الشروق المتزايد حتى الضياء • كانت مختلفة عن أمه وجدته ، ولم يعرف كيف • كانت على نحو ما ربحا هبت من داخله وحملته • وهو انسان يحب الاجتياز ، يحب حرق المراحل • الحياة سبقتة فرداً ومواطناً • والناس حوله ، كل يحاول التعويض عن ألف عام مضت بدون جدوى • وهو واحد منهم ، اذا ضاع في الشارع وجدته في الزقاق ، واذا تعثرت قدمه ارتكز على القدم الثانية • وهو واحد منهم ، يشعر أن عددا هائلاً من السنين قد هرب منه ، كل سنة تحمل نتفة من حياة وأخرى من وعي • وتم ذلك من وراء ظهره ، لانه كان طيب القلب ، ولان فعل الغزو الذي قام به المغول والتتار كان فعل عدم وموت •

الآن يريد تقصير المسافات بمقص سحري لا بد أن يوجد يوماً قريباً ما • سوى أن شيئاً ما عقله • كلما اجتاز الحد الاول اليها ، أحس بابتعاد الحد الآخر • وكلما التقى بالحد الآخر وجها لوجه تخثر بمفاجأة حضورها وعجز حضوره • أجل ، العجز • ردة الى حالة الخدر تتجاوز شرطه الفردي الى تاريخ طويل • وتساءل : أيكون ذلك لانه شيش بيش فقط ، أم لانه عبد الرحمن ابن • • • اليماني الذي ورث عن أسلافه تاريخاً باهظاً وتلالاً من الوخم ؟ أم لان الارض دارت بعد مولده ثلاث عشرة مرة حول الشمس قبل أن تولد هي ؟ حسناً : الزمن صار قيمة مستقلة بذاتها ، والناس يحسبونه كنوع من العملة • غير أن هذا زمن مختلف ، لا علاقة له بالقلب الانساني • ثلاثة عشر عاماً -

لا شيء • فيما مضى كان الاجداد يتزوجون الصبايا وهم في الستين • وكان ذلك أمرا طبيعيا ومفرحا • انها لن تصير عادة أخرى • وهو بدوره مستعد للتنازل عن خمس درجات من صفة (المتحضر) التي اكتسبها عن جدارة ، كيما يعيش سعيدا •

مثل هذا التفكير أراحه كلما أصيب بعقلة فندم للفرصة الضائعة • أعطاه القدرة على الاستمرار • الأمل خداع معقول للنفس • وهكذا ظل يحب البخشيش واليانصيب والمتسولين ولعبة النرد ، والقهقهات الطاحنة •

سليمان زمجر دائما ضد معوقات الحياة هذه • رأى أن كل ما ابتدعه البشر كان طريقا غير مرئي نحو الموت • الجسد المضطرب ، الطافر بالدعوات والجوع والشبع ، كان باستمرار حريقا يعض النفس التي صقلتها الحضارة • انسداد مجرى الينبوع ، وبقي الماء في الداخل : خائفا ، مذنبا ، متفاقما ، ملتويا ، منخزيا • الحضارة شذبت الانسان ، هذبت ، ثقفته ، قلمته ، وأخيرا اخترعت له حبوب منع الحمل • يقولون : التخلف • أي الشعوب على وجه الارض ليس متخلفا ؟ لقد صودرت الحرية باسم القانون ، والقانون باسم التقدم ، والتقدم باسم السعادة ، والسعادة باسم الاخلاق ، والاخلاق باسم الخبز ، والخبز باسم الحرية • باختصار : صودر الممكن باسم المستحيل • بقي فقط الوحش ، تلك الاشياء التي يحبها شيش بيش ويمارسها • كل ما يوصل أقدام الناس الى اليوم التالي ، واليوم التالي ، واليوم التالي ، وخم في النفس والجسد • وخم يفرز حيوية ونشاطا • انه الماء المستنقع في الداخل • وان يبق هؤلاء الناس كما هم يموتوا • وسيبقون ؛ شعب بأكمله • الريح التي فاجأتهم جاءت من مكان آخر ، لم توقظهم ، بل أيقظت غيوبيتهم • جعلتهم يخمنون ساعة الموت المقبلة • وحتى تجيء تلك الساعة ، ستقوم الحيوية والنشاط بصنع معوقات جديدة

للحياة • هذا الانحلال ، تلك الألاعيب الفكرية ، التزحلق على برج من الخوف واليأس يسمونه الأمل – كلها ستضيف ركاما جديدا فوق الركام القديم • وسيبقى الينبوع محبوبا ، ولن يكف هذا الشعب عن الارتجاف احساسا بالاثم والقذارة كلما شاهد عرضا عورته • واذا ما كف يوما عن الارتجاف ، وصارت الرؤية عادية ومألوفة ، يكون قد تعرضى لأجل العهر – ليس لأجل الحرية •

سليمان عرف هذا جيدا • مارسه أولا ، وعندما استوى عقله على العرش ، استوعبه • أكان ذلك عرشا أم هاوية ؟ لا يدري • لا فرق • عادة شعرت بالحرية ، لكنها حرية من الحياة • بعد كل انشباق ، انسل منها شيء غامض انسلال الروح من الجسد ، وبقي لحمها ملقى على الارض • لم يكن لفعل مهما جل أن يزحزحها قيد أنملة • ومن يدري كم ساعة بقيت مرخية هامدة • تلك نهاية طبيعية لبرجوازي هذا العصر • لقد أحببت الرقص ونالت عليه الجوائز الثمينة في المباريات الكبرى • وفي السادسة عشرة من عمرها كانت ضرورية لانجاح أية حفلة • وأحببت السباحة فصارت سمكة • وأحببت الثياب فصارت فراشة • وأحببت الحرية فصارت غنية عن الآخرين • وأحببت الرياضة فصارت قصبة نهريّة • وأحببت الموسيقى فصارت وترا ورعشة •

ثم تزوجت • تزوجت لتستمر في الصيرورة فصارت تمثالا • وكان لا بد لذلك اليوم أن يأتي ؛ فجاء • لم يكن سليمان الاول ولا الاخير ، ولكن كان الثابت الوحيد • عند كل ابتداء ، تحركت بفعل قوة معمية • وعرف سليمان أن الماء الذي انحبس داخلها هاج أخيرا وضرب الجدران بقبضة دامية • وعرف كيف اتسعت الجدران وتراجعت حتى وصلت الى مسام بشرتها الرقيقة • في الايام الاولى ، كانت خمس أو ست دقائق تمضي قبل أن تغدق الامواج فني جسدها • بعد شهور صارت الامواج تغدق للتو ، وصار يحس بها لحظة تطأ

قدمه العتبة • يحس بها أولاً تحت جلده ، بين المسام ونقي العظام ، ويحس بها
ثانياً تحت قبضته الفائرة في لحم زندها •

لكن السياق بقي واحداً في الحالتين • وكثيراً ما تساءل ما الذي ينقص
غادة • وذات يوم أراه شيش بيّش أسمى فعرف الجواب : ان غادة تفتقر الى
روح الدعابة • تفتقر الى روح الدعابة بالمعنيين ، الفرح والمداعبة • ثم تيقن
من ذلك وهو يراقبها في حميا الوصال • عندما اتجهت فوراً الى الاساسيات
واستغرقت فيها أطول وقت ممكن • اتجهت الى الاساسيات وكأنها تخشى الانتهاء
المباغت لما يحدث لها - كأن ذاك الوصال آخر عملية جنسية تقوم بها ، وبعد
ذلك تموت • أحبت احكام يده على زندها ، وأحب • أحست أن وحشا متمدداً
تحت اللحم ينضغط فيغدو أقل عواء وأحس • أحس أنه يقبض على شيء حقيقي في
ريح هذا العالم • كان لحمها شيئاً حقيقياً ، وإن متحولا • جدثياً غالباً ، وأحياناً
كورق الورد • وقد شد عليه بغلظة صامته آن رآه وردياً في لونه ورائحته
وملمسه ، كأنه رفض السماح له بأن يطفر ويتحول الى رداء نسيمي • خاف
من مجهول مقتحم ، من حيوية طاعنة لم يفرح لرؤيتها تتحقق أمامه وتتحداه :
جسدها ؛ الهيكل المشاد من عظام وعروق وأنسجة ووشائع ، صار مسكوناً
بشيطان عسلي كلما صافحته اليد ونفرشته الشعرات السود المتقوسة • • وقد
أحب سليمان اخماد طفرات الموج لأنه أحب في البحر الهدوء والسكينة وكره
العكر والزبد • وهي أحبت الاخماد ، طلبته آناء الليل وأطراف النهار ، كي
تقبض على السلام بيديها المغدنتين • أرادت أن يهدأ الضراب في أعماقها ،
الخلجات المنفصة لحياة يومية منظمة ومتقنة • رأت في أصابعه مغالب سفاحة ،
وفي جسمه العتل كاتماً للصوت المدوي بين عينيها ، وفي عقله الصلب جدية
عرّتها من ادعاءاتها • وقد أحبت ذلك : كانت تشتهي أن تلتقى في البحر دون

أن تسمع هدير أمواجه • وعبرت في زمانها النفسي الى حيث لم يعد بوسعها التمييز بين شهوة الجنس وشهوة أخرى مروعة لم تجرؤ على اعطائها اسما • هربت منها فاكتشفت أنها تسعى اليها • لمحتها للمرة الاولى ليلة الزفاف • كان ذلك قبل ثماني سنوات • يومذاك كان الناس يتحIRON في من يمكن أن يصلح زوجها • كانت كاملة في كل شيء ، جمالا وثقافة وحساسية واجتماعا • ثم جاء عمّو طلعت وأقام في البيت أسبوعا • كان رجلا رياضيا ، سمح لها بمداعبة شاربیه شرط ألا تلبس الشعرات البيض فيهما • ومن جميع صفاتها أحب التي رآها الناس أبرزها وأقلها أهمية : روحها المرحّة المتشيطنّة • وفي نهاية الاسبوع طلب يدها • وقالت لها الام : « لا يخطر لك أبدا أننا نبيعك • نحن في ضائقة مالية صعبة ؛ انما لا علاقة لهذا بطلب ابن عم أبيك • هو طلبك ، ونحن نستشيرك • لا غير • » وكان ذلك كافيا • في ليلة الزفاف رقصت كما لم ترقص من قبل ، وكما لم يرقص أحد • كان المرقص الذي اکتراه طلعت — طلعت فقط ، الآن — غاصا بالمدعوين والثياب الراقية والعطور المدوخة والاطعمة الفاخرة • لكن أحدا لم يتميز مثل عادة • ليس فقط أنها لم تكف لحظة واحدة عن الرقص بفستانها الابيض وحضورها الملائكي ، بل أيضا لان عينيها الوحشيتين اللامعتي السواد صارتا نبعتين صغيرتين أرسلتا خطين أصفر لم يكفا لحظة واحدة عن المسيل •

ثم صادفها سليمان • لم تكن مصادفة حقا ، لكنهما اعتبراهما كذلك • كانت قدرا من صنع الانسان والناس • كانت الريح قد حملت غبار الطلع وألقته على الرمال ، ولم تجد الفراشة زهرة تحط عليها • وفي الحقيقة ، لم تعد قادرة على الطيران • لقد تلاشت نشوة الرقص وحل محلها دواخ وصداع • وفقدت الثياب والاناقة سحرهما ، وصار اعجاب الرجال وغيرة النساء بديلين

لمرحها الشخصي بثيابها وعطورها • والحب الذي كان في وادي أحلامها سديما غامضا غاويا ، صار الآن كلسا تذروه المراوح الكهربائية ثم يعط بعد حين على أنابيب التدفئة • من السديم الى الكلس عبرت هي • الى سرير الجنس بلا شبق • والى كؤوس الراح بلا راحة • بل كان ثمة نوع من الراحة : شعور ليلة الزفاف عادهما في نهاية السنة الاولى ثم أستطال أيضا فصارت له آلاف الاطراف • عندئذ بدأ الكلس يخترم ثيابها ويلتصق بالجسد • يتصمغ على الجسد • يتعضى بالجسد • وكما تقول العجائز ، فقد انحبست روحها • ويوم صادفها سليمان كانت فيها عينان فقط مفتوحتين : عينان تريان الموت الوشيك الذي لمحتاه يوم الزفاف ، وأول من رأتا : طلعت بك • شاهدتا حشدا بلا نهاية من بكوات باسم طلعت ، مصفوفين في خطوط طولانية وعرضانية ، مرتدين بدلات وشراويل وجلابيات • شاهدتا تاريخا عمره ألف عام ، اسمه طلعت بك ، يجلس بين رفوف الاقمشة والنساء والبهار والأذرة ويمسك بيديه الصفراوين دفاتر التجارة • شاهدتا قوافل الجمال والحمير والبغال تنتقل بين طشقند وغرناطة ، مرورا بدمشق • تخيلتا من جديد قصص ألف ليلة وليلة ، ورأتا غادة ترفل في الدمقس والحجارة اللئيمة : غادة ذات الاطارات — هكذا يجب أن يكون اسمها • كل ستين عاما كانت تظهر في اطار ، أو كل شهر • وبقيت هي هي : مطية لاجتياز صحراء العمر في حالة من الغيبوبة الوحشية • كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ ، والماء فوق ظهورها محمول • وبقي الاطار هو هو : سريرا عريضا موشى يحمل ثقل الجسدين المسترخيين الى جانب أبجدية الموت •

اذ ذاك هرولت تستبقي الحياة ، فصادفت سليمان • أرسلت أبا فهد ليستدعي صناعيا يصلح جهاز التلفزيون ، فجاءها به • مصادفة أيضا كان

مجيؤه ، وان لم يكن حقا كذلك : لقد غاب مساعده في مهمة مماثلة • وعندما دخل البيت رآها أمام نافذة البهو منتصبه كالتمثال في العثم ، ومديرة ظهرها لعالم بيتها الداخلي • عرف أنها جميلة وأنها تتأمل المدينة الخضراء • وعرف أن عليه اصلاح الجهاز فورا ، لأن زوارا لا تعرف كيف تسامرهم سيأتونها ذلك المساء • قالت له ذلك ، وأنصت لها • كل شيء كان جامدا ، الظلام والكلام والاجسام • واذا انفصمت نظرتاهما بلا انفعال ، داهمتها الشهوة الاخرى ولم تنتبه • ظنت أنها وجدت ملجأ • رأت في سليمان نقيضا لزوار المساء الحاملين معهم صمت الكلمات المفزع : لقد تكلم صمته اليها • واتجه هو الى الجهاز ، طلب الاذن بتحريكه فأعطي ، وأداره واقفا وراءه • ومع أنه رجل لا يتعامل بالرموز ، فقد ابتسم اذ اكتشف أن العطب ناجم عن لمبة محترقة • قال لها وهو ما زال جامدا : « قلقك يامدام ، سببه هذه • » وأراها جسما صغيرا من زجاج ومعدن يحجم الاصبع • ابتسمت ابتسامة سخط خفية : حتى هذا الانفعال الخائق لم يكن له مبرر ، لم يكن حقيقيا • وانحنى هو فوق حقيبته يبحث فيها ويفكر • ومع أنه رجل لا يتاطعى الرموز ، فقد رأى في المرأة الواقفة أمامه جهازا يمكن أن تصله لمبة سليمة بحركة الصوت والصورة • واشتهاها • انتصب • وضم الجسم الجديد في مكان القديم ، وأعاد الجهاز الى مكانه • وفيما يقول لها : « كل شيء تمام ، مدام ، » شاهد يدها ممتدة بالورقة المالية • رفض المال : « لا شيء يستأهل ، » فأصرت • أرادته أن يأخذ الورقة ، ويأخذ معها الرمز الذي رَجَّها وهي غير متهيئة له • من هو هذا الشخص ، بعد كل شيء ، ليثير فيها رغبة بالجوع ؟

قال لها وهو يثبت عينيه المعدنيتين انه فعلا لا يريد النقود ولن يأخذها • وتقدم واعيا تماما بما يفعل ، فقبض على اليد الحاملة مالا ورددها الى نحرها ،

فينا التقطت يده الاخرى جيدها من الخلف وهيأت رأسها للقبلة الموشكة .
حدث ذلك في ثوان . وأدرك سليمان أن فحسه للجهاز البشري المتسامق أمامه
كان صحيحا .

بعد منتصف الليل التالي دخل البيت للمرة الثانية . كان البهو والممر
الموصل الى غرفة غادة ظلاما دامسا . وعبر السكون الطليق سمع حفيف ثوبها
في امتساحه على جسدها وثيابه ، وأحس باللمبة متوهجة في ظلامها الداخلي .
عندئذ عاد اليه شعور عريق بأنه سمكة يتم اخراجها من الماء . وقادته من يده
الى الغرفة ، وهي ترعف شهوة نافرة : شهوة الجنس أم شهوة العرس ؟ وبينما
هو يضغط عليها فتتضفط ، أحسبت بالاثنتين تندمجان وتمسيان حركة تتصاعد
نحو ذروة انتهاء ملذة ورصاصية . وعندما ارتمت على القمة المسطحة أدركت
أنها بنفسها وضعت نفسها في اطار جديد ، ولم تكن فيها خلجة احتجاج . كان
ادراكا انتهى هو الآخر لتوه ، والى مكانه اندفق الظلام بأمواج متتالية لا صوت
لها ومسح شاشة عينها الداخلية .

هذه الألياف والعروق والأشرطة التي كوّنت جهازا متقن الشكل ، انتقلت
الى عالم آخر - قال عقل سليمان له . وتوقفت يداه وجسمها عن التنفس اذ
تلامسا . أدرك بدون لأي أن اللبة قد احترقت ، وأنه انتزع الصندوق عن
الشكل فبانت الوشائع المعطلة والاسلاك الصدئة والالوان القاتمة . شعر بنوع
من التشفي الاسود ، وبحاجة ماسة الى ثيابه . نهض وارتدى ثيابه غير عجلان ،
وهو ينظر اليها مجلبة بالظلمة والخمود والعار المحرر القذر . وبدأ يعود الى
غور مياحه حتى لا يطاله صخب الموج .

في اليوم التالي مضى الى شيش بيش . لم يبح بشيء ، بل ولم يتكلم .
لم يكن في كل ما حدث شيء مثير ولا جالب للرضى . فقط ، شعر أن صديقه

يجب أن يكون هناك - ليستمد منه شعورا بالامن لم يدرك كنهه لكنه طلبه .
وفرّق شيش بيش قهقهته الصاخبة ، كتعليق على حالة سليمان الشبيهة باقتراب
طوعي من الموت .

ثم دخل علي في حياتهما من باب خلفي . اجتذبتّه ذات مساء مباراة بالنرد
حامية الوطيس بينهما ، فجلس يراقب . وبينما هوبر شيش بيش وزعق
وزمق ، جثم سليمان على كرسيه كسيد لا يسعه الا أن يكون مهذبا ، وعيناه
تتابعان حبتي النرد في تدحرجهما واستقرارهما . لقد ملأ شيش بيش جوانب
الطاولة الثلاث رغم احتشادهما بالمتفرجين ، سائلا كل مرة أي رقم أعطت حبتا
النرد . والى الجانب الرابع سكن سليمان ، الا عينيه . أحيانا ابتسم لهوبرات
خصمه ، وكان واضحا أنه لا يبالي به . وراعت عليا المفارقة الصارخة بين
الرجلين . كانا مثل قطبين لقطعة مغنطيس واحدة . اتصلا لانهما من فلذ
واحد ، وانفصلا لأن . . لأن . . لم يدر . لم يسعفه عقله التحليلي ذلك المساء .
لكن جهله لم يدم طويلا ، هو الولوع بقراءة الناس في مداراتهم المحلية
والتاريخية . بعد أن انتهت المباراة ، سهروا معا . ثم كثرت لقاءاتهم ، فصار
بالنسبة للثنين كالوتر في مثلث قائم الزاوية . آتت ضاعت في ذهنه الصورة
الجدلية ، كما سمّاها : لقد اتصلا اتصال الموت والحياة وانفصلا انفصال
الموت والحياة . رأهما نصفين متنافرين لوضع بشري واحد . هو درس التاريخ
جيّدا ، وافتتن بولادات الامم واندثارها وبعثها . وبخياله الروماني المتربع
على حدود الوقائع والتجريدات ، أقام من صديقيه رمزا لأمة بأكملها . وهو
رمز يحتوي الجميع ، خلقا وسلوكا . وسرهما التشبيه . التفت شيش بيش
الى سليمان وطلب منه أن يفتصب ابتسامة واحدة على الاقل . قال انه ليس
معقولا أن تمضي حياة بأكملها دونما ابتسامة ؛ وهذا هو وقتها . لكن سليمان

أصر على أنه هو رمز الحياة • ألم تنتف الخرافة من عقله ، والاحلام الطيارة من حياته ؟ أليس هو الميكانيكي الذي احترف التعامل مع الآلة ، ونظم حياته مثل ساعة (بنغ بن) فلا يعتورها الخطأ ؟ ألم يرفض كل قيمة تعطل تقدم الانسانية ؟ وصاح شيش بيش : « بل أنا هو العلم ، وأنت افرازاته • وهذا النظام الذي كبّلت حياتك به ؟ كل شيء محسوب ، واحد + واحد = اثنين • وأنت لا تعرف الضحك • أنت عالة عليّ » •

وقال سليمان : « تنعم بفوغائيتك على راحتك • لا أحد يحسدك عليها • بالتأكيد ليست حالة عصبية كحالتك رمزا للحياة • أنا مطمئن • بالمناسبة ، نحن لم نناقش المؤرخ الجهبد في آرائه • كل واحد منا رمز للموت والحياة في الوقت نفسه ، يا أخ • كل واحد في البلد ، حتى • وأخونا علي ، كيف بنيت حكمتك المقطرة هذه ؟ » •

عندئذ شبّت في علي حماسة متأصلة من النوع المميز لمن يؤمنون بحقيقة الافكار أكثر بكثير مما يؤمنون بحقيقة الواقع • وضعه السؤال في مداه الطبيعي • أكسبه قوة اعتاد على هروبها منه في مدى الحياة اليومية الشائلة •

قال : « ستبقى لابسا درع جديتك يا سيد سليمان ؟ كريحة شغلة تصنيف الناس ، أنا معك • شغلة خالية من الشعر • الانسان يستطيع أن يكون أي شيء في أي وقت ، اذا أراد • انما أتكلم بصورة عامة • الذي سمّاه نجورج انطونيوس يقظة العرب يعني بالنسبة لي ظاهرتين ، كل واحدة منهما يقظة موقته ، مرحلية • الاولى هي يقظة العقل • العقل استيقظ ورأى الآلة ، ما يسميه الناس خطأ العلم • الثانية هي يقظة الغريزة • الاولى سخرت من العواطف والحدس والالهام ، رفضت الا الحقيقة المخبرية • » •

وصاح شيش بيش : « هذا هو سليمان ، الكلب الموضوعي »

قال سليمان : « اسمع يا حضرة المهرج • دعه يكمل • »

وتابع علي : « هذا النوع من المعرفة يحدد أفق الانسان ، يشطب على ميتافيزيقاه • هناك حقائق أعرض وأعمق من الحقيقة المخبرية • وسيكتشفها الناس في المستقبل وينتفعون بها ماديا • سيكتشفها الفقراء والمحبون • ومن لا يفعل ذلك ، سيستقظ من موت قديم على موت جديد • • »

قال سليمان : « أتساءل لماذا لا تلبس الرداء الرسمي وتعظ في أحد بيوت الله • كمل • كمل • »

والتفت علي الى شيش بيش : « ويقظة الغريزة يا عزيزي • • بالمناسبة أنا الآن في بيت منها وأعظ عليكم • يقظة الغريزة هي أنت • أنت ترفض الموت بغريزتك ، وستظل تدفعه عنك حتى يأتي جيل يزيحه ويصنع الحياة بدلا منه • ربما حققت نجاحا ملحوظا • بصراحة أنا لا أعرف متى سينتهي دور البرجوازية الصغيرة في هذا الوطن • لكنه سينتهي • وسأجيب سلفا عن سؤال تهمتان بطرحه : الذي سيصنع الحياة هم العمال ، العمال والفلاحون وأناس مثلي لم يتسمموا بشهوة الامتلاك • انتهت الموعظة • »

قال سليمان : « عظيم أنها انتهت • لكن جمهور السامعين لن يحشو جيوبه بموعظتك وينصرف • هذه المرة سيناقشك فيها • هذه الرمزية التي تتحدث عنها ، موضة أدبية ؟ تفصيلا جديدة للقماش نفسه ؟ أنا أعرف أن جهاز التلفزيون أو الراديو ، أو محرك السيارة ، أي واحد منها ، مركب من أشياء أساسية لا تتغير • شكلها يتغير ، نعم • لأجل التحسينات • يمكن أن تصير أثخن ، أطول ، أقصر ، دائرية ، ملولبة • • ولكن تبقى هي نفسها • ليس

فيها شيء « يرمز » للحركة وآخر « يرمز » للعطالة • عندما يتعطل جزء ينزع ويستبدل بواحد جديد • وهذا هو الانسان ، والامم ، والتاريخ ، وكل هذه الكلمات التي ترددها وكأنك في حلم • أنت مثل السيد شيش بيش ، العالم والذي رأسه مليء بالأوهام • وأوهامكم تضع غشاوة على أبصاركم • أنتم ناس نصف نائمين • تعيشون بجسدكم • عقولكم معطلة ؛ وإذا اشتغلت فلنكي تبرر أوهامكم ، التي هي أوهام جماعة بدائيين • »

وقد أنصت لموعظته المضادة مبتسمين • وكان شيش بيش يهز ساقيه ابتعادا واقترابا • وقال علي : « أية حياة هي تلك التي تغلو من الأحلام ؟ الأحلام خبز الحضارة • وهي أحلام ، لا أوهام ، كما أعلنت حضرتك • عندما يحلم الناس ، ينهضون لتحقيق حلمهم • وعندما تتحقق الأحلام ، وتمتلىء الحياة بالإنجازات والمليبات ، تكون دورة الحضارة قد اكتملت • أعني يبدأ الانغلاق والانحطاط • »

وأخيرا أطلقت عليهم عينا الملك المباحثيتان • كانت أولى عباراته انذارا • قدم لهم نفسه كشاهد على « الزمن البربري وليل الحضارة • » وحذرهم أن كل ما يتفوهون به في حضرته سيعتبر مستمسكا عليهم ، وسيندرج في رواياته المقبلة كشهادة على عصر وشعب • قال لهم ان زمن الكلام المجاني والتصرفات العشواء قد انتهى ، وأن العالم الثالث يريد رجالا يفعلون •

في ذلك المساء ذهبوا جميعا الى أم تحسين ، وبيع الملك •

أمية وعائدة تقفان وسط البهو ، الاولى مطرقة ، والثانية تنظر اليها بامعان • يلتفت رأساهما لتحية علي ، الذي وقف بالباب متهيئا للتلبية • تتحرك أمية فتمسك عائدة بيديها وتوقفها • وفيما يبدو أنه مرة أخرى ، تهددها عائدة بقطيعة لا رجعة فيها ، وبأنها الى الابد لن تفتح فمها لتتحدث اليها • تذكرها

بخراب بيتها وحياتها • تطلب اليها القبول بقدر الزواج ، وتحمل المصيبة التي يجب على كل أنثى أن تتحملها طالما عاش في هذا البلد رجال • لكن أمية ترفض : بابتسامة باهتة توارت منها الدعابة هذه المرة ، تدفع عنها يدي عائدة ونصائحها • تهرع الى الخارج • وتصيح عائدة بعلي أن يسد عليها الطريق • تهول أمية وتدفع صدره بالاصابع العشر ، وبسرعة تنطلق الى الخارج •

وراءها تتجرجر عائدة • تصيح بجارتها ملء جوف السلالم ، مدفوعة بذعر شخصي ، منادية الرجل المتلبد الى جانبها ، ومسرعة قدر طاقتها الى البيت المشمشع بالكهرباء • من الداخل يعلو صوتها الواقف على حافة الدمع • الكلمات نفسها ، والرفض نفسه • وتخرج أمية بحقيبتين ، تضعهما عند قدمي علي • تسحب طفلها الصامت المحرور • من الشارع يجهر زمور سيارة ، فتسرع بالنزول • ويدرك هو أن عليه حمل الحقيبتين الى السيارة ، فيفعل •

يشخر المحرك وتنطلق السيارة • ويبقى للاثنتين الشاهدين أصوات المدينة التي لا علاقة لها • يتأقلان صعبا نحو البيت • يتوكان على افريز الدرج ، كل بحسب حجمه •

في البهو تتطوع عائدة لتقديم تقريرها • بتشف غامض ووجه أكثر غموضا ، تخبره كيف جلس نواف الى الطاولة وأجلس أمية • لقد سحب مسدسيه ووضعها أمامه ، طلب اليها أن تختار المسدس الذي تريد أن تموت برصاصته ، صفعها كي تتكلم عندما صمتت ، أعاد عليها السؤال ، سألها أين تذهب بالمال ولمن تدفعه كي ينام معها ، صفعها لتتكلم ، وثب اليها ولبط الكرسي فسقط الشيثان ، سألها من يأتي اليها عندما تغيب في المدينة ومن الذي ترك على ظهرها آثار العض • وزعق صوتها المرعوب أخيرا ، عندما سحب

المسدس ولقّمه وأعدّه للاطلاق • لذلك اتصلت عائدة بعباس فقيل لها لن يأتي قبل منتصف الليل - طبعاً لن يأتي ! - واتصلت بعلي الى المدرسة ، وركضت في الحال الى الباب تضغط على الجرس ضغطاً متواصلاً ، ففتحه نواف وهو خارج كالوحش الهائج بلا سلام ولا كلام •

يسمعان دقتين على الباب وتدخل ابنتا نواف • تنكمش الكبرى حياء لرؤية علي • تسأل : « أين الماما ؟ » وتجيّب عائدة : « بعد قليل تجيء » ابقيا في البيت وأغلقا الباب • تعود الفتاتان • تلتفت عائدة الى جليستها بنظرة متكلمة • يسألها ما حقيقة هذه الخيانة ، ما دام ثمة آثار أسنان على الظهر ، فترفع كتفها وتمط شفيتها • تتجشأ وتطلب منه سيجارة • انها لا تعرف الكثير • أحيانا تسمع وقع أقدام مريباً • أحيانا يظل الضوء ساطعاً في غرفة أمية حتى شقة الفجر • ونواف غائب دائماً • له في باطن دمشق عشيقات وعشيقات ، وفي كل مدينة تصل اليها طائرته • مؤخراً علق بأمرأة أربعينية ، زوجة تاجر كبير ، وبابنتيها الشابتين • سكر كل يوم ، وعريضة • عليهن ينفق كل دخله • أحيانا تأتي أم إمام ومعها شباب • تغلق الابواب والنوافذ وينقطع الصوت فلا حس ولا حسيّس • لكن عائدة لا تعرف الكثير ، وهي لا تتذم أحداً ، خوف الله • على أن أمية لم تعد توحى لها بالثقة • انها تشجع عباساً ، تتصرف تصرفات • • لا تدري • • لم تعد مرتاحة لها •

يققرع الجرس ، ويدخل نواف بلا دعوة : قامة ضخمة ووجه أربد • يحيي ويجلس • تمتد ذراعاه على ذراعي الكنية وتنفتح ساقاه • أين ذهبت هذه العاهرة ، يسأل • عند أهلها ، يجيب • لتذهب ؛ ينفخ بلا مبالاة • مكان العاهرة الطبيعي هو المبغى • هل يحوي الانسان عاهرة في بيته ؟ نحن العرب ، حياتنا كلها قائمة على الشرف • تأتي بنت ألف كلبة وتمرغه في الوجل • ماذا

سَتَقُول ابنته الشابة وهي تفتح عينيها على العالم ، وبعد عامين تصير
امراة •

يطرق • يضرب براحه يده على ذراع الكنبه ضربات خفيفة بطيئة • من
وجهه الهازيء المستخف تنزّ مرارة صغيرة وتتجمع عند زاويتي فمه المفتوح •
تبدو ندوبه أشد عمقا وبروزا كأنها علامات زمن متأكلة • يجول بؤبؤاه في
محجريهما الشرسين المغلولين ، والنظارة تغطيهما بظل عكر • يغمغم دون أن
يرفع رأسه : « أقول لك ؟ نحن شعب تميد بنا الارض ، فنظن أننا نتحرك »

لكن عائدة ترفض الامر كله • ما من أحد يرضى لهؤلاء الاطفال مصيرا
كالذي يصنعه وأميه لهم • وهي لا يخطر لها أن يكون حرف واحد مما يقوله
عن زوجته صحيحا • أميه مثال الطهر والشرف ، سيدة بيت ولا مثلها في
دمشق ، امرأة جميلة يحسدها عليها الرجال • فليضع عقله في رأسه ويخز
الشيطان • بعد هذا العمر ، وثلاثة أولاد ، يجب أن تكون الحياة مستقرة مهما
كلف الامر •

يهتف : « أنا من يعرف قيمة الاستقرار يا ست عائدة ، والحياة العائلية
الهائلة • لكن حظي ابن كلب • حاربني القدر مع الاولى حتى هدني هذا •
حاربني الموت • والآن ، تحاربني الحياة مع الثانية ، وعقلي راح يطير • أنا
لا مكان لي في هذا العالم ، على كثرة المحلات التي أنزل فيها : أنا مكاني في
الطائرة • كل شيء معطل وفاسد ، ست عائدة • بلد خراب في خراب • نحن
غرباء في عالم نصنعه بأخطائنا • اشتريت لها البيت والسيارة والاثاث ، ثريات
الكريستال ، نصف مليون ليرة ، كل هذا من صنع يدي ، أنا الفلاح ابن الفلاح
الذي يحتقرونه ، وكله لأجل بنت ستين • • وهأنذا في السابعة والثلاثين • •
لا شيء • • صفر • »

يصمت • يدير رأسه نحو لوحة طارت فيها راقصة باليه كفراشة منيرة •
يضرب برأحة يده على الكنبه ضربات خفيفة رتيبة • في جسده الضخم قوة
متعبة ضرّسها الألم • كأنه صار ضخما فقط ليستوعب سيل القذى والعكر •

يقول علي : « اذا سمحت لي بالتدخل • لماذا العنف ؟ عندما يختلف
اثنان ، يتركان ويمضي كل الى حال سبيله • أنتم سددتم مفارق الطرق
بالعنف • »

غير ملتفت عن اللوحة ، يهز نواف رأسه • يتوقف عن الضرب على
الكنبة • يقول : « العنف ! لم يبق غير العنف • العالم كله عنف • من يتفاهم
مع الثاني ؟ فيتنام كلها قنابل وكيمياء قاتلة • العصابات والمخابرات تحكم
العالم • كل دقيقة يقتل فيها انسان على هذه الارض • سأربيها • ما زال عليها
شيء من اللحم ، سأذيبه • يفكرون نحن الريفيين بهائم • وأنا سأعلمهم من
هو الفهيم ومن هو البهيم • »

تدرك عائدة أن وقت الهجوم قد بدأ • مضت ساعة الشيطان ، تقول له ،
والغضب لا يولد سوى الغضب والسقم والنقمة • الآن وقبل كل شيء يذهبون
الى أمية ويعودون بها • يقاطعها نواف مستخفا : لمن تقول هذا الكلام ؟ لكنها
تؤكد له أنه سيذهب ولن يترك أمية وحبهما بهذه البساطة • يقاطعها ثانية ،
فتقاطعه ، وتتقاطع الاصوات ، وتنعقد محكمة بلا قاض ولا محلفين •

حسما للموقف تنهض الى الهاتف وتدير قرصه : تاكسي لبيت المحافظ
عباس • ينظر علي اليها مذهولا : ماذا ستقول للسائق عندما يرمي نواف
بجميع احراجاتها وراء ظهره ؟ يعودان الى الجدل • تزداد عائدة ثقة ، ونواف
استخفاقا :

في الشارع يعطي نواف السائق أجرته ويصرفه • يتجه الى سيارته ويفتح الباب لعائدة • وفي الطريق الى أمية ، تملي شروطها : لا ضرب ، لا تهديد ، لا شكوك • تعيد عليه القول ، وتسأله وعدا • تؤكد من جديد • يضمنت هو • بين الحين والحين يزنجر ويشتم ساتقي السيارات العابرة • عند باب البيت الطيني يقول لها : « بيننا حساب قديم يا ست عائدة ، أنت لا تعرفينه • أسأليها فقط ، لماذا لا تطلقني ، أسأليها • أنا أقول لك : لانها لا تتنازل عن المؤخر ، عشرة آلاف ليرة • هذا هو السبب • وأنا سأذيب لحمها حتى تتنازل • يظنون أن خمس سنوات تكفي لنهب مالي • وبعدئذ يجبروني على الطلاق وأدفع لهم عشرة آلاف • وبعدئذ يزوجونها لحمار آخر • »

تشجب عائدة كلامه • تضغط على زر الجرس وهي تأمره بنزع الوسائس المركبة في رأسه • تمسك جزدانها بكلتا يديها ، ووجهها مبتسم بالرضى للمساعي الحميدة التي تبذلها •

تفتح لها الباب امرأة أربعينية • قامة ملأتها الاعوام بفتنة المرأة وسلبتها رشاقة الفتاة • وفي مسام وجهها البريء تلبثت لمسات قسوة نحيلة جعلته من ذلك النوع الذي يأمر الرجال • وجه أدمي يعلم جلال الصمت ويواجه الناظرين باتزان انسان موشوم •

المدخل وغرفة الى اليسار ، وفسحة صغيرة تتقعر فوقها السماء ، وسلم خشبي متآكل ، ففرفرتان وسلم وغرفة • ذلك هو البيت • كل شيء عدا الخشب ، تبين وطنين • هناك يتصايحون ، يتصارخون ، يتزاعقون • أمية ترفض العودة الا على النعش • الأم تطلب الطلاق ، ولعنة الله على المال • أمية ترفض التنازل • أبوها يطلب منها الصمت ليتفاهم الرجال • نواف يضع شروطه • أبو إمام يقبل ويضع شروطه هو الآخر • يتفق الرجلان • يتبادلان

القبل على الشوارب • تصرخ أمية • يزئجر نواف • تدمع عينا الام ، وتهم
ترجو من نواف حسن المعاملة لكنها تمتنع • تأخذ بيد ابنتها الى غرفة المطبخ
ليعيدا ترتيب الثياب في الحقيبتين •

بعد قليل تشخر السيارة • تعود الى الخلف وتنطلق ، فيما أم إمام تمسح
أنفها وتلوح بيدها • أمية جالسة الى يمين نواف وبينهما مسافة صغيرة •
يجتازون المنعطقات الضيقة صامتين مبتردين • عند استواء الشارع ، يلتفت
نواف الى أمية • يفرش أصابعه وراحته على أنفها وفمها : « تتركيني يا بنت
الحرام ، ما ؟ وتيتمين هؤلاء الاطفال • بنت ستين • • يطاوعك قلبك ، ما ؟
• ما الخبر ؟ حملت حالها وتركت البيت • اي ، أنا ضربتك كفا واحدا • »

« مرة ثانية ، ان ترفع يدك عليّ أترك البيت • ووالله لا أعود • »

أمام المبنى وعلى الدرج ، يستمر نواف في عتابه الشرس ، وعائدة في
ابتسامتها الباهتة ، والطفل النائم الغافل في غطيطة البريء • تخرج أمية
حاملة طفلها • • تسرع بلا التفات وتتوارى على الدرجات الملولة • يدخل
نواف وعائدة الى غرفة الضيوف • فجأة ينضم اليهم عباس عاصفا مسبطرا •
توضع الكؤوس على الطاولات الصغيرة • يستأذن نواف لارتداء منامته • تتناول
أمية كأسا • قبل أن تشرب تحث عائدة على الشرب • تضحك عائدة بارتباك
ورغبة • أخيرا تقرر : « لأجلك ، يا ست أمية ، سأشرب • » وتقول أمية :
« اشربي نخب الخازوق الذي رجعت له • » « الله يلعن ذوقك • »

يصيح عباس : « املأوا كأسي أيها الخونة • يا الله ، أمية ، يا الله • »
يدخل نواف متقلقلًا ، ويتجشأ • يقول عباس : « كنتم متنابحين ، أخي نواف ؟
وعائدة صالحتكم ؟ جميل ، جميل • أرجو ألا تنسوا المعروف ، وتردوه لنا في
مناسبة قادمة • الدور لنا هذه المرة • »

ويشيل بهم ذلك الاحساس القديم باليقظة الذي لسعهم ثم مدده النهار
والليل برخيص الشجار وعنف التلقيات • يهجس في الوجوه الضاحكة والأيدي
المرتفعة بكؤوس الخمر • تهزم الطرفة الرديئة ، ويقرأون الأوراق الأدبية
ويكتبون عليها قصص الحب • يبتعدون ليروا ، ويقتربون لينبهروا • يستريحون
للأرجوحة المتسارعة بين قطبي الفرع والحصار • يحسون بشيء صلب مثقل
يتحلل منهم ، بجسر مهدوم يرممه الضحك • يتوارى صوت الغنف الذي أرغى
وأزبد قبل حين ، ليجلجل الشوق الهارب من قبضة الشر • المضض الذي حمل
أمية من بيت الطين الى بيت الثريات الثمينة يرسو في قعر الكأس ، يظل هامدا
حتى عندما يرن ارتطام الزجاج بين يدها ويد عاتدة • يجدون في الكابوس
الذي مضى حكاية فكهة تحكى فتغطي بالنكتة العسلية على نزيف الزمن
والشعور • ثم ينفرشون على بساط المبالغات المريح • يتذكرون أعمارهم
واذا عاتدة فتاة في سن الجامعة أو أكثر قليلا ، فيما يهرم عباس ، ونواف يحتفظ
بشبابه • تكتشف عاتدة خطأ حساباتها ، وإذا هي أصغر بسنة أخرى • تؤكد
أنها لولا الطبخ والاولاد والقهر الذي تتعمده الخادمة لكانت أصغر بعامين
آخرين • وتعترف أمية ، رغم احتجاج زوجها ، بجهل في أمور الطبخ ناجم عن
حلم قديم بالعمل وبالأكل في المطاعم • وفي لحظة أشبه بانفجار أخرس ،
تتراقص أحلامها القديمة على وجه باسم ولغة ساخرة ، لتفدو وجبة للتندرات •
ويعلن عباس عن رحيل الرسام منه وسكنى العسكري فيه • ويقرر نواف أن
همّ حياته الكبير هو شنق الفقر الذي أذل طفولته •

مرة أخرى يدركهم التعب ، فهؤلاء قوم يتعبون • يزين لهم الكرى خاتمة
للراحة العائمة على بحر النار • ينطوي النضال مع اليوم الذي انطوى ، وفرح
اللحظات الاسفنجية في ليل خافق بالنجوم •

ينامون قبل أن يدركهم الصباح •

وعند الغروب يسند شيش بيّش ظهره الى جذع شجرة • يريد أن يبدو
عابرا غير منتظر • يشعل سيجارة ، وعبر أول زوبعة دخانية يراقبها وهي
تدخل • جزدانها يتهدل تحت الخاصرة ، نطاقه الطويل ينسدل من فوق الكتف ،
وباطن ابهامها يشد على منتهى النطاق • تثير قامتها فيه غبطة تتعري حتى
لتسلبه الشوق الى امتلاكها • يشعر أن هذا الجمال موجود لذاته وليس للتداول ،
وطن ، نهر • بعد لحظات سيقف الى جانب قامة الفرّح هذه ويفتح صدره
التابوتي لهوائها الجبلي العليل •

يلحق بها عند أول الدرج • ينزلان ، ولا تلتفت • يمسح على وجهيهما عثم
القبو وصمت الاشياء • لن يزور المكان أحد قبل ساعات ، فالنهار مملكة تخلو
من الحب • ستكون الحرية جليسهما الوحيد في الغور تحت الارضي • عند آخر
درجة تقف وتتفحص الطاولات • يمد يده ويلمس كتفها • تلتفت بلا وجل ،
وتلتقي الابتسامتان • « عارفة أنه أنت ، » تقول له • تتحرك نصف خطوة
الى الامام فتنضوي تحت ساعده • يتقدمان وقد نسيا أن يتصافحا • يمضي بها
الى الطاولة الأقصى منتشر النفس • تسأله لماذا لم ينتظرها في الداخل كما
اتفقا • يبتسم ولا يجيب • يزيح لها الطاولة فتجلس ، ويسترخي الى جانبها •
يعبىء وجهها بتطلّيع ثابتة مرحة • تعيد عليه السؤال وتنتظر أن يقول •
ينقر بأصابعه على الطاولة : « قلت لنفسى ، واذا لم تجيئي ؟ سأخرج من هنا
وعيون أصحاب المشرب تضحك علي • لو لم تجيئي ، كنت سأضحك على
حالي • »

من حيث لا يدري يتلامح على وجهه سؤال موجه لها • تطرق • تتناول

الكبريتة وتشعل سيجارة • يتأملها • يطول الصمت • يشعل سيجارة هو الآخر • وتعبث يداها بصفحات مجلة نسوية •

أخيرا تقول : « اذن أنت مثل غيرك ، تخاف من الناس وسخافاتهم • »
يفيض وجهها بابتسامة هازئة متسامحة ، وتتابع : « أنا أعرف ماذا قلت لنفسك •
قلت على الأغلب أسمى لن تجيء • لا يمكن لبنت من بلادنا أن تعطي موعدا
لشاب من أول لقاء وتفي بوعدا ، الا اذا كانت من ذلك النوع • »

« قبل أن أصرخ باحتجاج شديد اللهجة ؛ شكرا لأنك قلت عني شاب • أنا
يا بنت ، لست من النوع الذي يظنك من ذلك النوع • صحيح أنا عجوز ،
شوية ، بس أنا جديد ، وأعجبك • المسألة مسألة عمر • أنا أزيدك ثلاث عشرة
سنة • • »

« فهمت ، فهمت • لماذا تذكر لي عمرك ؟ أنا لم أطلب يدك بعد • »

« يمكن أنا أطلب يدك • »

« أنت أيضا ؟ »

يصمتان ، هي مطرقة ، وهو يحاول أن يفهم • يدركان أن وزن الجدية في
حديثهما زاد على وزن الدعابة • تبقى الابتسامة وتشابك النظرتين ، لكنهما
يتفحصان الألفة الجديدة التي تكونت فجأة فرحين مرتابين •

يلتفتان الى حيث يدقق حذاء النادل على الدرج الخشبي • يراقبان
الرجل المقبل حتى يصل • بوجه مرن وكلمات مشدبة ، يسألهما ماذا يشربان •
تلتقي أعينهما من جديد ، ويقول شيش بيش : « هات بيرة باردة لهذا الطقس
البارد • »

يمضي النادل • وتقول هي : « أنت ذكي لدرجة الخبث • أوهمت الرجل أن جونا بارد ، أننا مختلفان • » يضحك ولكن بلا لهجة : « هذا هو الخوف الذي حدثتك عنه • » . يتشاغلان بمراقبة ساقى النادل وجذعه ، ثم وجهه اذ يطل ثانية ممسوحاً غائباً • على الطاولة يضع الزجاجتين والأقداح ، ويقوم بالواجب •

تقول هي : « لا أفهم لماذا تخاف • تخاف على نفسك ؟ لماذا تخاف ؟ » وتتطلع اليه بشعور مودة معاتبة ومستترة • تحس أنه طفل ضخم ، وتستطيع محاصرته •

يقول : « أخاف عليك • » ويبتسم ، ولكن لنفسه : هذه الفتاة ليست رومنطيكية • تقلت الى عينيه موجة شغف بها ثم ترتد الى الداخل •

« لا تخف علي • فقط انزع بمن رأسك صورة البنت الشرقية • » وتعمد الى مجلتها فتقلب صفحاتها : « أنا حادة المزاج • لكنني أعرف ماذا أفعل • » تتوقف عند صورة في المجلة لفتاة باهرة الحسن كشف فستانها عن شيء من نهديةا وبطنها • تقرأ :

« كلود أبي اللمع • • ضربت الرقم القياسي في تألقها بالحفلات الاجتماعية والاعراس التي أقيمت خلال الاسبوع الماضي • • وتعتبر كلود من أكثر الباحثات عن أناقتهن ، حتى أنها لا تترك عرضاً للازياء الا وتحضره سواء في بيروت أو في باريس • »

« لينا سرحان • • حوّلت مادية الغداء العائمة التي أقامتها في منزلها ، والتي ضمت شلة من صديقاتها ، الى درس بكيفية اعداد أطباق شهية • •

وهكذا طلعت كل مدعوة بلائحة تكشف سر شطارة لينا في اعداد الاطباق والحلويات ، وفي كونها ست بيت ممتازة . »

يضحكان بصفاء وقوة ، كأنهما يريدان أن يطردا ارتباكهما . يصيح :
« هذا أجمل هجاء اجتماعي سمعته في حياتي . » تقترب منه وقد آنست .
تقول : « اسمع هذه : (ما أحلى جمالك يا عروسة . في ليلة العمر السعيدة
تتجه كل الانظار وتبحث في مظهرك .) كل شيء مركّز على هذه الليلة
السخيفة . ما قبلها وما بعدها شيء تافه . (يجب أن تكوني رشيقة أقرب الى
النحافة . ويمكنك أن تحققي الرشاقة خلال أسابيع اذا استغنيت عن وجبة
الغداء . وهذا يعني أن يكون فطورك مؤلفا فقط من بيضة برشت ، قطعة من
اللحم البارد ، جبن قريش ، شاي محلى خفيف ، عصير ليمون .) تأمل بالله
عليك . لأي طبقة يكتبون هذا الكلام الفارغ ؟ (ويجب أن يكون وجهك
متألقا . أزيلي الزغب فوق الشفاه أو لوّنيه بحيث يضي على وجهك تألقا .
الماكياج : يجب أن تكوني على دراية تامة بالماكياج الذي تضعينه فهو يختلف
عن ماكياج السهرات . نظفي وجهك ورقبتك بكريم لبني . دلّكي وجهك
بكريم أساس أو كريم مرطب بحسب البشرة . ضعي طبقة خفيفة من كريم
أساس بين البيج والوردي ، وأحمر خدود يسيح بالفرشاة . ضعي طبقة خفيفة
من البودرة . اذا كنت معتادة على وضع رموش اصطناعية فضعيها باتقان
ثم ضعي طبقة من الماسكرا على الرموش .) كم طبقة بطبقة من الكريم ؟ أكثر
مما اكتشف كارل ماركس من طبقات المجتمع - ما رأيك يا حضرة الشاب
الجديد ؟ » ؟

يمسكها من زندها فترتمي المجلة بينهما . يشدها اليه : « بودي أقبلك . »
يأتي اليه جذعها رحب الشباب . يهدوء يحتوي شفيتها . يغمض عينيه ،

وترفع أسمى ذراعيها على كتفه ببطء وتطوق عنقه • تدفعهما الحركة الى مزيد منها ، فتنعصر بينهما المجلة وتتمعج •

ترتد عنه مبهورة الأنفاس • تسوي شعرها مضطربة مفضية • يعود فيأخذها اليه • تريخ رأسها على كتفه • يريح رأسه على ظهر المسند الجلدي • تعتدل في جلستها طلبا للراحة ، ويفمض عينية • تتناول المجلة ويتناول زندها بأصابعه • هي مسترخية يقظة وهو مسترخ دائح • اختفت الآن رفاق الستارة المعدنية • زالت المسافة بين رصيف الطين ورصيف الاسمنت • والشعور الذي كان عندها حنقا ، وعنده حلما مستحيلا ، تحقق بلا مقدمات ملتوية ، وسر بلهما بطمأنينة واجدة •

تسأله هل نام فيبتسم • يضغط على جذعها طويلا : « أنت بعيدة عن المشاعر التي يصل اليها من انحدر عمره الى الثلاثين • اذا قبلت بي فستتزوجين عجوزا لا يملك من الشباب الا تذكرة الهوية • »

« أنا لن أتزوج • سأتابع دراستي في الجامعة • سأشتغل وأكسب عيشي بنفسي • سأكون مستقلة في علاقاتي • وعندما أجد من يعجبني العيش معه أكثر من العيش وحدي ، أتزوجه وأمره الى الله • »

يفتح عينيه وينظر اليها بدعابة مستغربة • تتحرر هي من ذراعه توكيدا لكلماتها • يعطيه ابتعادها قدرة أكبر على الادراك • يشعر بحرية شخصية مريحة ، ولكن لا طعم لها : بعد كل ما جرى ، لا تطلب منه شيئا ، ولا حتى وعدا ! « كأسك • » يتناخبان • « مئة بنت مثلك ، تكون دمشق بألف خير • أرجو ألا ترفضيني كصديق ، على الاقل • »

(أمور من هذا النوع لا تقرر سلفا • ولكن المرأة بلا عمل ، بلا كرامة •

إذا أرادت فستانا ، يشتريه الرجل • إذا أرادت لقمة ، يشتريها الرجل • هي نفسها مشتراة من قبل زوجها • خاصة إذا كانت فقيرة • • بنت آدم من الدرجة العاشرة • أنا أعرف الفقر • خلقت بين الفقراء • لكنني لست ممن يموتون فقراء • »

يجرع كأسه : « مولاتي ، جئنا لهذا المكان الرومانيكي لنتشاجر ؟ شوفي المكان ما أجمله • بيرة ، ولا أحد حولنا • • »

تجرع كأسها هي الأخرى : « لا • أسمى الرومانيكية تراها في الغوطة • هنا كأننا لصوص نسرق شيئا لا يحق لنا • إذا أردت تعال • أخي إمام ، كل يوم جمعة يلتقي مع صديقه هناك • نمشي على التخوم بين الأراضى ، ونلعب • ما قولك ؟ » •

فجأة يتخيل نفسه ماشيا هناك ، فيقطب حاجبيه • وإذا أحب أن يقبّل أسمى ؟ يا للمهزلة ! سيكون المشوار عذابا كله • وفي وضح النهار ! وأخوها حاضر دائما ، ما شاء الله !

فجأة تهقه هي : « إذا أردت بوسة منك ، أنا أعرف كيف أدبر حالي • دبّر حالك أنت • » ويستمر ضحكها فيختلط بهقهقه حنجرته الداوية •

« أنت أخبث امرأة في العالم الثالث ، لا أكثر ولا أقل • كأسك • أوب ! الكؤوس فاضية • »

يملا الكأسين • تقترب منه حاملة كأسها وتضعه على فمه • يدير رأسه ليتمكن من الشرب • يهتز الكأس على فمه ، واليد التي تحمله • وفيما هي تهمّ بالكلام ، تنزلق البيرة عن زاويتي فمه وتنسكب على سترته • تبعد القذح

مذعورة • تنتش من جزدانها منديلا ورقيا وتمسح السترة • تنظر اليه وتبتسم
لتكشيرته الصافية • ترمي المنديل وتهل باتجاهه • يتعانقان •

تنهض وتقف منتظرة • يطلب اليها أن تمضي بمفردها • ترفض • يكرر
طلبه بالحاح غامض • ترى الى اصراره فتقبله قلة صغيرة : « خائف علي ، ما ؟ »
وتمضي •

يتأمل مشيتها النشطة الواثقة ، في انتصابها الأبي ودقات قدميها على
الارض والدرج • الآن وقد ابتعدت ، يحضر اليه احساسه المحايد والمتورط :
انها جميلة •

ينهض • يحمل كأسه ويتفقد المكان • قبل لحظات كانت بين ذراعيه وعلى
صدره ، وكان المكان غائبا • يحسو جرعات متقطعة • يخضها في فمه ، وعيناه
تجوسان بين العتم الخافت وأضواء المصابيح الكامنة • يحمل نفسه بغير ما شيء
متعين في ذهنه وقد خوت من حوله الاشكال •

يقولون في الأرياف ان المحبة ثلاثة أشكال : حلوة ، وحامضة ، ولفانة •
لا ريب أن معرفتهم بالحساب ليست شيئا يمكن الفخر به • غير أن كلامهم عن
القلب الانساني أعذب بكثير من أغنية اذاعية يدعي مؤلفها أن « عشق الروح
مالوش آخر ، لكن عشق الجسد فاني • » ويبدو ان شيش بيش قد ارتد في فترة
ما من حياته الى ثنائية الاغنية • هناك عالمان ، يجب الاعتراف بذلك ، عالم
الروح وعالم الجسد • قد يحدث أن يتداغما بالحب • • • ويطرق مستعيدا صورا
متلاحقة عن تلك التي ماتت فحلل موتها حياته الى عناصر متضاربة ، أي سحر
كان فيها واستطاع أن يوحد الوجود ؟

يقول سليمان مجيبا عن سؤاله للمرة العاشرة : « الحب أساسه الجسد •

وللحب مساحة صغيرة من حياة الانسان ؛ الباقي للعمل والانتاج .. ما بالك
ترهقني بالاسئلة ؟ »

« أنا أرهقك ، يا ابن الزانية ؟ ماذا أفعل اذا كان دماغك الميكانيكي مضادا
للتفكير ؟ وهذه الاجوبة التي تعطيتها • كلها تعاريف • عرّف بما لا يزيد عن
سطر الكلمات التالية : الحب ، الاشتراكية ، العروبة • »

ينتبه الى نظرة سليمان الوداعة المتسائلة : « ماذا ؟ لو يراك الملك يوجه
لك سؤاله المعهود : لماذا هذه النظرة الفرابية ؟ حديث الحب ثقيل على قلبك ،
ما ؟ » •

« أنت عاشق يا ولد ؟ أراك هذه الايام قابلا للاحتراق والحرق مثل حمض
الكبريت • »

« آه يا عزيزي • قل لي هل تحب غادة ؟ »

« طبعا أحبها • »

يميل شيش بيش رأسه ويتنحّص عيني صديقه منفرج الشفتين • يحس
سليمان بوطأة نظراته فترتجف جفونه ويضع يديه في جيبي بنطاله •

« تحبها ! » يقول شيش بيش • « كيف يعني : تحبها ؟ »

« أوه ! أحبها يا أخي • تعرف أنني ألقاها كل أسبوع ، وأحيانا بلا موعد •
معي مفتاح البيت • »

« وبعدئذ ؟ »

« وبعدئذ ، ماذا ؟ »

« أعني ، بعد أن تمارسا الحب ؟ » .

« اسمع لأقول لك • شعور الحب مثل ماء يتجمع في بركة • بعد فترة تمتلئ البركة ؛ افتح لها مصرفا ، وانتهينا • أنا بركتي تمتلئ كل أسبوع • »

« الله يلعنك ويلعن بركتك • أنت مثل أسمى لست رومنتيكيا • لا أعرف ما الذي يجمعني بك • »

« سوء حظك ، لا شك • »

لقد عانق أسمى وقبّلها • الموضوع ليس موضوع بركة — يا لهذا التشبيه المريع ! انما كيف يقنعها بالزواج • يقولون ان الزواج في هذه الايام مؤسسة فاشلة ، والناس لا يعرفون لماذا يحبون ولا لماذا يتزوجون • أذن ؟

وهو قول يبصم عليه عباس وأمّية : ليس هناك كائن أكثر مدعاة للثناء من محب أو متزوج في هذه البلاد • وإذا كان الانسان الواقع في إحدى هاتين الورطتين ذا حساسية من درجة ما ، صارت درب حياته مفروشة بقشور الموز •

على أن الشاطر هو من يعرف كيف يتفادى الانزلاق — بعد أن يتزوج طبعاً • لهذا جاء حسن وأمه من حماه • يدخل حسن رزينا متهدل الاطراف • واذا ينحسر بالجلوس على الكنبه ، تظهر أم حسن حاملة نفاضة سبائرها • للثوب تبدو على الوجوه ملامح محكمة طارئة • سكوت مستغرق في ذيل البنطال ، أو ياقة السترة ، أو العيون الحزينة •

يلقي حسن بسنارة : « ما آخرة هذه الحالة ، يا أبو لؤي ؟ »

ويرمي عباس بسنارة مقابلة : « كما ترى : خالة غارقة في التماسه •
ولازم أن نضع لها حدا • »

يحرك حسن سنارته في قلب الماء : « ما الحل ، برأيك ؟ » •
يتسع البحر أمام عباس فيمتطيه ، والكلمات سقينته : « الآفات عادة تبتتر •
الى متى نظل نساوم ؟ هذه حالة مستعصية • وليس للانسان أكثر من عمر واحد
يعيشه • »

ينتر حسن سنارته بعزم : « اذا كنت وصلت الى قرار نهائي ، قل لنا
ما هو • نحن مستعدون لأي حل تقترحه • »

يمضي عباس سابحا الآن : « كما قلت لك ، هذه حالة مرض • كل يوم
تذبح انسانيتنا بأمور تافهة تكبر وتزداد حتى تصير كل شيء في حياتنا •
أنا غير مستعد لأن أعيش متهما ومنغصا • اما أنا رجل في هذا البيت ، وانما
ننتهي من حيث بدأنا • لماذا كل هذا الشقاء والضياح والغربة ؟ » •

ثانية ، يرمي حسن بسنارته : « هناك كلمة فاصلة ، لماذا لا تقولها ؟ نحن
من جانبنا لا نقول شيئا • هذه الكلمة التي تلمح اليها ، هي عندنا أبغض
الحلال الى الله • »

فيندفع عباس بغير تردد : « نعم ، أنا أفضل الانفصال • وكما تريدون
بالنسبة للأطفال • يبقون عندي ، يبقون عندكم ، لا فرق • »

« هذه أمور ، يا سيادة المحافظ ، نحن لا نفهم فيها • المحامي يعرف
التفاصيل • ما دمت تتكلم في الطلاق • »

« نعم ، أنا أتكلم في الطلاق • لم تعد لهذه الحياة قيمة تجعلنا نتستر

عليها • حياتي صارت خالية من كل التوقعات • لم يعد للغد أي طعم سوى
الهرب من اليوم • مجرد رتابة يومية وضيق وغربة • أنا لا أؤمن بالتوازن •
في التوازن لا شيء يرجح • أمة بأكملها ، من المحيط الى الخليج ، تحترق •
بسبب التوازن والخوف من ترجيح الكفة • نحن غيرنا تركيب البلد في
السياسة والاقتصاد • الحلقة المفقودة هي تغيير التركيب الاجتماعي • وأنا
أريد أن أصل الى القاع ، الى الصفر • نحن ، توقفنا عن النمو • وخسرنا ما
حققناه لاننا توقفنا • وفوق ذلك ، مطلوب مني أن أضيّع حياتي في التفاهات :
غازلت امرأة ، لا لم أغازل ؛ اتصلت بفلانة ، لا لم أتصل ؛ وكل يوم استجوابات
غبية وانهيارات • شجارات لا تنتهي • وكل يوم يصيبها مرض جديد دون أن
تشفى من القديم • تريدني أن أكون العاشق نفسه الذي كنته قبل اثنتي عشرة
سنة • لا أتزحزح بوصة واحدة عنه • »

من البهو يصل اليهم شهيق عائدة الهستيري • يسكتهم • يشعلون سجائر •
تنهض أم حسن الى ابنتها • تطلق زفيرا مضغوطا بالدمع ، فيما تدير كتفها
المثقل الهرم للرجلين الجالسين بلا حراك • ويجثم على صدر عباس ذلك الضيق
الخانق الذي التف حول رئتيه بفعل مدار مغلق وإبليسي •

لا الروح ولا الجسد ؛ كل شيء منهار وفاقد وزنه • ويشرح علي : لأن
كل شيء سينشأ من جديد • ويقول إمام : بل كل شيء يتكوّن الآن ، وفي كل
مجال • ويتساءل سليمان : أما أن لنا أن نتخلص من غيبيات الروح وغباياتها ؟
وتقول أمية : ولكن الروح شيء غير ما تعود الناس على التفكير فيه • وتتنهد
عائدة : آه ، يا حسرة •

المشكلة أن لديهم جميعا آراء • وربما أمضوا ألف ليلة وليلة وهم يعبرون
عنها • هؤلاء قوم يحبون القول • اللفة كائن حي يعيش في لهاتهم • وإذا

انصبت الاحلام والافكار فيها صارت حقائق • وحده شيش بيش يبحث عن حقيقة لا تتكىء على ازدواجية الروح والجسد • إمام يعتقد أنه يكتشفها ويكوّنّها • علي يؤمن فعلا ، ولكن بالمستحيل الجميل • والملك يحكم على صندوق مهملات كبيرة ملاء بهذه الترهات ، وانكبّ يصوغ منها رواية : ليس في نيته تقديم فلسفة ؛ بل مرايا • شيش بيش يبحث للمرة الثانية ، بالطبع • ما يزال مشدودا الى الماضي ، يوم لم تكن تخطر على باله الاسئلة ، ولا العالم خارج ذاته التي احتوت العالم •

وهكذا يذهبون الى الغوطة •

للوهلة الاولى اضطرب إمام • كان في نيته أن يمتطي دراجته ، ويعرج بها الى حيث تنتظره سليمى • عندما أخبرته بعزم الدكتور على الانضمام لهم ، لمعت في مخيلته صورة محمود وتوقف برهة عن الحركة • محمود الخائب ، بكل بساطة • لأول مرة يدور بين ذهنه وذهن سليمى حوار كان يمكن أن يعلن عنه لو أن أسمى تعرف شعور صديقه المنكفى • سألها بلا مواربة إن كانت ستقبل عرض الدكتور للزواج ، فضحت ببراءة محيرة • « عرض ، ورفضت ، » قالت له • وارتفع حاجباه دهشة • « تريد أن تعرف لماذا أرافقه ؟ لأقول له انسي أراه وهو يراقبني في غرفة النوم من غرفته المظلمة • »

« وإذا أحببته ؟ »

« أتزوجه • »

في الصباح يستقلون سيارة أحضرها شيش بيش • يمضون عبر الشوارع والبرودة المنعشة صامتين • يمرقون بين الحقول وأشجار الحور والجوز ، صامتين أيضا • أخيرا يلتفت شيش بيش اليهما ويعترف : « أنا منحرج • »

وللتو يجيبه إمام : « وأنا » تقول أسمى : « الحق عليّ » كان من باب اللياقة أن أقول شيئاً ، بعد أن أبدينا اعجابنا بالبرد . ماذا أقول ؟ « يضحكون »

شرقي قرية جسر ين تقف السيارة . ينزلون . تنضم اليهم فتاة متوسطة الطول والوزن والحسن . « هذه سليمة ، خطيبتي ، » يقول إمام مخاطباً رفيق رحلته . يلتفت اليها : « اليوم ، نحن أربعة » وبما أن أسمى والدكتور فرضا نفسيهما علينا ، لذلك لن نهتم بهما كثيراً . يا لله نفتش على الجوز . من زمان وأنا مشته شبعة جوز . «

يمشون حتى يتواروا عن الانظار . يتقدمون الى الاسلاك الشائكة ، وينفذون من بينها . يقف إمام برخاوة مستمتعة أمام الارض الجميلة بطبيعتها ويلمسة اليد البشرية . أمامهم أخدود عريض يتطاوّل بين أرضين . الى اليسار يتموج حقل القصة الناصع الخضرة ، والى اليمين سكنت أشجار المشمش العتيقة . على طرفي الأخدود تنتصب أشجار الجوز العتية الباسقة خطين فاصلين بين الحقل والبستان . منذ الخطوة الاولى يشعرون بالفرق : ها هنا مداس يختلف عن الارصفة والاسفلت . هذه الاوراق اليابسة ، التي تهوي تحت أقدامهم ، تبلل أحذيتهم وأذيال بنطالاتهم بالندى وتوشىها بالنثرات .

ينحني إمام ويلتقط عوداً يابساً . يقول لسليمة : « خذي انكشي الاوراق ، واذا لم يكن جوز ، يساعذك في المشي . توكأي عليه . »

« لا ؛ أتوكأ عليك » .

« بس أنا عجوز مثلك »

تمسك أسمى بيد شيش بيش ويمشيان معاً . أمامهما ينقب الاثنان الآخرين عن الجوز . في الصمت الطارئ يعلو صوت خشخشة الاوراق وزقزقة

العصافير الجافلة • ومن بعيد يعلو صياح ديك بطر • الحقل مفروش بضوء الشمس ، والبستان مغطى بشبكة من تقاطع الضوء والظلال •

« هذه واحدة ! » تهتف أسمى ، وتنتش يدها من قبضة شيش بيش • تجثو على الأرض فيما هو يشتم في سره الجوزة ، وتلتقطها فينحسر الورق عن أخرى • « تالفة ، » تقول مخيبة ، « هذه صحيحة ! » تضيف بانتصار • تبحث عن حجرتين تكسر بهما لقيتها ، فيتأمل رفيقها جسدها المتقوس الذي نسي نفسه • يلتفت إمام وسليمى ويراقبان • « هيا بنا ، » يقول إمام • يضربها على مؤخرتها فتنفّر أمامه كظبية أليفة • « هنا حجرتان ، » يصيح شيش بيش • تلتفت أسمى وتنتظر • لا يتحرك • « هات الحجرتين ! » يتناولهما مرتبكا • يزيل عنهما التراب بشيء من النفور • « كيف نأكل الجوزة وأيدينا تراب ؟ » يسألها مستنكرا • « أنا أسناني مسوسة • ان تخف على أسنانك ، أكل الجوزة بالنيابة عنك • » يناولها الحجرتين ويراقب انهماكها بكسر الجوزة • أمامهما يمضي رفيقاهما متطوحين • مرة ثانية يضرب إمام قفا سليمى فتنهره : « ماذا لو رأتنا واحدة من تلميذاتي ؟ » •

« سيكشفونك على حقيقتك • »

« حقيقتي ؟ » •

« نعم • أنك زعراء • »

يراقب شيش بيش أسمى وهي تأكل الجوزة ثم تمسح يديها بساقي بنطالها وتنهض • أيمن أن يمتلك هذا الجسد يوما ؟ وهل سيمتلكه دائما ؟

تتقدمه أسمى فرجة ، ولكن خاملة الخطى • تتعبوها الطبيعة فيتوارى اهتمامها برفيقها ، وتمشي بهدوء ممسكة بجذوع الأشجار عندما تلتفت حولها •

يضيف استقلالها المفاجيء خوفا الى خوف في قرارته القلقة • يمشي متتبعا
خطاها • وتمشي مشبوكة الذراعين •

من بعيد يتعالى فجأة صراخ وضحك • إمام وسليمى يتهاوشان لأجل جوزه •
تسبقه اليها ، فميسك بالذراع الشائل ويوقف صاحبته • ترتد اليه وتدفعه
بيديها • يترنح • تركض • يثب باتجاهها • يتماسكان • يتطوحيان • يقعان
في الاخدود •

فوقهما شجرة الجوز وضوء الشمس • يزحف اليها فتدرك غرضه • تبقى
وتقاوم • عبثا يحاول التقاط شفتيها • تتعبه وتتعب • أخيرا يهدأ رأساهما
ويمتشقان نظرة محمومة • تهوي يده على صدرها وفمه على فمها •

يقول له جسده ، ولحمه متقاطع مع لحمها ، ان الحياة مريحة رغم كل
شيء • ثم يفهم احساسه على وعيه ، وينتشر • تصير يده ريشة ، وابطلها
وترا • يتوارى الفضاء والضحي ، ويبقى طعم الندى والضوء • شيء من
الانبهار ، ومدى من الطمأنينة • عيون مغمضة وجوارح تتفتح • وموجة
شعور تشيل لتأتي أخرى وتحط على توقيعات الجسدين المختضبين حبا •

تصل اليهما أسمى وشيش بيش • يتبادلان نظرة ، هي باسمه وهو مرتبك •
تجلس على حافة الأخدود ، نصفها في الظل ونصفها في الفيء ، وتشبك يديها
حول ركبتيها • ينتبه شيش بيش الى أنه صار وحيدا • تنشر في ذهنه أسئلة
وأنصاف أسئلة • يدير ظهره ويمشي في البستان • سؤال واحد يبقى - بصيغ
متعددة : أترى ، إمام يسأل نفسه أسئلة ؟ يتوقف هكذا فجأة ، ليدرس وعيه ؟
أم أنه قوة مندفعة باتجاه تحقيقها ؟ تتأمله أسمى بحيادية رخوة • تنهض
وتمضي اليه • تحاول أن تلاعبه فتفشل • ينظر اليها مبتسما وغير قادر على

إخفاء ضيقه • ان يتقدم منها ويقبلها ، تكن فعلته فجأة ومقصودة • لو أنها
تقف في المكان المناسب ، ويمد يده الى جيدها ووجهها • • لن تمنع بالطبع • •
لو فقط تنهياً تلك المسافة القصيرة • يقترب منها بنصف تهلل ، فتدرك غرضه •
تبتعد • ويقول لنفسه انه لن يمتلكها أبداً كما يمتلك إمام سليمي •

يسمعان صغيرا • يلتفتان ، واذا إمام يشير لهما بمتابعة المسير • تمسكه
أسمى بيده • وبعد تخطيط قصير ، يركضان بخطوتين لكل ساق •

يستأنفون بحثهم عن الجوز • العام الماضي عشر إمام وسليمي على ثماني
وثلاثين جوزه • وقبل العصر رجعا الى المدينة داتخين • ودعها عند مفرق
قرية (جوبر) ورأسه يرسم في عينيه دوائر • لم تكن هي في مثل تعب ، واذا
همّت بالانطلاق وحدها قالت له بابتسامة عذبة محبة : « يجب ألا يشعر أحدا
انه لا غنى له عن الآخر ؛ ويجب ألا نرتبط بغير رابطة الفرح • » نظر اليها
مستغربا : « كيف خطر لك أن تتفلسفي ونحن في هذه الحالة ؟ أظن أننا اتفقنا
على هذا الكلام • »

قالت ، وهي ما تزال تبتسم : « صحيح • بس أحيانا يصيبني نوع من
الخوف • أفهم أنه خوف موروث ، لكنه خوف • يجب أن تفهم هذه الناحية من
نفسية المرأة • لذلك بودي ألا تشعر بمسؤولية أدبية تجاهي • لا أريد أن أكون
عبئا على أحد ، واذا أدت لي ظهرك يوما ، سأفهم أن لك أسبابك دون أن
أعرفها • »

« يا الهي ، لهذا الكلام ! »

ابتسمت ، بمرح هذه المرة : « ضروري أني أقوله • أحيانا أشعر • • كيف
أشعر ؟ أني لازم أطوبك باسمي • »

« هذه مشاعر برجوازية مرذولة • »

« هذه مشاعر برجوازية مرذولة • »

« تسقط الملكية الفردية ويعيش العرب • »

« تسقط الملكية الفردية ويعيش العرب • »

« روعي ارتاحي • وخلي أمك تعلمك الطبخ ، لتعلميني فيما بعد •
والجمعة القادمة نلتقي عند البرلمان ، الساعة •• الساعة كم ؟ » •

ثم التقيا عند مبنى المجلس النيابي السابق • قررا أن يجريا واحدا من
كهوف العشاق • فبعد كل شيء ، هما عاشقان ومحسوبان على القرن العشرين •
وعندما دخلا من الباب الصقيل اندفعت الى أنفيهما موجة من دخان فرضت على
إمام عطسة داوية • لحسن الحظ لم ينتبه له أحد ، الا بعض من ذوي الحساسية
البالغة كانوا أقل عددا من أن يهتم بهم • أمسك الاثنان بيدي بعضهما بعضا
ليتلمسا طريقهما في العتم الرومنتيكي ، ثم انزويا حول الطاولة الوحيدة
الشاغرة • تفحصا المكان بعذر وانكماش ، والتقت نظرتاهما فابتسما
بصفراوية • مسح إمام أنفه بيده وأطرق • ومنتشت هي من محفظتها منديلا
ورقيا : « خذ ، هنا يجب أن تكون مهذبا • » تناول المنديل وطواه بعناية فائقة
حول أنفه ، ثم نف فيه نفة صريرية • مرة أخرى استدارت نحوه الرؤوس
القليلة •

ماذا يتناولان ؟ سليمى طلبت زهورات • ابتسم لها النادل ابتسامة مضيافة
مزدرية ، وأعلن أسفه • قال إمام وهو يتحسس جيبه : « هات بيرة ، اذن • »
وألقى بساعديه على الطاولة • « أي نوع ؟ » سأل النادل بدماثة • جاءت
الفرصة ، قال إمام لنفسه ، والتفت الى سليمى : « أي نوع من البيرة تفضلين ،

يا آنسة ؟ » عندئذ فرقت ضحكتها ثم تلاشت للتو • واستدارت نحوها
الرؤوس القليلة • « بيرة وطنية ، من فضلك • »

« عملتها بي ، يا ابن الحرام • من قال لك اني مختصة بأنواع البيرة ؟ »
قالت له بعد ذهاب النادل • ضحك • « ولماذا لم تقل : مدام : طالما أردت
الفخفة والرسمية ؟ أم تشك في قواك الكادحة ؟ » •

أخيرا استطاعا رؤية معالم المكان • كان العتم أبرز محتوياته ، واللمبات
المحبة • على الطاولة نتأت زجاجتا بيرة ، لمس احدهما فاقشعر بدنه • على
أنه استطاع أن يفرغ محتوياتها في الكأسين • حوت ضحكة على وجهيهما وهما
يتناولان الكأسين • واذ طأطأ فوق بيرته ، تمكنت منه الضحكة وانسلت من
أنفه هواء نثر قطرات منها على الطاولة • تضايق • ونظرت اليه سليمى مشجعة
متسامحة • قال : « الظاهر أنني لا أليق للمدينة • » واحتسى شيئاً من البيرة ،
ثم تفحص المكان بارتباك •

سألها : « ما المفروض أن نفعل الآن ؟ » •

قالت : « نقيم بطريقة مختلفة عن اجتماعات اتحاد العمال • المفروض
أن تقترب مني وتغازلني • لو كنت تقرأ شيئاً غير السيد كارل ماركس والسيد
ابن خلدون ، شيئاً من الادب الحديث ، مثلاً • الثوريون يلجأون لمحات من هذا
النوع ليتخففوا من ضغط الحياة والمجتمع • قالت لي زميلتي ان زوجها
سقاها كوكتيل هنا ، وغازلها كما لو كانا مخطوبين • يعني مثلنا الآن • وانت
مسنود على الطاولة مثل واحد يتوقع الاعتقال بين لحظة والثانية • »

نظر اليها متسائلاً • قال : « لا أعرف أنت جادة أم مازحة • كلماتك
فيها بيرة • ووجهك • • هذا العتم الثوري يمنعني من رؤيته • أردنا اجتماع

في اتحاد العمال ، يوم يكون شغلنا اصدار بيان تأييد للسلطة ، أقل حموضة
من التخشب هنا • كأسك • »

لكنها لم تقنع • اجتست بعض البيرة ، وسلحفت نحوه • أولجت رأسها
بين ذراعيه وخصرته ، وأرخته فوق فخذه • أراح يده على كفلها وأخذ
يتفحص الجو المتغلف حوله • شعر بنوع من الغباء ، إذ لم يستطع أن يدرك
كيف يجلب العثم والدخان مسرة لأي من الناس • صحيح أن مثل هذا المكان
آفة برجوازية ، ولكن من تراه يجبر أحدا على الاحتقان بها •

ملأ كأسه مرة ثانية ، وجرع نصفه • قال لسليمي دون أن ينظر إليها :
هكذا يتفبرك الانسان البرجوازي الطفيلي ، في بلادنا • »

غمغمت هي : « ماذا تعني ؟ »

« هؤلاء ... لا أدري أي شيء يجذبهم الى كهف مثل هذا ، ونحن بالكاد
خرجنا من الكهوف • يقعدون هنا • • وشرب البيرة وغيرها • • والمفاذلات
الدميمة • معظمهم صامتون أيضا • والزمن يمر بين سيقانهم • لا فرح ولا
انتاج • بلادنا بلاد الشمس ، ونحن نهجر الشمس الى الظلام • آية أحاديث
يتبادلونها ؟ لا شك أنها كلها سوداوية • »

بعد لحظة صمت غمغمت سليمي : « كيف عرفت ؟ » وسألها : « عرفت
ماذا ؟ » « أنها سوداوية • » « يعني ، المفروض أن كل واحد يسعى لتحقيق
غاية • أو تلبية رغبة • والغايات والرغبات • • ولا أكثر منها • أقصد ، الناس
يشعرون أن الحياة كلها تنقص حياتهم • نحن العرب شعب جائع للخبز
والحرية • ولأن نكون • ماذا في حياتنا ؟ ولا الحد الأدنى من الكرامة والشبع •
إذا لم يتحركوا لتحقيق غايات ، ليتحركوا على الأقل لأشباع رغبة • »

وفي ليلة رأس السنة يحضرون الوسكي والشمبانيا والجن والنبيد .
والمناسبة اثنتان في واحدة .. العام الجديد وبيت عباس الجديد . وداخل
زاوية من البيت لا تعبرها الاقدام ، يضعون المسجلة وكومة الأشرطة . أغان
شعبية وفيروزية ، ومئات التسجيلات الراقصة . بالتدريج يقدون ، ويجلسون
على الكنبات ، كل يحمل شوقه الخاص النازف من جوع مزمن . زوج وزوجة ،
على الاغلب . وثياب للسهرة أتقنت صنعها بيوت الأزياء . تسريحات تنوعت
كتنوع المروج والتلال . روائح تعبق من أجساد وردية وتندس في الأنوف
المتنبهة . وغادة تتلأأ بالتايور الكشميري الداكن الزرقة . صدرها العاجي
يتأفق عاريا حتى الشدييين كأنه أنير من الداخل .

توضع الطاولات الصغيرة بين الكنبات . وتتعاون النسوة في نقل الطعام
اليها .

ثم يبدأون الشرب . الا أمية : تنزوي في ركن مهمل قرب المسجلة وتتطوع
للاهتمام بالأشرطة . يهتف أبو تغلب : « نخب تحرير فلسطين يا شباب . »
فيهيج نخبه الحناجر . ترتفع الأيدي بكؤوسها ، وتجرجع الأفواه من منعشات
القلوب . يسأل أبو نزار عباسا : « متى ينقشع الغبار عن النصر ، أبو لؤي ؟ »
يضع عباس كأسه ويتناول السيجارة : « متى قال لنا القادة : عليهم . » وتسأل
أم غطفان : « لماذا لم يأت السيد نواف ، ست أمية ؟ » تفمغم أمية بنصف
ارتباك : « عنده طيران الى روما ولندن . لم يجد أحدا يقود الطائرة عنه . »
تبتسم النسوة ابتسامات سرية وادعة . تمد أمية يدها الى المسجلة . ترفع
الصوت بتؤدة . تتأمل علبتي الشريط في دورانها الأبله البطيء . تصيح أم
أحمد : « تسلم يداك ، يا ست عائدة . أي طبخ هذا ؟ والله في باريس لا يطبخ
مثله . ما شاء الله . كل محشية قطعة فنية . » يقول عباس : « أنا رسمت لها

الاشكال على الورق • « تقول غادة : « عباس ! لا تزودها على عائدة • عائدة
فنانة • « يؤكد طلعت : « أنا شخصيا أبتهج لشكل الطعام أكثر مما أبتهج
لرسوم بيكاسو • ما هذا بيكاسو ؟ رأس امرأة في ظهرها • ساق ثور بين قرنيه •
عيون في الصدر • فن الرسم هو صناعة الواقع بأشكال جميلة • وفي أفضل
حالاته ، ترينه على مائدة الطعام • • يصيح أبو تغلب : « نخب السيدة عائدة ،
سيدة المجتمع وربة البيت الممتازة • « تضحك عائدة خجلا • تعلق نظرتها
بعباس مضطربة وسعيدة • ويجرعون من كؤوسهم بحماس •

ثم تزدهر رؤوسهم بالصور ، وحناجرهم بالكلمات والضحك • بازدياد
الشرب تزداد حرارة اللقاء ، ينفرش فوقهم نسيج الاصوات والدخان ، كثيفا
متقاطعا • وينفرشون بالأنخاب والأطعمة على مد الزمن المثقوب • الفرح
والمرح ؛ والاعمار بيد الله • ولهفة ضاحكة سوداء الى نكتة تسيل على الرمل •
نفوس متشقة تتسقط ديمة تجعل صبارها طعلبا • وتبدور الزجاجات على
الأقداح الفارغة فتملؤها • تدور الأقداح على الشفاء ، والشفاء على دعابة
أو ملحة أو خبر • أبو أحمد يطالب الزعماء بكشف الحقائق للشعب ووضع
حد للارهاب • أم غطفان تقسم على أن عمرها ثلاثون عاما فقط ، ثلاثون
 وخمسة أسابيع ، لئلا يصير كذب • يؤكد لها اسماعيل أنها تبالغ : سيدة مثلها
لا يمكن أن تتجاوز الخامسة والعشرين ولو بعد مئة عام • فهي قد خلقت
للشباب الدائم •

أخيرا ترفع غادة صوتها : « فيروز ، يا جماعة • خلتونا نسمع • « يسمعون •
يدفئهم الصوت الرعوي الملائكي • فيروز بنت جلدتهم ، ضميرهم الحضاري •
أغانيها تترنم بالحب الشفيف وأشواق الفلاحين والناس البسطاء • تعلي أمية
الصوت • تعقد ذراعيها تحت صدرها • تبتسم ، للجميع ولا لأحد •

ويطلبون من عائدة أن تغني ، ترافق فيروز • الى متى تتكتم على صوتها
المخملية ؟ تنطلق منها ضحكة مبتورة • تهم غادة بالالاح فتخرج منها جشاة •
يقول أبو غطفان : « احداكما ، أو كلاكما • يا الله • » تعتذر عائدة بأيمان
ثقيلة • تتوجه الألسن الى غادة • يقول عباس ملفزا : « يا الله ، غادة ، كرمي
لطلعت • يا الله • » تغنج ؛ ويزداد الالاح • يمارس طلعت سلطاته الزوجية ،
فيفشل •

تعلن أم غطفان أن الحر في البهو لا يطاق • يقترح عباس جذلا : « تخففوا
من ثيابكم ، تخففوا • » يطوف عليهم واحدا واحدا • يبهره زندا غادة وانبثاقة
صدرها اذ ترمي عنها سترة التايور • يمضي بحمله الى غرفة النوم ويعود •
يتجه الى المسجلة : « ما رأيكم ؟ أن أوان الرقص ، ما ؟ » تسرع أمية الى إيقاف
المسجلة : « أنا أغير الشريط • » « أمية ، أنت منزوية بغير حق • لا شرب ،
ولا كلام ، ولا شيء • ما رأيك أن تكون أول رقصة معي ؟ » « مع الأسف ، أنا
لا أرقص • » « أعوذ بالله ! نحن كلنا هنا عائلة واحدة ! » « لا تتعب نفسك • »
من بعيد تراقبهما عائدة ؛ تكون في وعيهما •

يعود • تصدح الموسيقى الراقصة • يطفئ الضوء • تفاجيء الظلمة
الجالسين • يصيحون • تضئ نواصة برتقالية • تحيل وجوههم القريرة الى
ظلال • تزيج ثقل الضوء عنهم • تمنحهم شجاعة اضافية •

عباس يطلب أم أحمد للرقص • تبتسم آسفة للعمر المتقدم والسمنة
العنيدة • يرفض ادعاءها • تنهض : « عليك أن تحركني ، يا عباس ، مثلما
تحرك الشورية • » « ولو ، يا أم أحمد ! أنت تقولين عن نفسك هذا الكلام ؟
أنت قسبة نهريّة • » « لا نهريّة ولا بحرية • بودي أشجع الصبايا بس • »
يتجهان الى وسط البهو • يتماسكان • يهدأ الآخرون في تأمل باسم منتظر •

يفاجأ عباس بمرونتها • رغم جهله بالرقص ، يحس أنه يرقص حقا • تنزل
أم أحمد جفنيها في نصف اغماضة • ينتقع وجهها بابتسامة خفيفة •

تنتهي الرقصة ؛ تصفيق صاحب • تبدأ أخرى • ينهضون تباعا • ثوان ،
وإذا هم جميعا يرقصون • يستبيحهم الرقص • الشريط طويل والألحان
موصولة بعضها ببعض • لا شيء الآن ، سوى النغم والخطى المسحوبة ببطء •
أصابع أم غطفان تنفلت من يد اسماعيل وتصعد الى كتفه • ويده تنزل الى
خصرها • ذقن أم تغلب تستريح على عنق أبي غطفان ، وذقنه في شعرها
المديد • أم أحمد وأبوه متعانقان • أبو تغلب يحاول أن يمسح عرقه • تبتسم
له عائدة وتترك يده • وجه أمية يبين ثم يختفي • نجوى وطلعت يتحركان
باتقان وابتسامتين متباعدتين مهذبتين • عباس وغادة ينسحبان ببطء شديد •
ينتحيان المكان الأعم • تبدأ يده سياحتها المتشنجة الهادئة • هذه المرة تنزل
تحت التنورة • تتكور ، وتنبسط ، بسرعة واختصار • ثم تنبسط • ثم
تسيح •

المطبخ أكبر غرفة في منزل إمام السريالي • وهو المكان الأروح : ليس
لأنه مزدان بالرفوف والمصاطب ، بل لعكس ذلك تماما • يجلسون فيه على
كراسي الخيزران ، ويشعرون أنه أفضل من غرفة الضيوف • أفضل حتى من
قصر العظم •

تمد لهم أم إمام بساطين مصنوعين من قصاصات الملابس ، وفوقهما سباطين
مليئين بالخضار • يتربعون وبأيديهم أدوات المطبخ • يفرزون الخضار ، ويبدأ
توزيع العمل • من يقشر البصل ؟ تصيح أسمى : « محمود يقشر البصل ،
ويفرمه • » وتساءل الام : « لماذا محمود ؟ هذا شغل نسوان • » يعلو صوت
إمام : « اسمعوا ، وأنا أوزع عليكم الشغل • أنا ومحمود نتولى أمر البازلاء •

وسليمى وأسمى تعملان تبولة • وأنت يا ست أمي ، تطبخين الرز • « تقول
أسمى : « اي • سليمى تفرم خضرة التبولة ، وأنا أغسلها بالماء • « تعترض
سليمى : « لا • أنت تبوقين الخضرة ، وأنا أفرمها • « تنهرهم الام : « اطلعوا
من مطبخي • أو اشتغلوا من قلب ورب • « يقول محمود : « هذه مباراة بين
الرجال والنسوان ، من يجهز الأكل أولاً • مع أن طبخ البازلاء أصعب • «
تقعر أسمى وجهها : « ما شاء الله ! » •

وسرعان ما يستغرقهم العمل • بعد قليل تنسحب الام وتتركهم الى حيث
جلست أم خلف في غرفة الضيوف • وفيما إمام يفصص البازلاء ، يفرم محمود
البصل وتدمع عيناه • كذلك تدمع عينا سليمى • ينهمكون في شغلهم ، ويرين
صمت • ينظر إمام الى سليمى وهي تجز باقة البقدونس وقد أولجت شفتيها
بين أسنانها • يعرف أن كل ما في ذهنها الآن هو هذه الباقة والسكين الصماء •
يخرج صوته ناحلا هادئا ويغني :

البت دي قامت تعجن في البدرية

والديك بيأدّن كوكو كوكو في الفجرية

ينضم اليه محمود ، ويتابعان الغناء :

يا الله بنا على باب الله يا صنايعية

يجمل صباحك صباح الخير يأسطه عطيه

يعيدان المقطع وقد أصابهما الطرب • تبتسم الفتاتان ، وترددان القفلة :

صبح الصباح فتاح يا عليم والجيب ما فيه ولا مليم

بس المزاج رايق وسليم باب الأمل بابك يا رحيم

وفي لحظات تتنافر أصواتهم الفرحة في سماء المطبخ الوطيئة •

ينتبه محمود الى نشيش اللحمه فوق النار فيثب اليها • يضع مزيدا من السمن ويحركها • تتناول سليمى وعاء الخضرة المفرومة وتقدمه لأسمى : « تفضلي ، اغسلي • » « وأنت ؟ » « أنا سأفرم البندورة ، وأنقع البرغل • » ينهض إمام حاملا صحن البازلاء • يهمس لمحمود : « البازلاء أولا ، أم البصل ؟ » ينظر محمود الى الفتاتين الغافلتين : « هس ، لا ترفع صوتك • لا أعرف • نضعهما معا ! وبعد دقائق نصب الماء • » « لو كنا نطبخ البامياء ، كان أسهل • »

أخيرا يجهزون الطعام • تكشف أسمى الغطاء عن طنجرة الرز ، فتهب بوجهها زوبعة من بخار : « آه ! رز عظيم • » تطفئ النار وتسرع الى رف الصحون • تمسح سليمى الطاولة الخشبية • ينادي إمام الوالدتين من فوق الافريز ، ويعود : « خلوا لأبي كمية كافية ، وخاصة من اللحمه • » يضعك محمود ، وتهتف أسمى : « وأية لحمه • أوقيتان لسبعة أشخاص • اتركوا له حصتي من اللحمه • »

يقبلون على طعامهم بشراهة وأستغراق • يمرعون أرغفة الخبز ، ويفرقون بها من صحتهم • تراقبهم الوالدتان وهم يسكبون من الطنجرتين حتى يفرغوها وقد نسوا أنفسهم •

بعد الغداء يكتشفون أن لا حاجة تقريبا لتنظيف الصحون : لقد مسحوها بخبزهم وألسنتهم • رغم ذلك تشمر أم خلف عن ساعديها وتمضي الى المجلى •

ويكون شيش بيش قابعا وراء رقاق الستارة • الى جانبه قدح الوسكي •

لم يكن دمه في أي يوم من النوع الذي يطبق الانتظار . وقد دار في عروقه ألف مرة حتى الآن ، حاملا في كل مرة مزيدا من الحرارة بسرعة أكبر . واذ أوشك عقربا الساعة أن يتعامدا ، أيقن أنها لن تجيء .

سأل نفسه ماذا يفعل . سينهي كأس الوسكي ، ثم يمضي الى علي المنتظر في المقهى . سيتلاقيان في مرحلة الاياب ، وسينتقم لهزيمته السابقة في اليوم الفائت . يا للزمن التعس ! علي ، يغلبه بالنرد ! لا بأس ، لا بأس . لكل جواد كبوة .

يرن الجرس ، فينتفض . يسحب الكرسي بعيدا عن النافذة . يهرع الى البهو فيجد أسمى تبتسم وتغلق وراءها الباب . يصل اليها مادا يديه ، مسرع القلب أكثر مما هو مسرع القدمين . ترفع يديها الى كتفيه ، وقبل أن تلقي برأسها على كتفه تغمض عينيها وتطلق زفيرا طويلا . « أتعبك الدرج ، » يقرر بالنيابة عنها . يطوق خصرها وتطوق خصره ، ويمشيان متلاصقين الى غرفته . في وسط الغرفة تنفلت عنه وتتفرج . تشاهد السرير ، تلتفت اليه بنصف ضحكة : « بهذه السرعة ؟ » يهم يسألها أية سرعة . يمتنع : ينبهه سؤالها الى أمر لم يخطر على باله ، ويبتسم في خاطره : ربما مر قرن من الزمان قبل أن يفهم المرأة . لقد ظن أنه ربما في المرة القادمة يتمكن من أن يمارس معها الحب . وها هي ذي تقترحه بمباشرة مربكة . يشعر أن من حقه هو أن يسألها : بهذه السرعة ؟ يقول : « هنا الجلوس أفضل . »

تجلس على الكنبه وتضع ساقا على ساق . يطلق ارتباك وجهه في خاطرها سؤالا مضادا لا يفصح عنه وجهها الناضع بالعافية : أترأه يعتقد أنها فتاة رخيصة ؟ لا تستطيع أن تفهم كيف ينزل رجل مثله الى أفكار من هذا النوع . ما دام راغبا ، وهي راغبة ، لماذا اللف والدوران ؟

يقترب منها متشجعا بسؤالها ويمد ذراعه • تعطيه يدا رخوة وتستمر في
تفحص الغرفة • تتفادى محاولته بسؤال حرج : « كنت تشرب الوسكي ، أيها
البرجوازي ؟ » يضايقه الوصف وللنبرة العابثة • يضايقه أكثر احجامها
المفاجيء ، ويشعر أنه أساء لها من حيث لم ينتبه • يسألها : « أصب كأسا
لك ؟ » فتهاز رأسها بالنفي •

يقبّل يدها • ويضغط بأصابعها على صدره • للحظات ينث من قامته
شوق مصفى لها وجوع عتيق • وتدرك هي بلمحة خاطفة أن شعورا صادقا
عكرا يخدق ويخندق بين عينيه وصدره • تنهض وقد ركلت تحسسها بعقلها
وتستقبل ذراعيه وجسده وفمه •

بعد قبلة منهكة ، يسحب كنزتها عن جذعها بيسر ، ويفك زر القميص
الأعلى • تمد يديها وتتابع التحلل • خلال لحظات يتعريان •

تقول له : « انتبه ، أريد أن أبقى عذراء • » بلا مبالاة ، وبشيء من
المناكفة ، يسألها : « لماذا ؟ تعرفين أنه • • لم يعد لذلك الشيء قيمة • » وفيما
يفرك وجهه في حقل شعرها ، يريحه شعور مضيء بأنها ما تزال تؤمن بقيمة
ذلك الشيء • تقول : « لأن من حق الرجل الذي سأحبه أن يجدني عذراء • •
إذا كان يريد • »

تخزه كلماتها • واضح اذن أنه ليس الرجل الذي ستحبه • ولكن ما قيمة
هذا التمييز ؟ انها بين يديه • هذا الحلم المستحيل ، الذي كثيرا ما صار كابوسا ،
يصير لحما ودما • ليس ثمة يقظة من أي نوع تجعله يتلاشى •

لكي يتأكد يعانق الجسد المخرج عناقا أبلغ احتداما • ويروح عنها
شعورها بأنه لم يعد متضايقا ، أنه تقبل رغبته بالبساطة التي أرادتتها •

ينتشيان مثنى وثلاث • تغمره سعادة شابها الخوف فقصرت عن التوغل :
هذا الجسد كله ملك جسده ، ولكن الى حين • لا يعي الامر جيدا ، بل يحسه •
لذلك يزداد ولوغه • يهجم على اللحظة ليقتنصها أبدا ؛ وفي اقترابه يزداد
ابتعادا عن المركز • يرتوي ولا يرتوي • تستريح خلاياه وتبقى مرمضة •

من حيث لا يدري ، يبدو كل شيء لوعي أسمى المسترخي ولوعا ودفقة
وجد • لحظات تنتهي ، ثم تأتي لحظات مختلفة ، لكنها الآن تنفتح في قراراتها
على مدى من الارتواء • في بادئ الامر شعرت بالارتباك والغباء • لم تدر
ماذا تفعل • استجابت دون أن تعرف كيف ، وحاولت أن تعرف فاضطربت •
حاولت أن تقلد حركاته ، ثم ضحكت من نفسها • أخيرا اندفقت ، حملها
الفرح • هذا الفرح القصير جاءها محملا بأكثر مما تحتاج •

لذلك تثب عن السرير كهرة نشطة • قبل أن تصل الى الكنبه تتمطى ، ثم
تتناول ثيابها فترتديها كأنها وحيدة في غرفتها • الحب ، اذن ، شيء ممتع ،
تقول لنفسها • والانسان يمتلك مناجم فرح ؛ فقط لو يحسن الدخول اليها •
وجبة طعام شهية ، قبل قليل • والآن وجبة حب أشهى •

تنتش من جردانها مشطا وتقف أمام زجاج النافذة الثانية •

يراقبها شيش بيش مغتبطا لتيقنه من أنه الرجل الاول في حياتها • يتتابع
في مخيلته شريط من الصور عن حياتها في هذا البيت وقد صارت سيدة له •

فجأة يسألها : « ما تزالين غير راغبة في الزواج ؟ » تقهقه بقوة ، وتسأل :
« ما الذي تغير ؟ » يربكه السؤال • يراه غير وارد • ماذا بعد ممارسة الحب ،
وهي فتاة ليست رخيصة ؟ تقول : « نتزوج لأننا مارسنا الحب ؟ أهذا ضمان
كاف لحياة سعيدة ؟ قلت لك أول مرة : عندما أرى العيش معك أفضل من

العيش، بدونك ، أتزوجك • « يتساءل متحيرا : « نحن مارسنا الحب ؛ لماذا لا نتزوج ؟ » وتجييب هي : « مارسنا الحب ؛ فلماذا نتزوج ؟ » •

فجأة أيضا يصيح : « اسمعي لأقول لك • هذا كله شيء خيالي • في بلادنا ، لا أحد يقبل بهذا المنطق • أنت لا تقدرين خطر تصرفاتك • هذا كلام مثاليين ، وسيوصلك الى المشنقة • الحياة أشرس من أن تتسامح مع لهو القلب الفريير • »

تقاطعه ، وهي ما تزال تسرح شعرها أمام النافذة : « على مهلك ، يا دكتور • أنا أيضا سريعة الغضب • مشنقة أو غير مشنقة ، أنا لست المرأة التي تتزوج بسبب الخوف • وأنا عارفة اني أدمرُ الممكن لأجل المستحيل • أنا جوعانة للحياة ، يا دكتور • جوعانة ولا أعرف أين أجد خبزي • أعرف اني لا أريد أن أصبح ملكية لأحد • »

« أي كلام ! جئت الى هنا بمحض اختيارك • وستروحين بمحض اختيارك • من يتحدث عن الملكية ؟ »
« نفسك الداخلية • »

« أنا ؟ عجيب كلامك ! أنا أعرض عليك الزواج تعبيرا عن الحب ، لا أكثر ولا أقل • هذه النافذة على الأقل ، تعرف أنني أحبك • »
« اعرف • كنت تبصص منها الي ، وأنا بقميص النوم • »
« كنت تعرفين ؟ »

« هم ! أنتم الرجال مفرورون كبار • وجئت اليك بنفسي لأنك تحبني • وسمعت أنك ستخطبني • ماذا تريد أيضا ؟ »

« مليب •• أنت بنت عجيبة • ساعات ، أشعر معك أن كل شيء على ما يرام • وساعات ، أشعر أنك بعيدة عني • في طرف العالم • »

« أنا شعوري لا يتغير • وهو أننا بعيدان عن بعضنا بعضا • أنا بنت فقيرة ، جائعة • وأنت شبعان •• »

« أنا شبعان ؟ أنا أحسدك على هذا الجوع الذي تحكين عنه • »

« الجوع للخبز هو الجوع الأول • الأهم • وبعدئذ أنت حققت ذاتك • عندك رغبات تريد اشباعها ، وغير هذا لا ينقصك شيء • أنت تنتمي الى وسط اجتماعي يعرف أنه شيء مهم ، متكون ، راسخ • نحن الفقراء •• كيف أعبرك ؟ الخبز والشخصية • نحن بلا شخصية • نحن كمية وبس • اذا تزوجتك ، ساكل وألبس وأنام على حسابك • اذن سأبقى بلا شخصية •• »

« يا إله السماء ! ولكن حريتك ستكون كاملة ، وشخصيتك كاملة ، وكل ما تريدين ! »

« كيف أكون حرة وأنا أتناول منك لقمتي ؟ »

ينظر اليها مندهشا : « ولكن هذا •• ولكن هذا قانون المجتمع في بلادنا ! »
تجلس على الكنبه ، وتنظر اليه مبتسمة : « قوانين المجتمع في بلادنا ، كلها لا تعجبني • أصلا عندنا الزواج مؤسسة عفنة فاسدة ، لا تحقق لأحد شخصيته ، ولا حريته • خاصة حريته الداخلية • »

« يعني أنك لن تتزوجني أبدا ؟ »

« بالعكس • أنا غاييتي الزواج • ولكن بشروطي أنا ، وليس لأنه كما

يقال : زوج من عود خير من قعود • »

« لا أفهمك إطلاقا ، إطلاقا • »

« وأنا لا أفهم ، كيف أن جدول ماء يتدفق على الطبيعة ، تحاول أنت
إيقافه وحجزه . »

« الانسان يتحقق بالزواج . يحفر مجرى ثابتا لحياته . وليس أنه يذهب
هدرا . »

« قولك هذه الدقائق الحلوة التي قضيناها سوية ، نوع من الهدر ؟ بالنسبة
لي كانت لحظات لن أنساها . »

« لا يبدو عليك أن كلامك صحيح . لبست ثيابك بسرعة عجيبة ، واعتبرت
الأمر كله . . . لذة عابرة . »

« أنت يا دكتور عقليتك قديمة . تفكيرك هو اما أني أقبل الزواج منك
أو أني بنت فلتانة . لذة عابرة اذن ؟ رأيت كم نحن نختلف ؟ ولا يحق لنا أن
نتزوج ؟ »

« لا أفهمك إطلاقا . »

ويكون ذلك نهاية المطاف . يتحاوران ويتجادلان ، بفرح وحرارة وجدية
وسخرية . وأخيرا تودعه . بصراحة وبساطة تعلن له أنها لن تلاقيه بعد
الآن . « لا فائدة ، » تقول له . ويردد هو ببلادة صاحية : « خذي مظمتي .
المطر قوي في الخارج . » « هاتها . أين هي ؟ »

يمضي الى غرفة أخرى ويعود بالمظلة . تتناولها وتبتسم : « سلامات . »
تجبه الى البهو فالباب . وبعد ثوان تغيب . يسرع الى نافذة الغرفة الأخرى
ويثبت عينيه على الشارع . . يراها تخرج من المبنى وتدخل بين خيوط المطر .
تمشي على الرصيف ، تقف ، ترفع وجهها نحو السماء ، وتتقدم في الشارع
الرئيسي .

يسند جبهته على الزجاج ، وتشرد عيناه على الشارع الهامد تحت شرانق
المطر .

بعد حين يضيق صدره بالبيت الواسع • يعمل نفسه ويمضي الى سليمان •
يفاجأ الآخر بوجوده أمام واجهة المحل الزجاجية • يستقبله بتكشيرة مرحبة ،
ويتناول خرقة يمسح بها يديه • يدخل شيش بيش ويقول :

« اغسل يديك القدرتين ، وتعال معي • » ويتشاءب •

يخرجان • ينصت سليمان لحكاية صديقه بفضول ولكن بهدوء • ليست
هناك امرأة مستعصية : كان هذا رأيه دائما • واذ يسأل شيش بيش :
« ما رأيك ؟ » يبتسم ببلادة وادعة : « رأيي أنك مجنون • وليس هذا هو
البرهان الأول • »

ينظر اليه شيش بيش شذرا : « ما علاقة جنوني بالقصة ؟ »

« لو لم تكن مجنوننا لما طلبت الزواج • انسان تصح له علاقة حرة من هذا
النوع ، يختار السجن ؟ بعد أن تنام مع المرأة ماذا يبقى منها ؟ الناس موهومون
بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، وهي أقل العلاقات أهمية • الرجل والمرأة ، لن
يكون أحدهما بالنسبة للآخر أكثر من ضجيع • أي محاولة للزيادة تزوير
للطبيعة البشرية • فقدان للحرية • »

« يا الهي ! أنت انسان مرحاضى التفكير • »

« يا لطيب راثعتك ، أنت • »

« أنا أعرف ماذا يبقى من المرأة بعد أن تنام معها • أعرف حق المعرفة • »

« هذا جزء من أوهامك • الذي يبقى منها صور ذهنية تضعها أنت • »

ويهز شيش بيش رأسه نافيا : لا يمكن لهذا القول أن يكون صحيحا •
متأكد من أنه غلط • ويصفن قليلا بانشغال تام • يرفع رأسه شاملا الشارع

بنظرة عمياء : « بالنسبة لأسمى ، لا أعرف • ولكن • • أشعر أنني أريد أن تكون الى جانبي حتى النهاية • أنا أحبها • »

ويود سليمان لو يضحك ، لكنه يمتنع مراعاة لشعور صاحبه •

يدفع علي الباب ويدخل • يزخر ويقف ناظرا الى الوجوه المصطلبية بالخمر • • يجلس على الكرسي الذي هياؤه له • يتناول كأس شيش بيش ويجرعه • يصيح شيش بيش : « كيلو عرق ، يا أبو معروف • جاءنا السيد بالوع • سمعت أخبار صاحب الجلالة ، يا سيد بالوع ؟ جلالتة أنهى كتابة رواية تتابع اكتشافات المفتش الأعظم للنفس البشرية • ولكن كيف ؟ من خلال شخصيات لا هي مريضة ولا هي سوية ، لا هي استثنائية ولا هي تافهة ، لا نبيلة ولا وضيعة ، انما مرتبطة بشرطها الاجتماعي • كل منها يأكل وينام ويتزوج ، ويموت • له مسرات صغيرة وأمجاد أصغر ، وله عنعنات ومغازي صغيرة • ويتنطع لمشاكل الأمة العربية • »

يصيح الملك بوجهه : « انتظر ، يا ابن قطة فاسقة ، حتى تطبع الرواية ، وبعدئذ اشتغل بالنقد • »

يضحكون • يجرعون الخمر بهدوء ويتحدثون بصخب • يقول الملك بهدوء : « المشكلة أنه لا توجد نساء في هذا الوطن • » وهكذا يفشل سليمان في جرهم الى الحديث عن الامبريالية والصهيونية • يقول الأمير : « قبل يومين ، تلفنت لي سيدة • قالت : أستاذ أدهم ! اشتقنا لك ! فتدحرجت باتجاهها • كانت الغرفة مطمئنة بطنافس مراكشية ، ومزدانة بالوسكي • والى جانب السيدة جلست بناتها الثلاث المراهقات ليرقبن كيف سيفازل عمو أدهم المامًا • تقبرني !

أطرف شيء ، أن البنت الأولى شقراء والثانية سمراء والثالثة بيضاء . مما يشير الى ذوق الأم الفني . »

يضحكون كرة أخرى . يقول الملك : « واضح أن الاتجاهات المصرية للسيدة المصون كانت انتقائية ومتنوعة . أي لون ستعطي لابنتها القادمة ، عمو أدهم ؟ » « عمو ، يا ابن النجسة ؟ يلعن أمك بذيل بقرة منتفخة . » يقول سليمان : « ستة عشر . ستة عشر آدميا في تسعة أمتار مربعة . » يصيح شيش بيش ساخطا : « ما هذا يا أبو معروف ؟ حبتا فستق ، وثلاث حبات بزر ، ونصف جزرة ! هات يا أخي ! هات لنا شيئا نتملح به . » يأتيه أبو معروف وثيد الوجه والمشية : « أنا قلت ممنوع عليك الأكل هنا . منذ يومين أكلت حضرتك وأكلت ، حتى صرت تحشر اللقمة في فمي بدلا من فمك . »

يقهقهون . يتناول الملك يد أبي معروف ويضرب براحته على راحتها . يقول أبو معروف : « ومع ذلك ، تفرجوا عليه . كله ، وبهذا المعطف ، لا يزن ستين أوقية . هذا من غضب الله . » يصيح شيش بيش : « لا تغلط . هذا دليل العبقرية يا أبو معروف . أنا مخ يحرق الغذاء ذكاء . لست مثل سليمان القانوني ، كل وجبة بكيلو غرام زيادة وزن . » يقول أبو معروف : « يحرق الغذاء ؟ خله يحرق الامبريالية والصهيونية . أترك الغذاء للفقراء الجوعانين . »

يضحكون . يشربون نخب أبي معروف ، ويضحكون . يأتيهم بمزيد من العرق ، وبصحن تبولة يختطفه شيش بيش فورا . أخيرا ينجح سليمان في بدء حديث عن سد الفرات . يقاطعه الملك بأبيات لشاعر عربي قديم . يرتلها بصوته الاذاهي ، واذا بامرأة ندر مثالها تتكون في مخيلاتهم . امرأة شهوة وحلم ، بريئة من العيوب والنقص . يرد الأمير بأبيات أخرى : المرأة نفسها بكلمات مختلفة . يتقناه الملك . يصلان الى التفاصيل : صورة فريدة للعين

والفم والشعر والأنف والعنق و . . . ثم يصيح الملك : « ابحثوا داخل رأسها يا نخاسين . كانت زوجتي مثلما وصفتكم » يقول شيش بيش : « اذا كنت معقدا من زوجتك ، يا جناب الملك ، ضروري أن تعقدنا نحن من النساء قاطبة ؟ » يقول الملك : « يا ابن الحليب الدنس ، أقول كلامي لتعرفوا أن المرأة كائن حي وليست ما وصفها شعراؤكم . نظفوا أدمغتكم . الزنخة . » يقول شيش بيش : « دماغك مصاب بعسر هضم . ويستحسن أن تأخذ شربة . أو الحقنة أفضل ؟ » يقول الملك : « وأنت انكشفت وتعريت . أنا أرى خمسة ثقوب كبيرة في ثقافتك »

ينهض علي . يزرر معطفه : « أين تذهبون غدا ؟ » يقول الملك : « اذا أصر المطر على السقوط ، كما هو حال العالم ، لن نذهب الى أي مكان . » يقول علي متثائبا : « نلتقي في المقهى ، اذن . سلامات »

تفتح له الباب الخادم الصغيرة . يفاجئه الهدوء المطبق . يلج الى البهو . يقف اذ يرى أمية على إحدى الكنبات وبين يديها لؤي . يلتفت الرضيع اليه ويبكي . يقول : « أين القوم ؟ كيف أفاق هذا ؟ » تقول هي : « خرجوا قبل ربع ساعة للكاف دو روا . ولؤي أفاق قبل خروجهم . الناس يقولون : مرحبا . »

« مرحبا . وكل عام وأنت بخير . يقترب منها ويصافحها مضطربا . ينظر الى عينيها الوديعتين ويحتقن صدغه . يمسك بيد الصغير ويرفعها الى وجهها . ينبر الأصابع على ذقنها ، فيرتد رأسها الى الوراء وهي تبتسم . يمد ظاهر اليد على وجهها بمسحات خفيفة . تنحي رأسها ثانية وتقول : « ترى لؤي يضربني أم أنت ؟ »

تدخل الخادم وتجلس • يقول منسحبا: « أنت مصرة على حملها؟ » « متعودة » •
يجلس على كنية قريبة • يقول للخادم: « يا آنسة ، هل نستحق منك فنجان
قهوة ؟ » تنهض الفتاة الى المطبخ ، وتنهض أمية الى غرفة النوم • ترد الباب
اثلا يدخل الضوء فيفيق الصبي •

يسمع صوت السرير اذ تضع عليه حملها • ويسمع صوته اذ تحركه لينام
الصغير • ينهض ، يدخل الى الغرفة ويوارب الباب • يراها وقد مر شريط
الضوء النحيل قرب وجهها • كأن الشعاع العابر قد وقف على أهدابها ، وأن
عينها تضيئان في عتمة المكان الشاملة • لوهلة يخيل اليه أنهما أضاءتا وجهها
أيضا • وترده عن جرف الشوق نظرة خوف فيهما وانتظار مزمّن • يقترب منها
نافض القلب ولكن بلا توان • يحتضن وجهها وتلفح يديه حرارته • لحظة
وينفر وجهها بهزة عنف • يحتضن الوجه من جديد ، ويقترب فتنتفي المسافة •
تشد يديها على الجدار • تحرك رأسها يمين يسار ، بلا توقف • يدني وجهه
فيقع فمه على أنفها • ينفرك وجهها بين يديه • يقبلها •

يضمها وتضمه • تمسح ماء عينيها بوجهه ورقبته • تضع أصابعها على
صدره وتبعده • تطرق وينسدل شعرها • تدخل الفتاة فجأة : « تريدون القهوة
هنا ؟ » يقول هو مخاطبا أمية : « الولد نام • تعالي نشرب القهوة • » يخرج
الى البهو ويجلس • تتبعه • تجلس على كنية ملاصقة • تجلس الفتاة في الجانب
المقابل • يخرج علبة الدخان من جيبه • يقترب منها ويمد العلبة . « سأتيك
بعد نصف ساعة الى البيت » « أنت مجنون • » تتناول سيجارة • يشعل عود
كبريت : « بعد نصف ساعة • سأوقظ الجيران كلهم اذا لم تفتحي • » « لا تتعب
نفسك • »

يتوهج في عينيه الحادث المفاجيء الغريب فيسهو عن الطنين المدوي في

رأسه • كأن انسانا آخر قد فعل ما فعل ، وذاق طعم الفم الندي خلال عراك
الشوق والرفض • يحدق الى الخطئين المستقيمين بين أذنيها وذقنها ، والى الفم
المفستق ينفرج لحظة لاحتساء القهوة ثم ينضم كبرعم زنبق •
ينهي قهوته ويمضي • ينظر الى ساعته ، ويسألها عن الوقت : الواحدة •
ويمضي •

تطرق باسمه وساخرة • كيف حدث كل ذلك ؟ لا شك أنه الآن قد صدق
ادعاءات نواف • وكيف سينظر اليها اذن ؟ الساعة الواحدة ؛ وكأن الأمر مفروغ
منه • فجأة تحس كأن شيئا يتحرك على شفتها وداخلها • تسرع الى رشف بقية
القهوة • تنهض وتودع الفتاة الغافية •

في بيتها تسائل نفسها ما الذي سيحدث لها • تشعر بالبرد فترتدي ثوبا
اضافيا • أهو منزلق أم حب حقيقي ؟ ترن في أذنيها كلمات أسمى الواعظة لها
بأن تمسك وتميش حياتها كما تريد • تتساءل أي نوع من الرجال هو • وتشعر
بثقل هائل يستقر في داخلها • لن يكون هناك سوى قصة أخرى من قصص
الخيانة الزوجية •

يصعد علي بلا عزم • أمام الباب يقف فلا يسمع غير الوجيب يقرع قلبه
وأضلاعه • يتنهد : يجب أن يخفف هذا الخفقان والا سمعه الحارس الليلي •
ينقر على الباب نقرتين وينسحب الى زاوية الدرج • يسمع صوت الباب وهو
يفتح اصبع اصبع فيعرف أنها أمية • يتقدم • يطوق خصرها ، فترده عنها ،
ويحملها بين يديه • تشبك أصابعها على منكبه • تشير له نحو الغرفة • وهناك
تهبط عن يديه • ينزع معطفه ويرميه على الأرض •

ترجوه أن يعود الى حيث كان • وتختنق بالبكاء • تستحلفه أن يمضي ،

فلا يراها بعد ولا تراه • تسأل ما الذي يريده من امرأة ضعيفة فقدت
حتى القدرة على المقاومة • سوف ينتهي كل ما بينهما من صلات عندما ينطلق
الرصاص ذات يوم ويصيب أحدهما أو كليهما •

ينصت اليها بغير دهشة • يسمع الصوت الآخر وراء كلماتها ، الصوت
الراعش الطري ، ولكنه يدري أن ليس بوسعه مقاومة هذه الدموع • انه
ضعيف ، وهو يعرف ذلك • وبين الشوق وخوف الايذاء ينعدم منه الفعل •
وتراه واقفا وسط الغرفة ، ثابتا فاتح الساقين ، فترتمي عليه • تقبله في كل
مكان من رأسه وعنقه ، وترجوه أن يذهب • تهم تطير ، فيرفعها بين يديه الى
صدره • تلتف عليه بجسدها كأفعى بشرية • تنجبل في محيط صدره وظهره
وزنديه • بتدرج غافل ، يجلس على الديوان ويجلسها • تنهض عنه الى السرير •
تسحب بطانية سميكة وشرشفا • تبسطهما على الأرض • تسحب مخدة وتضعها
على الطرف • تجلس • تطوي ساقها وتمد ذراعيها حول الركبتين •
يتمددان •

من زجاج النافذة الممشق يتسلل اليهما ضوء الليل • يضيئهما ويلفهما
بالغموض • تصير العتمة حولهما ضبابا • والأرض صلبة ، والسكون جامح
ومثير • الأبواب مغلقة ، والليل والمدينة • وتأوهات النفس المؤتلفة تلفظ
صدا السنين •

ترمي يديها وراء رأسها مطلقة آهتها الأخيرة • يسألها فتوميء أن أجل •
ينعسر الى الشرشف ، وتسرح عينها الى لا مكان • يرسل يده على مراعي
السماء • تصل الى الوجه ، وتقف لتبتل بالماء النازح نحو الأرض • بحيادية
يسأل : « أنت تبكين ؟ »

لا تجيب • نظرة عينيها لا صقة بالسقف ، ترفعه الى أعلى عليين ، تنثره في الفضاء ، ثم تجمعها وتفلته ، فيهوي الى الجدران الأربعة ويستقر حيث كان •

ثم تبتسم ويصمتان • في الشهيق والزفير ، يحس بأضلاعها تنأى عن موضع أصابعه وتعود : « أعجبك ؟ » تسأله • يقول : « ممتاز • لا زيادة ولا نقصان • » « نواف يقول لي : ليس في دمشق رجل ينظر اليك كامرأة ، أنت كتلة عظام • » « في بلادنا يحب الرجال اللحم • الجمال عندهم مقيس بكمية اللحم • احساسهم بالجمال ضامر ، وبالشهوة متورم • أنت جميلة بالمليمتر ، بتناسق الأعضاء • كأنك منحوتة بالازميل • »

« أنا تمثال يعني ؟ » « أنت أجمل • • أجمل من جميع البنات والنساء • »

لكن التذكريات تفيض في خاطريهما • ويحتضنهما كالنهر شعور بمعانقة الحياة واختراق كثافتها البيضاء • يتلاصقان • يضمنان الشكل والمادة والملمس واللون ، الحرية • ينفردان في المدينة والعالم قطعتين من الطبيعة ، هنا في غرفة منسية ، حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون •

يغمض عينيها على الابط ، يتوغل في جبهته شميم الأعشاب النحيلة الخرنوبية • تمخض صدره التنفسات • ثم يسترخي مسلماً نفسه للأرض والجسد الأموي ، وصمت الساعة الثالثة من ليل مرتد •

تمد يدها وتمشط شعره • يقول : « يوم رأيته للمرة الأولى شعرت أنك مخلوق نافر ، موضوع في غير مكانه • ثم صرت أراك في بيت عباس ، وكل مرة أفقد من نفسي تماسكاً معيناً تجاهك • لم أشعر من قبل بهذا الضعف اللذيد أمام امرأة • لم يخطر لي أنني قد ألقى قبولا عندك • كنت أظن أنك تميلين

لعباس • وبعد أن عرفت نوع حياتك تفاعلت في نفسي أشياء • ولكن خفية •
وكان يصيبني حزن قاس ؛ كيف تزوجت هذا الكائن العجيب ؟ »

تبتسم : « في البداية كنت أعبد • كنت أرى أنه العالم • وأنه قادر على
كل شيء • كل كلماته أصدقها • كل آرائه أؤمن بها • وطلباته ألبسها بجنون •
كنت مجنونة به • تركت دراستي لأجله • كان عمري ست عشرة سنة ، بدأت
أشعر بالكمند من قسوته • كنت منسحقة أمامه ، فلم أقف وأطالب بحقوقى •
وبعدئذ صار يغيب عن البيت • صار يأتي في الصباح • أمسك يده عن مصروف
البيت • من أربعمئة ليرة شهريا الى مئة وخمسين • مع أن دخله يزيد على ثلاثة
آلاف ليرة في الشهر • من التهريب والواسطة والرشوة • صار بتهمني أنا •
كلما كثرت علاقاته مع النساء ازداد استبدادا وغيره • ثم حرم علي فتح
الشبابيك ، وصار يمر بالطائرة ليرى الشبابيك • وأخذ مني مفتاح البيت •
وبعد ألف يا ويلاه ، سمح لي بزيارة عائدة • • »

« لكنه ضابط • كيف يعمل في الطيران المدني ؟ »

« هو الذي طلب • جاء بمئة واسطة • يخاف من الموت • من فترة طويلة
والحديث يكثر عن الحرب • وأيضا الطيران المدني أربح • تكفيه قطع الثياب
والجواهر والمسدسات ، والوسكي والدخان • وكل سفرة له أجر اضافي • كل
مدينة له فيها صاحبة • موجود في كل مكان ؛ وأنا سجين في البيت • لو أنني
تابعت دراستي لكنت الآن في الجامعة • »

« صحيح أنه يهددك بالمسدس ، ويكون مليئا بالرصاص ؟ »

« مسدسات • وملؤها أمام عيني • لكنه جبان • في البداية كنت أصدق
تهديداته فيفنى علي رعبا • الآن ، أخاف أن يخطيء مرة وتطلع الرصاصة •

مع أنه لا يضع أصبعه على الزناد • وأنا أظاهر بالخوف الشديد حتى لا تزيد تهديداته عن الكلام • من يعرف ماذا يصير اذا استحكمت حيوانيته • أحيانا يرفعني بيديه ويضربني بالأرض • كانت صحتي أفضل • الآن ، أربعة وخمسين كيلو مقابل مئة وخمسة وستين سنتمتر • حتى عقلي صار وزنه أخف ؛ والا ما خليتك تدخل البيت • »

تمد يدها وتمشط شعره : « حل وقت الروحة • » تحضن وجهه بيديها وتشد عليه • تقعد • ينهض هو : « متى أراك مرة ثانية ؟ » « عندما لا تكون سيارته قدام البيت ، اتصل بالتلفون • اذا كانت سيارته موجودة ، فاياك ! » « تعالي لأبوسك • بردانة ؟ » « لا ، أنت شوفاج • » « لم أحس بالبرد • » « ولا أنا • »

يتعانقان بهدوء وقوة • يزنرها بيديها ويقبل الشفتين معا • يحملها ويلفها على صدره وخاصرته • تنزل عنه الى حيث ملابسها فترتديها • كذلك يفعل هو •

في اللقاء الثاني ، ينقر على الباب مرتين ، دون أن يرتد الى الزاوية مبتعدا عن ضوء مصباح الشارع • الحفيف نفسه مرة أخرى • ويد ترد المزلاج الى الخلف بتأن حذر • تنفتح الدرفة بالقدر الكافي فيلج منه الى عثم الرواق القصير • يغلطان الباب ويمسك بيدها • يضمها اليه ، وهي لا تتحرك • يقبلها • يتفحص وجهها : « ماذا جرى ؟ »

تطرق صامتة لثوان • تقول : « علي أرجوك • اتركني لحال سبيلي • أرجوك ، محبة بالله • أشعر أنني أهوي الى باطن الارض • هذا شيء لا أقدر عليه • »

« كيف أتركك ، وأنا أحبك ؟ »

« تحبني ؟ يا الهي ! يا علي ، لا ، لا ! أرجوك . ان كنت تحبني ، اتركني
يستحيل أن أتابع معك . »

يضطرب ، ويخذه ضعفه القديم أمامها . يهم بالكلام فتضع سبابتها على
فمه . تمسك بيده وتسحبه الى الغرفة . جهاز التلفزيون مضيء بلا صوت
ولا صور . وفي الزاوية اليمنى مدفأة ترسل ضوء لهبها . يطفىء الجهاز ،
ويبقى ضوء اللهب مرتعشا على الارض والجدار . يجلسان .

« علي ، هذه علاقة مدمرة . لا أستطيع ، من داخلي لا أستطيع . هذه
أشياء رهيبة . أنا لست من هذا النوع . »

« أي نوع ؟ »

« يا الهي ! هذه خيانة زوجية ، أنت تعرف . »

« لا أعرف أبدا . على العكس ، أنت حبيبتني وأملني . أنت تخونينني
معه . »

ترتمي على صدره بين الضحك والبكاء ، وتمسك كتفيه بيديها : « لا .
أنا زوجته بحكم القانون . أرجوك ، علي . اتركني الآن . فورا . »

« أنت ملكي بحكم الطبيعة ولست لأحد غيري . هذا القانون وجد لتنظيم
المجتمع . لكن المجتمع لم ينتظم . ازداد خرابا واستبدادا . ماذا تظنين ؟
قوانينك وأعرافك هذه ، ستزول بعد مئة سنة . سيأتي شيء جديد ، سيكون
الناس أحرارا . ولن يضطر أحد لأن يعيش حياتك . تصوري مجتمعا من هذا
النوع ، كل شيء فيه قائم على أساس الحرية والاخلاق الجديدة ، وقولي بعدئذ

كيف لا يحق لك أن تعيشي منذ الآن حياة ستصير حقيقة واقعة بعد زمن قصير .
أنت تتنازلين عن عقلك . »

« سوف أجن بدون تأخير . أنت أفكارك طائفة مثل أختي أسمى . علي ،
هذا كله جنس . حب جسدي . لن أتابع معك . »

« أين الخطأ ؟ لماذا الجسد زنج ومقرف بهذا الشكل ؟ لا أحد يعرف الحب
الحقيقي اذا لم يعرف الجسد . لأن الجسد بوابة الروح . من لم يدخلها لم
يدخل ملكوت الروح . »

« ولكننا لا ندخلها . نحن نرمي أوساخنا عليها ، هذا كل شيء . يا الهي !
ستبقى تناكفني حتى الصبح . وبعدئذ يبقى لي عذاب الضمير . »

« وهذا الفرح ؟ السلام والطمأنينة ؟ كيف ندفن حياة ولدت فينا فجأة ؟
ينفض اليها ويضمها بشراسة . ترتد عنه : « أبدا . أرجوك ، اترك
البيت . » وتكون لهجتها واصلة الى طرف الجرح ، حيث يقف العقل ملجأ
وتتحكم العاطفة .

« لماذا أشعلت المدفأة اذن ؟ »

« أحسست بالبرد . »

« لم تحسي به المرة الماضية . »

« يا ربي ، يا علي . أنت تعذبني . هذه لهجة أعداء . »

يبدأ بنزع ثيابه . المرأة الشرقية تحب أن تغتصب ، يقول لنفسه . تتمنع
وهي ترغب ، لكي لا يقال أنها رغبت ، وبالتالي انها عاهرة . وهي لا تعرف
أنها تتعهر عندما ترغب وتتمنع ، لأن الصدق مع النفس هو الصدق .

تنظر اليه وهو ينزع كنزته مرتاعة ملتاعة • تشعر أنه ينزع ثيابها
أيضا • تندفع اليه وتمنعه • يضمها فترتد عنه • يتابع نزع ثيابه • تضع
يديها في حبرها وتهتف مقوسة الكتفين والجذع : « علي ، لا يا علي • أرجوك •
ان كنت تعبني • لا أستطيع • لماذا لا تفهم ؟ لن أتركك تلمسني • البس
ثيابك • لن أتركك تلمسني • سأهرب من الغرفة • »

ويقطع عليها الطريق بيده ويضم ظهرها الى صدره • تتخلص منه بهدوء
غريب وترتمي على الديوان • تبكي •

يكمل نزع ثيابه ويقترب منها • تنوح هي موجوعة ونصف مكتومة
الصوت • يروح يجردها من ثيابها ، ويرفع يديها عن عينيها لتعودا اليهما •
تشعر أن مداماكا في داخلها يتهاوى ، أن ملايين العيون تنظر اليها ، وأن عينيها
تمعجان عن النظر • يجردها من ثيابها ، وفجأة تغمض هاتين العينين المنكرتين
فيرتفع من صدرها ثقل مرهق تقول : « ليس على الديوان • تطلع أصوات
من هنا • »

تقوم ترتب اللحاف والشرشف • يحملها ويستلقيان •

يتداعى سد مأرب • ويندفع من ورائه السيل عنيفا وجارفا • ينهار
الحبس ، وينساح منها سيل الهجرات ويفمر أرضا مشتاقة للسيول •

تتجوهر في حبها • تفسدو سيدة العطاءات • يغيب عنها حضور الحراس
والحاملين مقصا ومطرقة • تنسى أنها في غرفة سرية • يزيدا الاقبال اقبالا
ليبعد عنها الردة والانكفاء • ويتلقى دفق أمواها كنبة أنضبتا الشمس
والرياح • يدرك أن للحياة مجدا ، ومن يدينونه هم الخاسرون : الذين يمضفون

الزمن والقات والحنظل ويظنون أنفسهم طاهرين • يبيعون كلاما ويبتاعون كلاما ، وحياتهم تمضي باسم الخلق القويم •

تتمطى في صلبيهما العافية • يتعدان ويجدان • يرفدان نهرا فجّره القلب البشري منذ القدم في الوادي المكتظ زمنا وعظاما •

يقول لها في الهدوء : « بودك تطردينني مرة ثانية ؟ » فتبتسم • ترفع حاجبيها • تشد شعر صدره • « ما الذي دخل في عقلك لتصرفيني ؟ » « عائدة كانت السبب المباشر • قالت لها الخدامة • حلفت لها واستنكرت • ووقت ألحت علي بالأسئلة ، رحت أبكي وأنا أحلف لها • حلفت لها أنني لن أراك حتى في بيتها • خبيثة عائدة • لئيمة • كنت ، هه ! ناوية أعترف لها بكل شيء لتصدق أنني لن أراك بعد • وتذكرت شكلك يوم رأيته أول مرة • كنت جافا وثقيلا ، مهموما بلا سبب • ويومها قلت في نفسي : سأغيظه • »

« لكن بكاءك قدام عائدة اعتراف صريح • »

« كيف ؟ »

« طبعا • وحلفانك أنك لن تريني بعد ، يؤكد أنك رأيتني قبل • والانسان لا يبكي الا آسفا أو مذنبيا ، وخاصة اذا كان طفلة صغيرة مثلك • وفي الحاليتين • • لو أن عائدة تفهم أكثر قليلا لكشفت سر • يجب أن تزجريها وتمنعها من الاسئلة • »

« سألتني من يومين مرة ثانية • حلفت لها وقلت : جنيت ؟ اذا تابعت الاسئلة سأحبه • غريبة عائدة • كانت متلهفة لمعرفة السر • وفي نفسها حركة تأخذا وتجيء بها • كأنها كانت تتصور نفسها في وضعي • »

« كيف ، وهي على ما تقولين تعتبر عملك غير محترم ؟ »

« وهل هو محترم ؟ »

« عدنا ؟ »

« لا ، لا » وتمرغ وجهها بصدره . « اذا عرف ، أفرغ مسدسه في »
لا مزح هذه المرة . »

« يبدو أنك لا تدعين الحب ، والا لما بكيت بحضور عائدة . »

« بكيت لسبب غير ما قلت . لأنني خفت أن تنقطع علاقتنا ولا أعود أراك .
أنت لا تعرف كيد عائدة . اذا تأكدت ستلمح لنواف حتى يفهم . عائدة غيرة
من كل شيء ومن كل انسان . وربما قتلك . هؤلاء الفلاحون لا يتساهلون في حكاية
الشرف . ونواف على جبنه ، أحيانا يفقد السيطرة على أعصابه . »

« صحيح انتم تحتقرون الفلاحين ؟ »

« نحن ؟ الفقراء لا يحتقرون الفقراء . ولكن لا تنس المثل : أعوذ بالله
من فلاح اذا تمدن . أيها الفلاح . نواف لم يعد فلاحا ، أصلا . »

« وأنا لم أعد فلاحا ، ولست شيئا آخر . لا يستطيع الانسان أن يبقى
فلاحا في هذا الزمان . الفلاحون قوة معطلة لم تدخل مرحلة الفعل . اذا بقي
الفلاح فلاحا يموت في الجهل والقذارة والاعتماد على القدر . وعندما يخرج
يضيع : لمن ينتمي ؟ غالبا ما يتبجح بأنه ما يزال فلاحا . وله أخلاق الفلاحين
السمعة . هذا كله كذب . تملق وادعاء ، ولا يخفى ما فيه من فوقية وعجرفة .
صاروا هجينين ، لم يعودوا فلاحين . كل من خرج عن طبقته يضيع . »

« حكيك ، تقريبا مثل حكي أخي إمام . إمام يريدني أن أطلق نواف . »

قال لي يمكن أن تشتغلي عندنا في معمل • بس أبي لا يتحمل الفضيحة •
لو طلقته واشتغلت بالمعمل ، كنت فتشت عنك واصطدتك بالسنارة • لأنني
سأكون حرة • وأقرر مصيري بنفسي • وكانوا سيقولون هربت من فلاح وعلقت
بفلاح ثان • ولن أبالي بهم • وكنت سأتي من المعمل ، أرمي ثياب الشغل
وأقضي نصف ساعة كاملة قدام المراة لأتهندم وأظهر مرتبة • وأتدلل عليك
فلا أعطيك بوسة الا بصعوبة • وأطبخ لك وأغسل ثيابك • وتأخذني الى
السينما والمنتزهات • مشاوير في البلد • وكنت سأرى في أضيق الحوارى مكانا
واسعا وجميلا • وأتعلق بيدك حتى تخضر من تعبها • «

توقف حديثها فجأة وتعانقه • كأنها شعرت أنها يجب أن تلتقط هذا الفيض
الفضي لئلا يهرب • تقبله وتجري يديها على جذعه • تهجم عليه وتلتقط
تدويره كتفه الايسر بأسنانها • تغمغم بأصوات لا يفهمها • تتنامى في حلقه
صيحة يهم باطلاقها ويمسك • يشتد غرز الاسنان في الكتف مثيرا ومؤلما •
تلتصق شفثاها الصغيرتان بالكتف المتوهج ، تشدان عليه كأنما تمتصان
برتقالة • « ان تشربي دمي تصيري أختي • » تميل جيدها على الزاوية بين
الكتف والرقبة • يسلم نفسه للضوء القادم من جسدها • يعتقل شفثيها كأنه
يسترجع دمه • ويأخذ بها متجدد الانس بعطاءات حواء ، محتما بأضلاعها
الخافقة وخلاياها المتقدة حبا • تتعلق به وهو بين يديها وتزدهر فيه ، وهي
بين يديه ويتطهر فيها • • وفي سكون الغرفة الابهم وغطيط المدينة ، يتوحدان
نفسا لنفس ، وقامة لقامة ، حيوانين يرعيان حشائش الجسد • ثم يرتميان
كسيل بلغ امتداده الاقصى ولامس حدود الافق الارضي • تهس التنفسات
فوق صدريهما، ورويدا رويدا تخفت مسلمة جسديهما المشبوحين لسكون الغرفة
وتنقى المطر على زجاج الشباك • يسمعان صوت المطر ويستردان حضور الاشياء •

« جيد أنك أشعلت المدفأة • » ويجلس • ينظر الى هذا الخلق السحري
المتمدد أمامه وضوء اللهب يسقط عليه ، الى هي وقد أغمضت عينيها وثنت
يديها وراء رأسها ، وعلى وجهها تغفو ابتسامة الرحمة • تعبت اضبعه بأنفها :
فتتسع الابتسامة • تجلس • تنهض فتتفقد ابنها النائم على سريرها • تحنو
عليه كأنها تود أن تلمسه ، ولا تفعل • تعود الى الديوان وترتدي بعض ملابسها
وتستلقي • « هل الناس كلهم تعساء ؟ » تسأله فجأة •

يجيبها ناهضا عن الشرشف : « كل من عرفت ، على الاقل • لينذون
جونسون نفسه ليس سعيدا • »
« لماذا ؟ »

« لأن زوجته أذكى منه ، وشخصيتها أقوى • »
« ونحن ؟ »

« نحن تنقصنا الحرية • »

« صحيح • نحن مثل دودة القز • ننسج شرانقنا ونحبس داخلها ونموت
قبل أن نصير فراشات • »

« لا • نحن سنصير فراشات • ولكن ليس الامر سهلا • في أعماق كل واحد
منا كائنات ، واحد عبد والثاني طاغية • وهذا طبيعي ، طالما أن وطننا لم
يفتح عينيه منذ ألف عام على مؤسسة ديمقراطية واحدة • اذا احتجنا لاجد
تولفنا له واستمنا بالواسطة • واذا احتاج لنا ننتفخ بالخيلاء ونعامله كأن
شريان قلبه تحت رحمة سكيننا العادة • نحن لا نحترم القلب الانساني ولا الحاجة
الانسانية • أشواقنا مدعوسة بالاحذية ، وصبواتنا مسيجة بألف قانون تافه
يمنع تلبيتها • واذا لبيت ، تلبي بطريقة لصوصية معدومة الرضى • »

« لماذا هذه المحاضرة الطويلة • »

« لا أعرف • عندي رغبة في الثرثرة • عشت ثلاثين سنة لم أعرف الرضى •
وما أزال أحس بالجوع لكل الاشياء التي تمنيتها • وفوق هذا أشعر أنني مطالب
بواجبات لا أعرف لماذا ومن أين جاءتني • نحن لا نكاد نشبع الخبز ونعلم
أولادنا القراءة والكتابة ، ومع ذلك علينا أن نحارب استيلاء اسرائيل على
بلادنا • لماذا اسرائيل ؟ وما الذي خطر ببال هؤلاء ليأتوا من وراء البحار
ويدقوا أبوابنا بالرصاص ؟ »

« تعال أقعد هنا • تعرف أن أمي فلسطينية ؟ ماذا ذكرك باسرائيل ؟
يقولون أن المعركة قريبة وأننا سننتصر • »

« هذا الشيء الصغير المسمى اسرائيل • علينا أن نتخلى عن حاجاتنا ،
حريتنا ، خبزنا ، نغطي على أمراض مجتمعنا وأرواحنا ، نمسح حياتنا لاجل
هذه المعركة • واسرائيل طارئ تاريخي عابر • لا يمكن أن يعيش • ستزول
يوما ، حتى ولو لم نحاربها • مئة مليون انسان نحن ، وزيادة • ومع ذلك
نعيش أنصاف بشر بسببها • »

« أنا لا أذكر اسرائيل الا قليلا • أيام الاعتداءات على الحدود ، وضرب
القرى والمخيمات • معقول أنها ستهزمنا ؟ »

« يتحدثون عن معركة • • منذ عشرين سنة • الحقيقة هي أننا اقمنا
توازننا بين المعركة واللامعركة ، بين الدائم التاريخي والطارئ التاريخي •
(المعركة ستقوم) يقولون • لكن هذه السنين لا تنفصل أبدا عن الفعل • توازن
ضاع فيه كل جهد وكل عمل • كل شيء الا الكلمات الجميلة • »

« يقول أخي إمام انه المعركة في المعمل • كل شهر يأتي الي بورقة مليئة

بالارقام • هذا الشهر زاد الانتاج كذا ، والعمال يقرأون كذا وكذا • ويبربر
على المتقاعسين • »

تنحني اليه وتقبله : « حان أن تذهب • بعد قليل يطلع الفجر • »

ينهض بخفة • يرتدي ثيابه • يتخاضران ويمضيان الى الباب الصامت •
يضمها وتدس يدها تحت معطفه •

تفتح الباب فيندفق الهواء وصوت المطر • يخرج • عند منتصف الدرج
يلتفت ويلوح بيده •

في المساء تصير المدينة جسدا مثقلا كثيفا • وفي الليل تنام قرية الخاطر ،
أمنة مطمئنة • تواري خوفها من الآل والصلصال ، من الزمن الهارب والشوق
المحرور • على أفقها تتلامح وحشة الآفل والآتي • والسكون يلفها كرداء
مرهوب ، والحركات لا تنقطع • سكون مبهم خلّفه تواري البشر وراء الابواب
المغلقة • والصوت أجش تتركه فوق علب الاسمنت محركات العالم الحز • من
احدى النوافذ تنبعث أنغام مزمар غجري وتنتشر فوق الشارع الهامد • في
مكان ما يدور ذراع معدني قصير فتهب من تحت ابرته أجمل هندسة للأصوات
أقامها البشر • تنظر الفتاة من وراء الستارة الى الليل الآتي • يسترخي محمود
في غرفته والى جانبه كوب الشاي • تنفك أوراق صفراء عن أغصانها وتنتهي •
يتقوس جذع امرأة ويدها غارقتان في الصابون والماء • تضرب أسمى في
الشوارع راجعة الى بيتها • يقبع بائع الخردة في حانوته منتظرا رزق الله
الحلال والحرام • يتناول علي أبو عبد الله وزوجته وأولاده عشاء يسيرا •
يسمع لفيف من الناس نشرة الاخبار بانتباه ونصف انتباه وبلا انتباه • تستبيح
يد محمومة نتوءات جسد محموم • تهوي يد غضبي على وجه محكوم شاحب •

تتراقص السنة بلهب الكلمات • تفيض دمعتان وتنفرج شفتان • يتطاير وحل
عن قدمين حافيتين • يزدحم مقهى (الروضة) بمئتين وخمسين من رواده •
يتكبد محرر الصفحة السادسة على عمل كاد يفوت أوانه •

والمدينة جسد مثقل كثيف ، علبة ساخنة تسترخي في حضن الجبل •

في مكان ما أي حادث يمكن أن يحدث ، أية كلمة يمكن أن تقال ، أية
خاطرة يمكن أن تطفو على السطوح المضاءة •

ويقول الرئيس جونسون لجلسائه اللطيفين : « أرى أن الديمقراطية في
اليونان لم تعد شيئاً مريحاً كما هي في بلاد العم سام • ما رأيك يا سي • آي •
إي ؟ »

يقول سي • آي • إي • في جلسته ، جفنه لا يطرف ووجهه كتيمة ، ونظراته
جامدة متحفزة • يقول : « أعتقد ، إذا جرت الانتخابات ، أن المعادين
للميمقراطية الحقيقية سيفوزون بعدد لا بأس به من المقاعد • وهناك خطر
مؤكد في ذلك على العالم الحر • »

يقول الرئيس جونسون : « هذه نكتة غير مسلية • تصوروا الحلف
الاطلسي وفيه دولة يضم برلمانها عدداً من الوطنيين الحمقى • ماذا سيحدث
لوجودنا الضروري في الدول المجاورة ؟ لن ينجح أي عمل لنا في الشرق الاوسط ،
بالدرجة التي نريد • قد تهدد مصالحنا هناك أيضاً • مشروعاتنا المقبلة في
الشرق الاوسط تتطلب أن يكون اليونان دولة مسالمة خالية من المشاغبين • في
رأيك اذن ، أن مصلحة اليونان تقتضي تغيير نظام الحكم ؟ »

يقول سي • آي • إي • وعيناه الخشرتان ما تزالان تتوقمان حدوثاً مفاجئاً
مجهول المصدر : « نعم ، سيدي الرئيس • »

يقول وزير الخارجية : « لدينا في الجيش أصدقاء جيدون ، يؤمنون بالديمقراطية » .

يلتفت إليه الرئيس : « هؤلاء الفتية ، قادرون على القيام بعمل دون اهراق دماء ؟ »

يقول وزير الدفاع : « طبعاً . فالامر كله لا يتعدى عملية تبديل في نوبة حراسة . وسيكون جون بول سعيداً باستضافة الملك الشاب وعروسه » .

يقول سي . آي . اي : « هل ستكون هناك ردود فعل ؟ »

يقول وزير الدفاع : « الاسطول السادس موجود . لنا هناك قلاع عائمة على مياه البحر المتوسط مهمتها حفظ السلام » .

يقول الرئيس : « ونحن سنشجب الذين خرقوا الاعراف الديمقراطية الى أن يرسخوا أنفسهم ويضعونا أمام الامر الواقع . اذن أنتم واثقون من وجود فتية قادرين على انقاذ اليونان ؟ »

يتدافعون بالمناكب والايدي ، وأحياناً بالارجل والاحذية ، ووجوههم مشرّبة باتجاه الباب والواجهة . يمسحون العرق عن جبهاتهم ويطلقون شتائم وتأففات . أيديهم ممدودة منذ ربع ساعة على الاقل ، وفي كل منها القطع النقدية المناسبة . تتصاعد أصواتهم نافذة الصبر ؛ كيلوين ، أبو نصوح ؛ كيلوين من فضلك ؛ يا سيد ، نصف كيلو ، لو تكلمت ؛ الدور ، يا أخوان ، الدور ؛ ثلاث كيلوات ، يا أبو نصوح . أحدهم يوقن أن نصف الليرة الذي دفعه لتلميع حذائه قد ذهب هباء منثوراً . ينسحب الى خط الدفاع عن أصابع قدميه . يرافقه آخر ، وينسحبان الى مؤخرة الحشد . من فوق الرأس يرتفع فتى حمله رفاقه ومد يديه ولسانه : « رغيفين بس ، يا أبو نصوح » . باحدى

يديه يتناول الرغيفين ، وبالاخرى يناول ثمنها • يفوص في الحشد • يرتفع
فتى ثان : « رغيفين ، يا أبو نصوح ، بس رغيفين • » يتكرر تبادل الخبز
بالنقود • ويرتفع فتى ثالث •

يستسلم المتأخرون منتظرين انحسار الموجة ، ليتقدموا فترا ففترا •
يتأملون الفتيان الاربعة في ابتعادهم الصاخب ومحاصرتهم لفتاة طويلة قصيرة
القستان • من الخلف تدرج عربة يدفعها بكسل كهل متقوس الظهر • يتوقف
عند الحشد المتذمر وينادي : « بطاطا ، بخمسة وستين ! بخمسة وستين البطاطا ! »
ينتظر • يعيد ترتيب حبات البطاطا ببطء وهدوء • يفتح الراديو الترانزيستور ،
ويصفي مستمتعا بصوت (شادية) المفنّاج •

بعزاء الرصيف الثاني تقف سيارة فارهة • ينزل منها رجل مؤطر الوجه ،
مختبئ العينين وراء نظارة سميكة سوداء • يتقدم من الفرن ويقف في المؤخرة
مترفعا مزدريا • من الراديو يعلو تصفيق الجماهير منضبطا مع ايقاع الاغنية ،
وصاعدا بحالة الطرب الى هستيريا مدنفة • يمر صبيان نصف مستوري الجسمين
فيمسحان ظهريهما بزجاج السيارة الداكن • يستلقيان على مقدمتها •
يتناطحان بالرأسين • فجأة ينشب بينهما عراك ودي شرس • يتماسكان بالايدي •
يتلاطمان بالسيارة والارض • يسقط أحدهما تحت الآخر ، ويطلق سبابا
مقدعا •

يناول أبو نصوح ذا النظارات السميكة خبزه • تستدير العيون الى الوجه
المتقنع الممتنع على الانفعال • ويستدير هو باتجاه السيارة غير عابئ • تنكفي
العيون خوفا من العاقبة • يلطم مواطن جميع من حوله وقد قرر الهجوم • الى
اليمين يمسك خياط القمصان بخرطوم أزرق ويرش الماء أمام حانوته • يخرج
رجل من بين الحشد حاملا خبزه وعرقه • تقف امرأة محجبة أمام العربة ،

وتتفحص حبات البطاطا • يصيح البائع : « بخمسة وستين ، التفاح ! »
ويقول المذيع : « طائرات العدو تقصف قرية أردنية في الخليل ودباباته تدمر
ما بقي من بيوتها • • تدشين أول خط للأنابيب بين كراتشوك وطرطوس ايدانا
ببدء أول استثمار وطني للنفط في العالم الثالث • • » يجيء دور المتأخرين
فيتقدمون الى الصف الاول • والاول بينهم يضع النقود على المنصة ، ويغض
الطرف عن سرعة أبي نصوح في الوزن • يختطف كيلوات الخبز الثلاث •
يتقهقر مستسلما للطمّة على خاصرته ودعستين على قدميه • ويقول المذيع :
« الثوار الفيتناميون يخوضون معركة ضارية في المرتفعات الوسطى ضد قوات
الاحتلال الاميركية ، ويشددون حصارهم لقاعدة دانانغ • • »

في المقهى تلمع أسنان عربي بك فوق هامة بسام بك المتدنية • تفرقع إحدى
حجارة النرد بصوت ثاقب • يستقيم قذال بسام بك ، وتطرق عيننا عربي بك •
اليهما يجيء شيش بيش • يحيي ويجلس • يشهر بسام بك يده أمام جبينه ،
ويمدها فيصافحه • تلمع أسنان عربي بك وتبرق عيناه الزرقاوان • مطأطئا ،
يقول بسام بك : « أهلا ، أبو محمد • » يقول شيش بيش : « أرى المعركة
حامية الوطيس • ما النتائج ؟ » يقول عربي بك : « هذا الرجل ، الله يصلحه ،
كامل • بس لعبه ناقص • لا تزعل مني أبو وائل • » تحت الطاولة يرتب بسام
بك حبتي النرد بين أصابعه على النحو الذي يريد • يرمي الحبتين بلطف •
يقول : « أنت ، لولا أنك تتلاعب بالزهر ، جولة واحدة لا تكسب • ولا نصف
ربع جولة • » يقول عربي بك : « ما حيلتي يا أبو وائل ؟ الله سبحانه وتعالى
خلقني هكذا • لا أستطيع ، هذا قضاء الله • »

ويقول المذيع من راديو المقهى : « طائرات العدو تقصف قرية أردنية في
الخليل ، والدبابات تدمر ما بقي من بيوتها • • تدشين أول خط للأنابيب

بين كراتشوك وطرطوس ايدانا ببدء أول استثمار وطني للنفط في العالم الثالث . . الثوار الفيتناميون يخوضون معركة ضارية في المرتفعات الوسطى ضد قوات الاحتلال الاميركية ويشددون حصارهم لقاعدة داناغ . . »

يثب شيش بيش الى حيث جثم المذيع العتيق الضخم على طاولة قيمّ المقهى . يقتعد كرسيا وينصت . يقول المذيع : « ارتكب العدو الصهيوني صبيحة هذا اليوم مجزرة مدبرة تنم عن الفدر والبربرية . فقد قامت الطائرات الصهيونية في السابعة الثامنة والرابع بقصف وحشي متواصل دام حتى التاسعة لقرية السموع الآمنة في جنوب الخليل . وفي الوقت نفسه اخترق بساتين القرية أرتال من الدبابات ، أشعلت النيران في الاشجار ثم توجهت الى القرية فقصفت حواريتها قصفا مركزا استمر حتى الحادية عشرة . وتقول وكالة الصحافة الفرنسية أن الطائرات والدبابات المعادية قد مسحت القرية مسحا وسوت بيوتها بالارض ، وبعد ذلك قفلت راجعة ، مخلفة وراءها أشلاء وخرابا وحرائق . هذا وقد تقدم الاردن بشكوى عاجلة الى مجلس الامن طلب فيها عقد جلسة طارئة لبحث العدوان الاسرائيلي الآثم . وتقول التقديرات الاولى أن عدد القتلى يبلغ العشرات وأن عدد الجرحى يتجاوز المئة ، فضلا عن دمار القرية بأكملها . »

بغير مقدمات يتقدم الامير ويجلس قرب شيش بيش - يفرش على الطاولة صحيفة اليانصيب ، ومن جيبه يستل رزمة من الاوراق . يتناول الاولى ويمررها بعذاء أعمدة الارقام الاربعة ، جبينه مقطب وحاجباه متكرنشان . يطلق شتيمة ويمزق الورقة بأناقة الى ثماني قطع . يتناول الثانية . يراقبه شيش بيش نصف ذاهل ، والاوراق تمر على أعمدة الصحيفة ثم تمزق وترمى . أخيرا يرفع الامير رأسه وينظر الى صديقه . يرفع حاجبيه بسرعة خاطفة كمن يقول : لم نربح

شيئا • يسأله شيش بيش : « أنت مثل الحكومات العربية ، تراهن على الاحصنة
الخاسرة • » يقول الامير : « المشكلة أن الاحصنة نفقت • والآن جاء دور
البغال • »

ينهض شيش بيش الى صديقيه الكهلين ويتابع مراقبته لهما • يسترخي
على كرسيه كمن اعتاد على المراقبة ، وتوقع التحركات الافضل والتوزيع
الادهي للحجارة • يسأل عربي بك : « دكتور ، الى متى يظل الاسرائيليون
يضربوننا ونحن ساكتون ؟ » يبتسم شيش بيش ولا يجيب • يقول بسام بك :
« الحديث عن المركة على قدم وساق ، أخي • الاسرائيليون حاشدون جيوشهم
على حدودنا • »

فجأة يقف الى جوارهم أبو هيثم متخشب الوجه والجسم : « ماذا تشربون ،
يا سادة ؟ » يلتفت اليه عربي بك : « أنا ، هات لي ليمون بدون دود • »
ثابتا في وقفته يقول أبو هيثم : « عصيرنا في العادة بدون دود • » يقول عربي
بك : « صحيح بالله ! هات ثلاثة اذن • » ينحني أبو هيثم تعبيرا عن موافقته
على الطلب ، ويمضي بخطى كسولة ضجرة •

يصيح بسام بك معلنا نصره المرحلي : « أنت لا تعرف اللعب • أنت
لاعب ، أنت ؟ » ويميل الى شيش بيش ليخصه بالحديث : « أخي ، من يوم
ما حمل فكين جديدين ، ونحن عاجزون عنه • » ينظر اليه عربي بك بجدية
منذرة • يحملق الى وجهه هنيهات • يقول : « أنزعهم ؟ أنزعهم ؟ » ويرد الآخر :
« لا ، دخيلك • لا تتغلب • بفكين ومخيف لنا ، كيف بدون فكين ؟ » •

ينصرف اهتمام شيش بيش الى الصبايا والنساء العابرات الشوارع •
أمامه يمشين ، كل في وهمج عالمها الخاص • يعزله الأسى والشرود : أعلى هذه

البشرات الدافئة دائما أن تلوح ، وعليه أن يصبو.؟ يتذكر أسمى ويتمنى فقط
لو بقي له هذا الوطن الصغير الجميل .

ويعلن المذيع : « وتقول وكالة الصحافة الفرنسية أن الطائرات والدبابات
المعادية قد مسحت القرية مسحا وسوت بيوتها بالارض . وبعد ذلك قفلت راجعة
مخلفة وراءها أشلاء وخرابا وحرائق . هذا وقد تقدم الاردن بشكوى عاجلة
الى مجلس الامن طلب فيها عقد جلسة طارئة لبحث العدوان الاسرائيلي الآثم .
وتقول التقديرات الاولى أن عدد القتلى يبلغ العشرات وأن عدد الجرحى
يتجاوز المئة ، فضلا عن دمار القرية بأكملها . » عندئذ يهوي رأس أم خلف
على راحتها وتجهش بالبكاء . هذا الكابوس متى ينتهي ؟ تميل اليها أم إمام
وتمسك بكتفها : « فاطمة ! فاطمة ! » لكن أم خلف لا تستجيب . تبكي بهدوء
وانكفاء : « أعرف كيف يحرقون القرى ، » تقول لصاحبتها « أعرف كيف
يحرقون القرى » . وتود أم امام أن تقول شيئا : « ضروري هذا البكاء ؟ »
« ماذا أفعل ، اذن ؟ » وبعد هنيهات يتسلل صوت عبر الراحتين البيليتين . « لو
مرة يجيء خبر بالعكس . مرة واحدة . » وتحاول أم امام أن تهديء خاطرها
فتفصص بالدمع . بعد قليل تسمع صوتها وهو يتمتم : « ترى ، ألن نعود أبدا ؟ » .

أشرطة الاوراق الملونة تتصالب في الرواق النظيف فوق الرؤوس الصقيلة
واللافتات العماسية تكسوا الجدران . الأذنون يروحون ويجيئون بتعجل هيا .
المدير يمسح المكان بعينين قلقيتين . أبو قاسم يمسح أرض البهو للمرة الثالثة
وينتقل الى الدرج . من البوفيه ينبعث صوت (شادية) المغناج . يقترب
المدير من أبي قاسم ، وجهه شاحب وثيابه متهدلة . يشير اليه هنا وهناك أن
يمسح الزوايا ومقرنصات حاجز الدرج . ينفذ المعجوز التعليمات لاهثا . يثور
حنق المدير ، لكنه يترفع عن اظهاره أمام الأذن . يترك مكانه فجأة ويسرع الى

المستودع : « الكراسي ! » يصرخ بالآذنين زاجرا : كيف ينقلون الكراسي دون أن يمسحوا عنها الغبار • ينسل أحدهم الى المفاصل ويرجع بغرقة نظيفة •

يعود المدير الى البهو ويسأل أبا صياح هل جاء المدرسون • يأتيه الجواب بالنفي • يهز رأسه كرها • يفك ربطة عنقه • يتهدل مع ثيابه باتجاه غرفته • أمام الباب يرى عليا واقفا • يحييه ويهز رأسه : « أنت الوحيد الذي جساء حتى الآن • المدرسون بكوات • يصلون سوية مع الوزير • » يدخلان الغرفة • يقول علي : « وأنا جئت لاعتذر ! عن المشاركة » • يحملق اليه المدير غير مصدق : « الوزير آت ! » « أعرف • وأنا سأنسحب لثلا أخرجك • سيسألنا عن مشاكلنا في المدرسة ، وهو لا يتوقع أية شكوى جديدة • هل تتوقع مني السكوت عن موضوع تفسيرات التاريخ ؟ يجب أن تشكر انسحابي لأنني سأنجيك من وضع محرج • » لا • تحدث مع الوزير ، اذا أردت • تحدث معه كما تريد • أرجوك ، كيف تترك ؟ » « قل لي ، متى تعين مديرا للتربية في دمشق ؟ » •

يبتسم المدير • يدور حول الطاولة ويجلس على كرسيه الدوار • يدخل بسام بك والاستاذ أنطون • تبدأ الأحاديث الجديدة : مشاكل المعلمين : الكتب المدرسية ، المناهج ، الرواتب فالرواتب • يدخل الاستاذ عدنان فيكرر اقتراحه بتخصيص سيارات تنقل المعلمين من مدارسهم واليها أسوة بموظفي الاذاعة والتلفزيون • ومع الاستاذ عبد الرحمن تترقق مشكلة مستوى التدريس الذي تدنى بشكل محزن • ومع الاستاذ سليم تزوبع مشكلة الامتحانات • وبعد دقائق تمتليء الغرفة بالمدرسين •

أمام طوفان الحاجات والاحتجاجات يضع المدير ساقا على ساق ويثني ذراعه على الساق العليا : يوم يصير مديرا للتربية سيعمل هذه المشاكل جميعها • يثبت نظرتة على الطاولة بانتظار اعطاء الكلمة له • وأخيرا يلقي خطابا • ينسل

صوته الشحيح متلبسا باللغة العربية ونضال المعلمين • يغدو وجهه جليلا
وترشح تقاطيعه بالكبر وجسامته الضمير ، فيضع المعلمين أمام مسؤولياتهم
التاريخية • فجأة وإذا جو الغرفة خاشع وخطير • يصمت المدرسون وتصمت
مشاكلهم • ويكتشفون أن عليهم واجبا مصيريا في هذا الظرف المصري : كبس
الجرح بالملح وابتلاع السكين لاجل المعركة • وأية مشاكل تقف أمام تحرير
الارض المفتصة ؟

في البهو يسمع علي صوت المذيع : « بشكوى عاجلة الى مجلس الامن طلب
فيها عقد جلسة طارئة لبحث العدوان الاسرائيلي الاثم • وتقول التقديرات
الاولية أن عدد القتلى يبلغ العشرات وأن عدد الجرحى يتجاوز المئة ، فضلا عن
دمار القرية بأكملها » •

« ما هو نائب الفاعل ؟ » تسأل سليمي تلميذاتها الصغيرات • تنهض فتاة
مهزولة شاحبة الوجه وترفع يدها • يتهلل وجه سليمي فرحا بها • « تعالي
هنا » وتشير اليها أن تتقدم فتقف أمام الطالبات • لكن الفتاة تتلكأ وتزداد
شحوبا • تلتفت اليها بتوقع معترف بتفوقها • كذلك تفعل سليمي • ويبدو
على وجه الفتاة قلق غامض ، تضارب بين الرغبة والعجز • ثم تزوغ نظرتها
ويهوي جسمها على المقعد •

تنتفض سليمي من خلف طاولتها وتهرع الى الصبية • عندما تصل اليها
تتيقن من حالة اغماء • تتعاون والطالبات فيخرجنها من المقعد ، ومن الصف •
يسرعن بها الى غرفة الاسعافات الاولية • هناك تنعشها بالماء والضرب الخفيف
على وجهها ، فيما تتدلى الصغيرة بين يديها كفصن ذابل •

أخيرا تفتح عينيها • تجلسها سليمي على كرسي • تناولها كوبا من الحليب

فتمسكه الفتاة بكلتا يديها وتشربه دفعة واحدة • تبتسم بلا ارتباك ، كأن ما حدث لها تكرار ممل لحادث ممل اعتادت عليه • تسألها سليمي : « أنت تعبانة يا نجوى ؟ » وتهز الفتاة رأسها باستحياء : « جوعانة • » « لم تفطري ؟ » « ولا تمشيت » • « كم واحد أنتم ؟ » « تسعة ، والبابا والماما • • » « تعالي معي » • تمسكها بيدها النحيلة وتمضي بها الى غرفة المدير • هناك تنتظران انصراف الاخريات • دقائق وتبقى النسوة الثلاث وحدهن • تقول سليمي : « هذه نجوى ، التي أنذرناها أن تشتري صدرية رسمية ، أغمي عليها في الصف • » وقبل أن تتكلم المديرة تقول نجوى : « بابا لا يشتري لي صدرية لتفصلوني من المدرسة • » تتابع سليمي حكاية ما عرفت من الفتاة • وتساءل المديرة : « خبز ! لم تأكلي كسرة خبز عند الصبح ؟ » تقول نجوى باضطراب : « نحن تسعة أولاد • » • وتصمت الاخريان ، لتخمننا نتائج تناول الخبز ، وتستوعبا هذه المأساة المضحكة • اعادة لموجز ما ورد فيها من أنباء • طائرات العدو تقصف قرية أردنية في جنوب الخليل ودباباته تدمر ما بقي من بيوتها • • تدشين أول خط للانبائيب بين كراتشوك وطرطوس ايذاناً ببدء أول استثمار وطني للنفط في العالم الثالث • • الثوار الفيتناميون يخوضون معركة ضارية في الهضاب الوسطى ضد قوات الاحتلال الاميركية ويشددون حصارهم لقاعدة دانانغ • • زعيم يساري يوناني يطالب الحكومة بالاستقالة واجراء انتخابات عامة • »

تقبل أم النضر جليلة ولامعة الوجه • على رأسها تجثم كتلة مصفورة من الشعر الغضاري ، وجيدها الأتلع يزدان بقلادة فوسفورية الضياء • تمتدح أصناف الطعام وترتيبها ، وتدعو لأم لؤي يسلامة اليد • تبتسم عائدة بطرب خاص • تعلن عن استعداد المائدة لاستقبال الضيوف ، وتطلب اليها وهي سيدة البيت ، أن تتلطف بدعوة الضيوف •

تفتح أم النضر ضلفتي الباب ، وتناديهم • يقبلون الى غرفة الطعام •

نرجو عائدة من أبي النضر الجلوس على الكرسي المتوسط . يهز أبو النضر رأسه علامة الامتنان . باصبعيه يتناول نظارته التي لا لون لها . لمسحها بمنديل ورقي . يجلس العقيد مفتوح الساقين . يتكئ بمرفقيه على الطاولة . لحظات وتكتمل اللوحة : أم النضر تتولى السكب، العقيد يتذكر مقالا عن التربية في سورية قرأه مترجما ولا يعرف أين ، أبو النضر يهنيء لنفسه كأسا من الوسكي فيتذوقه ويهز برأسه علامة الرضى ، عباس وعائدة يجلسان الى طرفي الطاولة .

يقول أبو النضر : « نحن في سورية ، سنضع أجهزة التربية تحت سلطة الدولة واشرافها . بعد عشرين عاما من الاستقلال ، نجد أن مصادر تفكيرنا وثقافتنا وتربيتنا مصادر غربية . وهذا يتعارض مع مبادئنا وعروبتنا . يهدد أصالتنا القومية . لذلك، وبكل بساطة ، قررنا ، اعتبارا من أول العام الدراسي القادم ، تعميم مناهج وزارة التربية على جميع المدارس الاهلية والتبشيرية » . يهتف العقيد : « أم لؤي ، تكرمي علي بكأس . حمسني أبو النضر للشرب » .

تنهض عائدة . ويتابع أبو النضر : « نحن نشعر أن بأعناقنا مسئولية تجاه الجيل الناشيء تفوق مسئوليتنا تجاه الجيل الحاضر . الجيل الحاضر تكون تقريبا ، وانتهت مشكلته . الجيل الناشيء هو الذي سيصنع الحضارة العربية والانسان العربي . هو الذي يجب أن ننمي فيه الأصالة الثورية ونفذه بالفعالية الثورية » .

يهتف العقيد : « اي والله ! تسلم يدك يا أم لؤي . أبو النضر ، تكرم علي بزجاجة الوسكي ، من فضلك » .

يناوله أبو النضر الزجاجة غير ملتفت اليه . يقول : « في ذهني فكرة

عمرها عشرون سنة : اذا استطعنا أن نجعل البون الحضاري بيننا وبين أبنائنا
معادلا للبون الحضاري ببيتنا وبين آبائنا نكون قد صنعنا مبدعة تاريخية » .

يقول العقيد : « عفوا منك ، أبو النضر ، تكرم علي بالثلج - عدم
المؤاخذه » .

يناوله أبو النضر سطل الثلج اللازوردي غير ملتفت له .

يقول عباس : « فعلا » كما يقال ، نحن في سباق مع الزمن » .

يبتسم أبو النضر : « وهو سباق في مصلحتنا » لاننا أمة متنبلة على الحياة
كل يوم يشتد ساعدها أكثر . لكن هذه المهمة لا يصنعها أفراد معينون ، مهما
بلغت قوتهم . يصنعها التراكم المتزايد للعمل اليومي . مقولة ماركسية مسلم
بها . وهكذا بالاساس تبنى الحضارة . الاقتصاد والتربية والفنون » .

تقول عائدة ، وقد رأت أن عليها المشاركة في الحديث : « سمعتم الاخبار ؟
الاسرائيليون مسحوا قرية أردنية عن بكرة أبيها . لم أسمع التفاصيل ،
الموجز بس » .

يقول العقيد : « سيظلون يمسحون ، حتى نسمح أمهاتهم عن وجه الارض
ذات يوم » .

يقول أبو النضر : « بعد أربعين عاما ينتقم العربي فيقال له له : تعجلت » .

يقول العقيد : « العربي صبور » يتحمل » يملك أصالة الجمل في الصحراء »
تحملنا اسرائيل عشرين سنة ، والاستعمار الغربي مئة سنة ، والعثمانيين
أربعمئة . لكننا هزمنا الاعداء دائما . وسنهمهم » نخبك ، أبو النضر » .

وفيما يرفع الرجلان كأسيهما بمودة وثيقة، يلصق محمود وجه الترانزستور بأذنه ويمضي في الشارع الحافل • يجفله زمرور سيارة زعق خلفه بغضب ، فيقفز الى الرصيف • يعيد الصاق الترانزستور بأذنه • يمرق بين هذا وذاك ، يلف حول عربة ، يتحمل دوسة على حذائه الخلق ، وينتقل الى السموع فداناغ فأثينا فواشنطن ، ويحط أخيرا في الباص المحشو بالركاب وقوفسا وجالسين • هناك يرمقه جيرانه بفضول • يتظاهر باللامبالاة ، ويحكم الصاق الترانزستور جيدا • يجمعهم أحدهم ويقول متشجعا رصينا : « أخبار ؟ سمعنا • » يقلت محمود فبضته عن جسر الباص المعدني ويعلي صوت المذياع • وبدون مقدمات يلف الباص كوعا فينطرح محمود على جيرانه • يمسكون به ويعيدون له توازنه ، ولانفسهم توازنهم • يقول أحدهم : « وأي خبرية ! العمى بعيونهم ، وحوش ؟ » ويقول آخر : « سيدي ، رح خرمشهم أنت خرمشة بس • جماعة صاروا بطرانين • »

يقول ثالث : « وكل النهار حديث عن المعركة ! » « اذا نحن قعدنا ساكتين ، هم لا يقعدون • »

ويقول الملك وهو يهوي بقبضته النحيلة على زجاج الطاولة : أفيقوا يا أخوة السبايا • شوفوا الاسرائيليين لا يبلعوا الزرع والضرع • « يشعل سيجارة بيد معروقة ووجهه كظلم • يرشف بعض القهوة • يضع راحته على وجهه ويطرق • يتدفق الدخان من منخريه بقوة وكثافة وينسفح على زجاج الطاولة • »

ويقول الأخ أبو العبسي : « حقيقة لا ينكرها أحد : التشريع العمالي في قطرنا ، أرقى تشريع عمالي في العالم • ضمانات قانونية ، وصحية ، ونسبة أرباح عالية زيادة على الاجر • لا يستطيع أي رب عمل أن يسرح أي عامل • »

ويعلق الاخ منصور مازحا : « سوى أننا لم نصرف شيئا من هذه الارباح ، وقد لا نصرف أبدا . » يقول الاخ أبو العبسي : « ماذا تريد اذن ؟ » يقول امام : « أنا أستغرب حديثك عن التشريع العمالي في قطرنا . صحيح أنه تشريع يحفظ كرامة العامل وحقوقه ، ومع التفاوضي موقتا عن مسألة الارباح ولكن التشريع بذاته ليس اشتراكيا . » تسري هممة ولفظ واحتجاجات . يصمت إمام هادئا منتظرا . وتصل أغلبية المجتمعين الى قرار غير مباشر بادانة رأيه ، فترتاح خواطرهم . يقول : « هذا التشريع قائم على أساس وجود طرفين ، عامل ورب عمل . مهما كانت حقوق العمال محفوظة ، يبقى هناك رب عمل يملك أدوات الانتاج ، أو أداة الاستثمار بالاحرى ، الدكاكين والافران والمقاهي وأعمال البناء . التشريع لم يبلغ رب العمل كظاهرة اقتصادية واجتماعية . والعامل بحسب هذه القوانين يكرس عاملا وليس مالكا ، حتى في المنشآت والمصانع المؤممة . العامل عامل وبس ، لا يملك . وانما هو أجير . بقيت العلاقة البرجوازية قائمة . » بين العامل ورب العمل ، وبين العامل والحكومة . وأنا لا أعرف أين الرقي في هذه العلاقة . » يصمت الاغليون بحلق . ويقول الاخ شبلي : « صحيح ، ولكن وضعنا في الوقت الحاضر أفضل بكثير من الوضع السابق . » وتتعالى هممة موافقة . يتمطى ، كأن الاجتماع قد وصل الى نهايته . يفتح المذياع : « وتقول التقارير الواردة من جبهة القتال أن الثوار الفيتناميين الذين يحاصرون القاعدة العسكرية الاميركية داناغ قد صاروا على مسافة ثلاثة كيلومترات منها ، وأن صواريخهم قد دمرت اليوم طائرتين جاثمتين على أرض المطار وأربع طائرات هيلوكوبتر . كما دمرت عددا من المنشآت العسكرية هناك . »

وفي زمن ما يفيقون . يفيقون على الدهشة والحزن . تتمليء أعينهم

بالكلمات ، وأفندتهم بالمرارة ، وأفواههم بالصمت . العدو ما يزال هناك ، على مسافة ما يدركونها ولا يدركونها . وبينه وبينهم نقاط حراسة ومخافر لا يستطيعون اجتيازها . يقول المذيع ان الحكمة تقتضي الانتظار ، فالذي يرويه من العدو ليس الحقل الاول المزروع الغاما . يقول ان العدو الممتد طولا حتى واشنطن يتصيد خطأ استراتيجيا ليجعل منه كارثة تحل بهم . كلام صحيح ذلك الذي يقوله المذيع . وهم يصدقونه . في الصباح والمساء ، في الضحى والليل ، في الفرن والمعمل والمطبعة والمدرسة ، في البيوت والحدائق والشوارع العاشدة ، في اليطون الفارغة والمتخمة والعقول الغافية والمفيقة - هناك دائما المذيع .

وفي زمن ما يفيقون . ونشرات الاخبار العربية كثيرة . ليس ثمة احصائيات ، بالطبع ، لكن سليمان يعتقد أنها تقارب المئة يوميا . ثم تأتي التعليقات السياسية ، والافتتاحيات السياسية ، والخطابات السياسية ، والمؤتمرات السياسية ، والبيانات السياسية . ترن كلها على غشاء الطبلية ثم تنتشر أصداؤها بعد حين . صحيح أنهم يشاركون ، ولكن في الاستماع فقط . يعرفون ما حدث ، وان كان غيرهم يصنعه . يفهمون كيف تتحرك الاجهزة ، وتسافر الاسماء الالامعة . يشاهدون كيف تتضخم الاحرف على صفحات الجرائد وتختفي ، وكيف تتأرجح الابراج العالية . غير أنهم يتفرجون : لان لديهم بساطا مديدا من اوقات الفراغ . يتفرجون بأعينهم وأذانهم وأنوفهم ، على المهرجانات والطين والفضائح . ودائما يبقون واثقين من أن أحدا لا يستطيع أن يبلفهم - الى الأبد .

وينمي الى علمهم أن الحرب ستقع لا محالة هذه المرة ، وأن المسألة جدية لا مزح فيها . ثم يرتسم على وجوههم ذلك النوع الكهين من الابتسام الذي يقول ولا يقول . يناقشون الدبا كحقيقة وشيكة الوقوع ، يقلبونه ظهرا

لبطن ، تعلو نبرة أصواتهم ، يحتدم شعورهم ، يستفرقون في الاحتمالات ؛
يجعلون الاحتمالات أرقاما والارقام حوادث ، يصيرون علماء في الجغرافيا
العسكرية وخبراء في فنون القتال ، يتشعب الكلام وينسون موضوعهم . ثم
يتذمر أبو امام من ارتفاع سعر السكر ، من اختفائه وتهزيبه . صار الآن
يحسب حسابا لكاسة الشاي قبل أن يشربها - وبعد أن يشربها أيضا . يقولون
أن الشاحنات تنطلق عبر الاراضي غير محتفلة بالحدود والمخافر وشرطة المكافحة .
أحيانا تدور معارك طاحنة ، ويسقط قتلى . وأحيانا تتم تسوية بالتراضي من
نوع ما . باختصار : ان دمشق الخالية تماما من السكر مليئة به .

يقول علي لامية : « الحياة سلحفاة » تتقدم بطريقة مضجرة . . وتشير
الرثاء : لان كل هذا الذي نتصارع لشأنه سيبتلعه الزمن ذات يوم . وسننظر
حولنا متأسفين على الجهد الذي بذلناه لنصل الى أشياء بديهة - قيم وعلاقات
انتاج . . لو تصورنا حالنا ، أنا وأنت ، بعد خمسمئة سنة مثلا ، ستكون البشرية
في تلك الايام اعتادت على أن الرجل والمرأة لا يمكن أن يكتفيا بعضهما ببعض ،
وأنه لا بد من عشيق وعشيقة . سيكون الخبز والحب ملكية سهلة للجميع ،
والحرية التي لا تؤذي أحدا وتحقق ذات الانسان . لن تكون هناك أسرار ولا
خفايا ، وسنكون أنت وأنا قادرين على الذهاب أينما أردنا ، والزواج مسألة
اختيارية وبس . سينتهي الارهاب . »

ترفع رأسها عن كتفه باعتذار : « طلع الضوء . »

يقبلها وينهض : « دائما نفترق عندما يطلع الضوء . »

ثم تجيء الانباء عن حداث ما حدث في اليونان . يعرفون أن السياسيين
المحتكين ، وبهلوانات السيرك الديمقراطي النيابي ، لم يعودوا ينفعون . تقول ،

لهم نشرات الاخبار ان الفوضى والتلاعب بمصالح الشعب قد بلغا حدا لم يعد السكوت عليه ممكنا . وتقول نشرات الاخبار ان أيدي غريبة قد تركت قفازاتها في مكان الحادث واختفت . وتقول أيضا ان ما حدث لم يكن مفاجأة كبيرة . وأيضا ان النظام والعمل الجدي سيشقان فورا طريقتهما في حياة الشعب اليوناني العريق . وأيضا أن المئات قد اعتقلوا ، بمن فيهم الموسيقيون والفنانون والادباء . وأن الرشوة والتسيب السياسي والاداري سينتهيان مرة وإلى الأبد . باختصار : ان الكولونيالات قد ارتدوا ملابس مدنية فوق مسدساتهم ، ثم امتطوا الدبابات وتقدموا من قصور الدولة . ويلصق محمود وجه الترانزستور على أذنه ويقول : « يا مغيث . الله يجير اليونان من هالدوامة » .

قبيل الغروب تقول سليمى : « تصور ! انقلاب في اليونان ! »

يتمتم امام : « أين الغرابة ؟ تظنين أن اليونان محصنة بتعويذة ؟ » .

« لا . ولكن اليونان ! الحلف الاطلسي والديمقراطية الغربية وكل هذه

الاشكال ! واليونان حليفة الاميركان ! لماذا العسكر ؟ » .

« عسكر اليونان ، يامعلمتي ، هم الاحتياطي الاخير . احتياطي نفسه متقطع

ولكنه متجدد . لذلك يمكن الاعتماد عليه ريثما تترتب الامور هناك .

بورجوازية اليونان توشك على الانهيار بسبب عجزها وتبعيتها المفضوحة .

هناك خطر حقيقي على الاميركان من نمو حركة وطنية تربط مصالح اليونان

بمصالح شعوب المنطقة المجاورة . لذلك جاء الاميركان بالعسكر . بالعسكريتاريا ،

مثلما سماهم بعض الناس ، لانهم فئة متكونة ، قوية ، جاهزة للقمع وتتطلع

للانتقال من بورجوازية صغيرة الى بورجوازية صحيحة ، ولكن غير ملتزمة بالحد

الأدنى من مبادئ الديمقراطية الغربية . وهكذا يتم ضرب الحركة الوطنية في

اليونان عن طريق العنف المباشر ، أو عن طريق انتحال شعاراتها • لا نعلم •
سنرى ما سيجري في اليونان • »

وتكون عبارة امام الرصينة أضخم اهتمام ممكن ببلاد العم أرسطو • انقلاب
عسكري ، هذا كل ما في الامر • سيتسلى الناس بحديث الاعتقالات والصمت
دون أن تخطر لهم المقارنة بين الاسكندر الكبير والكولونيل بابادوبولوس •
وسوف يتفرجون على كركوز وعيواظ الى أن تشرق شمس انقلاب عسكري
جديد • ثم تغيب اليونان عن نشرات الاخبار ، وتتوارى الى احدى زوايا
الذاكرة البهمة • وتطفو فيتنام ، وتفوص وتطفو ، بحسب شطارة شعبها •
وفي الاقاويل المتكاثرة عن الحرب المقبلة ، يحلو لهم أن يصوروا البلاد وقد
صارت فيتنام ثانية • لا يعرفون بالضبط كيف جاءهم مثل هذا التصور ، ولا
يتساءلون • ففي تلك البلاد الواقعة عند مشرق الشمس ، يضرب العم سام على
قفاه • وفي هذه البلاد الواقعة عند الظهيرة ، يمكن أن يضرب العم سام على
قفاه • هناك يموت العشرات كل يوم دفاعا عن حريتهم ووطنهم ، وهنا يمكن أن
يموت أكثر من ذلك • هناك يحمل الناس البارودة بيد والمول بيد ، وهنا
يهيئون أنفسهم لمثل هذه الازدواجية • أمور مسلم بها • والسياسات تؤكد لها •
حتى أبو امام يقول : « نحن من بني آدم ، وهم من بني آدم • مثلنا مثلهم •
وأكيد أنهم يشكون من فقدان السكر مثلنا • »

وشيش بيش يحاور أسمى : « أنت تفتقرين الى حس بالماضي • • »

فتقاطعه : « أوه ! كم عندي ! انما هو حس اشمئزاز • ما هو الماضي ؟ في
حياتنا هنا ؟ • • »

فيقاطعها : « الناس تعبوا آلاف السنين لتقوم مؤسسة الاميرة ، وأنت
تعتبرينها صفرا على الشمال • • »

فتقاطعه : « مؤسسة الاسرة العظيمة هذه .. في بلادنا .. تعود الى ما قبل التاريخ .. الاسرة تقوم لأن المرأة عبدة حقيرة .. »

فيقاطعها : « يا الهي ! أنت تتكلمين عن عالم آخر . أنا لست من هذا النوع . أنا أتزوج لأنني أحتاج .. »

فتقاطعه : « مها ! يحتاج .. قال ! أنت تتزوج لأنك تريد أن تتأكد أن المرأة لك ، ملكك . »

« أنت انسانية ، عندك أفكار متطورة تشوش عواطفك الطبيعية . »

عندئذ يصمتان ، هي محدقة اليه وهو مطرق بعناء . يجمع وكأنه يخاطب شخصا آخر : « أين الخطأ في أن تكون المرأة لي وأكون لها ؟ أريد أن أتزوجك لأن حبي لك أعاد الي الحياة . صرت أشعر بطعم للأيام ، هو طعم شفتيك . صارت حواسي مستيقظة على الأمور . .. كنت من قبل أعلق عليها بسخرية . عندما سمعت أن الاسرائيليين دمروا قرية السموع ، تذكرتك فورا . تمنيت أنك بين يدي . »

ثب اليه وتطوق كتفيه بزنديها وتقبله . « أظن أنني أحبك ، لعنة الله علي ، « تقول له ووجهها ينفرك بياقة قميصه . « لكن .. تصور اني انا الدكتورة وانت الطالب في الجامعة . كذبت تسمي هذا زواجا ؟ »

يجد نفسه عاجزا عن رفع يديه وتطويق هذا الجسد الذي أخرج روحه من سباتها . يقول : « لكن .. حتى في المجتمعات الاشتراكية ، الناس يتزوجون . » ترتد عنه وتجلس الى جانبه : « اي . تلك مجتمعات اشتراكية . هناك لكل انسان شخصيته ، رجل أو امرأة . هنالك لا توجد أنماط . يوجد أفراد

متحققون تجمعهم بيئة جديدة مشتركة • الأزواج ، بينهم تكافؤ اقتصادي •
هنا ، مجتمع اقطاعي برجوازي يجب تغييره أولا • »

مرة أخرى يجمعهم وكأنه يخاطب شخصا ثالثا : « لماذا نختلف الى هذه
الدرجة ؟ » •

وتجيبه بتقريرية مثيرة : « لأنك أنت حققت ذاتك وصرت برجوازيا •
أنا أريد أن أحقق ذاتي وأظل بروليتاريا • ولا تنس : نحن من جيلين مختلفين
فعلا ، وليس فقط من طبقتين مختلفتين • في هذه الايام ، خمس سنين تعادل
ثلاثين • »

تعلن نشرات الاخبار أن مجموعة ممن يسمون أنفسهم فدائيين أغاروا على
ناد لضباط اسرائيل فنفذوا حكم الموت في ستة وجرحوا ضعف العدد • عندئذ
يتم التطابق وتنتفي الالتباسات • ثم تجيء التفاصيل من خارج الراديو ووكالات
الانباء : كانوا أربعة - أحدهم وقف عند المدخل وتصنع الانتظار المتسكع -
دخل الثلاثة متحدثين الى العارس بالعبرية - توزع اثنان منهم في مكانين مشرفين
وهيئا رشاشيهما - توجه الثالث الى منصة الرقص والغناء ووقف أمام مجهر
الصوت متكئا على رشاشه - كانت الاوامر بالعبرية قد صدرت من الاثنين
الآخرين بأن أية حركة تعني الموت - وقال الرابع فيما قال ، مخاطبا جمهوره :
لقد اغتصبتم أرضنا وشردتم شعبنا وفرضتم علينا تحدي الموت أو القتال ،
ونحن قبلنا التحدي • ما حدث بعد ذلك يسهل تصويره ، وان كان فيه طعم لا
يستمره دائما عقل الانسان •

هؤلاء هم الفتية المفرورون - يهتف الملك - الذين ركبوا المحيط الاطلسي
يوم كان بحرا للظلمات ، وسافروا في الخطر والمجهول • كانت روح عروة بن

الورد فيهم وقلب موسى بن نصير ، وكان العالم ميدانا يمطرون عليه حبات رمل
أخصبتّها كيمياء النفس البشرية • موجز القول : ان مأساة الانسان في هذا
العصر هي انهيار كل مطلق صنعته البشرية • والمطلق لعبة جميلة ، نقطة
ارتكاز ، مقدرة فذة على الاستمرار ، علو فوق جدران الحياة اليومية ، مناعة
ضد السقوط في المجد والملكية • هو نوع من الايمان يمنح شعورا بالامن ليس
فقط أمام عيون الدولة ، وانما أمام الكوارث الاخرى كلها • وهؤلاء الاربعة
الذين تقدموا من الموت ، تقدموا من المطلق • هكذا النفوس الكبار • عندما
تفدو الحياة صغيرة يكون وداعها ولادة • هؤلاء عانقوا مطلقهم بالموت ، أما
هو ، صاحب الجلالة ، فيعانق الموت بالحياة الصغيرة •

يشعر في تلك اللحظة أنه فعلا صغير ولا يساوي شيئا • لقد كبر قليلا
بفناء الاربعة ، سوى أن فرقا صغيرا يبقى هناك بينه وبينهم • لكي يتخذ
الانسان قرارا في هذه البلاد ، وخاصة قرارا بالموت ، لابد وأن يكون قد
تشكل على نحو ما • لابد وأن تكون الحياة قد اكتسبت معنى يستطيع أن يوجه
تصرفاته ومواقفه حتى ولو كان فيها خسارة عظيمة • أو أنها حفرت في ضميره
وعلاقاته بالعالم مجرى لا سبيل الى الارتداد عنه • والملك يعرف أن التشكل
والمعنى والمجرى مجرد ألفاظ — كلام — سديم • وليس في هذه البلاد من يضايين
حتى النهاية • أصحاب القضية يصاحبونها حتى تصير صحبتها خسارة • ثم
يستقيلون ، أو يشتمون ، أو ينصرفون الى ملايينهم المستحية •

ينتهي محمود من رواية النبا بالقول : « اذاعة لندن ذكرت أن (الارهابيين)
الاربعة قتلوا • » عندها ترفع أم خلف ذقنها عن عصا المسحة وتبتسم ابتسامة
سعيدة دامعة • لقد أخبرها محمود من قبل عن أعمال الفدائيين • وتصورتهم
كيف تسللوا في الليل البهيم فقطعوا الطرق على سيارات العدو وفجروها ،

وكيف أوقعوا دورية معادية في كمين فأرسلوها الى يارثها ، وكيف دمروا مصنعا حريبيا ورموا مستوطنة بالصواريخ وנסفوا سكة حديد أو قطارا . وفي كل مرة من هذه المرات القليلة كانت الخبرية تضيء في خاطرها قنديلا عتيقا ثم تتوارى الى احدى زوايا الذاكرة الغافلة . وتساءل نفسها ، ترى ، هل تعود يوما .

وترى الآن أمامها صورة جديدة . الأرض التي سقاها أبو خلف بدورها . صارت مع الزمن شاشة داكنة . التلال الخضراء والسهول الغضارية ، الينابيع ونهر الاردن - وكلها كان ملعبا للصبا وحبّة قلب - ابتعدت رويدا رويدا ، أوغلت في البعد والعتمة ، لكنها لم تتركها . وهاهو الدم يضيئها من جديد . الصورة ليست لنادي الضباط الاسرائيلي ولا لحادث الموت . انها مزيج متضارب من وجوه شرسة وأزهار برية ، تتلامح وتتداخل وجها بعد زهرة ، ووجها في زهرة ، ودفقة من نجيع ، ولهبا منتشرا .

قرية السموع ونادي الضباط : سفر قديم وسفر جديد . يتساءل امام : « نحن نائمون أم مفيقون ؟ » ويمد لسليمى شريحة بصل فترفضها . « اذا لم تأكلي فرمة بصل ، كيف أبوسك يا معلمتي ؟ »

« أنا بنت مهذبة ، ولكن اذا كان بودك بوسة ، أتساهل معك . »

يقول محمود : « كيف يعني ، أستاذ امام ، نائمون ومفيقون ؟ »

« من عشرين سنة ، أرضنا محتلة وعزيمتنا فائزة لتحريرها ، ولم نطلق رصاصة واحدة بهذه الطريقة ، واذا قامت الحرب ، سنأكلها ضربة للعمى . »

« هات بصلة أيها السيد الاشتراكي . »

« فعلا . ومع ذلك أقول لبناتي كل يوم نحن العرب مثل فيتنام . »

« هذا كلام جرائد • نحن غير مستعدين • أي حرب تعني هجمة أمبريالية جديدة موفقة • »

« لكن حادثة نادي الضباط ليست كلام جرائد • »

« في فيتنام طبقة كادحة تقاتل • شعب تخلص من آفات تخلفه • »

« ما معنى الحديث عن الحرب اذن ؟ الجميع يقولون ، الحرب قريبة • »

« اذا قررت اسرائيل الحرب يكون هناك حرب • من عشرين سنة واسرائيل هي التي تعاربنا ، ونحن نقول ، غدا نحاربها • »

« خذ بقية البصلة منلمي • أنا اكتفيت • »

« اسرائيل حاشدة نصف جيشها على حدود سورية • »

« حكي • • كله حكي • المهم ألا يختفي البصل اذا قامت الحرب • »

« ولا الرجال • »

« ولا الراديو والجرائد • »

« أطلب لكم قهوة على حسابي ؟ »

« عظيم ! للمعلمات أيضا دور في المعركة • »

ويقول المذيع ان الرئيس جونسون ولفي اشكول استقبلا الصحفيين وسط خمائل حديقة البيت الابيض ، وكان وجهاهما مشعشين بالابتسامات والرضى • ويقول انهما ردا على الاسئلة بأجوبة تفوقها غموضا • وكان آخر ما قاله رئيس الوزراء الاسرائيلي أنه يشعر بالاطمئنان فالاسطول السادس هناك (ويعني قرب الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط) •

ويقول المذيع أن الرئيس عبد الناصر أرسل كوكبة من جنده فتمركزت عند حلق خليج العقبة في شرم الشيخ مستعدة بذلك أرضاً مصرية، وأن الاسطول السادس يتحرك شرقاً الى وجهة غير معروفة . ويقول ان أسطورة اسرائيلية ، اسمها موشي دايان ، قد حملتها المظاهرات الى وزارة الدفاع . وأن المسئولين الاميركيين ، وكذلك البريطانيين ، ينصحون بضبط النفس بغية حل الازمة بالطرق الدبلوماسية . وأن الاتحاد السوفييتي حذر اسرائيل من مغبة العدوان على العرب . وأن الجنرال ديفول أعلن أن بلاده ستقف ضد من يبدأ الحرب . وأن الدول الاسلامية والثالثة ستقف الى جانب العرب . .

يصيبهم الارتباك والحيرة والتوقع والخوف . لقد قال المذيع أكثر مما بوسعهم ابتلاعه . يبدو لهم أن عيون العالم قد تحولت اليهم منتظرة حدوث أمر رهيب — هم الدراويش الذين يحبون شيئاً من البهار في طعامهم وقليلاً من الهيل في قهوتهم . يشعرون ببعض الخيلاء : إن لهم أهميتهم ، رغم كل شيء ، وحضورهم . يرون الى ذلك الجزء من وطنهم ، الذي غاب عن العين واليد منذ عشرين عاماً ، كحبيب أحس فجأة أنه قاب قوسين أو أدنى من لقاء حبيبته المفقودة . تمتلكهم رهبة ويستبد بهم شوق . ذلك الجزء كان بعض جسدهم ، ومكانه ما يزال فجوة في الخاضرة اعتادوا عليها ولم يقبلوها . على نحو ما سيعود الآن ويملاً ذلك الفراغ . لا يعرفون كيف سيحدث ذلك الالتحام ، ليست لديهم فكرة . أمر رهيب سيحدث . ربما في الليل الداجي . أو في غفلة قصيرة . ثم ينجلي عن شمس الحق الساطعة . ماذا سيحل بالعرب ؟ ماذا سيحل باليهود ؟ ذلك كله متروك لأيام ما بعد الحرب . المهم الآن أن حقاً قد اغتصب سيستعاد في ميدان القتال .

ويخرج عباس من وزارة الدفاع حاملاً كتابه بيمينه . يمتطي سيارته الى

البيت صامتا حازما • هناك يرمي ثيابه المدنية على أرض الغرفة ، ويرتدي ثيابه العسكرية • بين لهفة عائدة المتوجسة ونظرات أمية الهادئة المحببة ، ينتقل من غرفة الى أخرى لغير ما سبب مؤكد • يمشي بخطوات قوية وعيناه تتفحصان محتويات البيت المألوفة • أخيرا يتناول عدة الحلاقة وثيابا داخلية فيضعها في حقيبة صغيرة • « أنا نائم اليوم في الوحدة • وصباحا نروح الى الجبهة • » ودون أن ينظر الى أحد على التعيين يشعل سيجارة ويجلس على كنبه • لأمر ما تجلس السيدتان ، صامتتين وتنتظران ما لا تعرفان ماذا • يبقى علي واقفا ، ويداه في جيبي بنطاله • الثلاثة ينظرون الى الوجه الذي صار الآن مقطباً ومستغرقاً في تفكير عميق • تطرق عائدة وتطلق زفرة حرسى • عباس وحده يفهم أنها زفرة احتجاج وغضب صامت : أهى صفر على الشمال في البيت كي يطلب اعادته الى الجيش دون استشارتها ؟ وماذا لو قامت الحرب فعلا ؟ يقول علي : « لا يعجبني هذا الصمت • » ويحس عباس أن الكلمات تعني سؤالا عما يفكر به • يقول : « كلها مظاهر • عبد الناصر لا يريد الحرب ، اذا أردت الحقيقة • » ويضيف بعد صمت قصير : « هذه فرصة تاريخية • جونسون أعلن أن أميركا ستكرس جهودها في الحقل الدبلوماسي فقط • هذا يعني أننا نحن واسرائيل وحدنا في الميدان • فرصة ذهبية • » تسأل أمية : « تصدقون جونسون ؟ أخي إمام يقول ، أميركا يستحيل أنها لا تتدخل • وأن الحرب مخطط لها في واشنطن • » يقول عباس وهو يطفىء سيجارته : « اذا بقيت أميركا على العياد ثلاثة أيام • تحسم القضية • لكن عبد الناصر لا يريد الحرب • وأعتقد أنه غير واثق من النصر ، حتى • الازمة كلها استعراضات • »

عند العصر تذهب سليمى الى صالون المزيينة • تستقبلها الاختان العاملتان بود حار وزخه من كلمات العتاب • تجلس على الكرسي ، وتأتيها صبا بأدوات

التزيين • تتابع الزبونة المجاورة حديثا انقطع موقتا ، فتراها سليمي للمرة الأولى • تحاول أن تتبين ألوانها الاصلية فلا تستطيع : الشعر أشقر وفضي وخرنوبي ، والاصباغ سميكة كأنها طبقة من سجاد •

تقول السيدة أنها منذ يومين اشترت أربعة جزادين صيفية بألفي ليرة ، وفي الاسبوع الفائت اشترت ثلاثة تايورات من لون البيج والبترولي والعصفري • ولانه لم يعد ممكنا لبس الثياب بدون اكسسوار ، فقد اشترت أطواقا وأساور وبروشات بخمسة آلاف • « تعرفين أنها مثل الكحلة على الرموش •• بدونها تظهر الواحدة مثل الفلاحات • »

تعلن صبا بنوع من المجاملة : « الاسعار صارت فاحشة ، يا لطيف اللطف • » لكن السيدة تعرض عن التعليق بترفع مشمئز : من يتكلم في الاسعار ؟ وتقول صبا مدارية الموقف : « مؤكد أن زوجك اشتراها من باريز • » وتهز السيدة رأسها بالنفي ، وقد ازدادت ضيقا • لماذا باريز وأسواق دمشق أقرب ؟ الرحلة الى باريز تكون للاستمتاع بالثقافة والحضارة ، وخاصة المطرب جوتي هوليدي • السيارة ، التي كلفت مئة وخمسة وأربعين ألفا ، تقلهم الى هناك : يوم في تركيا ، ومن هناك على اليد الشمال الى اليونان ، فيوغسلافيا وايطاليا ، ثم سويسرا وفرنسا • رحلتان في السنة للشتاء والصيف •

وتنهض فتأمل شعرها مليا وتتحسسها بينانها الرخص • قبيل مغادرتها تكرر دعوتها للاختين أن تزوراها لتريهما جدران غرفتها المطلية بالذهب •

من زاوية غير ملحوظة تنهض غادة وتحل محلها • تقول لصبا : « لو تعرفين أصلها وفصلها ؟ » وغادة هي التي تعرف • حوادث من نوع زواج ابن العائلة من خدامة البيت لا يمكن أن تنسى بسهولة • وهذه المتبجحة تنسى أن أمها

كانت تلك الخدمة • ولكن عادة لا تود أن تسرف في الحديث • انها تشكر الله •
تبوس يدها وجها وقفنا وتشكر الله •

تهتف صبا : « يا سلام عليك يا مدام عادة • هكذا الاصل • »

عندئذ تقرر سليمى أن تسريحتها قد انتهت ، وتودع الحاضرين بأدب جم •
في الصباح التالي تمضي الى مركز مراقبة الامتحانات • ويدخل علي الى
قاعة الامتحان في مدرسة أخرى • هناك يتفحص وجوه الطلاب الربداء وساعته
البطيئة • وقت تافه وقتيل ، لا شيء يصنع فيه • ان تسأل ما هو الشغل الاغفل
على القلب ، يكن جوابه : مراقبة الامتحانات - في المدرسة وخارجها •

ويدرج سليمان الى حانوته • لسبب ما يغير اليوم خط سيره ، ويتجه الى
ساحة الشعلان • هناك يلتقي بالمشهد المألوف : عربات نضدت عليها حبات
المشمش والخوخ الاخضر والدراق والاكدنيا والتفاح ، والى جانبها البقدونس
والنمناح والفجل والبصل الاخضر والفليفلة والهندباء والطرخون والباقلام
والفول والبامياء والفاصولياء • يقول لنفسه : يا لهذه البلاد الخصيبة الحافلة
بما لذ وطاب من ثمر وخضار ويقول • ويقرر شراء كيلو كامل من المشمش •
يتهيأ للمماحكة مع البائع • يحاول انتقاء الحبات ، فيمنعه الرجل الواقف قربها
كهر حذر • بسرعة يدرك الاثنان أن الكلام لن يجدي • بسرعة أيضا تمتد
الايدي الى الحبات - اثنتان منها تنتقيان الكبيرة ، واثنان تنتقيان الصغيرة •
يمتلئ كيس الورق وتهوي به كفة الميزان فيتوقفان •

على مسافة مترين منهما يتكرر الصراع بين أم خلف وأم إمام وبين بائع
البامياء • لقد قيل لهما أن الخضار في ساحة الشعلان أرخص ثمنًا وعودا ،
فقصدا إليها مبكرتين • لكن خيبتهما كانت مزدوجة : ويقول البائع :

« ما حلّيتي يا خانم ؟ الله الوكيل ، أفيق الصبح من شقة الضوء ، وأنزل الى الضيعة . اذا كانت الاسعار في الضيعة ذاتها تطير العقل . » نحن نشترى ونبيع . » وتسأله أم خلف : « ما عندك أرض خاصتك ، يا ابني ؟ » فيهز رأسه ويطلق من منخريه دفقة هواء . تختطف أم إمام كيسي الورق المليئين وتهتف : « يا الله يا فاطمة ، نشترى اللحمه ونرجع للبيت . »

وفي مكان آخر من المدينة ، يباعد محمود ما بين ساقيه ويفرغ زجاجة الحليب في جوفه . يكشر أبو نصوح عن أسنانه البيضاء ، ويزيل غطاء الزجاجه . أخيرا استطاع محمود وأبو فاروق اقناعه بشرب الحليب . يراقبانه وهو يفتح فمه أمام الحليب الدافق ، مزدردا بعضه ومفلتا البعض الآخر على وجهه المبثور . يتوقف عن الشرب ويمسح وجهه ، ثم يولج فم الزجاجه في فمه . يضحك رفيقاه ويصرخان ، لكنه لا يحفل بهما . يتناول محمود بيضته المسلوقة وينتظر . يقول لابي نصوح ، وقد فرغت زجاجته : « هات لاشوف ، أين بيضتك ؟ من يكسر بيضة الثاني يربحها . » يقول أبو نصوح : « أنت اضرب بيضتي . » ويطبق عليها بأصابعه وراحة يده . تنكسر بيضة محمود ، فيصيح صاحبه : « غشاش ! لم تضرب الرأس بالرأس . أنا فهمان عليك . كل حصتك ، أخي ، وأنا أكل حصتي . »

وفي هذا الصباح يستيقظ الرئيس جونسون باكرا .

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة ينمى الى علم علي أن الامتحان قد تأجل . عندئذ يفرك راحتيه جذلا ويهرع الى المدير . على وجه الرجل الصغير يشاهد امارات اضطراب بليغ يتفاقم بين الرعب والنشوة . تلتقي الاعين في نظرة صمت جامح ، وينبش المدير بهدوء : « قامت الحرب . »

وكأنه قال : قامت الصلاة • وكان القائل والسامع معا تائبان يودان
الاغتسال من خطيئة ما ، لم يرتكباها ولكن لحقت بهما •

• وكان يا ما كان أن قامت الحرب •

في ذلك الصباح تغير كنه دمشق • انسل الى الشوارع شبح مخيف أبيض
ضوأتها شمس حزيران الساطعة • المدينة القريرة البرصينة ، خرجت من نوم
اليقظة لتلج يقظة الذهول • بعد عشرين عاما تنهض عن صدرها كتلة قهر
لم يستطع المذيع أن يزيحها ولا الامل • لوهلة توقفت الايدي عن الطباعة وفرز
الخضار كي تفتح باب الجسد للفرح المقهور أن يدخل - كي تفتح الراديو على
أنباء الطائرات الاسرائيلية المتساقطة ، وجيش الاردن المندفع الى جبل سكوبس •

في البيت الطيني الناضح قيظا تجثم أم إمام وأم خلف حول صينية البامياء
وقد توقفت أيديهما عن العمل أو كادت • صامتتين متوترتين ، تنصتان الى
الاخبار والموسيقى العسكرية من محطتي دمشق والقاهرة • ينسحب على بث
القاهرة صوت كوشيش البحر ، فتلتقط أم إمام مذياعها وتضعه على أذنها •
يقطب حاجباها وتجمد خلجات وجهها • اليها تنظر أم خلف ، ينتهي الوشيش ،
فتنزل يدها بالجهاز : « كلمات حماسية • الاخبار بعد شوية • » تتناول أم خلف
السكين من جديد ، وتدير شفايرها حول رأس قرن البامياء : « البطاريات
تعبانة ، » تقول مواسية أم إمام : « صناعة بلادنا ، هات يدك والحقني • »
« لا • هذا تشويش من العدو • هذا جزء من الحرب • على أيامنا ، كانت
الحرب ضرب سيوف ، بارودة عتيقة وخرطوشات رطبة • هالايام ، طيارات ،
ورادارات • • اسمعي ! »

لا تأتيهما نشرة الاخبار بجديد • وتعلن أم خلف أن الوقت ما يزال باكرا ،

فلم يحدث أن ربحت بيوم واحد - هذا مستحيل • تهز أم إمام رأسها بهدوء
لتؤكد صواب ما قالت صديقتها • وتنصرف الاثنتان ببطء وصمت مفاجيء
الى عملهما ، فيما الاناشيد الحربية تتالى من المذيعات • ينأى بهما البال الى
تلك الربوع - الى الشوارع الضيقة والبيوت العتيقة حول تدويرة الميناء ،
والى رابية ليست شيئا يذكر حتى على الخرائط المجسمة • الى ذلك المكان ،
الآخر ، المختلف ، البعيد • تتوغل في رأسيهما الذكريات وتشخص أعينهما الى
الصينية فلا تحس بها • وتغدو حركة الايدي آلية رخوة • بعد عشرين عاما
يحين وقت العودة • فجأة ينبس صوت أم إمام وكأنه قادم من وراء ستار : « كيف
يا ترى صارت حيفا ؟ • كيف نترك دمشق ، ونرجع ؟ » لكن أم خلف لا تجيب •
تسمعها ؛ تنظر اليها كأنها لم تسمع • أجل : دمشق • لو أنها عاشت في نابلس ،
لكانت العودة الى الجليل حتمية أيضا • وكم تبعد دمشق ؟ رمية حجر • ولماذا
هذا الحزن ؟ تحس كأنه يتسلل من جسمها ويخرج ، ولكن ليس قبل أن يرمي
ظلا على خاطرها • « أنت حزينة ، يا فاطمة ؟ » تسألها صديقتها ، ثم تضيف
بصوت خافت ، كأنها تفسر حزنها : « مات لنا ناس كثير • عندئذ تنشم أم
خلف ، وبسرعة تتناول منديلها فتنف : « والله لا أعرف ، هو حزن ؟ هو فرح ؟
حزن ، بس غير شكل عن الحزن • بعد كل هالغيبه • ترى هل نعود ؟ »

تدلف اليهما الحاجة كاترين ، وتحيي بصوت متهدج : « لقيت باب الزقاق
على حاله مثل كل يوم • لكن اليوم غير كل يوم • قلت أدخل وأشوف أم إمام ،
الاخبار عندها • »

تنهض أم إمام بحيوية ، وتقدم للحاجة كرسيها مغلما : « تفضلي ، حاجة •
يا عيب الشؤم منك • • »

تقاطعها الحاجة : « لا والمسيح • أقعد معكن واشتغل شغلكن • »

ولا تنتظر • تتخذ مجلسها بين المرأتين وتمسك بالسكين • وفي اللحظات التي تمضيها أم إمام سعيًا وراء سكين ثالثة ، يغطي الصمت حوار النسوة الثلاث ، كل مع نفسها : ها هي الحرب أخيرا ؛ وإذا كانت مساحتها أوسع من مدى المدفع وعلو الطائفة ، فهي قد وصلت إلى هذا البساط والضمائر العتيقة •

تسأل الحاجة عن إمام — الصليب يحرسه : هل قال شيئا عن الحرب • ويأتي الجواب ملتويا : إمام غير راض عن هذه الحرب • يعتقد أنها فخ • خطة فظيعة لضرب العرب • كيف يقول ذلك وهو الشاب الفهيم ؟ محمود متحمس للحرب • وكذلك ميخائيل : « يا ستي طلعوها اشاعة ومشوها علينا — انه العرب رجال بالحكي بس • الله يرحمه ويرحم موتانا أجمعين ، أبو مخائيل طلع مع جيش الانقاذ وما معه غير البارودة • معلومك سنة الـ ٤٨ كانت الحرب تدور بالعصي • بس أبو مخائيل وصل للقدس • وانضم لجماعة الشهيد عبد القادر الحسيني • اذا صار حكي عن الحرب ، خليفهم يحكوا عن عبد القادر وأبو مخائيل • كيف وقفوا ، كمشة رجال ، وكل فترة الحرب وقفوا بوجه الصهاينة ، الصهاينة كانوا هاجمين بوجه القدس ، وعبد القادر وجماعته بوجههم مثل الصخر • ووقفوا ووقفوا ، وما قدر الصهاينة يأخذوا اصبع من القدس • تقولين لي الجيوش العربية ؟ قالوا بالراديو انه الحرب مشوار — وصحيح مشوار : ما راحوا ليحاربوا : راحوا ليقولوا حاربنا • بس عبد القادر وجماعته وأبو مخائيل حاربوا • لو بس أعطوهم بواريد • »

تدخل الحاجة أم مصطفى ويدها على بطنها • تحييهن بصوت لا يتناسب مع نعولة جسدها • وقبل أن تنهض إليها أم إمام لتقدم الكرسي ، تجلس إلى جانب أم ميخائيل ، وتتناول السكين • « حلفت بالله ، خالتي أم مصطفى • أنت

اقعدي مرتاحة ، « تهتف المضيفة الباسلة • ترنو اليها أم مصطفى بعينين خلت
أجفانهما من الاهداب ، ولا تأبه لها : « كنت أقطع البامية قبل ما عينك تشوف
الدنيا ؟ » يقول صوتها الاجش : « على كل حال الملقط والمراية معي • طلعت
لي شعرة جوا الجفن اليمين ، ولازم أنتفها • معلومك الشعر الجواتي يضرب
على المقلة مثل الابر • اي • كان حديثكن عن الحرب ؟ اسألوني أنا عن الحرب •
قبل خمسين سنة علقت بين العرب والعثمانية ، يا بنتي • الله كتب على هالبلاد
أنها على طول تحارب • وكان أبو مصطفى وأخي أبو حسين ، الله يرحمهم
ويرحم موتاكن ، مع الرجال وقت طلوعوا يلاقوا لجيش الامير فيصل • فيصل الله
يرحمه ، جاء من مكة الشريفة ، وصار ملك العراق بعد كم سنة • وكان بوده
يوحد العرب ، بس الحلفاء ما خلوه ، الانكليز والفرنساوية ، ولاقوا له ،
ومشوا معه حتى كش العثمانية من كل سورية ، ووقتها كانت سورية سورية
وكانوا يسمونها الشام ، غير شكل عن هالايا ، ما بقي غير ربعها ، سنة ١٩٢٠
طلع أبو مصطفى مع يوسف بيك العظمة ، أبو حسين كان أعطاك عمره ، طلوعوا
ليسلون ، وحاربوا جيش الفرنساوية وضربتهم الطائرات ، واستشهد يوسف
بيك ، الله يرحمه ، وحاربوا بالثورة السورية الكبرى ، وثورة الفلاحين بعد
عشر سنين ، ومع جيش الانقاذ بعد عشر سنين ثانياً • اسألني أبو مصطفى
يحكي لك ، بس ، الله يأخذ بيده ، ما عاد يحكي مثل أيام زمان ، ولا يسمع ولا
يشوف • بس ذاكرته قوية ، خزاة العين • أحسن من المسجلة • »

عند ذلك ترى أم امام أنها مضطرة لايجاز الانباء المفرحة • فالطائرات
المعادية تسقط ، والدبابات تحترق ، والجيش العربي يتقدم • يفوتها أن ترحب
بالنسوة اللواتي قدمن أثناء حديث أم مصطفى • ولا ترى في الأمر شططا •
انها الحرب ، ولا ينبغي للقلوب المؤلفة أن تتباعد كي تتبادل التحية •

تقول امرأة : « الله ، الله ، يا أم خلف • فكرك مشغول • »

« والله يا ست أم نبيل ، بودي أعزمكن لضيعتي بالجليل ، صوب صغد • »

تهتف أم امام : « لا والله أنا بودي أعزمكن • حيفا فيها بحر ، ولازم أم مصطفى تسبح في بحر فلسطين • »

تعالى ضحكاتها بطبقات مختلفة وجرس واحد : جرس الحلم الخائف الذي أردن قبوله كحقيقة وشيكة • تصيح أم مصطفى بجدية : « لا يابنتي • نصل للبحر وبس • أنا أغرق في شبر مية • مية البحر أصعب من الشعر الجواني عالعين • نصل ، وأمد رجلي في البحر ، وبس • لأقول : وصلنا لبحر حيفا • » يتعالى الضحك من جديد • وتتساءل احداهن : « أم خلف ، ياترى ، تترك الشام بعد هالعمر ؟ » •

تقول أم خلف : « آ ، والله ، يا أم منصور • يمكن أني أشتاق للشام ، وأجيء أزورها ، بعد ما ضيعتنا يعمرها رجالنا ، وكل واحد يسكن في بيته • » تقول احداهن : « رجلنا على رجلك ، يا أم خلف • وأنت يا أم إمام • نزور الارض معكن ونقعد بضيافتكن سبعة أيام • » تقول المرأتان الفلسطينيتان بصوت واحد : « ألف أهلا وسهلا • » وتتابع أم امام : « والشرط أني أطعمكن بامية في حيفا • »

في الليل يتعانق علي وأمية جامحين ساكنين • تلتصق القامة بالقامة ، وتنفرش الاصابع والذراعات • لا صوت • لا نامة • حتى شهوة اللحم تمرى من تلك اللهفة المضنية التي تفرق في لجتها الحنان والشفافية • هذه المرة لا يشعران أنهما يسرقان شيئا ، ولا يقلقهما خوف مستتر من أن يفاجأ في وكر فرحهما الغامق • ينتصبان ، وكأنهما تحت شلال من الضوء السائل يهيم عليهما ثم

يثفلغل. في الانسجة . وتعبر وهلة يفادرهما فيها الاحساس بجسديهما والمكان الذي احتواهما . يهيمن عليهما حنين رقرق وغماض وهادىء ، يشيلهما الى فسحة كانت من قبل ملكا للخيال واذا هي الآن ميدان للشعور : ان هناك فرحا أكبر ، كنها خاصا اسمه الوطن ، وهما الآن يضمانه بجسديهما . والشعور يلد شعورا ويقتلي ، فيزداد العاشقان التصاقا ، أو يحاولان : المسافة بينهما انتفت وهما يريدان مزيدا من اللقاء .

وتلك ليست المرة الاولى التي يتسع فيها الجسد الى مدى النفس . مزيد من اللقاء يدفع أمية الى الحركة . « هرستني ، » تقول له ، وترمي جبينها على نحره فتتخلل من طوقه . « نحن مثل حمامتين زاجلتين ، » يقول لها ، « تتجهان الى عشهما الممنوع . هل ستنتهي الحرب ونشعر أن أمور حياتنا عادت الى مجاريها الطبيعية ؟ » .

يسحبها برفق الى الديوان . يجلس ، وترتمي الى جانبه مطوقة عنقه بذراعها ومسترخية على جانبه الايسر . يقول : « لو تنشب حرب من هذا النوع بين الانسان وذاته . » تبسم وتفرك وجهها بصدره : « من يا ترى سينتصر ؟ » يقول : « تضحكين علي لأنني بدأت أتفلسف . » يمد يده الى أذنها فيشدها ، وترفع وجهها الى وجهه فتقبله . لكنها لا تستطيع منعه من التفلسف ، ولا تتابع . يقول : « يجب أن تقوم الحرب على جميع الجبهات . بين العرب وأعدائهم ، وبين العرب والعرب ، وبين العربي وذاته . كيف تمكن انسان مثل عمر بن الخطاب أن يصنع دولة ، لولا هذه الحرب التي كانت تدور في داخله ؟ » .

عناوين جريدة محلية :

تصميم كامل على خوض المعركة حتى النصر (مانشيت أحمر) .

العصابات بدأت العدوان على المتحدة . . فانقضت الجيوش العربية لتنهي
أسطورة اسرائيل

... حتى شوارع تل أبيب (مانشيت أحمر)

القوات العربية تنطلق على طول الخطوط الامامية لتطهير فلسطين
نسورنا البواسل في سورية والم المتحدة والعراق والاردن يسقطون ١٦١
طائرة للعدو

الجيش الاردني يحتل جبل المكبر في القدس ويدمر ٥ مستعمرات
(مانشيت متوسط) .

القوات العربية في سيناء تتصدى لقوات العدو وتلحق بها الهزيمة
نسور الجيش العربي السوري دمروا مطارات العدو وأشعلوا النار في
مصفاة حيفا .

وقالت الجريدة :

أصدرت العصابات الصهيونية صباح هذا اليوم حكما على نفسها بالاعدام
حين تجرأت على الاعتداء على حدود الشقيقة الكبرى . . الجمهورية العربية
المتحدة . وما أن أذيع نبأ هذا العدوان حتى اشتعلت جميع الجبهات العربية ،
وتصاعد النسور العرب الى الجو ، من جميع القواعد والمطارات العسكرية في
سورية والم المتحدة والعراق والاردن ، يدمرون أوكار العدو . . وشهدت سماء
فلسطين أروع أمثولات البطولة ، حيث انطلق النسور البواسل فدمروا مواقع
العدو ومنشآته وتركوها طعمة للنيران ، ونسفوا خلال ذلك مصفاة البترول . .
في حيفا . فقد حاولت طائرات العدو أن تهاجم مطاراتنا وقواعدنا فتصدت لها

النيران العربية من الارض والجو . . في سورية والمتحدة والاردن ، وكانت حصيلة ذلك حتى الساعة الخامسة من مساء اليوم تدمير ١٥٨ طائرة للعدو ، أسقط منها ست وثمانون في جبهة الجمهورية العربية المتحدة واحدى وخمسون في الجبهة العربية السورية وثلاث وعشرون في الجبهة العربية الاردنية وطائرة أخرى للعدو في لبنان .

وفي نفس الوقت شنت القوات العربية البرية هجوما واسع النطاق على مختلف الجبهات مع فلسطين المحتلة . . وفيما يلي وقائع اليوم الاول للمعركة :

في غرفة المستشفى يتوزعون على مقربة منه . رأسه مغلف بصفائح بيضاء وكذلك ساعده الايسر ومنكباه . تركته أسمى عند الضحى ، بعد أن أصرت عادة على الاعتناء به . عدد من العساكر والمرضات يتبادل المجيء بطريقة اعتيادية ، كل يدور في الغرفة الملائى بالجرحى حول نقطة تثبت عليها عيناه . ثم يقترب بطريقة مألوفة موجهها ابتسامة محبة ومساندة الى الشكل المسنود على السرير ، الى عينيه البراقتين الحيتين . يحاولون أن يرسلوا له شعورا بأنه مثل بقية الجرحى ، وزيادة يسيرة في الاهتمام . هذا هو النابالم اذن . هذا الستار من البياض اللاهب الموتى ، المنسدل على صور مريعة . قال لهم شيش بييش ان النابالم مثل العلق ، سوى أنه لا يمتص الدم بل يحرقه . اذا مددت يدك بفعل الغريزة لتخمدته ، احترقت يدك . واذا مسحتها على صدرك ، أيضا بفعل الغريزة ، احترق القميص والصدر . درويش - وهذا هو اسمه - لم يفكر بالنابالم وهو يحمل بارودته . كان ذلك حسن نية منه يعادل الغباء . فكر أن الاسرائيليين سيهجمون ، وأنه سيلاقيهم ببارودته .

شيش بييش يجلس في المقصف . عجيزته على كرسي ، وساقاه على أخرى .

ويده على الثالثة • الى جانبه ينتصب كأس من الشاي الحار على طاولة معدنية •
هناك يصيح بالنادل لغير ما سبب ، ويزعجه ويراضيه • فجأة تدخل غادة بثوبها
الابيض فتقطع استرخاءه الداخلي • يقول لنفسه : لك جسد من نابالم ياسيدة
غادة • تتبعها أسمى وطبيبان آخران • ويزعق شيش بيش بالنادل : « هُيْء
الشاي ، يامقصوف الرقبة • ماذا تنتظر ؟ » تقول غادة بابتسامة واهنة : « أنا
بودي قهوة • بدون سكر ، من فضلك • » وتجلس منكمشة مطرقة • يقول
شيش بيش : « تضايقت من منظر النابالم ؟ » فتتنظر اليه بضراعة : « أرجوك ،
يادكتور ، أي حديث ثان ، » « ولكن يجب أن تتعودي على مناظر من هذا
النوع • ما نزال في أول الحرب • والحرب يمكن أن تستمر أسابيع - اذا صمد
الاسرائيليون • » تهتف أسمى : « دكتور ، السيدة غادة ما بودها حديث عن
النابالم • »

ينزل ساقيه عن كرسيهما • ويرفع يده عن الثانية • يجلسون معا •
يتساءل الطبيب الاول : « تقول أسابيع ، معلمي ؟ زعمائنا يقولون أيام •
٤٨ ساعة ، حتى • » يطوي شيش بيش عضلة خده اليسر ويرفع رأسه إشارة
نفي : « أظن الاسرائيليين أقوى مما نتصور • لا أعرف كيف ، ولكنهم أقوى •
ولا تنس أن الاميركان معهم • زعمائنا يحبون اللغة المجازية ، لا أكثر ولا أقل • »
تقول أسمى : « على أي حال ، اذا حكمنا من عدد الجرحى ، الحرب خفيفة حتى
الآن • » يقول الطبيب : « أبدا ، هذا يعني أن جيشنا يتقدم • »

يدخل ممرضون آخرون وممرضات ، فرادى ومجمعين • يتوزعون على
الكراسي ، وتسرع اليهم فناجين القهوة والشاي • فجأة يغدو المنتدى المعجوز
مليئا بالحياة • الحيطان المهرمشة ، والابواب المشروخة ، والارض الصلبة

القائمة ، تحتويهم وتحفل بهم • الحديث عن الحرب ، والحرب في مكان آخر ،
والحديث متقطع وجماعي • يبتسمون • يضحكون • يصيحون • ينصتون •

تنظر عادة الى ساعتها وتنهض : حان وقت الاعتناء بالجرحى مرة أخرى •
تنهض بصمت وكآبة • في الخارج تلفحها الشمس الحادة فتضع نظارتها وترنو
الى دمشق • يعبر سليمان في ذهنها كالبرق ويختفي - سليمان بقوته العمياء
الميتة غير الحارقة ، وتوجهه المباشر القصير نحو الجسد •

شوارع دمشق تبقى في ذهنها • الارصفة بأشجارها الجميلة • والحدائق
الصغيرة ، العامة والخاصة • ولكن ، ماذا بوسع الاشجار أن تفعل في مكانها
الراسخ سوى أن تنمو وتشيع ؟ وإذا هي اقتلعت ، فكم تراها تعيش بعد
اقتلاعها ؟ •

وفي الشوارع أناس غادون رائحون • قليلون ، غير أنهم هناك • وقلتهم
تحضر الى خاطر علي شعورا بتغير مفاجيء • لا يهتم كثيرا للموضوع • يهز
كتفه قليلا ليثبت عليه جيذا نطاق الساموبال • يمشي لا على التعيين •
يتحسس الرصاصات في جيبه ، وفي المخزن • يحصيها مرة أخرى : خمسون
رصاصة • تقع عينه على السمان وهو يهم باغلاق حانوته • يحييه ، فيرد الرجل
التحية ويقف مرتبكا • يبتسم بارتياح وتهيب •

يدرك علي أن هذا الوجه المرتبك يتستر على خوف وفقدان ثقة • يقول :
« عندك دخان ؟ »

ويسرع الرجل الى الاجابة : « لا والله ، خلص • »

« خلص ؟ ! »

« اي والله • كل شيء ، ما شاء الله ، خلص • »

« ماذا تعني ، كل شيء ؟ »

« كل شيء • الرز • السكر • الشاي والبن • علب اللحمة والسمنة •
كل شيء • »

« هذه كلها خلصت ؟ مع أنك تجلب كميات كافية ! »

يطمئن الرجل قليلا لبراءة الحوار التي اتضحت من حامل الساموبال
يبتسم بارتباك : « سيدي ، جاء الجيران ، هذا أخذ خمس كيلوات وهذا عشرة •
نحن نشترى كيلو أو كيلوين من الشاي والبن • خلص كل شيء • الدنيا حرب • »

« الله يعطيك العافية • »

يعود الى نادي نقابة المعلمين • يجلس قليلا ويراقب لاعبي النرد ، ثم يتحول
الى لاعبي الشطرنج ، ثم الى لاعبي الورق • يشعر بالرغبة في الخروج • يسأله
جاره : « تعرف أين وضعت ساموبالي ؟ » فيhez رأسه هزة قصيرة : « سيدي !
خذ أي ساموبال ، يمشي الحال • » ولكن ، نحن أخذناها بحسب أرقام • «
« لا يهملك • لن يحتاجوا لها في المستقبل • »

يحمل ساموباله ويخرج • عند الحديقة الصغيرة تقف الى جانبه سيارة جيب •
يطل منها رأس أمام ويحييه • يتقدم منه مسرع الخطى متسارع الوجيب •
« تجيء معي الى اتحاد العمال ؟ أكيد أنت ضجران • » يفتح الباب بعذر مرتبك :
هل يعرف امام ؟ ويدخل بحيوية مفاجئة : هذا الوجه الوديع خال بالتأكيد من
الاسرار • يشعر بحضور امام كزوبعة لطيفة تلفه فتطرح من رأسه التساؤلات •

يقول إمام وهو يحرك السيارة : « مشتاق لصديقك الدكتور ؟ ما اسمه ، شيش بييش ؟ » .

أوه ! اذن أسمى حكمت له عن محاولة الخطبة المجهضة . « لا ، أنا مرتاح منه . »

« هو الآن في المستشفى العسكري ، مع أسمى اختي . »

« أرجو ألا يموت أحد بسبب معالجته له . »

« هذه أشياء أولية . ايقاف نزيف . تضميد جرح . فحوصات . حتى أسمى تعرفها . »

« أين كنت ؟ »

« كنت الآن في معمل التبغ . وقبلها في معامل ثانية خارج البلد . يجب ألا يتوقف الانتاج على الأقل . اذا لم يزد . كنت في معامل عدرا ودمر والميدان . العمال ، روحهم المعنوية عالية . العمل ماش مثل الساعة . وزعنا عليهم بواريد وذخيرة . قالوا انهم سيعملون بيد ويحملون البارودة بيد . وقلت لهم ، لا بل اعملوا باليدين وعلقوا البارودة بالكتف . ماذا تعملون أنتم ، في نقابة المعلمين ؟ » .

« وضعنا أنفسنا تحت تصرف مجلس النقابة . أعطونا ساموبالات وتركونا . هذه الحرب ليست لنا ، كما أرى . حرب جيوش . حاليا المعلمون يلعبون الورق ، والشطرنج . شافوا حالهم في وضع غير طبيعي . »

يتوقفان عند مبنى اتحاد العمال . وفجأة ينتبه علي الى ازدحامه بالناس .

يقول امام : « ناس كثيرون ، ما ؟ يريدون أن يحاربوا ياسيدي . ولكن أين هو صديقي الجامع ابن أبو خلف ؟ » ينظر الى المدخل فلا يراه ، والى الجوانب .

يظهر في تلك اللحظة رئيس الاتحاد . يتقدم خطوتين ثم يختفي بين الحشد المتفتت حيناً والمتشكل حيناً آخر . يغادر امام وعلي السيارة ويقفان على حافة الدائرة المتموجة . يسمعان رئيس الاتحاد : « عندنا جيش قوي يحارب . العرب كلهم يحاربون . وهو يقوم بمهمته خير قيام . نحن معركتنا في المعامل ، في تأمين حاجات المواطنين اليومية والاساسية . معركتنا في الحفاظ على الجبهة الداخلية ، الحفاظ عليها هادئة ، متماسكة ، متراصة ، صامدة . »

يصيح محمود : « ولماذا وزعتم البواريد ؟ اذا لم تكن لنا علاقة بالحرب . »

يقول رئيس الاتحاد : « البواريد وزعت على العمال بس . نقابة المعلمين مثلاً ، أخذت سامو بالات — هذا هو كل شيء . »

يصيح محمود : « العدو يضرب أهدافاً غير عسكرية ، والجيش كله في الجبهة . »

« أرجوكم ، يا اخوان . نحن في حالة حرب ، والاوامر هي الاوامر . القيادة تعرف شغلها . والآن ليس وقت المحاسبة الديمقراطية لترتيبات القيادة في معركة التحرير . عودوا الى معاملكم وأعمالكم . هذا كل شيء . »

يسمعون في كلماته نبرة انذارية فيصمتون . واحداً بعد الآخر يتفرقون يمضي هو الى سيارته غير ملتفت الى أحد ويجلس الى جانب السائق . ينسحب امام الى زاوية خلفية لئلا يلمحه الرئيس . دقائق واذا بالشارع العريض خال الا من ثلاثة رجال مقطبين .

يمسك محمود ساموبال علي ويقلبه بين يديه متفحصا : « يقولون انه
يحمو بعد خمسين طلقة » .

« لذلك لم يعطوني أكثر » . معي خمسون طلقة بالضبط » .

« أريد أن أعرف كيف ستقاتل بهكذا آلة » .

ينضم اليهم امام » .

يقول علي : « لن نقاتل » . الا اذا حدث المستحيل ، وقصر الجيش
في القتال » .

يقول امام : « ما يزال قلبي منقبضا من هذه الحرب ، وعقلي غريبا عنها .
العرب مستعدون لها حقا ؟ أهى حرب عربية ، أم من طرف واحد - الطرف
المعادي ؟ » .

وكان ياما كان أن استمرت الحرب يوما ثانيا .

موجز الاخبار :

القوات العربية السورية تحرر مستعمرة شرياشون وتنطلق لتحرير
سهل الحولة » .

أميركا وبريطانيا تشتركان فعليا بالعدوان مع اسرائيل » .

انتصارات رائعة للقوات العربية على جميع الجبهات » .

مدفعية الجيش العربي السوري تدك مستعمرات العدو في طريق زحفها
وتدمرها » .

القوات المصرية في سيناء تتسلم زمام المبادرة وتتوغل داخل الارض المحتلة » .

معارك ضارية بالسلاح الابيض في القدس .. والقوات العراقية تواصل
نقدمها .

العراق والكويت يوقفان ضخ النفط .. والمتحدة تطلق قناة السويس .
بدأت تتهاوى مواقع العدوان الصهيوني تحت ضربات القوات العربية
الزاحفة على دروب التحرير والعودة ولن تتمكن الصهيونية من وقف الزحف
العربي الهائل على كافة الجبهات . وسيستمر كفاحنا المسلح حتى سقوط آخر
حجر من الوجود الصهيوني العدوانى المجرم .

عند الصباح تنتشر عناصر الشرطة العسكرية أمام مبنى عادي في شارع
صغير . يصعد شرطيان عتليتان الى الطابق الثاني ويرن أحدهما الجرس رنتين
قصيرتين . بعد قليل يفتح الباب ويطل من وراءه وجه فتاة صغيرة . « أبوك
في البيت ، عمو ؟ » .

ترتبك الفتاة : « لا . راح . راح من ساعة . »

« قولي له نريد أن نحكي معه كلمتين . »

تنظر اليهما بعينين جامدتين ، تستدير ، وتولي هاربة .

يدخلان وراءها . يمشيان خطوتين ويقفان أمام الباب الموارب الى اليسار .
أحدهما يدفعه بمقدم حذائه . يمسحان البهو بنظرة فيريان أمية أولا - ثم جثة
نواف مسترخية في ثيابها العسكرية وعينييه مصوبتين اليهما : وجهه معتقل
بتوقع مستطير وقبول رالكذ ، وذراعا مرميتان على ذراعي الكنبه .

« احترامى ، سيدي ، » يقولان له بدون احترام .

ينهض : « ممكن أمشي معكم بدون كلبشة ؟ »

« ممكن سيدي • بس خذ معك اللوازم » يقول أحدهما •

« أنا جاهز ، » ويتناول حقيبة صغيرة •

عندئذ تصيح أمية : « نواف بريء ولا علاقة له بالتجسس • »

« نحن ، يا خانم ، لا علاقة لنا ببراءته ، » يقول الشرطي نفسه •

ثم يخلو البيت منه • ويصير غيابه الحالي فراغا وصمتا ووحشة • ومن المذيع ، يوقظ الأذان نشيد حربي مغمم بالقوة والفداء • بعد قليل تفد عائدة ، وتستطلع عبر كلمات المواساة أسرار الاعتقال •

وبعد قليل تموت زوجة حمدي الببش مصعوقة • ويهرع الزوج وأولاده وقريباته وأقرباؤه وأصدقاءؤه وجيرانه الى حيث أم صالح مسجاة في المطبخ على ظهرها ، وحملها التاسوعي جاثم داخل جثتها كراوية صغيرة •

لا أحد يعرف كيف ماتت زوجة حمدي الببش • يقول أحدهم : « كان معها قلب ، الله يرحمها • » بالطبع ، الجلطة داء غدار • لكن العبارة تشير الى ما هو أبعد • بعد الولادة الاخيرة ، حذر الاطباء الزوج من السماح لزوجته بالحبل • قلبها ضعيف ، قالوا له • الحبل والولادة يعنيان موتها المحتم ، وربما موت الوليد أيضا • ولكن أنى له أن يتدارك الامر • اذا شاء الله صنع طفل في رحم أم صالح ، فكيف لابي صالح أن يحول دون ذلك • لقد صبر شهرا وشهرين وثلاثة • ولكن ، وبعدئذ ؟ المرأة خلقت للنكاح ، وأم صالح ما يزال بوجهها ضوء • وهكذا حبلت المرأة للمرة التاسعة ، وقال حمدي الببش : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا • »

وأحدهم يقول : « ليست هذه هي الحقيقة عن موتها • الحقيقة هي أنها

أرادت أن تطحن اللحمه بالمطحنة الكهربائيه • كيف صار احتكاك ؟ لا أعرف •
أدخلت الذكر بالانثى ، وولعت شراره •• يارب نسألك العفو • «

وتهز امرأة رأسها : « الحقيقة هي أن أم صالح أجهدت نفسها في الشغل •
كانت ، الله يرحمها ، امرأة لا تطيق الراحة ، وتتعب من الجلوس • لم تنتبه
لنفسها أنها تعبت • وعندما وصلت الى باب المطبخ ، وافاها قضاء الله • «

أقاويل ، رجم وتخمين ، يقول أخو الفقيدة • أخذوها ، الصبح ، الى
الدكتور عبد الوهاب • كانت منحلة الجسم ، ودقات قلبها ضعيفة • الدكتور
قال ، يلزمها تخطيط قلب ، وأرسلهم للدكتور بشورة • الدكتور بشورة كان
غائبا • حملوها الى الدكتور سعدوني • هذا الاخير ضحك منهم • ما بها شيء ،
قال • شوية عفونة في المعدة • ويمكن أن الحرب أثرت على أعصابها • وأعطاهم
وصفة • عادت الى البيت وماتت •

أخيرا يتجراً أحدهم ويعلن : « يا جماعة ، انقلوا المرحومة للمستشفى •• »
ويسكت قبل اتمام جملته •

تتلاشى الاصوات دفعة واحدة مخلقة وراءها صمتا منذرا • ينقطع البكاء ،
وتغفل الاذهان عن المرأة بين ساعدي الموت • مستشفى ؟

عندما يموت الانسان يفصل جسده ويصلى على روحه ، ثم يوارى القبر •
هذه هي سنة الحياة • واذا كان وجه أم صالح لم يظهر لاجنبي خلال ربع قرن ،
فكيف يوضع جسدها بأكمله بين يدي الاطباء والجراحين ؟ والجميع يعرف أبا
صالح : رجل مؤمن ومتمسك بدينه • الشرف ! والوطنية أيضا : في عز دين
الحرب ، تحمل ميتة الى المستشفى ، والجرحى من أبطال البلاد لا يجدون سريرا !
تقول أم خلف انه يجب اجراء عملية جراحية لاجراج الولد • الأم مضت ،

أضروري أن يمضي الولد أيضا ؟ لكن صوتها يضيع في شهقة مفاجئة تند عن
أخت الفقيدة ، شهقة أعلنت أن الاخت لم تعد تستطيع كتمان شعورها بالفاجعة .
وفي عويل متفجر من قمة صوتها ، تهرع نصف متعثرة الى الجثمان البارد ،
تنطرح عليه ، تغمره بالقبل والعناق والدموع . أمام المشهد المروع تنهمر
دموع الآخرين التي انحبست طويلا ، وتتصاعد الآهات والآنات وكلمات
الوداع الحزينة .

ويدور علي بين شوارع (أبو رمانة) وتفرعاته ، حاملا رشاشه . منذ
الصباح فارقت بهجة التحرير ولحقت به كآبة الحرب . يمشي بطيئا ، تارة
يتأمل الرشاش ، وأخرى يتأمل الأشجار . وتارة يمسح بأصابعه على الجسم
المعدني الداكن الموكل بالموت .

وتقول أم خلف : « ترى هل نعود ؟ » وتنفرش أصابع محمود فوق رفوف
الاحرف المعدنية ، وتلطمها لتصنع منها كلمات صنعتها الحرب . وينادي بائع
الصحف : « آخر أخبار المارك ! آخر أخبار المارك ! » وتنطلق من مجهرات
الصوت كلمات الاذان . وتمرق شاحنة عسكرية بسرعة مفزعة . ويتدافع
الناس أمام واجهة الفرن . ويتفقد طلعت بك قبو بيته المخصص للمؤن .
وتجلس أمية في البهو ساهمة العينين .

عناوين صحيفة دمشقية :

الفدائيون يزرعون الرعب في الارض المحتلة (مانشيت)

المدفعية الاردنية تدمر منزل شازار رئيس دولة العصابات في القدس المحتلة
وتسقط ٢٢ طائرة للعدو رغم استمرار الامدادات والدعم العسكري للعصابات
من أميركا .

العدو يتقهقر على كل الجبهات •

الجيش العربي السوري يجتاح سهل الحولة (مانشيت أحمر)

القوات الاردنية في جنين والقدس تنتقل الى الهجوم (مانشيت متوسط) •

العدو يخلف قتلاه في الشوارع • • والدروع الاردنية تلاحقه •

قوات المتحدة الصامدة في الجنوب تصد العدوان بقوة وتمزق ٧ فرق من المدرعات والمشاة •

جيش التحرير الفلسطيني يلتحم في معارك ضارية مع العدو في قطاع غزة •
موجز الاخبار من اذاعة دمشق :

أمام الضربات العربية القاصمة بدأ العدو يتقهقر على كل الجبهات ،
وتلاحق قواتنا الباسلة فلوله المهزومة رغم اشتراك الطيران الانكلو - أميركي
بضرب المواقع العربية بعد أن فشلت الهجمات الصهيونية بهذا • وقد واصل
الجيش العربي السوري زحفه داخل الارض المحتلة في سهل الحولة وهو يزرع
الدمار في المستعمرات الصهيونية التي يواجهها في طريق زحفه • كما انتقل
الجيش العربي الاردني في جنين والقدس الى الهجوم وبدأت مدرعاته تتعقب
فلول العدو المتراجع بعد أن كبدهت القوات الاردنية خسائر فادحة • هذا وفي
الجنوب مزقت قوات الجمهورية العربية المتحدة سبع فرق من المدرعات والمشاة
للعدو وألحقت بها خسائر فادحة في الوقت الذي تلتحم فيه قوات جيش التحرير
الفلسطيني في قطاع غزة بمعركة ضارية بالاسلحة الخفيفة والسلاح الابيض
مع العدو •

تعليق سياسي من اذاعة دمشق بعنوان : معركة العالم الثالث :

الحقيقة التي تحصدها الدول الاستعمارية من خلال عدوانها على الشعوب هي التي تبدو اليوم في حرق السفارات الاميركية والبريطانية وملحقاتها في العواصم العربية والعالمية ، وهي التي تبدو في حرق الاعلام الاستعمارية وحرق المصالح البترولية وغير البترولية . الحقيقة التي تحصدها تلك الدول الاستعمارية هي في الضربات التي تلقتها أمريكا في الفيتنام وهي التي يلقيها الحلف الاستعماري اليوم في الوطن العربي وفي فلسطين المحتلة بصورة خاصة . ومع ذلك فان الامبريالية لن تقف سوى موقف اللامبالاة من تلك الحقيقة ومن كل الحقائق المماثلة لها في العالم لسبب بسيط هو أنها تدخل في طور الانتحار . هي تجاه يقظة عامة للشعوب ، يقظة في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، ولهذا تجد نفسها أمام أحد أمرين : إما أن تتخلى عن مواقعها الاستعمارية وترجع الى حدودها وإما أن تضع العالم كله في معركة طويلة الأمد تستخدم فيها كل ما وصل إليه العقل الانساني من تكتيك الدمار . واختارت منذ زمن بعيد الحل الثاني ، الحل الذي تعاني الشعوب وطأته اليوم ويعاني منه شعبنا العربي . لقد اختارت أن تبعد الشعوب لثرت الارض بعدها وخصصت كل ما تملكه من حقد وسموم وثيران لهذا الغرض .

وكذلك إختارت الشعوب أن تدخل المعركة ، معركة الحياة أو الموت مع المستعمرين أعداء الجنس البشري . وأصبح كل شعب اذ يسدد رصاصة الى الامبريالية فانما يسدها باسم شعوب العالم الثالث أيضا وكل ثوار آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . ومعركة الشعب العربي حاسمة وحادة مع لان الامبريالية حشدت لها جميع الامكانيات المادية والدعائية ، وتأمل أن تقهر بنا كل الشعوب التي تتحرك وأن تصل من ذلك الى خنق كل ثورة الشعوب .

لذا فان شعبنا العربي يعرف دوره العظيم في هذه المرحلة التاريخية ، وفي

هذه الايام القاسية التي يمر عليها • انه الآن ، في يقظته المسلحة ، ينسف القواعد الاستعمارية وفي مقدمتها اسرائيل ، ويضع حدا نهائيا في أن يجعل من وطننا قاعدة عدوانية على الشعوب •

سيكلفنا ذلك كثيرا وقد تدخل في المعركة الشعوب الثائرة والشعوب المحبة للسلام ولكننا سندفع الثمن •

وكان ياما كان أن استمرت الحرب يوما ثالثا •

في المستشفى تمتليء الاسرة بالجرحى والمشوهين • النابالم ! النابالم ! صبيحة تجمدت في الوجوه المحروقة •

والجرحى : تضمد الشقوق والثقوب في أجسادهم ، ويطلب اليهم أن يعودوا الى بيوتهم فيرفضون • منذ عشرين عاما ، يقولون ، وهم يحلمون بالتحريض • خلال عشرين عاما صارت فلسطين العالم ، أو على الاقل مركز العالم • كانوا يحملون الهم ولا يحملونه ، واليوم توغلوا فيه •

يشعر شيش بيش بوطأة النعاس والتعب • يسمع الى مباحكات المرضى وطلباتهم الغريبة ، فيبتسم ويتأملهم واحدا واحدا • يفك تصالب ساقيه ويمدهما • تلمحه أسمى من زاوية الغرفة القصوى وتبتسم له • بعد قليل تأتيه مسرعة ويبيدها ميزان الحرارة : « ضعه في فمك ، » تقول له • يرفع عينيه مستغربا ، لكنه يطيع الاوامر • تتحسس جبينها براحتها فلا يتحرك • يقول ، وميزان الحرارة في فمه : « يدك تكفي لان ترفع حرارتي • » يفاجئه عبوسها • تقول : « حرارتك مرتفعة سلفا يادكتور • » « صحيح ؟ من كثرة البطالة حتما • قاعد هنا مثل ذكر النحل ، لا شغل لي • » « بالعكس • أنت تعبت فوق اللازم • أنا رأيي أنك تقعد في بيتك وتداوي حالك • » « هذا

مستحيل طبعا • « لماذا ؟ عندنا عدد كبير من الاطباء • وغادة وسليمى تشتغلان
بعشر ممرضات • « صحيح شغلي قليل ، انما وجودي هنا ضروري • «

تستمر الاناشيد العربية والبلاغات العسكرية ، ويستمر عربي بك في
مناكفة بسام بك • ويقطع أبو امام عهدا أن يمتنع عن شرب الشاي حتى تنتهي
الحرب ، ثم تنسال من فمه كحبات المسبحة شتائم رفيعة مقذعة يرسلها الى
الاغنياء والمحتكرين : « لأجل هذا قال سيدنا المسيح أنه الجمل يفوت من خرم
الابرة والاغنياء لا يمكن أن يدخلوا الجنة • « وتستمر حبات النرد في تدحرجها
وماء النراجيل في قرقرته • سوى أن المدينة تبدو فجأة مدينة للفقير • لقد
اختفت السيارات الخاصة وراكبوها ، مثلما اختفى السكر والرز • واحتذب
أيضا اشاعة التجسس •

وراء طاولته في مبنى الجريدة يكتب الملك :

الوطن العربي يشهد اليوم بداية الزحف الكبير على مواقع القوى المعادية •
انه اليوم الذي انتظرتة جماهيرنا العربية طوال عشرين عاما لمحو عار النكبة
ولتصفية مرتكزات الاستعمار واحتكاراته في الوطن العربي • • وطالما أن
المعركة قد تفجرت فلن تنجح أية قوة في وقف اندفاع الشعب العربي نحو أهدافه
في التحرير التهائي الشامل •

ولابد للعدو الصهيوني أن يدرك أن أحلامه ومطامعه سوف تتبدد بأسرع
مما يتصور لأن الشعب العربي المعبأ المسلح هو غير ذلك الشعب الذي كانت قلة
امكانياته المادية تكبل ارادته وتحول دون مشاركته في المعركة ولان زمام الموقف
الآن هو بأيدي هذه الجماهير • ان البركان المتفجر في أعماق الشعب العربي ،
ذلك البركان الذي حاول المستعمرون اخماده ، قد انطلق ليذك كل قوى

العدوان •• ولن تستطيع أساطيل بريطانيا وأميركا أن تغير مجرى المعركة لصالح قاعدتها الصهيونية ليس لان كل شعوب العالم المتحرر تقف الى جانبنا في هذه المعركة فحسب ، ولكن لان جماهيرنا العربية قادرة على ابادة الوحش الاستعماري بعنف لا يمكن أن يقل بحال من الاحوال عن العنف الذي تباد به شراذم المعتدين في الفيتنام •

لقد انتهى عهد التهديد بالغزو والعدوان وبدأ عهد الهجوم الفعلي • لقد انتهت عهود الشكوى الى المنظمات الدولية وبدأ عهد انتزاع الحقوق بالتضحية والنضال • فلطالما انتظر شعبنا هذه المعركة ولن تستطيع أية قوة ، بالفا ما بلغت سطوتها ، من كبح جماح المسيرة العربية الزاحفة الى تحقيق أهدافها المصيرية ، ولن يجد الاستعمار واحدا في الوطن العربي يوقع معه معاهدات هدنة كما حدث عام ١٩٤٨ ، لان الشعب العربي في شتى أقطاره هو الذي أعلن الحرب اليوم ، والشعوب لا تهادن ولا تتراجع ولا تقهر •

ولن تكون نتائج هذه المعركة بأقل من تصفية كافة القواعد والاحتكارات الاستعمارية • فلن يبقى خليج العقبة هو الممر الوحيد المغلق في وجه الاستعمار ولكن الوطن العربي كله سيصبح بقعة مغلقة على النفوذ الاستعماري من أقصاه الى أقصاه •

هذه حرب ضد الزمن ، ضد التكلس داخل الحدود، ضد السلبية والانحطاط والخوف • وليمتليء العالم بثورات الشعوب ، ولتنفجر كل يوم فيتنام جديدة على أرض المسروقين المستضعفين ، ولتلهب أرضنا العربية برسالة أمة خالدة •

في الليل يمضي سليمان عبر الشوارع • لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، الا ليتبين السيارات العابرة • أمام الباب يقف والظلام دامس • جنون • من يأتي

الى عشيقته في ليل الحرب ؟ وسليمان ليس معتادا على طرح الاسئلة . انه رجل بلا حيرة . لقد نظم حياته بدقة ، حتى جعلها مثل الساعة . كل شيء مضبوط ومعروف ومقرر مسبقا . لكن شعورا غير معهود داهمه عند المساء ، وجعله يصل الى نتائج بلا مقدمات ؛ وهذا ما يحيره : نتائج بلا مقدمات ! فجأة شعر ان هوة قد انشقت بينه وبين عادة . بالطبع ، ليست الحرب هي السبب : الحرب قضية عامة ، والحب شأن خاص . في الحقيقة ، ليس ثمة سبب . كل شيء على ما هو . كل شيء في حياتها باق كما كان ، وفي حياته . ولكن ، لماذا هذا الشعور ؟ منذ أول خطوة خطاها ، وحتى وقف أمام الباب يلتقط أنفاسه ، وهو يقلب الامر في أروقة ذهنه . أمام الباب يصل الى نهاية حاسمة : انه شعور عابر ، ليس له أساس منطقي . لعله الشوق الى الجسد ، أو حاجة من هذا النوع . ويتناول المفتاح بتؤدة فيرد المغلاق دونما صوت . ينصت برهة ثم يفتح الباب . يدرك أن البيت خال من ساكنيه . بالطبع . وهل يبقى طلعت بك في مدينة لا تبعد عن الحرب أكثر من مئة كيلو متر ؟ لقد هرب كما هرب أمثاله . أمواله في بيروت ومصالحه في دمشق : اذا ضربت مصالحه بقيت أمواله . يهرب لان قضيته ليست التحرير . الذي يبقى ويحارب هو المرتبط بالارض ، ذو الجذور الذي تحاول الامبريالية اقتلاعه . ليفعل ما شاء ؛ المهم أن تبقى امراته هنا .

يتقدم بهدوء واطمئنان ، ثم يقف . يعرف اتجاهها واحدا فقط في هذا المنزل الفسيح . ما هذه الرغبة الطائشة في تفحص البيت كله ؟ يتقدم الى غرفة غادة ، يغلق وراءه الباب ، ويضيء المكان . يسمع صوتا مريبا فيطفيء الضوء . يلبث هادئا متوقعا . يسمع الصوت ثانية ، وكأنه لا يسمعه . أخيرا يخرج مواء متوسل من وراء الباب . يخرج هو ، وللتو يحس برأس الحيوان الاليف ، ثم

بعجسه ، مثمسحا بساق بنطاله • يدخل ثانية ويمضي الى باب الشرفة ،
والحيوان يتبعه • ينصت قليلا ليتأكد من خلو المكان ، ثم يفتح الباب •

في الشرفة يجلس على كرسي من عيدان الخيزران ، ملفلفا بالصمت والليل
ومحاطا بجرار الازهار والنبات •

• قبيل الساعة الثانية تطل عليه غادة بطيئة الخطى • تجلس على الكرسي
الثاني بعد تحية قصيرة ودودة • أمن زمان هو هنا ؟ كلا • ألم يخش أحدا يراه ؟
يعرف أن حي الاغنياء هذا قد خلا منهم • انها على كل حال مجازفة • ما هي
أخبار المستشفى ؟ الاسرة مليئة وهناك عدد كبير من الجرحى والمحروقين • هذا
يؤكد أن أخبار الحرب ليست مفرحة ؛ لقد قال منذ البداية انها حرب خاسرة •
هي في الحقيقة غير مهتمة بذلك ؛ شيش بيش يقول ان النصر حليف العرب ؛
لكنها لا تتابع أخبار المعارك لانشغالها بالمحروقين • تعرف فقط أن هناك جنودا
يقاتلون •

يرتد اليه بقوة أكبر ذلك الشعور المنذر • ولانه لم يعتد على حالات قلق
من هذا النوع ، يحمل كرسيه ويقترب ، فيجلس لصق غادة • للمرة الاولى تبدو
له انسانية ، ولها كيان • وتتفرس في وجهه ، تبتسم بحنان صاف عميق خال
من الشهوة • لا يستطيع استيعاب نظرتها : انها نظرة غامضة • هذه الرقة
والدعة ، وهذا النأي المفاجيء • لقد تكلم اليوم أكثر مما تكلم في لقاءاتهما
كلها • رغم ذلك ، يشعر بفاصل رقيق متين يقف بينهما شفافا صعب الاختراق •
وترى الى حيرته ، فترسل أصابعها في شعره القليل القصير • تحاول أن تقول
شيئا ، أي شيء ، فلا تجد في ذهنها لغة • ويرتبك هو • يشعر بشيء من التوفز ،
اذ ليس من عادته الارتباك • أيكون هذا هو الحب ؟ ماذا لو يرتويان من الجنس

الآن ؟ ويدرك ادراكا غامضا ، ربما لأول مرة ، أن الارتواء لن يثقب الفاصل
الناهض بينهما • وها هو يسأل أسئلة أيضا •

تأمله عادة ، وابتسامتها لم تفتربعد • لأول مرة أيضا ، تشعر بلذة في
مراقبته • لذة شخصية تنبثق منها وترتد اليها : تراقبه وتراقب نفسها .
وتتكىء على شعور مريح بأنها تزاه - تراه من مسافة كافية رغم التماسق
الكرسيين • ينساح فيها حنان لا حد له ، يبلغ مبلغ الشفقة : هذا الانسان
البائس الذي يحب هذه الانسانة البائسة • تعرف أنه رغم استقلاله واعتداده
بنفسه ، متعلق بها الى درجة لا يستطيع أن يدركها • وها هو أمام لحظة
انفصال ، يعيد حساباته عله يكتشف كيف اضطرب العالم المستقر وتغيرت
مواضع أجزائه •

وسليمان ينظر اليها طوال الوقت ، مرتبكا ممسوح الوجه ، رازحا تحت
وطأة الشعور بأنه تقلص بفعل نظراتها الوديعة الى طفل صغير • لقد كان
بينهما اتفاق غير مكتوب ينص على التبادل والتواصل • لكن حقيقة غير مجلوة
تبرز الآن وتنقله الى مكان أبعد من مدى الاتفاق • أياكون هذا هو الحب
الرومنطيكي الذي تحدث عنه شيش بيش ؟ تنبثق في ذهنه صور متلاحقة للقاءات
الجسديين ، ويشعر أنه وغادة قد التحما الى الابد باسمنت اللحم والدم •

يقترب منها ويرى أنها تقترب منه • قبلة هادئة طويلة : قبلة غادة الجميلة
الطرية التي ما زالت كذلك ، والتي صارت وديعة ؛ وسليمان الطاغية الذي
عاد طفلا محتاجا • الشفاء فقط ؛ الايدي تبقى في أماكنها ، والكرسيان
لا يصدران أي صوت •

تقول له أنه قد آن الاوان لأن يمضي كل منهما في طريق • تلك الايام

صارت الآن تاريخا - ربما كان ضروريا ومطلوبا ، ان لم يكن لآخما جذوة
لافة خانقة ، فعلى الأقل لآل السقوط الى الدرك الاسفل والارتطام بالقاع
ارتطاما موقظا .

آفة يقظة ، يسألها . وتقول انها يقظة النابالم : اللحم الذي لم يعد لحما ،
والنفس التي لم تعد نفسا ، لان صاحبهما حمل في ذاكرته وطنا وترابا وراح
يقاتل عنهما . وما علاقتها هي ، ألا يكفي أنها أنهكت جسمها اعتناء به
هو وبأمثاله ؟ كلا ، تريد أن تحمل شيئا راسخا مثلما حمل غيرها ، شيئا غير
جسده هو . انها تكره القسوة ، والكلمات الكبيرة أيضا . غير معتادة على
استعمالها . لكن الحقيقة هي ما تقول .

ينظر اليها صامتا . اذن الحرب هي السبب . « ما كان يخطر لي أن الحرب
ستفرك . نحن معتادون على سماع أخبار الحرب . دائما توجد حرب في مكان
من العالم . وكنا نتوقعها عندنا منذ وقت طويل . أقصد أنها شيء مألوف .
وحتى لو تأثرت بها ، فلماذا قطع العلاقات الدبلوماسية بيننا ؟ »

ستقطع علاقاتها بكل شيء ، تقول له . لم تعد قابلة للحوار العقلي والا
لشرح له . قبل عشر سنوات ، قبل زواجها ، كانت تنهك مستمعها ومحدثيها
معا . ولكن ذلك العهد مضى . لا تعرف ماذا ستفعل بالضبط . ربما تصير
ممرضة . ستخلد الى نفسها وتفكر . لقد رفضت أن تذهب الى المصيف مع
طلعت . ستبقى هنا ، في المستشفى والبيت حتى تنتهي الحرب ، وبعدها تتخذ
قرارا .

ترى الى حزنه الصامت المتجلى ، فيزداد قلبها انفارا . « أرجوك لا
تحزن ، لا تقول له ، « أنا الآن أحبك أكثر من أي وقت مضى . صدقني .

لكن ، لا تزعل ، لم أعد أريدك . أنت بالنسبة لي تاريخ أريد أن أنتهي منه .
وسأنتهي من أشياء كثيرة غيره . »

« أفهم . أنت صرت شيئاً آخر . صار لديك رؤيا ، وستعيشينها . هذا
يبعدني شخصياً عنك . أنا لا أؤمن بالرؤى . أعتقد أن الأمم تنهض بالعلم
والتكنولوجيا . نحن ، مصيبتنا الرؤى . »

« أنا لا أتكلم من هذه الزاوية . لا تجعلني أوسع مما أنا . رغبتني هي أن
أصير ممرضة ، مثلاً ، أن أرى نفسي ويكون لي شغل . »

« ولكن ، بصراحة ، لا أفهم ما علاقة هذه الأشياء بعلاقتنا . أنت تضعين
نهاية لعلاقة ما زالت قابلة . . للحياة . »

تهز رأسها بشروود وهي تتأمل الشجيرات المؤصصة : « ليس في حياتي أي
شيء قابل للحياة . أرجوك ، لا تحزن . أرجوك ، ساعدني على المضي في تنفيذ
قراري . يمكن . . أنت لا تعرف كم أنا حزينة . »

« لماذا الحزن ؟ المسألة مسألة حرية ، بالأساس . من ناحيتي ، لا أعتقد أنني
يمكنني مساعدتك ؛ اللهم إلا أن أحمل حالي وأقول بخاطرك . »

بغير ضجيج ، وبقليل من الأسف ، تهوي مداмик شيدها طاغوت الجسد .
تغور في بحر من الرمال . هذه المرة ، يشعران أنه ليست اللبنة وحدها ما
احترق ، وإنما الاشرطة كلها والوشائع .

عناوين جريدة دمشقية :

لن يتوقف القتال (مانشيت أحمر)

وقف إطلاق النار لن يتحقق قبل زوال إسرائيل

العرب لم يضعوا بعد كل امكانياتهم في المعركة

خطة العدوان بهجوم سريع ٠٠ ثم التوقف عن القتال ٠٠ لن يكتب لها
النجاح

الجيش العربي السوري يقوم بتطهير آخر جيوب المقاومة في الحولة
مدفيعتنا المضادة تسقط للعدو ٩ طائرات في الاشتباكات الدائرة اليوم

قواعد المتحدة تحطم الهجوم الصهيوني (مانشيت)

الصواريخ العربية تحيل ألوية العدو المدرعة الى رماد في سيناء

محاصرة دبابات العدو قرب العريش ٠٠ والطائرات الاميركية تحاول
استكشاف المعركة

الجيش الاردني صامد ومدفيعته تقصف قلب تل أبيب

بيان من المذيان :

جنودنا البواسل في كل الجبهات العربية يشتبكون مع العدو ٠٠ يصبون
جحيم نيرانهم على عدوهم ٠٠ انهم يكتبون النصر للامة العربية ٠٠ جنودنا
البواسل يقفون اليوم على خط النار يلقنون اسرائيل درسا في البطولة والفداء
٠٠ جنودنا الابطال أقسموا على أن يحققوا النصر ٠٠ أقسموا على أن يعيدوا
الارض السليبة ٠٠ أقسموا على أن يقضوا على عصاة الغدر الصهيونية ٠٠
أيها المواطنون ، استولت قوات الجيش العربي السوري المظفرة على سهل
الحولة وتقوم بتطهير آخر جيوب المقاومة للعدو شرقي الجليل ودمرت مواقعه
في تل النصر وأبادتها اباداة كاملة ٠٠

من تعليق سياسي اذاعي :

ان شعب الفيتنام يتعرض منذ زمن طويل الى ظن ونصف ظن من قنابل الوحش الاستعماري في الدقيقة . ونحن نقارع الوحش الاميركي والبريطاني معا . وهو مستعد لان يجرب كل تكنيك الدمار الذي يملكه في ربوعنا . وعلينا ان نحسب حسابا لكل ذلك .

لقد بدأت جيوشنا البداية المشرفة ، وهي مستمرة حتى آخر جندي ، وشعبنا سيمسك بمعركة التحرير بكلتا يديه ويستمر حتى آخر قطرة من دمائنا .

في المساء قدم عبد الناصر استقالته للناس ، وقال لهم : « ان هذه ساعة للعمل وليست ساعة للحزن . » أعلن أن العرب هزموا في الحرب ، ولكنهم قادرون على بناء الاشتراكية وتحقيق النصر . قال ان ثقته غير محدودة بالتعالف القائد للعمل الوطني والمكون من الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية ، وأن المهمة الاولى في هذه المرحلة هي ازالة آثار العدوان .

في الذهول الابكم الضريحي الشامل المفجوع ، يدور سؤال كرقاص الساعة في أذهان الناس : كيف حدث أن هزم العرب ؟

قال عبد الناصر ان الهجوم الجوي بدأ من الغرب ، وكان متوقعا من الشرق والشمال . من أين انطلقت الطائرات المعادية ، والبحر رخوا جدا بالنسبة لاقلاعها ؟

وتقول أم خلف : « ولكن العرب هجمت فوق كل شبر من البر : جيش من مصر ، وجيش من سورية ، وجيش من الاردن ، وجيش من العراق . وقطعوا البترول عن الاميركان . فكيف هزم العرب ؟ »

وقال المذيع ان الجيوش العربية مزقت الوحدات المعادية ، وصادت طائراتها كما تصاد العصافير . كان قد قطع النشيد العربي ليعلن أن طائرة أسقطت ، أو دبابات أحرقت ، أو منطقة حررت ، أو كتيبة أبيدت ، أو تل أبيب قصفت ، أو مصفاة البترول في حيفا دمرت . وقال المذيع أن تدخل الاسطول الاميركي السادس وسفينة التخريب اللاسلكي (ليبرتي) لن يفيد اسرائيل شيئاً ، وأن الوحش الاستعماري سينعم فقط بصمت القبور .

قبور من ؛ يتساءل أبو إمام صامتا . بعد أربعة أيام من الانتصارات ، يتقدم عبد الناصر باستقالته . حقا ان العرب صاروا يحبون النكتة ويحسنون صنعها . فوق الموت ، عصة قبر ؛ استقالة ، قال ، استقالة .

هزيمة ، ثم استقالة ؟ أمران لا يعجبان شيش بيش : « من يقف بوجه الاميركان بعد انتصارهم ، اذا ذهب عبد الناصر ؟ »

تقول سليمة : « لا يهمك . سيقوم الشعب في كل مكان ويقول له : ابق ؛ فيبقى . »

ينظر اليها بلهفة ومفاجأة : هناك أمل ، اذن ، في بقاء عبد الناصر ! الشعب ! كيف نسي الشعب ؟ الشعب يريد عبد الناصر .

وعلى الكنبه المدرعة يجلس سليمان . للمرة الاولى تخلو غرفته من الآلات والمفكات والاشربة . يسحب احدى يديه من تحت ذقنه ، ويسكت المذيع مستغنيا عن نشرة الاخبار . في ضحى ذلك اليوم الذي رقص فيه شيش بيش طربا لنبا الحرب ، قال له ان العرب سيخبرون المعركة . يتذكر كيف أنه صمت بعدئذ ، وكيف انفجر شيش بيش بوجهه ، ونعته باليوم والفراب والعميل ، وكل شيء عدا كونه زرقاء اليمامة : تلك الجاهلية التي حذرت قومها من الموت المقبل

على أوراق الشجر • واذ صمت شيش بيش قال له بهدوء : ما دمت أنت خير
ما أنتجته هذه الامة ، فالهزيمة واقعة فيها لا محالة • «

والآن انتهى كل شيء •

وهو لا يريد أن يعرف كيف حدث ما حدث • بل انه يشعر بنوع من الحق
لهذه التفاصيل الخرقاء التي تعطيها اذاعة لندن عن اليوم الاول للحرب •
لذلك أخرس المذيع • هذا شعب بلا رسالة ، فكيف ينتصر ؟ شعب يعتقد أن
كل شيء في حياته مضبوط وفعال مثل الساعة ، سوى أن حكامه ليسوا في مستوى
المسئولية ؛ وأنه خير أمة أخرجت للناس ، سوى أن الظروف والاستعمار قد أناخا
عليه • شعب بلا رسالة ، رغم وجود الرسائل السماوية الثلاث بينه • بلا
إيمان • لا يحركه هدف عظيم ، فكيف ينتصر ؟ النخبة منه غوغائية وجامعة
الرغبات ، والبقية حثالة •

لا أحد يريد حقا أن يعرف • بل انهم يريدون ألا يعرفوا • ويا ليت أن
أم خلف تغمض عينيها في هذا الليل الادم ، ثم تفتحهما في الصباح لتفريق على
الحقيقة المؤكدة المريحة : أن العرب لم يهزموا ، وأنها ستعود • • يوما •
وأم إمام تريد غدا سريعا يحمل لها نبأ رجوع عبد الناصر عن استقالته : إذا
تداركنا هزيمة ، تداركنا الاخرى • وغادة تضع جبينها على راحتها ، وتبكي •
وأسمى تحس بزوغان ودوخة وحرقة تحت أجفانها ، فتمسك بافرير الشرفة
وتعقد بقوة في ليل دمشق المثقوب بأضواء الكهرباء •

ويسترخي علي فوق الديوان مطرق الرأس ، فيما تطوق أمية ساقها
بيديها وترخي وجهها على ركبتها • في العتم الفضي يلمع جيدها وعيناها
الساهمتان • كان اللقاء مديدا ، متشبثا ، بلا قوة ، رخوا ولكن ملتصقا ؛

غُلفل فيه شعور أخوة شفيف فترقرق ، وانسلت منه اللففة والضرام . واذ بدأ يرميان ثيابهما ، رافقتهما سكيئة باسمه أوقفها الشوق عن التمدي . رفعت أمية يديها تنتظر انتهاءه ، وتعانقا ، فتفتحت السكيئة وصارت حزنا : بهدوء ، واستمرار ، ورسوخ . كأن شيئا فيهما يتحرك ، وهما ساكنان . وعند الخلجة الأخيرة ، أدركا أنهما حزينان ، حزينان بلا حدود ، أنهما انتهيا - ربما الى الابد . لذلك دفن وجهه في المخدة ، ودفنت عينيها بين أجفانها . لم يقولا شيئا . حتى أنهما لم يلهثا . وجاء وقت الراحة ، ولم يكونا متعبين . ولم يكونا مرتاحين أيضا . لم يكونا في حاجة الى شيء بعينه ، ولا راضيين . لا حالمين ولا مستيقظين . فجأة تبدد منهما الحلم ، واعتكرت الحقيقة .

كانا حزينين فقط .

وعلى مقربة من وعيهما تمشي سؤال هاديء الملامح : كيف انهزم العرب ؟ في البداية انتصر العرب وانتصرت اسرائيل . ثم انهزمت اسرائيل وانهزم العرب . ثم انتصر العرب وانهزمت اسرائيل . ثم انتصرت اسرائيل وانهزم العرب .

تسأله بلا انتظار : « سمعت أن أم صالح ماتت ؟ »

فيهز برأسه . وينتبه الى مكانه في الظلمة ، فيقول : « سمعت » ويضيف : « لا أحد يعرف كيف ماتت . هل تعرفين ؟ »

« ماتت لانها يجب أن تموت . كان قلبها معطوبا ، والذي قلبه معطوب لا يعيش طويلا . »

ثم تصمت . لقد أفلتت الكلمات حاملة معاني أكبر مما تتسع له . وهي لم ترد أن تعلن ذلك .

عندئذ يتأكد أن شيئاً ما قد حدث لها ؛ مع أن العالم لم يتغير كثيراً لحدوثه .
هذه الشدة .

يقول : « كنت أتوقع أن هذه الحرب ستميت جميع القلوب المعطوبة . لكن الذي حدث هو أنها سحقته القلوب الحية . كنت أتوقع أن تحمل معها تغيراً باتجاه المستقبل ، شيئاً من النوع الذي يجعل موت أم صالح حادثاً ضرورياً . لكن الأم ماتت ودفن معها جنينها . ظننت أننا بعد الحرب سنلتفت إلى مشاكلنا الأساسية ، نستبدل أخلاقنا وعلاقاتنا . سنتمكن ، أنا وأنت من الجهر بحبنا ، وإعلانه ناموساً مقدساً لأن المستقبل جاء . ولكن الذي حدث »

الذي حدث هو أن عبد الناصر استقال ، وأن الجماهير خرجت إلى الشوارع . أن الاسرائيليين والعرب انتصروا وانهزما ، ثم انهزم الاسرائيليون وانتصر العرب ، وأخيراً انهزم العرب . وأن عبد الناصر استقال ، وأن الجماهير الرافضة احتشدت في الشوارع ، في الليل والشوارع . الذي حدث هو أن الجماهير انتصرت .

ينتبه إلى أمية وهي تتكلم : هذه الشدة . « الذي حدث هو أيضاً أن علاقتنا بلا مستقبل . »

تقولها ، وتصمت متوجفة من المتابعة . لا تعرف تماماً لماذا : تخشى أن تفاجئ بهذا القرار المتعب للقلب ؟ أم تخشى أن تفاجيء نفسها ؟ يسيطر عليها طبعها الارنبي لحظة ، ثم يشتد فيها شعور معاكس : « لا أستطيع الاستمرار ، » تقول له .

« هذا شعور مؤقت ، على أي حال . نحن لن نهزم دائماً . »

« لا ، لا . قبل الحرب بزمان . الحرب أوصلته للحافة بس . كان في

نفسي من البداية • أنا أحبك ، يا علي • • ولكن • • ليس هذا طبيعيا • طبيعي ،
ولكن وضعنا غير طبيعي • »

« الاوضاع في بلادنا كلها غير طبيعية • »

« أرجوك يا علي • لا يمكن أن تلغي كل شيء في حياتنا لان المستقبل
سيغيره • »

يشعر أنه حوصر ، أن حجته ضعفت رغم ايمانه القوي بها : « ولكن لا
يجوز أن نسمح للاوضاع بتقرير حياتنا • »

« الاوضاع والمستقبل • • وهذه الكلمات الكبيرة يا علي • • دوختني بها •
أريد الحاضر ، الحاضر • أنا لن أعيش ألف سنة • الاوضاع قررت حياتنا
وانتهى الامر • أنا أم لطفلين ، وزوجة ، وزوجي في السجن • »

« زوجك ؟ فكرت أننا خلصنا من هذا العائق النفسي • ألم نتفق على أنني
أنا زوجك ؟ » وابتسم •

« اتفقنا وكان اتفاقنا هوائيا • »

« واتفقنا على ألا تخونيني معه ؟ » وابتسم أيضا مغالبا ضعفه •

عندئذ ترفع رأسها عن ركبتيها ، تنزل ساقها الى الارض وتبسط راحتيها
على السرير : « أوه ! كرمي لله • أخونك معه • وأخونه معك • وأنا ؟ أأست
شيئا غير أنني مرتبطة بواحد منكم ؟ أنا ، ماذا أنا ؟ ماذا أنا ؟ أخونك معه
وأخونه معك ، وأنا ؟ أأست أخون نفسي معكم أنتم الاثنين ؟ حتى الآن ، لم
أحقق شيئا معك • ولا في المستقبل • يا ضيعة هذا الحب • • هذه النخلة الجميلة
التي ولدت في قبر • »

وتشير بيدها الى الغرفة •

هذا صحيح ، يقول لنفسه • اما أن ينمو الحب واما أن يذبل • ولقد نما
في هذا المدار الصغير حتى ملأه • الحب لا يقف عند حجم معين • لا يستطيع أن
يمتلك أبعادا ثابتة : انه شيء كبير ، كبير •

ينتابه حس بالضالة • هذا الشعور ، وهذه الافكار العظيمة عن المستقبل •
أكبر منه • انه عاجز عن أن ينجز شيئا • ولولا أن البشرية قد أنهكت نفسها
عبر آلاف السنين لتخط له أسلوبا للتصرف ونماذج للعيش ، لما كان أفضل حالا
من انسان بدائي • لقد امتنع عن الحاضر ورفضه • اعتبره زمانا عقيما
وزائلا • وهاهو يجد نفسه الآن مثل من يدخل سجن الآخرين بحجة أنه
لا يدخل •

ترى أمية الى استغراقه فيعضها الندم ، والى ضعفه فيدهمها البكاء • لكنها
تدرك أن كل ما بينهما يمكن أن ينهار بلحظة واحدة ، انه شعور بلا قوام •
ماذا يبقى منه بعد خروج علي من الغرفة العاتمة ؟ الغرفة : في النهار تحس
أنها شيء خاص ، غامض ونافر ، وفيه سر جميل • لكنها مطوقة بغرف ميتة •

وأمية لا تحب الاسر الموتى •

والذي حدث أن الحرب لم تنته ، والعرب لم يهزموا • وكان ياما كان أن
نشبت الحرب أخيرا بين سورية واسرائيل •

في الصباح تشيل دمشق بقضها وقضيضها • تهدر العزيمة والفرح في قلوب
الناس اذ يصدر بلاغ عسكري جديد •

وفي الصباح تكتب الجريدة :

انتصارات جديدة في الجبهة (مانشيت)

طائرات العدو تتساقط بغزارة تحت نيران مدافعنا المضادة

ابادة سرية كاملة من مدفعية العدو وتدمير مستودع لذخائره .

٤٦٠٠ أسير صهيوني . . يصلون الى القاهرة (مانشيت أحمر)

يوم حاسم على جبهة سيناء

الدفعة الثانية من القوات الجزائرية وأسراب الطيران دخلت المعركة

تفاصيل جديدة عن اشتراك أميركا وبريطانيا في العدوان

اذاعات العدو تعترف :

قوات المتحدة تقوم بهجوم ساحق مضاد

أعلنت القيادة العامة للقوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة أن

أن القوات المسلحة قاتلت أمس . . .

وفي المساء تكتب الجريدة :

اسرائيل تواصل عدوانها مستهترة بقرار مجلس الامن الدولي

طائرات العدو تواصل غاراتها على مواقعنا وعلى قناة السويس ومدفيعتنا

تسقط طائرة ميراج

تدمير ٩ دبابات للعدو شمالي الجبهة وكافة دباباته التي حاولت التقرب

من القطاع الاوسط .

المعركة مستمرة (مانشيت أحمر)

قواتنا تصد عدوانا صهيونيا صباح اليوم وتقصف مستعمرات العدو
وتجمعاته .

أرتال العدو ٠٠ حاولت التقدم باتجاه الجبهة فدمرتها قواتنا بكاملها :

مدفيعتنا تقوم بضرب مرابض العدو (مانشيت)

المركة ليست خاطفة ٠٠ وسنستمر لاننا نقاتل العدو الصهيوني وقوى
العدوان في العالم

وصول الفوج الاول من القوات السودانية

بلاغ من اذاعة القاهرة :

أتمت قواتنا المسلحة أمس انسحابها الى الضفة الغربية من قناة السويس
وبرغم ايقاف النار الذي التزمت به الجمهورية العربية المتحدة وأبلغته الى
مجلس الامن فان قوات العدو الاسرائيلي الذي تسانده قوى الاستعمار ما زالت
حتى الآن تواصل هجماتها ضد قواتنا في غرب قناة السويس كما أن الغارات
الجوية على منطقة السويس ما زالت مستمرة في حين تواصل قواتنا المسلحة
أداء واجبها المقدس دفاعا عن أرض الوطن .

بلاغ عسكري رقم ٥٦ من اذاعة دمشق :

بالرغم من أن قواتنا توقفت عن اطلاق النار حسب قرار مجلس الامن فقد
بدأ العدو في تمام الساعة التاسعة والربع في شن هجوما على مواقعنا ٠٠

عناوين جريدة محلية :

تقرير أوثانت : أميركا لم تتوقف إطلاقا عن شحن الاسلحة الى اسرائيل

اقرار من مجلس الشيوخ الاميركي : (مانشيت)

دخول أميركا الى جانب اسرائيل بالمعركة جعلها تبدأ بالعدوان وهي مطمئنة

نداء مكرر من اذاعة اسرائيل :

أيها الجندي السوري ، اذا أردت العودة الى أهلك وذويك سالما ، بادر الى رفع راية بيضاء ووضع يديك على رأسك عندما يتقدم منك جيش الدفاع الاسرائيلي .

وكانت اذاعة العدو قد لخصت كل ما حدث بكلمات قليلة . يقول عربي بك ان الطيران الاسرائيلي استيقظ باكرا في الصباح الاول من صباحات الحرب ، واشرب كالطير الأبابيل فوق طائرات مصر الغافية في مرايضها ، وقصفها بحجارة من سجيل فقات أعينها . وهكذا انتصرت اسرائيل ، وانهزم العرب .

« منذ اليوم الاول ؟ مستحيل ! » يقول بسام بك .

« نعم سيدي . منذ اليوم الاول . »

« هكذا ، هكذا ، عينك ، عينك ؟ »

« عينك أنت ، أبو وائل . أنا عيني ما لها دخل . »

« أنا بحياتي ما مر علي شبيهك . هذا وقت المزح ، بشرفك ؟ »

« تريدني أن أبكي ؟ هه . سأبكي . هزيمة ، ويطلع خلقك ؟ واحدة تكفي . »

« الآن ، خل المزح . وماذا قال الاسرائيليون ؟ »

« أيا ايبان ، تعرفه ، وزير الخارجية . قال انه سيقعد على دبابة ، ينتظر

مجيء الزعماء العرب اليه . »

« هكذا ! اي ، فشر ، سيدي • العرب لن يموتوا • يس والله ، هزيمة
پشتيعة • وغيره ؟ »

« أبو وائل ! قالوا لك أني بالغ راديو ؟ اسمع الاخبار بنفسك • أنت
مواطن مثلي • »

« والله انشغلت يا أبو نزار • ما سمعت غير أخبارنا نحن • »

« سيدي ، والاميركان وأوروبا الغربية ، يرقصون في الشوارع • يقولون
ان الحضارة انتصرت على البربرية • أنطوني ايدن شمتان بعبد الناصر •
وليندون جونسون بعث برقية تهنئة لليفي اشكول • »
« طبعا • يهنتون بعضهم بعضا • »

يقولون : أف ! ويلتفتون حولهم بحثا عن شيء لا يعرفون ما هو • شيء
آخر ، مختلف ، حلو وناعم ومالح ولذيذ وحامض ودسم ، زاهي الالوان ، جميل
الشكل ، عليل الهواء ، رطب ودافئ • • شيء من النوع الذي يملأ عالم الهوى
في ألف ليلة وليلة •

ويقول محمود : « الآن فهمنا • حكومة أميركا وحكومة اسرائيل ربعتا
الحرب • العرب انهزموا • الرابع الأكبر هو أميركا • والرابع الأصغر هو
الحكومات • المهزوم الأكبر هو العرب • »

في الفلاة ، على التراب البركاني الأسود المرشوش بالعصى ، يحمل عباس
بارودته ويسير بوجه الافق الشرقي المتعرج • بينه وبين خط السماء الأدنى
كتلة جسيمة من الظلام • لكن عينيه اعتادنا على النفاذ في هذا الجسد الداكن
الذي لا شكل له • ولو أن ضوءا يفجّه الآن على غرة ، فسترتفع ذراع عباس

الى عينيه وتغطيها • يسير الهوينى ، ويسير • وراءه ، تنبثق من بعيد أصوات
متقطعة لطلقات نارية • ليست الاصوات ، بل معرفته بالجغرافيا ، ما جعله
يتأكد أن المعركة ، بقايا المعركة ، تقرر وراءه لا أمامه • لقد دلت الأرض
على نفسها وأرشدته • هذا هو يومه الخامس بدون نوم • لولا الجغرافيا لما
استطاع أن يعرف أين هو ومن هو • تعطلت الملكات والحواس والقوة البدنية ،
ولم يبق غير الذاكرة : الهزيمة وهذه الأرض •

يتذكر كيف هوت قنبلة من إحدى الطائرات وسقطت على مبعدة أمتار من
مخبئه • خمسمئة كيلو غرام • وكيف تغطي المخبأ بركام من التراب واللحم
والعظام • العريف ممدوح ، والجنديان خالد ومنير ، وربما الملازم موسى •
وعندما خرج بعد دقائق وتفحص مكان القنبلة ، وجد فجأ عميقا هائلا ملأت
المياه الجوفية نصفه •

تلك هي الأرض • لو أن الحرب تبدأ من جديد الآن ، فلسوف يخوض
معركة حقيقية ، لامبارزة بالسيوف • معركة الأرض ، لا معركة الكرامة
والشرف والثأر والبطولة ، وهذه الكلمات التي صارت جوفاء لأنها لم ترتبط
بالأرض • الكرامة هي الأرض • الأمور توضحت الآن • الحرب ؟ لم تكن هناك
حرب • كانت لعبة جهنمية ، محبوكية كعقل الكتروني ، مثل مسألة حسابية
منتھية لم يبق منها سوى تسجيل النتائج النهائية • وقد قبع في مخبئه كل تلك
الأيام ، يتفرج على الضرب والطرح والقسمة والجمع • وفي مساء اليوم الرابع
من الحرب ، عرف حل المسألة : انه مهزوم • لا شك أن أميركا شيء قوي ،
هائل ، جسيم ومفزع ، شمشون أعمى ، وعلى رأسه قبعة ، بنت الحرام ! كيف
رتبت كل شيء ، ونجعت في كل شيء •

على أية حال لقد بقيت الثورة • وهذا هو المهم • العدوان حقق هدفا :

احتلال الارض ، وفشل في تحقيق الثاني : اسقاط الانظمة العربية التقدمية .
بقيت الثورة ، والثورة ستسترد أنفاسها . تسترد الارض ، تصنع الانسان
الجديد . تقيم العدالة . تقضي على الامبريالية .

من بعيد يلمح بيتا . ينظر الى ساعته فيعرف أن الفجر مختبئ وراء
التلال . يتجه الى البيت . في البداية انتصر العرب . هو نفسه توغل مسافة
خمس عشرة كيلومترا في أرض فلسطين . ثم اكتشف الفخ المحتم المتربص بين
التلال . وكانت الطائرات طوفانا سمائيا ، جحيما تقصد من كل اتجاه . وهكذا
عاد الى مواقعه الاولى ، وقبع يسمع الراديو ويتفرج على الحرب . على نحو
ما لم تكن حربا . كانت تحدث حوله ، فوقه وأمامه ، والى جانبيه ، ولكن ليس
في متناول يده . وهاهو ذا : محارب مهزوم لم يحارب . ويسأل نفسه حانقا ،
لا مستفهما : كيف هزم ؟ هؤلاء الامبرياليون شنوا عليه حربا ولم يتركوا له
فرصة للحرب . كانت أشبه بما حدث للملك سيف بن ذي يزن ، يوم وقف
مذهولا وسيفه جامد بيده ، فيما تصطرع حوله عشرات الآلاف من الجن وتتعالى
صراخات مروعة وقعقة رهيبة ، حتى هبط اليه عيروض لاهثا وأبلغه بنهاية
المعركة . يومها انتصر الملك سيف . واليوم انهزم عباس : لم تكن الجن الى
جانبه - كانت كلها ضده ، وتأتي من أميركا الجائمة على صدر البحر المتوسط .
لقد أراد أن يقاتل ، لكن أحدا لم يبرز له . كان بالضبط في مثل حالة حافظ
ابراهيم الذي قال :

لا تلم كفتي اذا السيف نبا صح مني العزم والدهر أبى

يلمح في الظلام زولا يقف قسرب البيت . يقف . يظل الزول واقفا .
يعاينان بعضهما بعضا باسترابة ووهن . يفكر عباس : ماذا لو أنه عدو ؟ في
هذه المنطقة ؟ مستحيل . من السخف أن يشهر سلاحه ويأمر الآخر برفع يديه .

وماذا لو أن الآخر فعل ذلك ؟ مستحيل أن يكون عدوا • لم يتكلم حتى الآن •
هذا يعني أنه عدو • ولكن عباس نفسه لم يتكلم • وما الفائدة من أن يقتل
أحدهما الآخر ؟

يتقدم بالتعب نفسه • ويظل الزول شاخصا اليه • عندما يصير على مقربة
من الغرفة الاسمنتية يضيق ذرعا بوقفة الزول الصامتة • يتحسس قدميه
المتورمتين ، ويقرر التخلي عن حذائه العسكري لمن يجيء بعده • منذ ربع قرن
لم يمش حافيا • ولكن • • يا لهذا الشبح المثير للاعصاب ! لو أنه يتحرك ،
لعنى ذلك رغبة في عدم الاقتتال • وماذا لو كان عدوا ؟ ليتحرك ، هذا الأبله !
البيت على بعد أمتار ، والسماء ضاعت بالفجر ، فليتحرك • ماذا لو أنه عدو
فعلا ؟ سيكون في هذه المنطقة مثل خشبة عائمة على بحر • سيكون • • ويبحث
في ذهنه عن كلمة مناسبة ، فيعيا • أجل - لقد أتعبته الحرب ، مع أنه لم يحارب •
صح منه العزم والدهر أبى • كيف هزم ؟ : صح منه العزم والدهر أبى •
يمشي • ما ياله محرور وساخر بهذا الشكل ؟ على أي حال ، الثورة بقيت ،
وهذا هو المهم • تعيش الثورة •

يظل الآخر واقفا محققا ، وعباس يتقدم • هو أيضا يحمل بارودة •
يتحقق عباس ، والمسافة بينهما أمتار ، أنه ملازم صديق • يقترب منه شاعرا
بالانس للقاءه ، بالخزي أيضا ، ثم فجأة يقف • أمام الملازم يرى عسكريا جاثما
في حفرة صغيرة وقد شبك أصابعه فوق رقبتة •

« ما هذا ؟ » يسأل •

« احترامي ، سيدي • ضابط عدو ، سيدي • • »

« ضابط عدو ؟ كيف وصل الى هنا ؟ »

« قال ان معركة صغيرة نشبت بين مفرزته ومفرزة من جيشنا ، سيدي .
وعندما أراد الانسحاب وجد نفسه مضطرا للانسحاب شرقا . ثم حل الليل ،
ولم يعد يعرف وجهته بسبب الاختباء المتكرر . ضاع ، سيدي . »

« ضاع ، أخو القحبة ، اذن ؟ »

« نعم سيدي . مع أن معه خارطة . لكنه قال انه لا يعرف الارض . »

« لا يعرف الارض . »

« لذلك ضاع . »

« هذه هي الكلمة المناسبة : ضاع . فعلا . »

« قال ان الضياع حالة رهيبة . »

« هذا صحيح . مثل خشبة عائمة على بحر . بأي لغة تحدثتم ؟ »

« بالعربية ، سيدي . سألني ان كنت ضائعا مثله . »

« وماذا أجبت ؟ »

« بصراحة ، سيدي ، أنا مهزوم ، لست ضائعا . »

« أنت عبقرى . »

« شكرا سيدي . ماذا نفعل به ؟ لا نستطيع أن نأخذه معنا . ربما

غدر بنا . »

يهز عباس رأسه ويبتسم : يلتفت الى الاسرائيلي : أمن أجل هذا دخل
الحرب ؟ أهذا هو الذي هزمه ؟ هذا الذي يخاف ، يركع ، ويمكن قتله بسهولة ،

ولعل له حبيبة ، أو أنه مشتاق الى أمه ، باختصار : هذا الذي دخل الحرب مثلما دخلها عباس نفسه • نقلته آلية عسكرية مثلما نقلت عباسا • ودخل ميدان القتال دون أن يقاتل • وبعد أربعة أيام ، انتصر هو وانهزم عباس • وعندما التحم في قتال حقيقي مع عدوه ، ضاع • وهاهو الآن ، ليس بينه وبين الموت سوى متر واحد وخمس ثوان •

يخاطب الاسرائيلي بالعبرية : « لا ترفع رأسك • تعرف أننا خسرنا معركة ، وان لم نخسر الحرب • أمامنا مسيرة ثلاثة أيام • سنصنع من ثيابك أمراسا مفتلة نربطك بها عند اللزوم • وستمشي أمامنا الى أقرب مخفر • هذا حل • والحل الثاني هو أن نقتلك ، خاصة وأن الحفرة هذه قبر مناسب لك • اقترح عليك أن تختار الحل الاول • ما • قلت ؟ »

« أمشي معكم • »

عناوين جريدة دمشقية :

أدلة جديدة تكشف الاشتراك الفعلي لأميركا وبريطانيا في العدوان الصهيوني

أسرار العدوان الثلاثي الجديد (مانشيت أسود)

سيتحول الوطن العربي الى مقبرة للفزاة (مانشيت أحمر)

الذي حدث هو أن دمشق هزمت • خمسة آلاف سنة من عمر الحضارة ، أطلقت عليها النار • بالسخف تلك المقالة النارية التي بشرت-بنصر تاريخي قبل ثلاثة أيام • فيها هو الملك يدور عبر الشوارع ذاهلا مكلوما • وهاهو ذا زمان عاشوراء • المدينة التي عمرها خمسة آلاف سنة هزمت • أذلت • مدافع العدو زارت في آذان سكانها فهشت على أحلامهم وأبعدتها كما يبعد الذباب عن

العسل • القنابل سقطت عند أذيالها فلطخت الثوب القشيب بالوحل ، وعفرت
الوجه الهاديء البدوي بالعار •

وكيف يا امرأة عمورية تحملت كل هذا ؟ لقد صرخت فدوت صرختك في
أعماق الصحراء • ناديت على البدو فجفلت الاغنام والجمال والخيول • رفعت
أعناقها في الفضاء ، وشنفت آذانها تستجمع الصوت - ففاتها الصدى • ولبّاك
ألف معتصم مسترخ ومعتصم • كانوا قد فرغوا لتوهم من قراءة (ألف ليلة وليلة)
وتلمظت شفاههم لذة الحلم الرامح في أعينهم الزائفة • لكنهم وثبوا عن الديباج
إلى ظهور الخيل والجمال والاعنام • وخرجت يادمشق تودعينهم بالمزاهر
والاناشيد العربية والبلاغات • لذلك بقيت شفاههم تتحرك وأعينهم زائفة •
وبدلاً من أن يتركوا الليالي العربية ، زرقوها في دمائهم ودماغهم • وعندما
وصلوا إلى عمورية ، كان جند الروم قد وصلوا إلى دمشق •

وكيف يادمشق تحملت كل هذا ؟ لقد كشف الفطاء الآن • لن تكفيك عطور
الجزيرة العربية ولا مصخرة اليمن كي تستردي رونق محياك العريق • هذه
الشوارع حزينة بلا حس • النهود نافرة بلا بهاء • الافواه صامتة بلا جلال •
النفوس متكلمة بلا لغة • هذا الياسمين يضوع بلا جاذبية • هذه الزوايا
والتكايا والمفارات تغط تحت أغشية العنكبوت • بيوت الطين والخشب أعشاش
للبق • الحمامات التركية والتراجيل والنرد وحلقات الذكر هي التآليل المنبثة
في جسدك العريق • من صلبك ، لا من صلب غيرك ، ينزل القار ممزوجاً
بالحليب الصافي • داخل جمجمتك المغطاة يزدهر العار • تحت النمش الوردي
يتجمع الصديد •

وكيف يا دمشق حبلى بكل هذا ؟ أيتها المدينة الصغيرة الهاجمة في حضن
الجبل • كيف اتسع رحمك لهذه الهزيمة النكراء ؟ إذا كان وليدك الجديد

عملاقا ، فأية آلات ستقيس حجمه في المستقبل ؟ سوف يمشي الملك عبر شوارعك ، وظل هذا الكائن الخانق يحرمه من شمسك الصحراوية الدافئة • وسوف يمسك بيد ابنه الصغيرة ، وفي طريقه الى طبيب الاسنان يحس أن غلالة معدنية سوداء قد انسدت بين اليدين المتعانقتين • ويوم يكبر الطفل ويصير شابا ، سيسأل : كيف خذلتكم دمشق ؟ كيف هزمت دمشق ؟ لماذا لم تقاتل دمشق ؟ وسيجد عنقه مطوقا بربطة عريضة وضاعة ، نسيجها ذل موروث وهزيمة دميمة •

يا أرض خضراء الدمن • يا حلما مراوغا لا ينفذ • يا جسدا مثغنا بلا عا •
يا أما ثكلتها نفسها • يتعجب المرء من كبريائك العربية المهيبة ، وتطوحات الرمل والبساتين بين فخذيك • ترى من أين دخل التتار الى مخدعك وأنت غافية ؟ من (باب شرقي) أم من (باب توما) ؟ من أين الصيلبيون ؟ والترك ؟ والرجل الأبيض ؟ والصهاينة ؟ وأنت ما زلت تنبضين يا قلب العروبة • وأبوابك السبعة مشرعة دائما ، للريح والاصوات والروائح - يا موطن آدم وحواء قبل السقوط وبعده •

الآن تشرب ماءك العذب فنتذوق طعم الحنظل • نمشي في الشوارع ونحن نشعر أننا ثقلاء عليها • ونتساءل لماذا لا تنشقين وتبتلعيننا • هذه الاشجار الجميلة الباسقة ما تزال تظللنا ، نمشي في فيئها الليلي ونحن في طريقنا الى موائد القمر ومشانق الزمن • تركنا أبوابك مفتوحة وكنا نرى الاعداء يتربصون بك • لقد زلزلت الارض زلزالها ، وسألت العناصر ما لها ؟ انه الاعصار ، الهزة الارضية •

أخيرا يسترخي الملك على سور حديقة ، ويوكي ذقنه على ذراعه • ضوء الشمس اللاهب يغلله ويسبح في الفضاء كسديم قديم • هذه هي الشجرة التي اعتاد أن يدعوها عشيقته • لها أربعة سيقان - وليس فقط اثنتان - تتفرع

من مكان واحد ، أفقية في البداية ، ثم تنعطف باتجاه السماء عارية حتى منتصفها • في القمة تتداخل الاوراق والاغصان وتنتشر كهالة خضراء • ذلك الاعصار لم يقتلع دمشق ، والهزة لم تبتلعها •

وما هو شيش بيش يقبل من أول الشارع ، رافع الرأس حثيث الخطي • كأن شيئاً لم يحدث له • كأن دمشق ما تزال كما هي ، لم تتغير في ناظره • كأن الهزيمة قد حلت بغيره • للحظات ، ينتاب الملك تشوش محير : كيف يرفع شيش بيش رأسه ، وقد انحنت الرؤوس ؟ صحيح أنه من صنف الناس الذين لا يطيقون حمل الهموم ، ولكن ليس معقولا أن يتسع جوفه لجبل هزيمة يبتلعه بهذه السرعة • وهو يبتسم أيضا !

يصل شيش بيش ويلطم بمقدم حذائه حذاء الملك : « ما لك ؟ قاعد مثل واحد من صعاليك العرب • »

يتأمله الملك متفحصا جامدا • يرى الى فمه وهو يتحوك : « صار شيء للأولاد ؟ ماذا حدث ؟ » ماذا حدث ، يا ابن السبايا ، يقول الملك في سره • « أولادك ، امرأتك ؟ آ ، ابنك ، يوجعه ضرسه • متأسف • علي واجب • علي أن ألق جراح أشقائي المهزومين • ولو أنني في الحقيقة زيادة هناك • قصدي ، لو تركت المستشفى ، لما مات أحد متأثرا بجراحه • في الحقيقة أنا عملي ممرض هناك • يا ضيعان برتيات المحبوسة وحليب السباع • اه ! ما لوجهك مثل السوم ؟ ماذا حدث ؟ » •

« شيء بسيط • حدث أن بلادنا انهزمت • »

« آا ! هكذا اذن • أخونا واجعه قلبه على البلاد • أسمى من هذا الرأي • بس يا عبيطين ، البلاد ما انهزمت • انهزم حكامنا الاجلاء • البلاد باقية • والناس

باقية • انهزمت الحكومات ، وحتى الحكومات باقية • أين الهزيمة ؟ لحسن
الحظ ، عبد الناصر رجع عن استقالته • والا لكنا بقينا بحكومات لا تعرف
كيف تستر عوراتها • عبد الناصر ليس من النوع الذي يقبل بالهزيمة • لكني
لا أفهم سبب حزنك • لن يتغير شيء عليك • بعد الهزيمة ستبقى مثلما كنت
قبلها • ستبقى محررا خطيرا في جريدة خطيرة ، تصدر في بلد الامجاد والنضال
والثورة • بالنسبة لنا نحن ، الهزيمة كلمة • ما علاقتنا نحن ؟ الراديو هو
الذي أعلن الحرب ، وأذاع الاناشيد الحماسية ، وبعدئذ أعلن الهزيمة • ما
علاقتنا نحن ؟ الراديو هو الذي انهزم • هه • أنت زعلان على حكوماتنا
لأنها انهزمت ؟ » •

« أنا زعلان على أمي • وعلى أبي • الذي أورثني وطننا مستقلا أحبه •
ومكانا في هذا الوطن • وعلى هذه الشجرة • تطلع اليها ، كم هي جميلة •
زعلان ، طبعا زعلان • بودك أن أرقص لأرض احتلها للاعداء ؟ » •

ويجهش ببكاء مبالغ • وتندفع يدها الى عينيه فتفطيهما • يسترخي
شيش بيش الى جانبه مرتبكا ساخرا : دموع صبيحة ، وحزن ومرارة ، وكل
هذه الاشياء ! ماذا يفعل لهذا الصديق الحبيب الى قلبه ؟ ويصمت حتى تنسحب
يدا الملك كاشفتين عن ابتسامة صغيرة •

يقول شيش بيش بصدى : « لا أفهم هذا البكاء • الجميع يبكون ، كأن
كسارته حات بالعالم • »

« يا ابن السبايا • كارثة ، نعم كارثة • ماذا تظنها ؟ كركوز وعيواظ ؟ »

« أنت تتكلم مثل أسمى : بجنون مطبق • نحن شعب ، يا ملك الزمان •

ولا أرى ما يمنعنا عن هزيمة أعدائنا واسترداد أرضنا وحقوقنا • نحن شعب
مقاتل أساسا • ولكن يجب أن نعرف من نقاتل أولا ، ثم كيف نقاتل • «

« إذا أتيت لك فرصة القتال • حبيبي ، هذه الحرب أسقطت ادعاءاتنا ،
ومواقفنا • قبل قليل ، أيام ، كان موقفنا استرداد أرض ١٩٤٨ • الآن ،
إزالة آثار العدوان • يعني استرجاع أرض ١٩٦٧ • ولتسترد هذه الأرض
ستخسر الوطن كله • من يستطيع أن يرد الأرض للعرب غير أميركا ؟ ولقاء أي
ثمن ترد لك أميركا الأرض ؟ قل لي • لأجل سواد عينيك ؟ » •

« لا أفهم ما دخل أميركا في الموضوع ! أميركا عدوتنا ، وخططت للحرب
مثلها مثل إسرائيل ••• وها أنت تفترض أن أميركا سترد الأرض للعرب ! ونحن
ما شغلنا ؟ » •

« الاسترخاء والفرجة • »

« أنت غير معقول اليوم • كأنك لم تسمع بفيتنام ، ولا بكوبا ، ولا ••• »
« كرمي لله ، كرمي للشئ ••• كفوا عن تقمص فيتنام • كلما ضربنا على
قفانا مرة ، قلنا : فيتنام • يا أخي ، قليل من الحياء ينعش قلب الانسان • »
« الله يلعنك ويلعن قلبك • أنت لا ينعش قلبك شيء • لان عقلك مخدر
بكلوروفورم الهزيمة • »

« يا ابن الفاعلة ، كيف لا يكون عقلي مخدرا بالهزيمة ؟ لو أن زلزالا
ضرب هذه الأرض ، لما اهتزت مثلما هزتها هذه الحرب • »

« لم يهتز أحد سوى الحكومات وعقلك • أنا أراهن أنك خلال أسبوع
ستعود الى أم تحسين ، ويكفهر وجهك الكئيب فوق أوراقك ••• »

« أنت أنسان بليد الحس ، خامد الشعور • عالمك هو عالم الاسنان النخرة
واللث المتورمة • »

« وأنت مصاب باليرقان في عقلك • »

« يظل عقلي أفضل من عقلك السريري المخبب • »

« اذا كان قصدك القدرة على السفاهة والفضاظة فهذا صحيح • أنا لا
أجاريك في سوقيتك • »

وينهض • يدير ظهره للملك ويتابع سيره ، هذه المرة مطرق الرأس •

قبل يومين انعقد بخار حام مماثل فوق رأسه ورأس أسمى • تلك المجنونة •
العذبة • والمريرة أيضا • كلهم يتفلسفون ، وفلسفتهم بالونات منفوخة ،
يطلقونها في الهواء ثم يخافون منها • وهاهو ذا الملك أيضا • هذا الاحمق •
يصر على أن ما حدث كان كارثة من كوارث الطبيعة • قبل أسبوع كان العدو
فقاعة • اليوم ، قنبلة ذرية • ان شيئا لم يتغير • سوى أن بعض الروائح الكريهة
فاحت في الجو • هذا الشعب لم يهزم • شيش بيش لم يهزم • ولكنهم ألبسوه
ثوب الهزيمة وقالوا : امش في الشوارع مهزوما • وهاهم يندبونه • تلك هي
روح عاشوراء • يصنعون الشهداء لا لشيء الا لكي يندبوه • المصيبة هي هذه
الجدية القاتلة في استيلاد مشاعر متضخمة • ويطعنون أنفسهم بالخناجر أيضا •
ما يحتاجون اليه هو مزاج أقل جدية • شيء من روح الدعابة ، ورمية نرد
موفقة • قالت أسمى انها لن تتزوج أحدا من هذا الجيل المهزوم • ما شاء الله •
كاهنة معبد بعل ! ستكرس نفسها للأشياء العليا • ماذا حدث ؟ قبل الحرب كان
الجيل في المقاهي • وبعد الحرب ، سيبقى في المقاهي • ومع ذلك يقولون لنا اننا
انهزمنا • وأسمى تقول ان طاقما كاملا من التفكير ونماذج العيش قد انهار •

صحيح ، يجب أن نتعلم شيئاً من الهزيمة • لكننا نحن لم نهزم • سوف تركل
الحب والزواج وانجاب الاطفال بسبب هزيمة لا ناقة لنا بها ولا جمل • وهي
تزدري كل ما حققته الاجيال الجديدة من تقدم : يجب أن يبدأ شيء من نقطة
الصفر • أي شيء؟ انها حتى لا تعرفه • كل انجاز يجب أن يرفض ! اندحار
البرجوازية تعتبره صفرا • هذه هي آراء أخيها المفرور • ذي التواضع
المتعجرف والبساطة المصنوعة ، ثوري وينطرح على صديقتة كحيوانات البرية •
حتى أنها ليست خطيبته • مرحبا ثورة !

فجأة يملأ رئتيه بالهواء ويزفر • انه لم يعتد على هذا الحجم من المראה •
الهموم كانت دائما شيئاً ثقيلاً على قلبه ، حملاً لا قبل له بحمله • صحيح أنه
ينفعل بها ، ويتحمس ويشور ، ويعلو صوته الى السماء • ولكن الى حين • فاذا
لم تنجل ، أدار لها ظهره ومضى • ولان الهموم ذات طبيعة حرون ، كان غالباً
يدير لها ظهره • ذلك هو الحل الأفضل • خاصة في هذا العصر المتشابك المرهق •
الامبريالية ، واسرائيل ، والتحرر ، والاشتراكية • • من ترى يستطيع انزالها
في جيوبه ؟ لقد خلق الانسان للفرح والحب ، لأكلة فول دسمة مع مقبلات نصيرة •
لنفسلة في الحمام البلدي • سيران في الغوطة • مباراة نرد حامية الوطيس • أما
أن يأتلف مع الهم ، وينطح الرواسي ، ويدقق في كل شيء ، وكلما انفتقت
درزة يخطها • • كيف بالله يقبل هؤلاء على تضييع حياتهم وارهاق أنفسهم بهذه
الجدية ؟ وما بالهم كأن صاعقة أصابتهم ؟ هزيمة ، قال هزيمة ! فليلق
الرفاؤون زبد أفواههم ، ويتركوا لنا أفراحنا الصغيرة • حتى هذه الموطوءة
غادة ، صارت جدية ، وقررت تغيير حياتها فيتمت سليمان البائس • وهذه
ساحة الامويين لم تتغير • لا شيء يغير ساحة الامويين • ليست لها علاقة بالهزيمة
وهاي السيارات تمر عليها مثلما مرت عليه اغاظات أسى والملك • انه باق •

كهذا الشعب • وهذا التاريخ • ونهر بردى والغوطتين ورمال الصحراء •
وهنيئاً لغيره تلذذهم بالحزن من هزيمة ضرورية •

وتكون أمية مطرقة الرأس ، وكذلك علي • جاء ليطمئن عليها وعلى
الأولاد ، ويسأل ان كانوا في حاجة الى شيء • لذلك لم يكن ثمة خوف من
التشكك • منذ ثلاثة أرباع الساعة يجلسان صامتتين تقريبا - هذه المرة في البهو
وفي رابعة النهار ، ونور الظهيرة يتدفق فيصل بعض ضوءه اليهما • منذ عهد
بعيد لم يجتمعا في الضوء ، منذ لقائهما الحميم الاول • وهما في الضوء مرة
أخرى • وبين الضوئين مسافة حلم سوداء ، استترت تحت ليلها الأغبر زهرة
حب سوداء شما رائحتهما الزكية وهما مغمضا العيون • في الصمت أرسلتا كلاما
كثيرا وتفوتا بالقليل • عندما اتصل بالهاتف وقال انه سيجيء ، صمتت على
أن يكون اللقاء أخيرا • ثم رأتها على العتبة ، وجهه كامد وعيناه مشوقتان ،
فعرفت أنها لن تستطيع • عرفت أنها اتصلت به الابد • لكنها ظلت صامتة •
حيا ، ودخل ، وسلم على الاولاد ، ثم انصرف الاولاد • وجلسا • غمغم أنه فكر
طويلا بكلمات الليلة الاخيرة ، وصمت •

وبقيا صامتتين • كان الفراق حاضرا ، وكان أثقل من الموت •

قالت لنفسها ان الفراق محتم • وآئذ هزها هلع مريد • ولأنها تنوء بثقل
الهموم ، اندفع خيالها المقهور الى صورة مألوفة لبيت صغير يضمهما معا •
وتمددت بها الصور بقدر ما نفذ اليها الهلع • بيت مفروش بأرائك الخيزران ،
وسرير عريض وخزانة واحدة • تدخله الشمس ، على الأقل من إحدى جهاته •
وفي ركن من البهو توضع المكتبة ، وطاولة صغيرة يصحح عليها أوراق تلاميذه
أو يكتب • وهي ستأتيه بفنجان القهوة • تضع الفنجان الى يساره ، ثم تمنقه
من الخلف وتقبله دون أن تلهيه عن عمله • وقد يترك عمله لبضع دقائق

ويجلسها على حضنه ، أو ينهض فيختطفها عن الارض ويلف جسمها حول صدره وظهره ، كما كان يفعل ؛ آه ، كم ان ذلك جميل .

ولكن . . أترأه يتزوج مطلقة ؟ وهكذا عاد اليها الهلع . قال انه فكر بكلمات الليلة الأخيرة . جاء يعلن النهاية اذن . كيف خطر لها أن تطلب ذلك الطلب ؟ كان بوسعهما أن يستمرا الى ما لا نهاية . أية أنانية منها ، وأي غرور أن ترغب في أن تكون مخلوقة لها كيائها . في الفترة الأخيرة ، صار ترتيب لقائهما صعبا . وكان ذلك بتعمد منها . لقد دأبت على تأجيل الموعد ، مرة ومرتين ، وعلى الاعتذار بأسباب معظمها مختلق . وفي مرة قالت أن نواف في البيت ، ولم يصدقها . عرف أنها تختلق الاعذار . دق الباب بالطريقة نفسها ولم تفتح . يا لذلك الليل كم كان مروعا ، ونواف مستلق على ظهره يتظاهر بالنوم وينتظر دخوله .

واذا تزوجا ؟ لن يتغير في حياتها شيء سيبقى عالة عليه . سيختلف الوضع قليلا ، لكنها ستظل عالة عليه . يطعمها ويكسوها ويكون مسئولا عن البيت — يعني سيدا مطلقا له . أوه ، انه سيدها المطلق ، غير أنها لن تحبه بحرية ، ولن ينتبه الى أنه في حاجة لها . أية انسانية في علاقة لا تكافؤ فيها ؟ صحيح أنه يحبها ، ولكن . . واعتراها وجوم مستغرق ، وطففت عليها لجة أفكارها .

« تشرب قهوة ؟ »

« من فضلك . »

وأحس بكلمتيه المدورتين تشدحرجان عبر فمه وتخرجان ككبرتين من الثلج . يا لهذه الغربة المروعة . كل ذلك لأن عليه أن يتخذ قرارا . عندما تكلمت في الفراق ، أحس أن بساطا قد سحب من تحت ركبتيه ، وأنه يهوي الى قرار

سحيق • لوهلة انتفضت أعماقه كمن لدغ فيها : انه مرفوض ، ولن يقبل بنهاية
كهذه • ثم تماسك ، ورقرت في جبينه مويجات الحب اليتيم ، فصفت سريرته
وهدأت على مد العزن • وكان الليل لباسا •

في النهار التالي حاول أن يهرب • كان عليه أن يتخذ قرارا ، وشق عليه
اتخاذ القرار • هل يتزوج مطلقة ؟ وأحس كما صدمة من شيء لا مادة له هزت
بدنه • لم يكن من قبل واعيا بهذا السؤال • وأحس بضميره يندى • قال لنفسه :
ليس كونها مطلقة ، وانما لان فكرة الزواج لم تخطر له في أي وقت • وعندئذ
ازداد ضيقا لانه ازداد كذبا • لقد حاول تبريرا لنفوره الغريزي فسقط في جرم
أكبر • لماذا اذن دخل مخدعها في ذلك الليل وقال انه يعتبرها زوجته ؟

وها هو يعود الى فنخ الكلمات ومعانيها التقليدية • زوجته • ذلك يعني
أنها كل شيء بالنسبة له • الحب واللجوء ، ونقطة المنظور على أفق الحياة
السديمي • الاطار الحاضر غير المرئي الذي يستوعب انسياح زمانه وصبواته •
ليس مقدما ومؤخرا ، ولا ورقة وتوقيع قاض شرعي • هو رفض الحاضر • لم
يكن مزاحا ولا غلواء فكر • رفض فعلا كل ما وصلت اليه حياة البشر من صيغ
ورأى معنى حياته الحقيقي في أيما رفض ينفذ منه الى خارج هذه الاطر الحجرية
الصيغ الميثة • التجريح والتفجير للمروق المحتقنة بالصديد ، كي يفسح المجال
لحلم النقي أن يتقدم حاملا معه أجنة الحياة •

على أنه وقع في الاحبولة • بعد كل شيء وصل الى السؤال المرفوض :
هل يتزوج ؟ وهو لا يريد أن يتزوج • لا يريد أن يستقر في مستنقع آسن •
وهو لا يريد أن يترك أمية • ولا يريد أن يسبب ضياعها • وسرت فيه موجة برد
قائظ : يسبب ضياعها ؟ هو يسبب ضياعها ؟ لا يريد أن يكون مجرما الى هذا
الحد • لقد قبل أن يجرح ضميره هنا وهناك بفعل مواقف ينبغي أن يتخذها •

تلك المناطق المجروحة ، هي مناطق موروثة لم يستطع اجتثاثها ، ولا يهمنه كثيرا أن تجرح . لكن الجرح الحاضر غار الى منطقة صنعها بنفسه : صدقه الشخصي ومعيار حقيقته . وهو لا يريد أن يعيش كاذبا . حتى عهد قريب ، كان يعيش ظلا بلا قوام مرميا على الزمان والمكان . وكان راضيا : لن يدخل في تجربة تخضعه لنواميس مرفوضة . ومن الافضل ، اذا لم تمض التجربة بحسب ناموسه هو ، ألا تمضي اطلاقا ، وألا تكون . لا يريد أن يكون عباسا آخر ، أو أي رجل ، يموت في حياته مع عائدة أخرى .

ولكن ماذا يريد ؟ لو أنه يعترف ، لقال أنه لا يريد أن يتزوج أمية . أهذا صحيح ؟ وهل الحقيقة بلقاء على هذا النحو ؟ قد توجد الحقيقة في عبارة ملطفة أقل فظاعة . ليس لان ثمة مجتمعا يطالب بوثائق كيما يعترف بالعلاقات ، بل لان أمية نفسها تريد أن تحقق ذاتها ، وهو خائف من اعطائها الفرصة . تلك هي المشكلة ، وذلك هو موطن نذالته . ان انسانة تحتاج اليه لتحقيق ذاتها ، وهو خائف من اعطائها الفرصة ، أو رافض . خائف أم رافض ؟ عديم الثقة أم نذل ؟ أهون الحالين شر . هذه التي أحبها ولجأ اليها ، وأحبته وغمرته بعطاءات حواء الخالدات ، أمية التي أعطت سحبه الدفع اللازم كي تسقط مطرا ، تريد حصتها من مام السماء .

يتصور المحامي والقاضي والطلاق ، ثم المحامي والقاضي والزواج . ويحس بخواء فاغر في قلبه ، وذيول لا تمحي من حياة سابقة ، والنظرات الملفومة يوجهها له الآخرون . ثم الزواج ! ماتم الحرية وبعث المتاعب والهموم . الحب الذي يتأكل بفعل الاعتياد ومطالب العيش اليومية . الاطفال الذين سيجيئون الى هذا العالم وهم يسألون : لماذا أتيتم بنا ؟

ذلك عبء لا يستطيع سديمه أن يحتمله . وسواء أكان القرار عنوان

نذالة أو هروب ، فالحقيقة هي أنه لا يستطيع • سيبقى في الظل ، حيث الحياة السهلة والممارسات المألوفة • نذالة أو هروب ، كلاهما أسهل من مسئوليات تجعل العيش عادة ولهاثا •

ويكون إمام وسليمى مطرقين • ومحمود مسترخيا على جذع شجرة جوز ضخمة • تتحرك سليمى فتطوق بذراعها ركبة إمام المنتصبية وترخي رأسها عليها •

يقول محمود : « كف عن نبش الاوراق بصولجانك • أثرت أعصابي • »

فيرمي بالفصن جانبا • يمد يده الى شعر سليمى المنسدل على فخذه ، ويلعب به • « هذه الفصينات النحيلة أطرى وأنعم • » تشد سليمى بأصابعها على ظاهر ساقه وتبتسم • تقول : « مضى النهار • ترجعون ؟ »

يقول محمود : « يا لله • نأكل فول في باب الجابية • »

تقول سليمى : « وأسمى ؟ »

يقول إمام : « أسمى تشتغل فدائية • عشقت المستشفى • »

« في المستشفى حتى الآن ؟ انتهى الشغل • فات أسبوع على الحرب • »

« لا • أمامها شوية خناقات مع الدكتور • تريد أن ينتهيا بلا زعل • »

« خناقات ؟ صحيح • طباعهم متشابهة ، وآراؤهم مختلفة • »

« لا • ليست خناقات شخصية • يتجادلون في الحرب • نتائجها بصورة

خاصة • »

يقول محمود : « سمعتم آخر الاخبار ؟ »

يصمتان ، وينظران اليه مترقبين : « يجري الاعداد لعقد مؤتمر قمة عربي » .

« انتصرنا ، » يقول إمام . « اذا انعقدت القمة ، فرطت القاعدة . النصر الذي حل باسرائيل ، سيتحول الى نصر حقيقي . والهزيمة التي أحرزها العرب ستتحول الى هزيمة حقيقية . »

ترفع سليمى اليه رأسها ، وتتأمله مستغربة : « ما هذا الكلام ؟ كأنك أستاذ بقسم اللغة العربية . »

« تريدن أن تقولي أنك طالبة جامعية ؟ كيف يتكلم أساتذة قسم اللغة العربية ؟ »

« تحس كأن كلماتهم طالعة من عند الكواfir . »

« لا . أنا أتكلم بلغة مقشرة . نصر اسرائيل هزيمة لها ، في المآل . لان هزيمتنا يجب أن توقف أمة العرب بأكملها وتوجهها نحو النضال الحاسم ضد الصهيونية . نصر اسرائيل المذهل هذا سببه حالة الخدر التي نعيشها . والشعارات الخلاسية التي أطلقتها البرجوازية الصغيرة . الآن ، البرجوازية الصغيرة هزمت . تأكد عجزها التاريخي عن مواجهة الامبريالية وقيادة الامة العربية . واذا صح وانعقد مؤتمر القمة ، فهذا يعني أن البرجوازية الصغيرة بدأت أول خطوة في مسيرة ألف متر للارتقاء نهائيا في أحضان الامبريالية . الاعظم لم يأت بعد . ونحن يجب أن نبدأ . »

يقول محمود : « هزيمة ١٩٤٨ حلت بالاقطاع المتبرجز وحلفائه وكان بعيدا عن الشعب وعاجزا عن تجنيده ، وغير مخلص أصلا للحرب . بعد اثنتي عشرة سنة استطاعت البرجوازية الصغيرة أن تحتل مساحة لا بأس بها من مسرح

السياسة العربية • وظنت نفسها قادرة على أن تتصدر ، بعد أن سرقت أفكار الثورة الاشتراكية وسلمتها للحلاقين فصنعوا منها شعارات وضعتها على جماجمها • «

« يا سلام على التعابير القوية الجميلة • هكذا يتكلمون ، يا أستاذ إمام • وفي عام ١٩٦٧ انهزمت البرجوازية الصغيرة العربية • وهي أيضا كانت في واد والشعب في واد آخر • متى تحلون محلها ، يا طبقة كادحة ؟ »

« طبقة شقية ، لا طبقة كادحة ، » يقول محمود • « الله يعلم متى تتشكل عندنا طبقة كادحة • »

« ولكن ثمانين بالمئة من العرب جائعون • لماذا لا يخلق الجوع منهم طبقة ؟ »
« المجتمع العربي نفسه سائب التركيب • التركيب الاقتصادي سائب • لا مصانع تصنع منهم طبقة • »

« أنا غير مستعدة للانتظار حتى تجيء المصانع ، وبمدئد تتكون الطبقة الكادحة • أريد أن أستلم الحكم الآن ، بدون إبطاء • من سيأتي بالمصانع ، وخاصة في اقتصاد زراعي مثل اقتصاد البلاد العربية ؟ المسألة طويلة • • »

« لا ، » يقول إمام • « اذا لم يكن عند العرب مصانع تصنع الطبقة العاملة ، كما يقول جناب الفصيح ، فالحرب تصنعها • خلّني فقراءك يحاربوا ، يا ست على طول الارض العربية وعرضها • هذا هو الحل • بعد أن يقيموا تحالفا قوميا من العمال والفلاحين والجنود وجماهير البرجوازية الصغيرة والمثقفين الثوريين • وهؤلاء يجب أن يبدأوا حربا عربية على الطريقة الفيتنامية • الآن فوراً يجب أن يبدأ • »

تقول سليمى : « حضرتك ، من أسبوع ، مفرم باستعمال كلمة : لا • هل
إذا قبلتك ستقول : لا ؟ »

« لا • انما لا تعطيني • نحن طلعنا مهزومين من الحرب ، ولازم أننا
نقول : لا • »

يقول محمود : « تعرف أن العرب لم يجازبوا اسرائيل أبدا ؟ منذ قيام
اسرائيل وهي تحاربنا • عام ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ • »
« هذا هو قصدي • »

وفي زمن ما يفيقون • كل بحسب أجله وأمله • ينهضون • ينفضون
رؤوسهم كما تنفض النسوة قطعة قماش غبراء • لكأن النوم قد نهض معهم ،
ويريدون ابعاده • أو كأنهم ، لكثرة ما أفاقوا ، داخوا • أفاقوا يوم اجتشت
فلسطين من جسداهم عام ١٩٤٨ ، وقالوا هذه يقظتنا الحقيقية • وظنوها
نهائية • وأفاقوا يوم مات بهم أرض سيناء عام ١٩٥٦ • وظنوها نهائية •
وأفاقوا يوم دفن الربع الخالي في القدس عام ١٩٦٧ ، وتطوحت دمشق ، وهاج
بحر القاهرة • ويظنونها نهائية •

يقول عباس : « قبله وزنها خمسمئة كيلوغرام ، رأيت فيها وجه الموت • »
ولبرهة واحدة تخرج من عينيه المعاني التي أراد لمستمعيه أن يلتقطوها :
التجربة الفريدة ، عالم الحرب الآخر ، وعباس الذي شاهد وسمع وشارك ،
ونجا من الموت • لبرهة واحدة تدخل في عينيه صورة الموت وتكون جميلة
ومشتهة • لقد انفلشت أسطورتته • تمرغ مبرره • من أين يستقطر بعد الآن
ما يكفي لاحترام الذات ؟ أو على الأقل : الآخرين ؟ تخرج الصورة وتدخل
عبارات التهليل والاشفاق والارتياح • ثابت الجنان كان ، مثل الرجال

الحقيقيين • يقول طلعت بك : « بصراحة ؟ أنا هربت ، ليس من المعركة ،
وانما حتى من دمشق • الشهادة ، أن سيادة المحافظ بطل • » اليه ينظر سيادة
المحافظ ، بشكر منظور ولعنة مستترة • وتقول أم أحمد بهدوئها الانيس :
« كلنا خفنا عليك • لماذا لم تبق هنا ؟ ليس قليلا شغل المحافظ • هذا قيام
بالواجب مثله مثل الحرب • » عندئذ تتسلق عباسا أريحيته ، ويتسع :
« لا تغلطي يا ست أم أحمد • صحيح نحن ما قمنا بالواجب في الجبهة ، ولكن
الوطن فوق كل شيء • » تعود الى عينيهِ الصورة ، ويتابع بنبرة غامضة الايحاء :
« صدقيني ، لو أنني مت بشظية من تلك القنبلة ، لكان أفضل • » ويتذكر بغتة
أن شيئاً ينقص هذا الجو الودود ، فيستدرك : عادة • لم تكن غائبة عن ذهنه
تماما ، غير أنها الآن حاضرة تماما • أترأه كان يقول كلاما بمثل هذا الانفتاح
لو أنها موجودة ؟ على الاغلب • بل ، بالتأكيد • بل وكان شعر بشيء من
البطولة فعلا • ثمة فرق بين فهلوية هزيلة يبذلها أمام هؤلاء ، ومنفخة يود بها
أن يبهز غادة • تعيده الكلمات والصيحات مرة أخرى الى أصحابها ومطلقها :
لا سمح الله ! ضيعان شبابك يا أبو لؤي ! له ، يا أخي عباس ، ما لك حق !
نحن خسرنا معركة ، ولم نخسر الحرب • ويقول عباس : « المهم سيدي ، أن
الانظمة التقدمية لم تسقط • هدف العدوان الاساسي ، كان اسقاط الانظمة
التقدمية • ونحن باذن الله ، سنعرف كيف نزيل آثار العدوان • »

يقول أبو تغلب : « ولكنك لم تحك لنا عن الحرب • كيف تقدمتم • كيف
تراجعتم • ماذا حدث ؟ بالضبط • »

ويتمدد عباس : « المهم • • الحرب مضت • • المهم أن نكون واقعيين ونعترف
بالحقائق • الهزيمة حلت بنا منذ اليوم الاول • من هنا ضرب الطيران المصري ،
من هنا انتهت المعركة • ما بقي كان اجتياحا لارضنا من قبل العدو • صحيح

صارت معارك • الجيش المصري خاصة • لكن نتيجة المعركة كانت منتهية • أما
أنا فأقول ، لو لم يتلق الطيران المصري تلك الضربة لتغير كل شيء • كان تغير
وجه التاريخ • انما الحرب خدعة ، كما يقول النبي عليه السلام • »

يرين عليهم الصمت ، وتتراكم نظراتهم فوق عباس • يا للغفلة الهزلية
التي أنجبت مأساة • وترمح عيونهم فوق خارطة فلسطين المنطبعة على أذهانهم
منذ أيام دروس الجغرافيا • الآن أضيف اليها مساحات شاسعة في الشمال
والجنوب • الرقعة الصغيرة من الارض صارت بفتة مسافة مضنية للعين • أهذا
هو الحجم الحقيقي للعدو ؟ أم أن الوطن العربي يصغر ، وحجم العدو يكبر •
وذلك كله لسبب تافه مفيظ •

في المنيب الاصفر ، بظلاله المعفرة ، وضوئه المنسحب ، وأصواته المسموعة
خارج الآذان ، وغباره المرئي خارج العيون ، يقول عربي بك : « أبو وائل ،
كل شيء ، ولا تكفر • تعرف أن القعدة معك حرام شرعا ؟ لا يجوز الجلوس
مع من يكفرون • »

ويرد أبو وائل متهيجا : « هذا عدل ، اذن ؟ من الارقام كلها تحتاج لجهار ،
وتجيئك جهار ! يلعن • • • هكذا زهر • أخي مئة مرة قلت لك لا تمسك
الزهر • لعب مثل العالم والناس • »

يقول عربي بك : « كيف لعب مثل العالم والناس ، وأنت تمنعني من
مسك الزهر ؟ كيف أخرج الحبطين اذا لم أمسكهما ؟ »

« بدأ أخونا يتكلم مثل الزعماء العرب • يخلق معضلة من تركيبة لفظية •
أنت نجاحك مثل الاسرائيليين ، غدر وضربة حظ • أخي واجهني ، رمية حرة
برمية حرة • »

يهم عربي بك أن يزعل ، لكنه يمسك • لقد اعتاد علي خلق صديقه
الاحمر وقلبه الابيض • يبتسم ، يرمي حبة النرد ، ويلحقها بالثانية : « أعجبك
الحال ؟ هكذا تريد مني أن ألعب ؟ »

« لا • خض الحبتين ، وارمهما • »

يخض أبو نزار الحبتين ، ويرميهما : « شيش جهار ، مليح ؟ ها عملت كما
قلت لي • » يلتفت الى شيش بيش : « دكتور ، بالله عليك ، اللعب نظيف أم لا ؟
أنا أقبل بشهادة الدكتور • »

« الدكتور يشهد معك ، هذه معروفة • رجل يحبك ، تريده أن يشهد
ضدك ؟ »

« والله الدكتور رجل محترم ، وذمته طيبة • وصلت تشك بأماتته هو
الآخر ؟ »

« لا والله • حاشا لله ! انما الدكتور يحبك ، ونحن نعرف بعضنا • شعب
عربي ، أخي الدكتور ، لا تزعل مني • »

« لا زعل • »

« شعب تهمة الصداقة والعلاقات الشخصية ، أكثر مما يهمه القانون ،
فهان أخي ؟ »

« فهان تماما • »

« أيوه • ويحكون لك عن هزيمتنا أمام اسرائيل • الحرب ، أخي ، تتطلب
عقولا متحضرة • الحرب مسألة هندسية • خذ الزوايا ، خذ الاحداثيات ، ارسم
خطوطا ، تصل الى النصر • هذه هي الحرب • نحن عقلنا عقل بدوي • عصبية

قبلية بأشكال جديدة • ضع القانون والتزم به ، تنحل مشاكلك • حبيبنا أبو نزار يتلاعب • أخي ، قانون علي وعليك • لا • لا ؛ القانون له وعلى غيره • « أنا برأيي ، يا أبو وائل ، أنك ترمي الحبتين عني • وأنا أقبل بالذي يبعثه الله • ما رأيك ؟ »

« ما زال يقول لي : يبعثه الله ! أخي رمي الزهر مسألة حساب احتمالات وأرقام كبيرة ••• »

ينظر شيش بيش الى ساعته ضجرا • كيف لا يهزم شعب لا ينضبط بمواعيده ؟ هذا الآفة ، سليمان ، كان ينبغي أن يمثل أمامه قبل ربع ساعة • يتطلع الى مدخل المقهى ولا يرى سليمان • لو يراها الآن ، ولو عابرة كالطيف • هذه المجنونة • يلتفت الى صديقيه الكهلين ، وقد استفرقتهما اللعبة وانفجار الحجارة على رقعة الخشب • يستوعب الوضع بنظرة واحدة • على اللوح الاسود الصغير ، وضعت أربعة خطوط طباشيرية بموازاة أربعة خطوط أخرى • هذا هو الشوط الحاسم اذن • من يربحه يربح المعركة • وتسرع قدمه الى لطم قدم عربي بك بالحاح : انتبه الى لعبة قاصمة ، تقول القدم للقدم • تتوقف يد عربي بك في الهواء ، وكانت تهم بلعبة أخرى أبعد ما تكون عن حسم نهائي للموقف • تمتد اليد الى الشفة السفلى وتمسح زاويتيها • يقول لنفسه : أين هي اللعبة ، يا عربي ؟ أية حجرة تحرك ؟ كل هذا العمر ، ولم تتقن لعبة •

ويتأكد مرة أخرى أن شيش بيش ملك الطاولة • ينهض اذ يلوح سليمان وراء الزجاج • يلتقيان عند المدخل ويسلمان • يسأله شيش بيش بتعب مفاجيء : « ما الذي أخرك ؟ » ويقول سليمان : « الملك • أصر على المجيء • » « ألم تقل له أن يقلب وجهه الاجرب ، ويلتصم في بطن أمه ؟ » « كلا • قال أن بوده أن يعتذر • ورأيت الفكرة حسنة • هيا لا تكن عنيدا • ما أحلاكم وأنتم

أعداء • « نحن أعداء ؟ فشر في • أمه • أريد أن أذله ، لا أكثر ولا أقل • ،
« هيا اذن • » .

في المطعم يلتقون • ينهض الملك رازحا تحت ابتسامة منتظرة • ينظر اليه
شيش بيش شذرا : « يلعن والدك • »

« يلعن أمك • »

« هكذا جئت تعتذر يا صعلوك ؟ »

« وهل تفهم غير هذه لغة ؟ جئت لان سليمان قال : ليس معقولا أن تخاصم
شيش بيش • هذا خلق لأن تحبه وتغفر له ، لا لأن تتربص بخطاياها • ألم تقل
انه رمز لامة بأكملها ، يا حضرة الاديب المصقع ؟ »

« هذا كلام حسن • »

« طيب • أنا جئت أعتذر • هات بوسة من هالشوارب • »

يتعانقان • يتبادلان القبل • والآخرين ينظرون مبتسمين • يتمددون
على الكراسي الجلدية • الطاولة أمامهم مستطيل مجلل بكؤوس الخمر • والمساء
النافر بوجه المصابيح يتدفق في الليل الاغبر • ويلمس أبصارهم كمارد اعتمر
طاقية الاخفاء • المساء القديم الجديد ، الغريب المألوف • في الصمت الغفل
تولد كلماتهم وتموت ، تحضر اليهم الأشياء محمولة على رمل الخاطر • وبين
اللحظات يبدلون نوع جلوسهم واتكائهم • يحتسون مزيج العرق الابيض ،
وبعضهم يوحح مستطيبا مذاق المزيج البرود •

ثم تتقدم ساقا الزمن الشبحيتان واحدة بعد الاخرى • تارة تزحفان وتارة
تنسلان ، وثالثة تعدوان • وان الى ربك الرجعى •

في ذلك الصباح تجوس أم إمام في البيت ، تتأمل محتوياته • تقف أمام النافذة • تتأمل السطوح الطينية الملتحمة وعلب الاسمنت الضخمة ، أعشاش الحمام والبشر والالواح الزجاجية العاكسة • ترتد عن النافذة • بتتصفح المقاعد العتيقة والخشب المتآكل ، الشراشف الرخوة ، هيكل الدرج الرُجراج المصاصيء ، جهاز التلفزيون الناشز بين مجموعة الاشياء البوالي : هذا هو كل ما تملك ، هذا هو ارثها • حتى أولادها لا يملكون شيئاً ؛ وهذا الولد الغريب إمام ، يرفض حتى أن يملك • مع أن مركزه ••

تنتابها حيرة اعتادت عليها دون أن تتقبلها : هذا الولد إمام : لا بيت لا سيارة ، لا أثاث بيت ، حتى ولا هاتف ، ولا قرش أبيض لليود الاسود • ومع ذلك هو راض ، ورخي البال • حتى لقد أدخل في عقلها بعض الافكار • في صباحها كانت تتلف لبيت من حجارة ، فيه ستائر نظيفة وسجادة أو اثنتان • ويوم تزوجت عازمت على وضع القرش فوق أخيه لتشتري غرفة استقبال تبيض الوجه • وفي مكان القرش تجمع الألم والمرارة ، ثم اليأس • وشب إمام فتعلم ألا يملك •• علم غريب • وعلمها أيضا • وعلم هذه المجنونة أسمى • كل مافي البلد من متاع لا يههم • انما هو متاع الغرور • وهو لا يحسد أحدا • ويبتسم كلما تحدثوا عن مشترياتهم • هذا الولد الحبيب إمام • الغريب •

يضيق صدرها بالفراغ ، فتتلفع بشال هرم وتخرج • الفطور جاهز ، وليس على أبي إمام سوى تسخين الشاي • لا بأس ان تركته مرة في الشهر يفطر بمفرده • يزيد لها ضيقا شريط ذكريات قديم ينبثق للتو في خاطرها : عام ١٩٣٨ وبعد أن أخمد الانكليز والصهيونيون الثورة ، قتل الصهيونيون أباه وأخوتها ، عام ١٩٣٨ استقرت وأما عند أقربائهما في دمشق ، عام ١٩٤٠ انتقلت الى هذا البيت مع أبي إمام ، عام ١٩٤١ ولد إمام وماتت أختها قهرا •

تقول لها أم خلف : « أوه ! جئت ! » وتعود أدراجها مطمئنة الى أن المرأة الثانية تتبعها • « برد الشاي • » وتمضي بالابريق الى المطبخ • تزفر أم إمام كمن تخلصت من عبء مرهق • تقول : « بيتكم يا أختي ، غير شيء • » وتتناول فنجانين وصحفتين وعلبة السكر • « أراك اليوم مبسوطة ، الحمد لله • والله خفت عليك من طول الهم • » تغدو الى البهو فتضع أشياءها على الطاولة • تتذكر الملعقة فتعود الى المطبخ • « وأنت اليوم متكدره ، » تقول لها أم خلف ، دون أن تنظر اليها • « شوية • » « صار شيء ؟ » ترفع رأسها علامة النفي • « صار شيء فتحية ؟ » تنتبه أم إمام الى أن اشارة رأسها لم تبلغ صديققتها المنصرفه الى مراقبة الشاي • تقول : « لا شيء • تذكرت هذا العمر الشقي • » تنتقلان الى البهو • وتتابع أم خلف واجب الضيافة • « البارحة حكى لي محمود عن الفدائيين • » « اي ! » « قال يمكن يطلع منهم شغل له وزن • » « كيف يعني ؟ » « قال عندهم طريقة في الحرب غير شكل • لا يعرفها الصهاينة • لا يقدرّون عليها • »

وتتأملها أم إمام وهي تحرك السكر في الفنجان المليء : هذا هو سر فرحها ، اذن •

« وماذا يطلع منهم ؟ اذا الكبار فلّشوا • »

« قلت لمحمود مثل ما تقولين ، وكان جوابه : لا تغلطي ، لا تنسي قصة الارنب والسلحفاة • »

« قصة الارنب والسلحفاة ؟ كيف تنطبق على وضعنا ؟ »

« أنت اسمعي محمود يتكلم • » يقول ان العرب في الوقت الحاضر أعصابهم تاكّة بسبب الهزيمة • بودهم يخلصوا من الهزيمة بأي طريقة •

وأسرّ لريقة هي الاستسلام • لأنه بيني وبينك ، هزيمتنا شنيعة • سنة ٤٨
انهزمنا ، وقلنا في المستقبل نحارب • هالوقت ، انهزمنا ، بس ، والمستقبل ؟
محمود . تول ، ولا حرب ممكن أنها تحرر فلسطين تماما ، تماما ، الا حرب
الفدائية • هؤلاء قلال • يعني شغلهم ، أول الامر ، مثل مشي السلحفاة •
بس ، بعد وقت قصير ممكن يصيروا الطاق طاقين ، ويأخذوا دورهم على مداه •

« والله يا أختي ، أنا دائغة ، أي شيء نعمل • من قبل كانت المصيبة بنصف
فلسطين • الوقت ، راحت فلسطين كلها • وزيادة أراضى عربية بقدها مرتين •
من عارف ماذا يصير في المستقبل • الفدائية ؟ أين هم الفدائية ؟ من يترك
عيشه ، وشغله ، وقرابته ، ومستقبله ، وينضم للفدائية ؟ الحياة لذيدة ،
يا فاحمة ، لا أحد يتركها لروح للموت • شغلة الفدائية تحتاج لرجال عقليتهم
غير شيء • واذا لم تصدقي ، اسألي إمام • إمام يقول انه من كل مئة يطلع
واحد • ونحن شعب تنابل • عيشة الفدائي غير شيء • هؤلاء ناس لا يعرفون
الراحة ، ويعملون طعامهم وغسيلهم بأنفسهم • الصبح • • محمود نفسه يطلب
منك قهوة وهو مستريح في غرفته • الفدائي ، عيشته تعب ودوران ، ويوم
ينبع النوم عشرة لا يشبع • يشبع الأكل وعشرة لا يشبع • يواجه الموت
كل وقت • • »

« أنت غلطانة يا فتحة • اسألي ابنك إمام • ياترى ، من يصبر على الذل
الذي نحن فيه ؟ لازم أننا نبدأ حالا • ونحن نخسر شيئاً ؟ ما عاد عندنا شيء
نخسره • الحياة ؟ الله يلعب هكذا حياة • أنا أقول لك ، اذا قعدنا في بيوتنا ،
خائفين على حياتنا ، يجيء الاسرائيليون ويقتلوننا في بيوتنا • صدقيني •
اذا نحن قعدنا ، ما بدأنا ، نخسر أكثر • ولو ! معقول أننا نسكت على الهزيمة ؟ »

« طيب • بس • الناس هي الناس ! من منهم يصيرون فدائيين ؟ »

« كثير ! »

مرة أخرى تتأملها أم إمام : هذه الزيتونة العتيقة التي لا تكل .
يرن الجرس • تنهض أم خلف بخفة وهدوء • أسفل الدرج تسمع حممة
وسعالاً مصطنعاً ، ثم كلمة : « يا الله ! »

ويكون الوقت ضحى ، وأغاني الراديو مندغمة في الضجيج ، وباعة الخضار
مستفرقين في همومهم ، ودمشق ملسوعة بالشمس •

« تفضل ، ياسيد حمدي • تفضل ، يا أبو صالح ، » تقول له ، وتسحب
الحبل فينفتح باب البيت الخارجي • يصعد حمدي الببش الدرج ، وهو ما يزال
يحمم ويبسمل • يدخل مسلماً ، ويجلس على الكنبه التي أشارت اليها مضيفته •

سلسلة من عبارات التحية والعتاب والاعتراف بالتقصير والاعتذار •
والاولاد بغير لكنهم يستفقدون أمهم - رحمة الله عليها - ويربكون أباهم •
وسؤال عن محمود ، والاخ إمام ، وأخيراً علي •

يقول : « ياستي ، أنا جئت ووجهي بالارض • والله كماد الخجل يمنعني
من المجيء • أنا مقصر ولا عذر لي • وأي شيء تهولينه مقبول ، وعلى
الرأس والعين • »

« أما كلام ، يا أبو صالح • خير ان شاء الله • »

« خير ان شاء الله • ياستي ، لشأن غرفة النوم التي أوصى عليها الاستاذ
علي • والله لا أعرف أين أخبئ وجهي منه • »

« خير ، خير • كنا اتفقنا أنها تخلص بعد شهر • »

« لا • • هذه المرة الموضوع مختلف • لا تؤاخذيني ، يا خانم • والله مستح
اني أقول لك • »

« قل ، يا أبو صالح ، قل لا تستح • »

« ياستي • اذا سمح الاستاذ علي ، طالما أنه لن يتزوج الآن ، واذا لم يكن
بحاجة لها • قصدي ، اذا كان يؤجلها بعض الوقت • والله لأعمل له غرفة أحسن
منها بمئة مرة • وأسلمها في الموعد المحدد • »

« من سناخذ الأغراض ؟ »

« أنا • »

« أنت ؟ ! »

« اي والله • اذا سمح الاستاذ علي • وأنا أعطيك قول الشرف أنني أصنع
له أفضل منها بمئة مرة • معلومك ، هالأولاد لا يصير تركهم بدون أم • وأنا
والله ، فكرت أن السترة أحسن • وشغلة ، اذا ما صارت اليوم ، تصير ذات يوم • »

« من العروس ، يا أبو صالح ؟ كأن الامور مرتبة وجاهزة • »

« ياستي ، خير البر عاجله • البنت من عندنا ، من الحارة • شافتها أمي
واستحسنتها • وقلت لحالي أربيها مع الأولاد ، وتدير بالها عليهم ، تنستر
وتسترهم • »

« على خير ان شاء الله • متى العرس ؟ »

« خير يصيبك • لا عرس ولا شيء • عارفة الظروف • من بيتها لبيتي • »
يطرق بحزن غير متوقع ، وقد انحبس صوته • ثم يرفع رأسه باسم :

والله يأم خلف ، المرحومة عودتني على حياة مريحة • يمكن لو أن • باتي كانت
صعبة معها ، ما تزوجت مرة ثانية • »

« من ناحية الاستاذ علي ، لا يكن لك فكر • أنا أحكي معه • مكن هو
نسي الموضوع • »

أبو صالح وأمية في بئر واحدة ، لكن طعم الماء في فميهما مختلف ، ووضع
الرأسين أيضا • في زمن مرصع بالنجوم ، موشى بالليل ، مشبوح بالسكون ،
مسترخ في دمشق ، مهدد بنسيم تموز ، محسوب على الارصفة مدلهج بحكايات
النفس ، تخرج أمية من بيتها وتمشي نصف مطرقة • تمشي نصف حذرة ،
نصف خدرة ، نصف مقولبة • خاطرها يفيض ، ينبض بلا صوت • دماها
تخطوان علي مرأى من عينيها • عيناها ترتدان عن سطح الليل • أنها مختنق
في رياح من العطر • شفتاها منفرجتان ذهولا ، ومنفرجتان لثلا تلتسقا بصمغ
الحمرة الكثيفة • جسدها ثلاجة • روحها حريق • جبهتها دوامة • قلبها صدفة •

أسفل الدرج ترى الباب مفتوحا ، وفي الاعلى ترى الرجل واقفا بالباب
باسما متلهفا • شعره الاشقر منسرح وليس أسود أجعد • عيها الزرقاوان
هادئتان صافيتان ، وليستا عكرتين قلقتين • تمد يديها وتدسهما
في راحتيه المرتقبتين • تتركه يقبلهما ، وتبتسم لشغفه واحترامه •
يترك اليسرى ويتنحى الى اليمين ، فتأمل محتويات الهو البسيطة
الجميلة • تدخل فيصافح عينيها النور : نور وري يجثم في
الزوايا القصية مبقيا من العتمة أكثر مما يزيح • وتصافح أذنيها
موسيقى خفيفة جوية تطفو كسديم شفيف • وتصافح أنفها رائحة الند والصندل
النافحة من مجامر صغيرة وعيدان نحيلة • تنسحب من يسر الى أريكة رتبت
للاستلقاء • تسلم كتفيها لحركة يديه الوديدة وتديرهما • وتجد نفسها جالسة

على الارىكة ، ثم مسترخية ومستلقية وممدودة الساقين • تراه يبتسم ، ويضع قبضة يده في راحة يده الاخرى • بلغة عربية رطنة ، يسألها ماذا تشرب • لا تضطرب • لقد أعدت نفسها للسؤال • ويسكي ، تقول له • يرفع ابهامه عاليا ويخفض رأسه • هو أيضا خمن الجواب • ينتقل الى المشرب ، وتسحب هي من شعرها حبكتين فينسرح الشعر على كتفيها وطنافس الريش الصغيرة • شيء في داخلها يحاول أن يصعد ، فتسد عليه الطريق بابتسامة والتفاتة لعوب • تهم بتناول مرأتها من جذدانها • ترى مرآة بممسك ومشطا • تثبت الابتسامة على شفتيها • تتناول الاداتين • تشاهد وجهها في المرآة ، ثم يغيم لوهلة ، ثم تشاهده : انها هي نفسها ، أمية • وتدس المشط في جدول شعرها وتسحبه الى الخلف •

تنتبه الى الرجل • تراه يراقبها نصف حالم ، نصف واجف ، يدها تحملان الكأسين الطويلين ، وقامته الطويلة تنتصب وراءهما • هذا هو بالضبط المشهد الذي أراد رؤيته ، يقول لها • امرأة من الشرق ، مضطجعة على أريكة ، بيدها مرآة وبيدها الاخرى مشط ، مكتحلة متحمرة ، معطاة للحب • تلك التي تملأ صفحات ألف ليلة وليلة • عليها غلائل هفافة ، تكسو لكي تعري • وفيها آبار وآبار من الشهوة المحقونة • والمياه تصعد الى الوجه نضارة وخفرا ، ودعوة للاغتصاب • امرأة •

يقول ، وتنصت • تكاد ابتسامتها أن تصدر صوتا فرحا • تعرف أنها ليست كذلك ، لكنه كلام حلو على أية حال • والصورة ترفعها بأجنحة مرنحة • تتناول الكأس ، وترفعه الى شفتيها استجابة لعركة يده • تحسو حسوة صغيرة • تزدردنها • وتحس كأن شفرات قد عبرت سقف حلقها وجرحته • تراه يجلس الى جانبها • وتراه ينزل كأسه على المنضدة الصغيرة ، ويتناول كأسها فيضعه الى جانب الاول • وترى يده تمتد الى وجهها وتلمسه وتسيح

عليه • وترى نفسها تبتسم ، وهو يقترب ، يتحرك ، وتتهيا ، ويده تنزلق تحت
إبطها ، وصدره يقترب ، وأجفانها تضيق ، وأنفاسه تلطم أنفها •

ثم لا تعود ترى •

وفي زمن ما ، يغدو علي الى قاعة الامتحان ، وتغدو أسمى • لقد انتهى
بالنسبة لهما أمر حارق • الحب الذي لم يكن ضروريا • ولا معافى • هي كانت
تعرف ، وهو لم يكن • والنتيجة واحدة • كلاهما الان يبدأ من نقطة الصفر ،
مخلفا وراءه عمرا منتهيا ومستقبلا آخر مجهولا • هو يعود الى قوقعته ، وهي
الى شرنقتها • هي تتقدم الى امتحان جديد ، وهو يراقب امتحانا جديدا • وفيما
تنبك برأسها فوق الورقة البيضاء لتملأها بالكلمات ، يرمق هو في مروره العابر
رؤوس الصفار المنكبة فوق أوراقهم • ينظر عبر النافذة الى الاشجار والسيارات
ثم يستعيد نظرتة • ينظر الى ساعته : لم يحن بعد التأف من طول الوقت وثقل
الانتظار • وتنظر هي الى ساعته : بعجل ووجل : لم يحن بعد وقت التأف من
قصر الوقت ولفح الترقب •

كذلك تنتقل سليمى بين المقاعد بخفة وهدوء • تميل الى فتاة هنا ، وتفرك
بأصابعها رأس فتاة هناك • وتنظر معقودة الذراعين الى الايدي اليافعة التي
ترسم كلماتها على الورق •

وتمضي أم خلف وأم إمام الى سوق الخضرة •

ويمضي سليمان الى حانوته •

وتجلس غادة على الشرفة •

ويسترخي عباس على مقعده الوثير ، مواجهها مراجعيه برصانة تقتضيها

الهزيمة • انه الآن أكثر تريثا ، أكثر ارتيابا وثقة •

وتقول أم تحسين لزبائنها : « قوموا تدريبوا على العمل الفدائي ، أحسن لكم • شباب ، ما شاء الله حولكم • أرضكم محتلة وأنتم تذوبون هنا مثل الشمع • »
يقول شيش بيش وهو يفتح ورقه : « نحارب لأجل حكومات لا نعرف من أبوها ؟ »

يقول الملك دافعا بقطعة نقدية الى وسط الطاولة : « العمل الفدائي ليس حربا لأجل الحكومات ، ولا تجارة بالفسداء • العمل الفدائي حرب تحرير حقيقية ، تبدأ من الداخل ، في ذات الانسان وفي بنى المجتمع • أن تطمر لغما في الارض المحتلة أو تحمل بارودة محشوة ليس وحده العمل الفدائي • البداية يجب أن تكون هنا ، في منزل أم تحسين ، هنا يجب أن نطمر اللغم • وأنا خائف أن الحكومات ستنفخ هذا البالون لتمتص ردة الفعل الصعبة على الهزيمة ثم تثقبه يوما ما • أنا شخصيا ، سأشارك في التدريب ، اذا صح لي • »

ويقول سليمان جامعا ورقه بقبضة يده : « اذا رحنا نتدرب ، كيف تتدبرين أمرك ، يا أم تحسين ؟ » •

« أو هو ! أم تحسين تعرف دائما كيف تدبر أمرها • »

« كيف ؟ » •

« الزبائن كثار • وخير الله أكثر • وبعدئذ ، أنتم تأتون بين تدريب وتدريب • »

يقول شيش بيش : « هذا رائع ، يا أم تحسين • كنت دائما واثقا من هبقريتك • انما صبّي لي من هذا الزيت في هذا الكأس لتفاهم • وأنت ياسيد عطيل ، أعطني ورقتين بدل هاتين • »

« هات الورقتين ، وحط خمس ليرات فوق الكوم »

« سد بوزك • هاك خمس ليرات تحت أنفك الاعوج • »

يقول سليمان : « من هم المجانين الذين ينتسبون للعمل الفدائي ؟ يموتون مجاناً • هزيمتنا الحاضرة تكريس لهزيمة كان الاعتراف بها لازماً قبل عشرين سنة • كان يجب أن نقبل بتقسيم فلسطين عام ٤٧ ، لو كنا نعرف أننا شعب تنابل • في هذا الوقت صارت أكثر من هزيمة • صارت نهاية • السؤال الآن: هل ستقبل اسرائيل اعترافنا بها أم لا • »

يتوقف اللعب • ينظرون الى سليمان نظرات قبول بجرأة اعترافية ، واستنكار له •

يقول الملك : « ما كان أحد يظن أننا سنبقى تنابل • كان موقف الرفض يومذاك صحيحاً ، لكنه كان مقترناً بأمل كبير هو أن تنفض هذه الامة نفضا ، وتجهز لتصير أمة مقاتلة • ولكن بدون مباحكات ، ومزايدات باسم الواقعية • أنا أرى أن هذه هزيمة فقط • لكنها هزيمة وضعتنا أمام اختياريين ، تماماً مثل هزيمة ٤٨ : إما أننا نفاوض لازالة آثار العدوان وللقبول بنتائجه : وإما أننا نحارب ، نحارب بطريقة مختلفة لا تستطيع اسرائيل مواجهتها ، وبشعب خرج من عالم ألف ليلة وليلة واتجه نحو منظور جديد • »

يقول شيش بيش : « دوختمونا ! تريدون متابعة اللعب ، أم ننهض الآن ونسجل أسماءنا في دورة عمل فدائي ؟ » •

يقول الملك : « هذا هو السؤال فعلاً • عند طاولة المسيح هذه يبدأ الاختيار • »

لكنه هذه المرة لا يقلب الطاولة • يكتفي بأن يترك الورق والنقود عليها ،
ويتركهم حولها •

يشعرون أن الانتقال من الدعابة الى هذه الجدية صار حادا ، مسرفا في
حدثه ، سريعا الى درجة مربكة • ويسأل سليمان صديقه الساهم الجامد شيش
بيش : « ماذا ، دكتور ؟ أنت أيضا تفكر في الاختيار ؟ » •

ثم تهرع أم خلف الى إمام ملتاعة مذعورة : « سمعت ؟ قال لك إمام ؟ » فتهرز
الآخرى رأسها مطبقة الفم على غيظ كظيم • « أخ يا ربي ! » تقول أم خلف •
« أما كفى أبوه وأخوه ؟ » وتلتفت الى صديقتها : « إمام يؤثر عليه ، يا فتحية •
خلفتي إمام يقنعه • أخ يا ربي ! » •

« إمام سجل اسمه مع محمود • »

تنظر اليها أم خلف متدلية الذقن ، والدموع تملأ عينيها الزائغتين •
تتجه المرأتان الى كرسيين صغيرين في صحن الدار ، وتجلسان صامتتين •
هكذا اذن • وبعد كل هذا العمر الشقي • ضاعت الارض • فقام الاولاد يبحثون
عنها • هل يضيع الاولاد بعد الارض ؟ قد يضيع الاولاد بعد الارض • وقد
يلاقون الأرض •

على غير العادة يفقد الاولاد ، ويرون الوالدين في صمتهما • تهرع سليمان
الى أم خلف ، وقد لمحت الدموع في عينيها ، وتمازحها : « كفى الله الشر ، يا أم
خلف • تبكين ، وقت محمود قرر يتزوج ؟ » وتجهش أم خلف بالبكاء ، وللتو
تدرك سليمان أن كلمة « يتزوج » لم تكن مناسبة •

يتوقفون عن التحرك • تدلف أسمى الى غرفة الضيوف وتعود بكراسي

صغيرة • يجلسون • يقترب محمود من أمه ، مرتبكا محاصرا : « هذا تدريب ،
بس • ارفعي رأسك وكلميني • لأي شيء البكاء ؟ هذا تدريب ، بس • »

يقترب إمام منهما ، ويجلس بين الوالدين : « خالة أم خلف ، أنا أعرفك
مناضلة بأسلة • ما هذه الدموع ؟ نحن تعلمنا منك حب الأرض ، والعدل
والحرية والعروبة ، والدفاع عن المظلومين والجوعانين • أنت أكثر من غيرك
تفهمين هذه الأمور • وأنا لا أكذب عليك • تريدان أن نحافظ على حياتنا
لنعيشها تحت نير الاحتلال والظلم ؟ أنت قبل غيرك تعرفين • نحن تأخرنا
عشرين سنة • منذ عام التقسيم كان يجب أن يبدأ النضال العربي • ونقطة
البداية فلسطين • وأنت تريدان هذا الشيء • أنت تفهمين كم هو ضروري •
أم تريدان أن نعيش حياة ألف ليلة وليلة ؟ حان الوقت ، يا خالة أم خلف ،
لأن نخرج من عالم ألف ليلة وليلة • أنا لا أكذب عليك • نحن بعد التدريب
سنتجه الى الأرض المحتلة ، اذا مشيت الأمور بحسب الخطة الموضوع • وأنت
لازم تكوني قوية ، وتشجعي محمود ، وتشجعيني أنا • وضعنا ما عاد يتحمل
المزيد من التأخير • »

وتشعر أم خلف أنها فقط بحاجة الى أن تمتد ذراعيها على كتفي الولدين
- لتداري ضعفها ؟ أم لتباركهما ؟ لا تعرف • ترفع رأسها ، وتلتقي عيناها
بمعيني أم إمام الحزینتین الراضیتین •

وبعد أن يفيقوا ، ينظرون الى عري أجسادهم ويرتدون بدلات حרבائية
وأحذية ضخمة •

في البداية

يتجمعون بحذاء مبنى عتيق • في اللحظة الأخيرة ينضم علي اليهم • ثم

يحتلون الشاحنات وينطلقون عبر الشوارع • دقائق ، واذا دمشق وراءهم •
قاسيون وأقماره الجرداء الصغيرة الى جانب ، والغوطة الى جانب • تختفي
دمشق • يتوارى ضجيجها • هذا الشيء العملاق يطرده من أذهانهم تقلقل
الشاحنات المتواتر ، والاحساس المبهم بتجربة جديدة وشيكة •

الروابي الخضر تستقبلهم ، الارض المرصعة بالحجارة وقصير النبات •
ينهضون مع خيوط الفجر الاولى • يترادفون في الساحة الواسعة ، ثم ينطلقون •
الارض والمدى والشمس والعصافير تبدو لهم أشياء مختلفة ، تلمسهم فترسل
فيهم شعورا بالنضارة • بين الأخاديد والسواقي الجافة ، والتلع المرشوشة على
تموج الارض ، تتحرك أجسادهم •

يومان ويستوعبهم العيش الجديد • رياضة ، ونظام منظم ، وتدريب
على فك السلاح وتركيبه • وقوف بالدور لاستلام حصة الطعام المقننة ، وارتقاء
على الارض لتناولها • غسيل الأواني ، وبعض قيلولة • ثم تدريب • وتغرب
الشمس فيعودون الى مهاجمهم • مذياع هنا وآخر هناك ، وحلقات صغيرة للعب
الورق • وفي الساعة التاسعة تطفأ الانوار •

مساء اليوم الخامس يجمعهم الضباط في الساحة • كل يأخذ اسمه الحركي •
تعطى الاوامر أن يتخاطبوا بالاسماء الجديدة • ويرسلون الى مهاجمهم •

يشير قائد الدورة الى إمام • ينفردان في المكتب العاري الا من طاولة
وكراسي خيزران •

يقول القائد : « أهلا وسهلا ، رفيق إمام • في الحقيقة وجودك بيننا
سيساعدنا كثيرا • »

يرتبك إمام للتحية الخاصة فيصمت • يقول القائد : « انتم كثيرون هنا •

بصراحة نحن لا نعرف كيف نقودكم • النظام والانضباط وغيرهما • هذه أول دورة ، ويجب أن تنجح مهما كلف الامر • «

« عاملونا بشدة ولا تترددوا في شيء • ضعونا أمام اختيار ترك الدورة أو الانضباط بها ، « يقول إمام مستفز الضمير •

« نحن نرى أن يكون الانضباط طوعيا • لا نريد أن نفرض شيئا يمكن لكل منكم أن يفرضه على نفسه • «

« ولكننا لسنا كلنا على هذه الدرجة من الوعي • بعضنا جاء ، تقريبا لانه فرض عليه المجيء • وبعضنا بسبب الفضول • «

« لهذا نريد منكم التعاون معنا • الجو الداخلي أهم بكثير من الجو المفروض • «

« فهمت • أنا مستعد • وسأبذل كل جهدي • «

صباح اليوم التالي توقف إماما عطسة داوية غنيقة ، واذا هو جالس في سريره • يركل السرير الذي فوقه ويهتف : « انهض ، يا حضرة الفدائي • «
للتو يجد أمامه قامة محمود منتصبه على الارض : « لعينيك يارفيق جججاج • «
ومع الآخرين يمضون الى المغاسل •

في الساحة يهتز صدره بعطسة ثانية • يلتفت فيراهم من جميع الاتجاهات • وجوه لم تعد غريبة ، ولم تغد مألوفة ، تقبل من جميع الاتجاهات • ينصفون ثلاثة أرتال، والرتل ثلاثة خطوط : هكذا يراهم المدرب ، واقفا أمام كل خط ، حريصا على أن يراه نقطة أمام عينه • ثمة كتف ناتئ الى اليسار أو ذراع ناشزة الى اليمين • بيده يشير ، وتتحرك القامات حركات خفيفة • أخيرا تصير الخطوط نقاطا تطاولت بطول التسعة الواقفين في المقدمة •

العطسة مرة أخرى • تدغدغ خيشوميته وتشحنهما باحساس مثير • يحس أيضا بالدمع يكاد يطفر من عينيه • ولكن • • أعصابك يا إمام ! يملأ أنفه بهواء قوي • يحرك فمه وجلدة أنفه ، علته يخفف من شحنة الدغدغة • « مقاتل جججاج ! » يصيح المدرب بقوة منذرة • وعندئذ يقع الانفجار الأنفي •

« نعم ، يا رفيق مدرب • »

« الرقصة الروسية ، أربعين مرة • »

هكذا دفعة واحدة ؟ وبعد محاولات السترة هذه ، وتفادي الاخلال بالنظام ؟ يدرك أن العيون باتت تحقق اليه رغم ثباتها في محاجرها • يهم بالخروج من الصف ليؤدي العقوبة • يقرر فجأة ألا يفعل : هذا ظلم • « لن أنفذ • » « الرقصة الروسية ، خمسين مرة • »

من مسافة يطل قائد الدورة والى جانبيه الضباط •

« استأاعد ! » يصيح المدرب • يدير ظهره للارتال ، ويحيي القائد المقرب • يقدم له الصف • يتبادل الرجلان كلمات قصيرة • تتحرك عينا القائد وتبحثان • تستقر النظرة على وجه إمام • عند المساء يقول محمود : « وأنت الذي كان البارحة يطلب منه أن يعاملونا بشدة • »

« وطلبت منه أن يعاملونا بشدة هذا المساء أيضا • »

« ماذا تعني ؟ لا أفهمك • »

« التقيت به قبل ساعة • كان يتمشور ، وخمّنت أنه يبحث عني مثلما أبحث عنه • اعتذرت ، ونفذت العقوبة كاملة • في البداية ضحك ، وقال انه معتاد على هذه الحالات ولا داعي للتنفيذ • لكنني نفذت • »

« هه ! نفدت ! بعيدا عن أعين الرفاق »

« في المرة القادمة سأنفذ أمام أعين الرفاق » عجيب ذلك الشعور الذي امتلكني وأنا أسمعته يقول : أربعين مرة » يجب ألا أسمع نشرات الاخبار عند الصبح »

« نشرة الاخبار هي التي أثارت كبرياءك السخيفة ؟ »

« تقريبا » نشرة أخبار تشبه نشرة أذيعت قبل سنة ، وقبل عشرين سنة . صيغ وكليشيهات » وبين هذه وهذه توجد هزائم من حجم لا يصدق » الموضوع ليس موضوع تدريب ، وانتهى الامر » نحن العرب يجب أن نتغير » وأنا فشلت في الاختبار الاول ، لكنني لن أفشل في الثاني » يجب أن نتغير في نفسيتنا ، وعاداتنا ، ونظرتنا الى الامور اليومية » هذه حياة جديدة فعلا » أنا أخطأت تماما » ظننت أنني نموذجي » وهذا غرور وتفاهة » عندما سمعته يقول : الرقصة الروسية ، أربعين مرة » لعنت النظام المنظم وهذه الأطقم الذهنية العفنة » فكرت بغضب ، أن الدورة ، اذا بدأت بهذا الشكل ، ستكون تدريباً عسكرياً ، أساسه العقوبة ، وتنفيذ الاوامر ، وهذه الاشياء » لكنني كنت مخطئاً »

عند الصباح ينصفون مرة أخرى » للحال يقودهم المدربون الى الحقول » قبيل الساقية الاولى يرتج جسد إمام بعطسة مباغته » يتناول منديله بسرعة ويمسح أنفه وشاربه » يتوغلون في حقل من قصب الذرة ، ويعبرون الى آخر محلوك بالخضرة » هناك يترافقون في ثلاثة صفوف »

من بعيد يبدون شيئاً سمق من الارض ، حجارة صماء أو أشواكا أو أزهارا برية ، تهمد أو تتحرك بفعل نسيم داخلي »

في العودة يتخلف إمام بالتدريج حتى المؤخرة • وهكذا ينضم اليه علي •
« ماذا بك ؟ » يسأله •

« لا أعرف • أشعر بارتغاء • نوع من التعب • »
« ولكن ! أنت مريض ! عيناك • • كأنهما تدمعان • ووجهك أحمر • »
« مريض ؟ ليس سوى رشح بسيط • لو أنني مريض كنت أحس بالمرض • »
ثم يقتنع أنه مريض • خلال فترة التدريب الثانية يحس أن غمامة سكنت
رأسه وأن ثقلا بخاري القوام يتأرجح بين عينيه • يعرف أنها مكابرة صبيانية ،
لكنه يستمر • في جسده حقيقة اسمها المرض ، لكنه جسد متين •

بعد العشاء يقول له أحد الرفاق : « أنت تتعاطى شيئا من الرياضة البوذية
يا رفيق جججاج ؟ أراك تعافيت • »
يقول محمود : « من مقومات حرب التحرير الشعبية ، تجاهل الجسد تجاهلا
بوذيا ، يا رفيق سلامة • »

يقول سلامة : « هات يا ذياب - هات هالراديو ، لنسمع أخبار مؤتمر
القمة • »

يقول ذياب : « أنا أقترح لعبة كونكان أو طرنيب • »

يقول محمود : « لا ، خلونا نسمع الاخبار • »

يقول علي : « نسمع الاخبار ، ونلعب طرنيب • لماذا الشدة ؟ »
في البداية

يسأل علي : « بعد أن نتدرب • وبعدئذ ؟ »

« بعدئذ ماذا ؟ » يسأل محمود •

« من سيقوم بهذه الحرب ؟ من له مصلحة فيها ؟ والذين لهم مصلحة •
سيقدررون يا ترى على أن يوحدوا هذه البلاد ويبنوا مجتمعا عربيا اشتراكيا ؟ »

« ليس بالضرورة ، » يقول إمام • « ربما توجب علينا أن نحارب الأطقم السياسية السائدة عندنا أولا • »

« اترك هذه الرومنتيكيات لي أنا ، أخي إمام • أطقم سياسية وما لست أدري • هل تظنها لعبة ؟ هؤلاء لن يسمحوا بحرب من هذا النوع • وأنت لا تستطيع أن تفرضها عليهم • العالم كله الآن مجتمع في منتصف الطريق • من تراه يبالي بنا ، ونحن الذين لسنا على أية بقعة من الطريق ؟ الحكومات تتفق مع بعضها بعضا بالنيابة عن الشعوب ؛ والشعوب ليست في الميزان • الذين يريدون تغيير الواقع ، مصبرون على الرف • يمكنني أن أتصور هذه الشراذم ، هؤلاء الافراد ، يحلمون بالتحريض ، التحرير الشامل الكامل من الداخل والخارج ، بينما الامبرياليون يحصرونهم عمليا في أوكار لا تتسع الا للجرذان • لا شيء يجمعهم ولا رابطة ولا تنظيم = وإذا التقى اثنان منهم اختلفا ، تصايحا وتشاجرا • ليس هندهم قوة ولا صوت • أن يقولوا لأي شرطي : لا • هؤلاء سيقومون بالتحريض ؟ أو سيحاربون حكومات رسختها الجهات الاربع ؟

« اذا لم تتجسد الفكرة ، لازم على الاقل ألا تموت • ستبقى في زاوية من زوايا وعينا • أينما اجتمع العالم ، ستستمر الهويات الطبقية في التشكل داخل كل أمة وكل شعب • والامة العربية ليست استثناء • سيستمر الصراع فيها • ولن تنهيه الحلول • سينهيه فقط العدل والحرية والوحدة الجماهيرية • هذه أمور ، أنا لا أعيد النظر فيها • بالنسبة لي ، هي مثل البديهيات بالنسبة للهندسة • وهي مقاييس • كلما أوشكت أن أعتقد أن حلا ما ، سياسيا ، عسكريا ، أو الاثنين معا ، يوشك أن يستتب ، تساءلت : هل هذا الاستتباب سيحل مشاكل الجماهير العربية ؟ ورجعت الى المقاييس • الفقراء لا يملكون شيئا كقاعدة مادية للثورة • لكنهم يملكون العنف • التحليل الذي قدمه فرانز

قانون للعلاقة بين الاستعمار والشعوب المضطهدة ، سيصير بعد فترة قصيرة جدا صحيحا بالنسبة للعلاقة بين معظم شعوب العالم الثالث وأطقمها السياسية .
الآن هناك استقطاب طبقي في العالم الثالث - اذا صحت التسمية -
وعندما تتدبر الأطقم السياسية حولا للخلافات القائمة بينها ،
ويستتب السلام على الارض ، سيصير عندنا عالمان فقط : تجار
السياسة الفاشيون والشعوب ، الاستغلال والعنف . وهذا الفرز
ماش بين العرب . في كل مجتمع . حتى في المجتمعات المتعادية والمتحاربة . في
عصرنا ، سقطت الخرافة وحلت محلها الحكومات . ومثلما ناضل الجنس
البشري للتخلص من الخرافة ، سيناضل للخلاص من الحكومات . »

يقول محمود مداعبا : « كل هذا سيعرزه العرب من تدريباتنا على استرح
واستعد ، وفك البارودة ؟ » .

فيجيب إمام خشنا صارما : « نعم . ويجب أن نتفاعل مع استرح واستعد
وفك البارودة . لأن البارودة هي حمانا الاخير . »

يقول علي : « هذه شعارات . أنت غارق في المستقبل الى درجة تنسيك
الحاضر . »

وللتو يقف عن التتمة . يصرى في عيني إمام مزيجا غريبا من المحبة
والاستنكار والتساؤل والمفاجأة والحزن . يقول متابعا : « الحاضر هو هزيمة
حزيران ، والرد عليها أعمق بكثير من ازالة آثار العدوان . » لكنه يتوقف من
جديد ؛ وإمام يعتقله بتلك النظرة العجيبة . « ماذا بك ؟ لماذا تبخلق بي
هكذا ؟ » يقول متمارحا ، ثم يعروه اضطراب في الداخل . ينظر الى رفيقيه
متحيرا . يظل إمام يبتسم ؛ واليهما ينظر محمود باستغراب .

يتأبط إمام ذراعه ويلتفت الى محمود : « وصلنا ، على ما يظهر . هات لنا الراديو والحقنا الى زعرورة السفح . » ثم يدفع علياً بيده ويمشيان معا . يدرك أن خطوات رفيقه مضطربة ، لان قلبه مضطرب . واذ يتيقن من ابتعاد محمود ، يقول : « لم يكن هذا كلامك لأختي أمية . » ودون أن يرفع عينيه عن الارض ، يدرك أن توترا مريدا شد جسد رفيقه ، كبّله وعطله . « كنت تقول لها ، وأنتما في أصدق حالة يمر بها الانسان ، أن كل هذه القيم والافكار والتركيبات الاجتماعية ستزول . وما دامت ستزول فلماذا نبالي بها . وكنت أقول لنفسي : أي انسان عجيب هو هذا العلي . وقد اعتقدت أنك فعلا صادق ، وتعني ما تقول . وهذا ما حيرني : كونك صادقا . اذ كيف يمكن أن تصل الى ايمان حقيقي بهذا النوع من الافكار . . . ال . . . البعيدة ؟ والآن أنت تحيرني أكثر . أنت أدت ظهرك ، كما يبدو لي ، ليس فقط لأمية ، وإنما لذاتك أيضا ، ولأمتك . لماذا أنت هنا ؟ أم أنني مخطيء ؟ » .

من صميم اضطرابه ، يفتح قدام علي درب سهل : أن يضع جانبا معرفة إمام بكل شيء ، ويتابع من حيث انتهى الكلام ، كأن سرا لم يكشف . يحس بصوته وهو يتشكل في حلقه ، ويسمعه وهو يخرج من شفثيه : لا ، لست مخطئا . . . في الحقيقة . . . أنا اختلفت مع أصدقائي . . . حول هذا الموضوع . اتفقنا ، أنا والملك . . . الى مسافة معينة . والملك بالمناسبة ، سجل اسمه . ولكن لدورة ثانية ، بسبب مشاكل أسرته . مع الباقيين اختلفت تماما . كان رأيي أن هزيمة حزيران كانت موجودة فينا أصلا ، في كل واحد منا . وأن ما حدث هو تشبيتها . صارت حقيقة موضوعية . »

يقاطعه إمام : « عظيم ! لم الزعل ؟ أفقنا الآن على عمق أبعد في واقع حياتنا القومية . ولم يعد هناك مجال للمزح : نحن مهزومون ؛ اذن يجب أن نتغير ونصير مقاتلين . »

« أفقنا من جد ؟ صحيح أنا أفقنا ؟ » .

« هذا يتوقف على رد فعلنا على الهزيمة : هذه الدورة ، سنتكيف معها ونمتلك نفسية مقاتلين ، أم لا . »

وبعدئذ ينتقلون الى مكان آخر . تحملهم الشاحنات الى خط فاصل بين الصحراء والفيحاء . الرمل الترابي يستلقي بلا رائحة ولا جنين ، ينحدر في المنخفضات ، ويصعد فوق التلال الصغيرة ، ثم يهجع تحت الأفق . والتراب الرملي يلتصق بالجذور المتمددة ، ويستظل تحت الشجر ورقص الورق . هناك يهبطون . قبيل المغيب ينصبون خيامهم ، وقضبان الحديد المسماة أسرة . تحت الأسرة يضعون أكياسهم العسكرية ، وفوقها البطانيات والوسائد . يمنحهم المكان الجديد شعورا بتغير أكبر . لقد نصبوا خيامهم بأنفسهم ، وبعضهم فعل ذلك بدون ذكريات : لا صورة السرير المريح عبرت أذهانهم ، ولا فنجان القهوة ولا ركوب الباص . انهم الآن يعيشون فوق التراب ، بين الاشجار حيناً ، وفوق الرمل حيناً ، وأعينهم تمتد حتى أفق التلال القصية . ثم يتبادلون الاجاريث . يتنزهون على الارض الرملية الهاجعة صوب أشجار الحور والسرو . بعضهم يصنع الشاي . بعضهم يلعب الورق . وبعضهم يناقش المستقبل . أخيراً يستبد بهم التعب فينامون .

بعد هزيع من الليل ، تدخل في غطيط واعيتهم أصوات مروعة . يتوقف الاحساس الغافي بالسلام ويتوارى خلفاً فراغاً أصم في الأذمنة . والفراغ يمتلئ بسديم مبهم وفوضى منذرة . ثم تتوضح الاصوات : رصاص يثنز وقنابل تنفجر ، ومدافع تقصف .

هندئذ يفيقون .

يجلس إمام في سريره محاولا استيعاب الموقف • صوت مصطفى يناديه :
« ما هذا يا رفيق جعجاح ؟ » يقول : « لا أعرف • لحظة واحدة لنفهم • » في
ركن الخيمة الآخر يهب أبو زهير صائحا : « يا ماما ! هجموا من جبل الشيخ !
يا ماما ! الاسرائيليون هجموا من جبل الشيخ ! لا يريدون الفدائيين ! » ويندس
تحت بطانيته •

تستمر الاصوات الصاعقة وتزداد • تخترق الخيمة كأنها تحمل جحيما •
يقول محمود : « ماذا نفعل ؟ » ويثب إمام عن سريره • فتحة نحيلة في مدخل
الخيمة سمحت لضوء القمر بالتسلل • على خط الضوء جثمت كتلة سوداء
بعجم الرمانة وراحت تنث دخانا كثيفا ومنذرا • كم بقي لها حتى تنفجر ؟
لا يعبا إمام بالامر في تلك اللحظة • يتناول القنبلة ويقذف بها خارج الخيمة •
يسمع صوت اصطدامها بالعمود • لا بأس ، المهم أنها ابتعدت • لكن القنبلة
تعود • تتدحرج حتى تقف تحت ذؤابة الخيمة ، وتنث دخانها من جديد •
تدحرجت ، يقول إمام لنفسه ، اذن هناك قدم انسان دفعتها • من ذا الذي
أعادها اليهم ؟

يقول مصطفى متهدج الصوت : « يا رفيق جعجاح ، ما هذا ؟ صحيح هجوم
اسرائيلي ؟ » •

« لا • هذا جزء من التدريب • مناورة • امسك نفسك • »

يصرخ أبو زهير من تحت البطانية : « يا ماما ! هجموا من جبل الشيخ ! »
ويعول • يصرخ بدون كلمات • يزعق • ويرتجف صوته كارتجاف حسده •
ويسرع إمام الى دفع القنبلة مرة أخرى •

عندما تنطلق أصوات الصفارات يكون إمام قد ارتدى ثيابه : « اجتماع ،

يا رفاق ، هيا . . . ويمضي . يلحق به محمود حافيا . على الطريق الترابي
يصرخ : « آلي ! » ويحس بأشواك نارية تنغرز في قدمه . يهرول وراء إمام ،
ويندس الاثنان بين الراكضين والمتجرجرين ، وقد انكشفت لهم أسرار
الاصوات .

خلال أسبوع تظل قدم محمود معطوبة . لكنه يرفض أن يستريح في الخيمة .
يشاركهم ، الا في الركض والهرولة . « هناك أساليب أفضل لظهار شجاعتك ،
يا رفيق حذيفة ، » يقول له ذياب ، « تدوس على قنبلة ! » وينشم سلامة بوقار :
« ما كان لقطعة معدن خسيس أن تترك وشما على قدمي . » يقول إمام :
« لا شك يا سيد حوت . ولكن لو أنها منسف ، أو خروف معشي ، لتركت وشما
على روحك الشفافة . » يقول محمود : « أفضل طريقة لأن تجعل الحوت يندفع
الى تحرير الارض المحتلة هي أن تقول له : توجد هناك أطعمة شهية . » يقهقه
أبو نهرو بصفاء وجلجلة ، كاشفا عن التواؤين الوحيديين في طقمي أسنانه
المسوحين . يلتقط سلامة ذراعه ، محاذرا في الوقت نفسه ألا يجرح كبرياء
نضاله المجيد : « لا أعرف لماذا ترك لك الشرطة هذين السنين المنخورين . »
فتخرج كلمات أبو نهرو البدوية من بين مويجات ضحكته : « والله يا أخي ،
يا حوت ، ضربوهم بأعقاب البنادق أكثر من مرة . بس لهم عمر أن يعيشوا
ويأكلوا كم منسف وخروف معشي : » وتجلجل ضحكته الصافية من جديد .

يمر بهم مسعود وهو يعرج . يأتي اليهم بقامته الضخمة ويبتسم . ينزلق
إمام الى الارض ، ويدعوه لاجلوس على كرسيه : « كيف رجلك الآن ؟ » .

يجلس مسعود ويكشف عن قدمه . يفاجئهم الورم الواضح واللون الازرق
الداكن للحم المنتفخ . يقول : « تصور ! مضى أسبوع وأنا لم أخرج للتدريب

بسببها • رجلك طابت يا رفيق محمود ؟ هنيئاً لك • مع أن اصابتي أخف •
لا أعرف لماذا لم تشف • مع أنني أدلكها كل يوم • »

يصمت ويصمتون • تتفحصه نظراتهم وبلا تعليق • يقول : « أنتم ساهرون
هنا ؟ قوموا نلعب الورق • رفيق إمام ! عندنا عرق جيد • قم ، خذ لك
رشفة • »

يبتسم إمام • يهز رأسه صامتاً • عندئذ ينهض مسعود ويودعهم : « تصبحون
على خير • »

ويردون التحية • يقول أبو نهر : « تصبح على تدريب ، يا رفيق
مسعود • »

الارض متموجة : رمل أحمر وحصي • والدريئات منصوبة • المسافة ثلاثمئة
متر • يسوون الارض تحتهم ، ويرفعون منها متكآت لرشاشاتهم • « وضعية
الرامي منبطحا • » ينبطحون • ثم يثز الرصاص •

النتائج غير متوقعة • قبل يومين ، أحرز محمود عشر اصابات من عشر ،
وكانت بيده البارودة الروسية • اليوم : أربع اصابات فقط • إمام ثماني
اصابات ، أبو نهر ، ثلاث • وبين الرقمين تندرج أرقام الآخرين • المشكلة
أن رصاصات هذا الرشاش مثل دموع المرأة الشرقية : دمة واحدة ويصعب
التحكم بها • من المجموعة الاولى علي وحده يسجل عشر اصابات - اصابات
متميزة ومنفصلة • « هذا يعني ، » يقول المدرب عبيسي ، « أن الرفيق طلحة
أطلق رصاصة برصاصة ، وكلها جاءت في الهدف • »

تعبر فوقهم غيمة وتتوقف • تتمطى ثم تهبط مطرا • دقائق قليلة وتغدو
الارض الرملية شريحة من الوحل • تتابع المجموعة الثانية اطلاق الرصاص •

وراءها تقف الثالثة ، وأفرادها يتلقون التعليمات • وتغدو الأولى الى مكان آخر : هناك فرق بين التدريب وحالة اطلاق حقيقية ، يجب أن يعرفوه •

قبيل الساعة الواحدة ، يلسعهم شواظ الشمس ، وتمسح على جباههم ريح شرقية • تعود بهم الشاحنات الى خيامهم ، وتمضي لجلب الطعام • يستريح بعضهم ، وبعضهم يتعري تحت الشلالات الصغيرة التي كونتها انهدامات الارض قرب ينابيعها •

ينصفون فوق الارض الوعرة ، حيث تقف الشاحنات • تدلى براميل الطعام ، وتنقل الى الوسط • يزوبع الغبار ثم يتلاشى • ويزوبع ثانية •

بعد التوزيع ، يحرك أبو نهرو الفاصولياء بقوة ويشرد عن تناولها • اليه يلتفت ذياب : « ماذا ؟ أنت تجد لذة في مجرد تحريك الطعام ؟ » بلا احتفال يقول أبو نهرو : « لا • أريد فقط تذويب الغبار في المرقة ، حتى لا يسد شعيراتي الماصة • » يضحكون ، ويشرق ذياب بلقمته • يقول علي : « وأنت يا رفيق حوت • تريد أيضا تذويب الغبار ؟ » يقول سلامة ، ممعنا النظر في صحنه : « لا • أنا أبحث عن حبات الفاصولياء • قالوا لنا ان الوجبة فاصولياء • » يضحكون أيضا • هذه المرة ، يندفع من منخري سلامة تياران من الهواء يرفعان المرقة الى وجهه المنكب فوقها • ويرفع هو عينيه ، دون وجهه • يدير بؤبؤيهما في المعجرين ، ناقلًا نظراته العابثة الصارمة بين الوجوه الطافعة بالفرح والحب • يدس الوعاء بين شفثيه ويجرع محتوياته حتى الثمالة •

في البداية

بين أشجار الحور يتوزعون • يرتب المدرب عبيسي أدواته بيدين معروقتين متوترتين • هذا اليوم سيقوم بمراجعة سريعة لعملية زرع اللغم ،

ونبشه ، واخراجه ، وتعطيله • من يريد أن يسأل سؤالاً ؟ يرفع مسعود يده ؛
« نعم » يا رفيق مدرب • ألا يُحتمل أن يكون العدو غير نوع الالفام التي تدرّبنا
عليها ؟ « من حيث المبدأ ، هناك نوعان أساسيان ، هما ما أمضينا أسبوعاً
نشرحه لكم • إذا كان العدو اخترع نوعاً ثالثاً لم يخترعه الناس بعد ، فالهم
أن نتعرّف على اللفم وعلى موضعه بالدرجة الاولى • وبعدئذٍ دبّر رأسك
الصغير • »

ثم يحفرون عشر حفر • « الآن ، » يقول لهم المدرب ؟ « ستوزع عشرة
ألفام من نوعين ، على العشرة الاولى منكم • النوع الاول ألفام تنفجر بالضغط •
النوع الثاني ألفام تنفجر بالسحب • من يزرع لفماً ينفجر بالضغط سيتعامل
في المرحلة الثانية مع لفم ينفجر بالسحب ، والعكس بالعكس • انتبهوا • أكرر :
انتبهوا • هذه ألفام حية • اذا سقطت •• تسك •• راح حاملها • مات • في
ألف داهية • »

يتقد بينهم الصمت والترقب • يتقدم العشرة الاول بتؤدة نحو الحفر •
يركعون • ينبطحون • يضعون الالفام في أوكارها • يردون عليها التراب
بأطراف راحاتهم • يغطونها بتراب جاف ، والتراب بأعشاب يابسة وخضراء •
يزحفون الى الخلف • ينهضون • يضربون أكفهم ببعضها ببعض •

يقول المدرب عبيسي : « الآن • العملية نفسها معكوسة • زائدا : تعطيل
اللفم • أي سؤال عن عملية التعطيل ؟ أي خطأ يقتلكم • لا تنسوا • » لاسؤال •
« تقدموا اذن • » ويندفع محمود الى لفمه : هذا تدريب حقيقي ، يريد أن يتقنه
تماماً وبسرعة • تجمده صرخة المدرب الصاعقة : « قف ! يا ابن القحبة !
قفوا كلكم • » يقفون • تتساقط عليه نظرات الجميع المرتقبة • « قلت :
تقدموا • لم أقل : اركضوا • » يتمتم محمود : « أنا أخطأت ، يا رفيق مدرب •

ولكن لا تفضب . « « أغضب ؟ خمسة أيام وأنا آخذركم . أنتم والموت هنا
تتنفسون هواء واحدا . اذا قتلك اللغم من أين أعوضك لهذه الامة ؟ أنا لست
إلها يخلق بشرا ولا أستطيع أن أبعثك حيا . « « أنا أسف يا رفيق مدرب . «

يدركون أن الامر خطر . في ثوان لا يبقى لأذانهم غير حفيف الاوراق .
يتراجعون بحركة غريزية . يتقدم العشرة . قبل مواضع الالفام بمترين
يركعون . يتمددون ويزحفون . يمدون أيديهم على طولها . أمام أعينهم
تتلوى الأشرطة النحيلة القاتلة . بأصابعهم يزيحون الاعشاب . ثم التراب .
تبدو الالفام ، ثم تتعري . تلمع كتل المعدن المظلمة . تمتد الاصابع . تمسك
بالكبسولات . تفكها عن الصواعق . تندس تحت الالفام . ترفعها .

ويضربون رثة واحدة تطلق زفيرا واحدا ، عندما يعود العشرة بأحمالهم
المميتة . نصف تكشيرة ترسم على محيا المدرب وتكشف عن أسنانه النضيدة .
ثم يهدر صوته : « العشرة الثانيين . «

في المسيرة الاخيرة الى الضريح العالق برأس الجبل ، ينضم علي الى إمام ،
و يمشي الاثنان صامتين . يجتازان والآخرين سهلا وواديا وبساتين . ثم مرتفعا
عموديا شاهقا تنقسم به ظهورهم . يصلان الى القمة المستوية ، ويتوقفان
لاهئين منهكين .

« ماذا بك ؟ » يسأل علي ، وادع الابتسامة .

يلتفت اليه إمام بنظرة غامضة ووجه ساكن ، ثم يلتفت نحو الوادي .
ويحيل الصمت السؤال الى حيرة ، فارتباك .

« ماذا ؟ » يسأله علي واجفا .

« أمية حبل . »

تلتقي أعينهما في مدى النبا الصاعق • يستمران في وقوفهما بلا كلمات •
يخفق الهواء حولهما وبينهما • يلتفت إمام الى الوادي العميق الطويل ، المتعطف
مع النهر الاخضر ، المحصور بين جدارين قاحلين من الجبال • وفي عيني علي •
يصير وجه رفيقه الفضاء كله •

« يمكنك أن تقتلني اذا شئت • لن أبدي أية مقاومة • »

« لا تكن سخيفا • » يقول إمام جامدا •

لكنم يتابع النظر الى الوادي • يحس بمذلة علي المتجلد الى يساره ، فيزداد
ضيقا ولجونا • لذلك يتابع النظر الى الوادي : هناك حيث الخضرة والنهر
الابديان • لماذا اختار المدربون ضريحا تنتهي اليه المسيرة ؟ ولماذا الضريح في
الأعالي ، أهلي مدى الرؤية ، بينما النهر في عمق الوادي ؟ ولماذا يسأل هذه
الاسئلة الركيكة ؟

« هيا بنا • »

« هل • • هل تقول لي • • ماذا حدث ؟ »

« نواف خرج من السجن • بدأ يستجوبها • عرف أنها حبلى • ليس منك •
من رجل سويسري • اعترفت بكل شيء تقريبا • قالت أنت كنت البداية
والنهاية • كانت قوية الاعصاب على غير العادة ، عندما تكلمت • أو ربما
ميته الاعصاب • »

« متى عرفت ؟ »

« البارحة مساء • »

على باحة الضريح يتجمعون • يربطون خوذاتهم بنطاقاتهم ويدلونها في

البئر • يشربون من الماء الآسن ، ويغسلون وجوههم • ينتشرون في اتساع المكان ، وبعضهم يلج الى داخل الضريح •

« لا أدري ماذا أقول ولكن لدي رغبة بالاعلان عن شيء • أنا جئت للدورة • • لكي أغسل نفسي من أوشالها • هذا لا يعني أن أتغلى عن مسؤوليتي • • مسؤولية الماضي الجسيمة • في الحقيقة • • لا أعرف كيف أواجهك بعد الآن • • يبدو أنني فشلت مرة أخرى • »

« مسؤوليتك أنت هي تجاه نفسك وتجاه أمية • يجب أن تصدق أنه ليس في قلبي سوى الانفعال • لا حقد ولا شعور بالاهانة • أنا فقط متألم • لمصير أختي • طبعاً • كانسانة • طبعاً • مع أنها قد تبدأ بداية صحية في معامل الريمجي • لكن أخوتنا هنا • • نحن كلنا ، هي الاقوى • »

وبعدئذ تحملهم الشاحنات مرة أخيرة • « هذا هو أهم يوم في الدورة ، » يقول القائد • « بعده سنتوجه الى الارض المحتلة ، لكن تطعيم المعركة أهم شيء • لا تنسوا : الذخيرة حية ، الرصاص والقنابل والقذائف • أي خطأ يعني الموت المحقق • انتبهوا جيداً لما أقول • أكرر : الذخيرة حية ، أي خطأ يعني الموت المحقق • ستطلق النار في المدى الذي يفترض أنكم تجاوزتموه كجماعات ، أو لم تصلوا اليه بعد • أية سرعة ، أي ابطاء ، أي خروج عن وحدة الجماعة • • يعني : الموت • أكرر : الموت • لا تركضوا • لا تمشوا • هرولوا • يجب أن تجتازوا الحبال المعلقة زاحفين عليها ، وليس متدلين منها • لا ترفعوا رؤوسكم في أنفاق الاسلاك الشائكة ، فقد تفقأ أعينكم ، تنشطر شفاهكم أو آذانكم أو أكتافكم أو فروات رؤوسكم • لا تسحبوا البواريد أثناء ذلك على الأرض • ضعوها على أذرعكم لئلا تتلوث • حتى هذه اللحظة يستطيع أي واحد أن ينسحب ، وليس في الامر عار ولا ملامة • ليس من

الضروري أن نكون كلنا فداثيين بحق وحقيق • الوثوب الى جدار ارتفاعه ثلاثة أمتار يعني ثلاثة أمتار فعلا • والموت يعني الموت ، وليس فكرة عنه • اذا لم تثب قتلتك رصاصة ، أو قنبلة ، أو قذيفة • حتى الآن لم يصر شيء : معكم خمس دقائق لمن يريد الانسحاب • «
لكن أحدا لا ينسحب •

يقترّب القائد من الثلاثة الأول باسم : « رفيق جعجج » ، ما تزال مصمما على أن تكون في الصف الاول ؟ أنا خائف عليك • في البداية يكون التطبيق حازما تماما • «

« لن يجرؤ على التراجع ، » يقول محمود مازحا •
يبتسم إمام وعلي • يسويان بندقيتهما على ظهريهما •
أخيرا يبدأ إطلاق النيران • يندفع الثلاثة نحو الجدار : محمود وإمام وعلي • وثبة توصل أيديهم الى حرفه الاعلى ، ثم تعلوا أجسادهم زحفا عليه • وفيما يتهاى إمام للوثوب عن سطحه ، يهوي جسد محمود مفتوح الاطراف ، ويصل علي الى القمة • تحتها تنث قنبلتان دخانا • يثب إمام الى ما بين القنبلتين ، وينبض عن الارض بخفة • يهرول • يرى الى محمود وقد اندفع خارجا من البركة • يصل هو اليها • ماء قدر فائح النتانة ، وجثة كلب طافية في الوسط • يجمع جسده ويثب • يسقط في الثلث الاخير من البركة • ينوّض في الماء والوحل حتى وسطه ، رافعا بارودته الى الاعلى • يضع قدمه على الحافة ويهم بالارتقاء • عندئذ يسمع الاصوات : مطر متفجر من الرصاص ، وقنابل تنفجر ذات اليمين وذات اليسار ، وبينه وبين محمود • ينظر الى محمود المبتعد واجفا • ينهض • يهرول • عند الأخاديد المملوءة رملا ورمادا ينبطح • يزحف • تتوحد ثيابه البليلة بالماء والوسخ ، لكن بارودته تبقى نظيفة مرفوعة • فوقه يمرق الرصاص بأزيزه الداحم ، وحوله تنفجر القنابل وقذائف المدافع •

يا لهذه الأخاديد اللعينة • لقد امتلأ وجهه وعيناه بالرماد والرمل • عشرة أمتار - ثم ينهض • ينتبه الى أنه يلهث : التعب ، بهذه السرعة ؟ في البداية خشي أن يركض دون وعي منه • وهو الآن يخشى من المشي • ولكن ، ها هي ذي العارضة •

يتسلق ، ويكتشف أنه يفعل ذلك بخفة • ليس تعباً اذن - مجرد زيادة في نبضات القلب • يا لمحمود الأهوج ، كم ابتعد • ينبطح على الحبل • يعقل عليه ساقيه ، ويمسكه بكلتا يديه • من طرف عينه يلمح علياً وهو يتقلقل متهدل الحنك • يمد يديه فيسحب بهما جسده • يا للعلو ! وماذا لو سقط من ارتفاع ستة أمتار ؟ سيكون الرصاص فراشاً له ، قبل أن تكون الأرض • رماة ماهرون • وماذا لو هوى جسده على غير توقع وبقي معلقاً باليدين فقط ؟ ستة أمتار علواً ، وستة أمتار طولاً • حسناً • ها هي ذي العارضة الثانية • ينقل جسده اليها • ومنها يشب •

يهزول مرة أخرى • خمسة أمتار تالية ، ويقف • يلتفت الى مصدر الصرخة الثاقبة ، فيرى علياً متقوس الجذع • ويراه يسقط ، يتلوى ويداه تغطيان وجهه • « تقدم ! يا رفيق جحجاح ! لا تقف ! » ويتكرر الامر الصراخي من الجانب الايمن • يستدير الى خط سيره ويهم بالمتابعة • يا إله السماء ! محمود أيضاً ! ويرى الى محمود وقد انحنى وامسكت يده بساقه • ويراه وهو يهوي الى الأرض •

« تقدم ! يا ابن القحبة ! تقدم ! » يصيحون به من الجانب الايمن • وترميه يد بقنبلة •

ويتقدم إمام ، لا بطيئاً ولا مسرعاً ، ولكن يتقدم •

★ ★ ★

تصحیحات



السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
٤	٧	تبذيرها	تبذيره
١٠	٣٦	وزجتك	زوجتك
١٠	٣٦	منسباً	مناسباً
١٦	٣٧	الاكم	الأكل
١٣	٥٧	تستغر	تستغفر
١٧	٥٩	بزبد	بزند
١٦	٦٩	بطلق	يطلق
الأخير	٨١	الجاسير	الجاهير
٤	٩٨	فمحدود	فمحمود
١٨	١٠٨	بنبر	ينبر
١٢	١١٤	بععدل	يعتدل
الأخير	١١٤	وم ستطاعا	ومستطاعا
١٧	١١٦	ضوؤه	ضوءه
١٢	١١٨	مثم	مثلهم
قبل . الأخير	١٨١	أفقدته	أفقدته
١٤	١٩٩	يتاعطى	يتعاطى
٦	٢٠٣	سيستقظ	سيستيقظ
١٤	٢٢٣	فضحت	فضحكت
٤	٢٢٦	فيسك	فيمسك
١٣	٢٧٤	المعركة ! « إذا	المعركة ! إذا
قبل الأخير	٢٨٩	اضراب	اضطراب
٣	٣٢٩	بالغ	بالع
٩	٣٤٢	رائحتها	رائحتها
١٢	٣٤٢	به الأبد .	به إلى الأبد .
٩	٣٥٥	لليود	لليوم
١٢	٣٧٢	هدهم	عندهم



تدخل عائدة وهي تسحب كتلة
جسمها كأوزة داجنة . يشفط نواف
رشفة من فنجان قهوته . يطلق آهة
قصيرة . يشعل سيجارة ويطلق دخانها
نحو السقف . يقول عباس : « أنت
غلطان . الحكم بيدنا الآن ، فما الذي
يمنعنا من صنع الثورة ؟ أي قوة تستطيع
أن ترفع رأسها في وجهنا ؟ عليك أن
تحمل سلاحك وتقاتل . نحن لا نعرف
متى يخطفنا الموت . بعد اصابتي صرت
أكره الاسئلة . ولكن علي أن أقاتل »
تقول عائدة : « ألن تبصري لي في
الفنجان ؟ هيا ، خذي فنجاني . » تغغم
أمية : « أنا لا أعرف . أنت تعرفين ؟ »
« نتعلم ، طالما نحن جيران . أنت
تبصرين لي وأنا أبصر لك ، ونرى ما
الذي خبأه لنا الله . » تؤمنين بحسابات
القهوة ؟ كلها زعبرة . « يا الله ! نتسلى .
ألا تسمعين حديثهم عن الموت ؟ أفرعوننا . »
« أي والله . لكن فنجان القهوة لا
يرد الموت . »

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجوزير
ت : ٣١٢١٥٦ - برقياً « موكيالي » بيروت

ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

